

إِبْتِلَاءُ الْأَخْيَارِ بِالنِّسَاءِ الْأَشْرَارِ

تَأْلِيفُ

إِسْمَاعِيلَ بْنِ زُهَيْرِ بْنِ عَبْدِ الْمُحْسَنِ إِسْلَامِي
المعروف بـ : ابن القطعة

ضَبَطَهُ وَحَقَّقَهُ وَقَدَّمَ لَهُ
رِيَاضُ مُصْطَفَى الْعَبْدِ اللَّهِ

دَارُ الْحَيْدِ

بِئِيرُوت

إِبْتِلَاءُ الْأَخْيَارِ
بِالنِّسَاءِ الْأَشْرَارِ

إِبْتِلَاءُ الْأَخْيَارِ بِالنِّسَاءِ الْأَشْرَارِ

تَأْلِيفُ

إِسْمَاعِيلَ بْنِ نَصْرِ بْنِ عَبْدِ الْمُحْسَنِ إِسْلَامِي

المعروف بـ : ابن القطعة

ضَبَطَهُ وَحَقَّقَهُ وَقَدَّمَ لَهُ

رِیَاضُ مُصْطَفَى الْعَبْدِ اللَّهِ

وَلَارُ الْجُمَيْلِ

بِیْرُوت

جميع الحقوق محفوظة لدار الجيل

الطبعة الأولى

١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ
أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّهُ
فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ
وَرَسُولُهُ (١).

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ
مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ
وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (٢) . . .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا، يُصْلِحْ لَكُمْ
أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا
عَظِيمًا﴾ (٣) . . .

(١) رواه أبو داود برقم (٢١١٨)، والترمذي برقم (١١٠٥)، والنسائي (١٠٥/٣)، من حديث
عبد الله بن مسعود رضي الله عنه . . .

(٢) سورة النساء - الآية ١ . . .

(٣) سورة الأحزاب - الآيتان ٧٠ و ٧١ . .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(١) . . .

«صدق الله العظيم»

(١) سورة آل عمران - الآية ١٠٢ . . .

مقدمة المحقق

مما لا شك فيه أن المؤرخين لم يخلوا في تصانيفهم وتآليفهم عن ذكر النساء وأخبارهن الخاصة والعامة، إذ لا نكاد نجد كتاباً قد جمع أطرافاً من الطرائف، وبقايات من الأخبار، إلا وخصّ من كتابه جزءاً أو فصلاً تحدث فيه عن النساء، سلباً أو إيجاباً، وقد عدّوا الحديث فيه بمثابة محطة ارتياح نفسية فكرية، وموقع لبسمة متوقعة على ثغر كل قارئ... .

ونجد ذلك في كثير من أمهات الكتب، نذكر منها:

- كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ...
- كتاب محاضرات الأدباء للراغب الأصبهاني ...
- كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري ...
- كتاب المستطرف في كل فن مستظرف للأبشيبي ...

كما نجد أيضاً، أن من المؤرخين من أفرد كتباً خاصة تحدث فيها عن المرأة بشكل عام، في الحب، وفي فلسفة العلاقة الوجدانية، وفي الحلال والحرام، وفي الشعر والأدب... وغير ذلك... .

ونحن إذ نقدم لك أيها القارئ الكريم كتاباً مغموراً، كان من المحتمل أن يمكث بين المخطوطات إلى ما شاء الله سبحانه وتعالى،

لولا أن شاء تعالى أن يقع بين يدي ، وقد سمّاه مؤلفه : « ابتلاء الأخيار بالنساء الأشرار » . . حيث ضم بين دفتيه عشرات من القصص الطريفة التي تحكي عن شر المرأة ودهائها وكيدها ، والوسائل التي اتبعتها لإيقاع الرجل باحبلها ، أو للوصول به إلى مكنن غايتها . . .

وبالطبع . . إن ما أورده المؤلف في هذا الكتاب هو عبارة عن قصص وحكايات قد انتقاها من كتب التاريخ بشكل عام وخاص ، لذلك . . قد نجد في هذه القصة أو تلك الحكاية مبالغة أو تقصيراً أو أوهاماً والتباسات ، وتحديدًا : إن المؤلف قد قيد في كتابه هذا قصص وحكايات انتقاها من أمهات الكتب ، وأن تلك الكتب فيها الغث وفيها السمين ، والمؤلف لم يبين أو يعلل في ذلك الأمر شيئاً ، وإنما قيد القصص والحكايات كما هي ، ثم استشهد عليها بآيات كريمة ، وبأحاديث نبوية شريفة إن لزم الأمر ، وهو في كل ذلك لم يكتب شيئاً من عنده ، بل إن غاية ما قام به أنه جمع النقول والروايات ، فاختصرها وهذبها ، واستشهد عليها ، وقيدها بذكاء رائع وعرض بارع . . .

وأما المؤلف فليس لدينا أي نص تاريخي نرجع فيه وإليه عن حياة المؤلف غير هذا الكتاب ، فهو : إسماعيل بن نصر بن عبد المحسن السلاحي ، والمعروف بـ : ابن القطعة . . . وأما النسخة المخطوطة التي وقعت بين يدي ، فهي بخط : محمد بن أحمد ، والمؤرخة في شهر شوال من سنة (١٠١٧ هـ) ، وحفظت في نوبة : محمد بن محمد بن الحاج علي العطار ، والمؤرخة في شهر ربيع الثاني من سنة (١١٣٨ هـ) ، ومن ثم . . فقد نظر فيها وتأمل معانيها : عثمان بن محمد الندي الحسني ، والمؤرخة في شهر ذي الحجة في سنة (١٢٥٣ هـ) . . .

تقع هذه المخطوطة في (١٥٢) ورقة مزدوجة ، محفوظة في دار

الكتب الظاهرية الأهلية بدمشق تحت رقم (٤١٨٨) . . وهي من القطع الكبير قياس (١٧ × ٢٤ سم) وفي كل ورقة صفحتان، وفي كل صفحة من (١٧) إلى (٢٠) سطراً، منسوخة بخط لا يخلو من العيوب الظاهرة . . . وعلى هذا الأساس، فقد آليت على نفسي ضبط الكتاب، وتحقيقه، وشرح غموضه، وذلك يقيناً مني أن هذا الكتاب سيلقى رحابة صدر لدى الخاصة والعامة، ولن يقتصر على الباحثين والمحققين، بل إنه سيرد كل مكتبة، وكل منزل بشكل عام . . . وحسبي أخيراً، أنني أوجدت هذا الكتاب النفيس في ثوب جديد، وأنه لمن دواعي سروري أن ألتقط القلم لأجدد ما ألفه المؤرخون الأوائل، سائلاً المولى عز وجل أن يهدي بهذا الكتاب وينفع . . .

والله سبحانه وتعالى من وراء القصد . . .

رياض

ملاحظة

أيها القارئ الكريم، إن العناوين الرئيسية والفرعية قد تم إثباتها من المحقق وذلك كما يقتضي السياق وإلتزام المعنى العام، كما أن هناك الكثير من الكلمات قد أعيدت إلى الصواب دون التنبيه عنها، حيث إن الناسخ لله دره قد سها عن أغلاط فاحشة أحياناً، لذلك مما اضطرنا أن نرجع لأكثر من مصدر لبيان الصواب فيها، والله سبحانه وتعالى الموفق والمستعان...

كتاب ابتلاء الأخيـان
بالنساء الأشرار تأليف الشيخ الإمام
الأوحد اسمعيل بن نصر بن
عبد المحسن السلاحي المعروف

باب القطع رحمه
تعالى بمنذوكرين
آمين

محمد بن
الغفار
في نوبة العبد الفقير إلى الله
محمد بن محمد بن الحاج علي العطار
غفر الله له ولوالديه
والمسلمين
بمكة ١١٣٨ هـ

نظرة في تأمل معانيه الفقير إلى رحمة
ربه القدير عثمان بن محمد التديري
لكسى ودعا لما له من العافية
وله نقل في المصنف في
الرقعة في القدر



الاستاذ
رقم ٤١٨٨

الورقة الأولى من المخطوطة - عنوان الكتاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَبِهِ نَسْتَعِينُ
 الْحَمْدُ لِلَّهِ ذِي الْقُدْرَةِ وَالْمَكِينِ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ
 خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ لَمْ يَجْعَلْ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ لَمْ يَصُورْهُ
 فَا حَسَنَ صُورَهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَفَضَّلَهُ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ أَحَدَهُ
 حَمَلًا اسْتَوْحَبَ بِهِ مَنَازِلَ الْمُتَّقِينَ وَآتَاهُ الْإِيمَانَ وَالْإِسْلَامَ وَحَلَّ لَكَ
 لَمْ يَشْهَدْهُ إِذْ خَرَجَ الْيَوْمَ يَوْضَعُ فِيهِ الْمَوَازِينَ وَاشْهَدَ لَكَ عَمَلُكَ وَسُجُودُ
 أَرْسَلَهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ وَخَتَمَ بِهِ أَنْبِيَائِهِ إِلَى سُلَيْمٍ وَخَصَّهُ بِأَفْضَلِ الْآيَاتِ
 وَالْبُرَاهِينِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَاصْحَابِهِ الْأَتْقِيَاءِ الْمُتَّقِينَ وَعَلَى
 أَزْوَاجِهِ أَسْمَاءِ الْمُؤْمِنِينَ صَلَوةً دَائِمَةً إِلَى يَوْمِ الدِّينِ وَبَعْدَ
 بَعْدٍ فَإِنَّكَ سَأَلْتَنِي أَيْدِيكَ اللَّهُ أَنْ تُنْظِمَ لَكَ آيَاتِنَا فِي أَعْلَادِ الْمُعَايِبِ
 وَالْمَثَالِ فِي وَصْفِ النَّسَائِ الْغَالِيَاتِ لَعَلَّ غَالِبَ فَبَادَرْتَ إِلَيَّ
 مَا اشْرَفَ إِلَيْهِ وَكُنْتَ مِنْ أَحْرَصِ النَّاسِ عَلَيْهِ فَتَطَهَّرْتَ إِلَيَّ مَا
 وَصَلَ إِلَيْهِ خَاطِرِي وَوَقَعَ عَلَيْهِ مِنَ الْكُتُبِ نَظَائِرِي فَخَانَ فِيهَا
 مَا يَجْتَازُ إِلَى أَظْهَارِ كَشْفِهِ وَيَتَرَجَّمُ عَنْ سِيرَتِهِ وَوَصَفِهِ نَا حُجَّتُنَا
 إِنِّي ذَكَرْتُ قَصِيدَةً وَقَدْ جَعَلْتُهَا عَلَيَّ وَضَعْتُ الْأَبْوَابَ فَكُلَّ بَيْتٍ
 مِنْهَا لَكَ رَحْمَةً مَا يَعْضِدُ نَا عَلَيَّ حَقَّةً مَا ذَكَرْنَا فِيهِ وَيَنْزِلُ عَنْهُ
 مِنَ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ وَمَا نَقَلَ مِنَ التَّوَارِيخِ وَغَيْرِهَا ثُمَّ قُلْتُ

، يا من تشد لفعله ، وليرثايله الرأيب ، اسمع وصيه ناصح ، قل هديته يد التجارب ،
 ، واحرص بانك لا تزل السلام من اذ امر قب لا تركن الى النافذ عده من الجانب
 وارض من هن اذ اجنين جناية ضرب القارب ، واجهر قد بك ما استطعت ،
 لعن هجر اكل الحارث لا يحجبك ما ترى منهن ، وانظر في العواقب
 يظهر لي حسن الثنا ، وهن في غري ما ربكم شيت افعالهن
 من النواصي والدوايب ، فتمن في الكرخ ، مفاق ايب ، الماقيب
 هذه وكم من طيلسان ، نكسته ثنا العقب ، واذا سلعن صاها
 لا تلهن يد الاعاصب ، من جلد من تصيبك لبلوي واقات
 فحيا لا الشيطان هن له ، مطيعات الجوانب فرضاهن
 فروجهن ، قفر وفيهن المضارب ان قل مالك او يلا بعد ارك
 البسب الشوايب انكرو ما اوليتهن من الكرامة والمواهب
 حتى طانك لم تكن ابد لا محبتهم صاحب ، وكذا لا يكفرون
 الغيروهن يكفرون الاطاييب فيهن جرع ادما من الماكل
 والمثاريب اتر له تحك اعمن ومكرهن عن المراتب وتتركه
 لا يتفق من المصايب والنوايب ، وعدا لدا الدنيا حريتا ،
 باحسانهن تاييب ودم لهايل ارق لا جلون بغر واجيب ،
 وسعي به حتى وهن من حملة من المناكب وكوا الهاروت وماروت
 العذاب بهن واصب ، وعلا ابونا نوح اصب من مصايبهن شايب
 منهم القى نفسه في السفن فوق البحر راحب وعقر ناقة صالح

عن شرب عن التكر في صوب الدول وعد راعا للذات
 فاما التفتت الي شي من الحيا وملك فقات يا لانيه
 تنبا كيت وتخصيص امانا شي الله قال لا لانه
 جعلني اناك وجعله يابك واوهب لي فاحسن
 ووافق بامتحنيه من هذه الكهرو فحجبت من حسن
 احيا جفا وجوده معانيها فاقتريل وهي على تلك الحال
 وكما قال الزرع ما ينح عدا الكتاب في حقام شهر شوال
 سنة الف وسبعة عشر على ابد الفير الي وسعد اسم محمد الي
 لا انا
 محمد الي ولوا اليه ولين قلته وقدم الي
 وسعد الي علي محمد وعلي الي عبد الوارثام ورضي اسم من الاول
 احمد

مقدمة المؤلف

أ/٢

الحمد لله ذي القدرة والتمكين، الذي أحسن كل شيء خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين، ثم / جعل نسله من سلالة من ماء مهين، ثم صوره فأحسن صورته، ونفخ فيه من روحه، وفضله على كثير من المخلوقين^(١)، أحمدته حمداً استوجب به منازل المتقين... وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، شهادة أدخرها ليوم يوضع فيه الموازين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله رحمة للعالمين، وختم به أنبياء المرسلين، وخصه بأفضل الآيات والبراهين...

وصلى الله عليه، وعلى آله، وأصحابه الأتقياء المنتخبين، وعلى أزواجه أمهات المؤمنين، صلاة دائمة إلى يوم الدين...

وبعد:

فإنك سألتني - أيديك الله - أن أنظم لك أبياتاً في إعداد المعايير

(١) إشارة إلى الآيات الكريمة: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ، ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾ سورة السجدة - الآيات ٧ - ٩، وأيضاً قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ سورة الإسراء - الآية ٧٠...

والمَثَالِبُ^(١)، في وصف النساء الغالبات لكل غالب، فبادرت إلى ما أشرت إليه، وكنت من أحرص الناس عليه، فنظمت إلى ما وصل إليه خاطري، ووقع من الكتب عليه ناظري، فكان فيها ما يحتاج إلى إظهار كشفه، ويترجم عن سيرته ووصفه، فاحتجنا أني ذكرت قصيدة، وقد جعلتها على وضع الأبواب، فكل بيت منها نذكر تحته ما يعضدنا على صحة ما ذكرت فيه، ويبرهن عنه من الكتاب العزيز، وما نقل من التواريخ وغيرها...

(١) المَثَالِبُ: معانيب الأمور ونواقصها. «لسان العرب - مادة: ثَلَبَ»...

قصيدة

ثم قلت :

- ١ - / يَا مَنْ تُشَدُّ لِفَضْلِهِ وَلِبَرِّ نَائِلِهِ الرِّكَائِبُ ٢/ب
- ٢ - اسْمِعْ وَصِيَّةَ نَاصِحٍ قَدْ هَدَبَتْهُ يَدُ التَّجَارِبِ
- ٣ - وَاحْرِصْ بِأَنَّكَ لَا تَرَالُ لِأَمْرِهِنَّ إِذَا مُرَاقِبِ
- ٤ - لَا تَرْكَنْ إِلَى النِّسَاءِ وَعَدُّهُنَّ مِنَ الْأَجَانِبِ
- ٥ - وَاضْرِبْنَ هُنَّ إِذَا جَنِينَ جَنَائَةَ ضَرْبِ الْعَقَارِبِ^(١)
- ٦ - وَاهْجُرْ فِدَيْتَكَ مَا اسْتَطَعْتَ لَهُنَّ هَجْرًا كَالْمُحَارِبِ^(٢)
- ٧ - لَا يَعْجِبُنكَ مَا تَرَى مِنْهُنَّ وَانْظُرْ فِي الْعَوَاقِبِ^(٣)

(١) إشارة إلى قوله سبحانه وتعالى : ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾ سورة النساء - الآية ٣٤ . . . وقيل : الضرب يجب أن يكون غير مبرح إن لم يرجعن بالعظة والهجران، وهذا بادئ الأمر، الوعظ، ثم الهجر، ثم الضرب، وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن رضي الله عنه، قال : جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ تستعدي - أي : تشتكي - زوجها أنه لطمها، فقال ﷺ : «القصاص». فأنزل الله تعالى الآية، فرجعت المرأة بغير قصاص . . .

(٢) الهجران هو الاعتزال من فراش الزوجة إلى فراش منفرد، حتى تسلك المرأة الدرب القويم . . .

(٣) إشارة إلى قوله سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ سورة يوسف - الآية ٢٨ ، =

- ٨ - يُظْهِرَنَّ لِي حُسْنَ الثَّنَاءِ
 ٩ - كَمْ شَيَّبْتَ أَفْعَالَهُنَّ
 ١٠ - فَلَهُنَّ فِي الْمَكْرِ الْحَفِي
 ١١ - هَذَا وَكَمْ مِنْ طَيْلَسَانَ
 ١٢ - وَإِذَا سَلَخَنَ مَصَاعِبًا
 ١٣ - مِنْ كَيْدِهِنَّ تُصِيبُكَ
 ١٤ - فَحَبَائِلُ الشَّيْطَانِ هُنَّ
 ١٥ - فَرِضَاؤُهُنَّ فُرُوجُهُنَّ
 ١٦ - إِنْ قَلَ مَالُكَ أَوْ بَدَا
 ١٧ - أَنْكَرُنَّ مَا أَوْلَيْتَهُنَّ
 ١٨ - حَتَّى كَأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ
 ١٩ - وَكَذَلِكَ يُكْفَرُنَّ الْعَشِيرَ
 ٢٠ - فِيهِنَّ جُرْعَ آدَمَ
 ٢١ - أَنْزَلْنَاهُ بِخَدَاعِهِنَّ
 ٢٢ - وَتَرَكْنَاهُ لَا يَسْتَفِيقُ
 ٢٣ - وَغَدَا لِيذَا الدُّنْيَا حَزِينًا
 وَلَهُنَّ فِي غَيْرِي مَارِبٌ
 مِنْ النَّوَاصِي وَالذَّوَائِبِ^(١)
 مَنَاقِبًا بَيْنَ الْمَنَاقِبِ
 نَكَّسَتْهُ لَنَا الْعَصَائِبِ^(٢)
 كَانَتْ لَهُنَّ يَدُ الْأَعَاصِبِ^(٣)
 الْبَلَوَى وَأَفَاتُ الْمَصَائِبِ
 لَهُ مُطِيعَاتُ الْجَوَانِبِ^(٤)
 قَفَرٌ وَفِيهِنَّ الْمَضَارِبُ
 بَعْدَارِكَ الْبَيْضُ الشَّوَائِبِ^(٥)
 مِنْ الْكَرَامَةِ وَالْمَوَاهِبِ
 أَبَدًا لِصُحْبَتِهِنَّ صَاحِبِ
 وَهِنَّ يُكْفَرْنَ الْأَطَايِبِ
 مِنْ الْمَآكِلِ وَالْمَشَارِبِ
 وَمَكْرِهِنَّ عَنِ الْمَرَاتِبِ
 مِنْ الْمَصَائِبِ وَالنَّوَائِبِ
 بَاكِيًا مِنْهُنَّ تَائِبِ

= وقد ورد بالحديث الشريف، قال ﷺ: «إنكن صواحب يوسف». رواه البخاري ومسلم، والمعنى: إنكن تشبهن في إظهار خلاف ما في نفوسكن، والله أعلم، من شرح صحيح البخاري للشيخ زكريا الأنصاري - ص ٣٥٢...

(١) النَّوَاصِي وَالذَّوَائِبِ: النَّوَاصِي مقدم الرأس، والذَّوَائِبِ الشعر المصفور...
 (٢) طَيْلَسَانَ: كساء أخضر يلبسه الخواص من الناس، لباس العجم. «لسان العرب - مادة: طلس»...

(٣) الْأَعَاصِبِ: في الحديث «ذكر الْعَصْبِيَّة»، وهو: أن تدعو الرجل إلى نصره عصيته ظالمين أو مظلومين، وعُصْبَةُ الرجل: أولياؤه من الذكور من ورثته، سموا عُصْبَةً لأنهم عُصَبُوا بِنَسَبِهِ... «لسان العرب - مادة: عَصَبٌ».

(٤) إشارة إلى قول: عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «النساء حبايل الشيطان» مجمع الأمثال - للميداني ٣٤٠/٢، وجمهرة الأمثال - للعسكري ٣٠٢/٢...

(٥) عِدَارِكَ: الشعر ينبت بمخاذاة الأذن جانب اللحية...

- ٢٤ - وَدَّمَ لِهَا بَيْلَ أَرْيَقَ
 ٢٥ - وَسَعَى بِهِ حَتَّى وَهَرُ
 ٢٦ - وَكَذَا لِهَارُوتَ وَمَارُوتَ
 ٢٧ - وَكَذَا أَبُونَا نُوحٌ أَصْبَحَ
 ٢٨ - مِنْهُنَّ أَلْقَى نَفْسَهُ
 ٢٩ - وَعَقَرْنَ نَاقَةَ صَالِحٍ
 ٣٠ - وَكَذَا الْخَلِيلُ فَلَمْ يَزَلْ
 ٣١ - مِنْهُنَّ أَلْقَى ابْنَهُ
 ٣٢ - وَبِهِنَّ ذُو الْقَرْنَيْنِ أَضْحَى
 ٣٣ - أَلْقَيْنَهُ فِي مَهْلِكٍ
 ٣٤ - وَبِهِنَّ لُوطٌ قَوْمَهُ
 ٣٥ - وَكَذَاكَ حُصْنٌ بِالْعِرَاقِ
 ٣٦ - خَرَبْنَهُ وَتَرَكْنَهُ لِلْبُومِ
 ٣٧ - قَدْ أودَعُوا السَّجْنَ الْعَزِيزِ
 ٣٨ - وَقَدَدْنَ مِنْهُ قَمِيصَهُ
 ٣٩ - وَكَذِبْنَ فِيمَا قُلْنَ فِيهِ
 ٤٠ - وَطَلَبْنَ مِنْهُنَّ رِضَاءَهُنَّ
 ٤١ - وَكَذَاكَ يُونسَ لَمْ يَزَلْ
 ٤٢ - وَبِهِنَّ قَارُونُ غَدَا
 ٤٣ - وَبِهِنَّ نَزَلَتْ بِبَلْعَمَ
 ٤٤ - وَتَرَكْنَ دَاوُدَ حَزِيناً
- لَأَجْلِهِنَّ بِغَيْرِ وَاجِبٍ
 مِنْ حَمْلِهِ مِنْهُ الْمَنَاقِبُ
 الْعَذَابُ بِهِنَّ وَاصِبٌ^(١)
 مِنْ عَصَائِبِهِنَّ شَائِبُ
 فِي السُّفْنِ فَوْقَ اللَّجِّ رَاكِبُ
 / وَقَتَلْنَ حَمْرَةً فِي الْكَتَائِبِ
 مِنْ كَيْدِهِنَّ لَهُ مُغَاضِبُ
 بَيْنَ الْجَنَائِدِ وَالْمَارِبِ^(٢)
 جِسْمَهُ مِنْهُنَّ دَائِبُ
 وَخَدَعْنَهُ خَدَعُ الثَّعَالِبِ
 أَضْحَتْ مَدَائِنُهُمْ سَبَاسِبُ
 بِهِنَّ أَمْسَى وَهُوَ ذَاهِبُ^(٣)
 وَالْعُقْبَانِ سَائِبُ
 بِكَيْدِهِنَّ وَكَانَ غَالِبُ
 فَرَأَى بَرَاهِيْنَ الْعَجَائِبِ
 وَكُنَّ فِيهِ مِنَ الْكَوَاذِبِ
 فَخَابَ مِنْهُنَّ الْمَطَالِبُ
 عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا صَوَاحِبُ
 مُتَجَلِّجاً فِي الْأَرْضِ دَائِبُ
 بَنٍ بَاعُورَ النَّوَائِبِ
 دَمْعُهُ مِنْهُنَّ سَاكِبُ

أ/٣

(١) وَاصِبٌ: الأَمْر، دَامَ وَوَجِبَ وَثَبَ...

(٢) الْجَنَائِدُ: الصَّخْرُ الْعَظِيمُ...

(٣) إِشَارَةٌ إِلَى قِصَّةِ الزَّبَاءِ مَعَ جَذِيمَةِ بَنِ مَالِكٍ، وَيُقَالُ لَهُ: جَذِيمَةُ الْأَبْرَشِ، وَأَيْضاً، جَذِيمَةُ

الْوَضَاحِ. «مَجْمَعُ الْأَمْثَالِ - لِلْمِيدَانِيِّ ١/ ٢٣٣ وَ ٢٣٧»...

- ٤٥ - حَتَّى لَقَدْ نَدَبْتُ عَلَيْهِ
٤٦ - وَسَلَبْنِ مَمْلَكَةَ ابْنِهِ
٤٧ - وَقَتْلَنْ يَحْيَى عَامِلاً
٤٨ - وَبِهَنْ بَيْتُ الْمَقْدَسِ
٤٩ - وَبِهَنْ دَيْرُ الزَّبِيبِ
٥٠ - وَبِهَنْ بَرَصِيصُ غَدَا
٥١ - وَبِهَنْ أَصْبَحَ بَاكِياً
٥٢ - وَكَذَا الْبَسُوسُ فَشَرُّهَا
٥٣ - هَلَكْتُ وَأَهْلَكْتُ التَّقِيَّ
٥٤ - وَبِهَنْ شَمْشُونُ دُهِىَ
٥٥ - وَخَدَعْنَهُ بِالْمَكْرِ حَتَّى
٥٦ - وَبِهَنْ أَصْبَحَ نَادِماً
٥٧ - طَلَبَ السِّيَاحَةَ / رَاجِلاً
٥٨ - وَكَذَا جُرِيحُ نَالِهِ
٥٩ - أُنْزِلْنَهُ بِخَدَاعِهِنَّ
٦٠ - كَادَتْ تَزُولُ بِمَكْرِهِنَّ
- لِحُزْنِهِ فِيهِ النَّوَادِبُ
وَسَلَكْنَهُ ضَيْقَ الْمَذَاهِبِ
وَتَرَكْنَهُ فِي الدَّمِ خَاضِبِ
خَرَبْتُهُ يَدُ الْأَغَالِبِ
تَسَاقَطَتْ مِنْهُ الْجَوَانِبُ^(١)
بِعِبَادَةِ السَّتِينِ ذَاهِبِ
إِسْحَاقُ مِنْ فَقْدِ الْحَبَايِبِ
شَرُّ الْأَفَاعِي فِي الْمَضَارِبِ^(٢)
الزَّاهِدُ السُّورَعُ الْمُرَاقِبِ
بِمَصَائِبِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ
أَوْثَقْتُهُ يَدُ الْقَوَاضِبِ
طَالَوْتُ لِلْعِبَرَاتِ صَائِبِ
بَعُدَ الْمَوَاقِبِ وَالْجَنَائِبِ^(٣)
مِنْ كَيْدِهِنَّ لَهُ مَصَائِبِ
وَمَكْرِهِنَّ عَنِ الْمَرَاتِبِ
جِبَالٌ لَا تُحْصَى لِكَاتِبِ

ب/٣

(١) إشارة إلى قصة الزرقاء بنت اليمان، وكانت مالكة لدير الزبيب، ولما جاءها من يخطبها، طلبت مهراً لها: ألف بعير، ومئة وصيفة، ورأس حاتم الطائي...

(٢) إشارة إلى قصة البسوس، وهي: خالة جساس بن مرة البكري، وهو أخ لزوجة كليب، وكان كليب من أعز العرب في زمانه، رأى يوماً ناقة البسوس ترعى في أرض له فأمر بقتلها، عندئذ قامت البسوس بتحريض جساس على قتل كليب، فتحين جساس الفرصة ثم قتل كليياً، وعلى اثر ذلك نشبت حرب ضروس بين تغلب وبكر، ولحقت جليلة بنت مرة بأبيها، بعد مقتل زوجها كليب، فولدت الهجرس، رباه خاله جساس، وما أن شبَّ الهجرس حتى قتل خاله جساس انتقاماً لأبيه والتحق بقوم أبيه، دامت تلك الحرب أربعين سنة...

(٣) يوجد خرم بالمخطوطة بمقدار [ب/٣] و[أ/٤]، وقد تداركنا ذلك بما ورد من عناوين داخل المخطوطة، كان قد اعتمدها المؤلف كما بين في مقدمته، وهي بمقدار (٢٧) بيتاً، كما تبين أيضاً أن جميع الأبيات مكسورة نظماً، وذلك علمه عند الله تعالى، فلا ندري أهى من المؤلف أم من الناسخ...

٦١ - وَبِهِنَّ وَاحِدَةٌ عَصَتْ
 ٦٢ - مِنْ أَجْلِهَا سُفِكَ دَمٌ
 ٦٣ - حَمَالَةُ الْحَطَبِ الَّتِي
 ٦٤ - مِنْ خَوْفِهِ مِنْهُنَّ مَاتَ
 ٦٥ - وَكَذَا النَّبِيُّ الْمُصْطَفَى
 ٦٦ - فِيهِنَّ عَاتِبُهُ الَّذِي
 ٦٧ - وَكَذَا الْإِمَامُ الْأَزْجَلِي
 ٦٨ - النَّاسِكُ السَّهْمُ اللَّمِّي
 ٦٩ - وَطَلَبْنِ مَهْرًا رَأْسُهُ
 ٧٠ - فَسَعَى إِلَيْهِ بِخُرْبَةٍ
 ٧١ - وَكَذَلِكَ الْحَسَنُ ابْنُهُ
 ٧٢ - جَرَعْنَهُ كَأْسًا بِهِ
 ٧٣ - وَكَذَلِكَ سَعِدُ قَدْ رُمِيَ
 ٧٤ - وَبِهِنَّ أَنْصَارِي كَانَ
 ٧٥ - نَكَّتِ الْعُهُودَ وَلَمْ يَنْلِ
 ٧٦ - خَوْفُهُ ابْنُ رَوَاحَةَ مِنْهُنَّ
 ٧٧ - وَبِهِنَّ قَاضٍ بِالْعِرَاقِ
 ٧٨ - أَوْقَعْنَهُ بِخِدَاعِهِنَّ
 ٧٩ - كَمْ زَاهِدًا وَمُحَافِظًا
 ٨٠ - مِنْ جَوْرِهِنَّ وَمَا لَقُوا
 ٨١ - وَكَذَا أَبُو الرَّجُلِ الَّذِي
 ٨٢ - مِنْ مَكْرِهِنَّ رُمِيَ بِسَهْمٍ
 ٨٣ - كَمْ مُسْلِمٍ عَبْدَ الصَّلِيبِ
 ٨٤ - مِنْهُنَّ أَصْبَحَ خَاسِرًا

* * *

وصايا

- ١ - / يَا مَنْ تُشَدُّ لِفَضْلِهِ
٢ - اسْمَعْ وَصِيَّةَ نَاصِحٍ
٣ - وَاحْرِضْ بِأَنَّكَ لَا تَزَالُ
٤ - وَاضْرُبْنِ هُنَّ إِذَا جَنِينَ
٥ - وَاهْجِرْ قَدَيْتَكَ مَا اسْتَطَعْتَ
٦ - لَا يَعْجِبَنَّكَ مَا تَرَى مِنْهُنَّ
٧ - يُظْهِرَنَّ لِي حُسْنَ الثَّنَاءِ
٨ - كَمْ شَيَّبَتْ أَفْعَالُهُنَّ
٩ - هَذَا وَكَمْ مِنْ طَيْلَسَانٍ
١٠ - وَإِذَا سَلَكَنَّ مَصَاعِباً
١١ - مِنْ كَيْدِهِنَّ تُصِيبُكَ
١٢ - وَكَذَلِكَ يُخْفِرْنَ الْعَشِيرَ
١٣ - فَحَبَائِلُ الشَّيْطَانِ هُنَّ
١٤ - إِنْ قَلَّ مَالُكَ أَوْ بَدَأَ
١٥ - أَنْكَرَنَّ مَا أَوْلَيْتَهُنَّ
١٦ - حَتَّى كَأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ
- وَلِبَرٍّ نَائِلِهِ الرِّكَائِبِ
قَدْ هَذَبَتْهُ يَدُ التَّجَارِبِ
لَأَمْرَهِنَّ إِذَا مُرَاقِبِ
جَنَائِيَّةً ضَرَبَ الْعَقَارِبِ
لَهُنَّ هَجَرًا كَالْمُحَارِبِ
وَانْظُرْ فِي الْعَوَاقِبِ
وَلَهُنَّ فِي غَيْرِي مَارِبِ
مِنَ النَّوَاصِي وَالذَّوَائِبِ
نَكَسَتْهُ لَنَا الْعَصَائِبِ
كَانَتْ لَهُنَّ يَدُ الْأَعَاصِبِ
الْبَلَوَى وَأَفَاتُ الْمَصَائِبِ
وَهُنَّ يُكْفِرْنَ الْأَطَايِبِ
لَهُ مُطِيعَاتُ الْجَوَانِبِ
بِعِذَارِكَ الْبَيْضِ الشَّوَائِبِ
مِنَ الْكَرَامَةِ وَالْمَوَاهِبِ
أَبَدًا لِصُحْبَتِهِنَّ صَاحِبِ

١٧ - فَرِضَاؤُهُنَّ فُرُوجُهُنَّ قَفَرٌ وَفِيَهُنَّ الْمَضَارِبُ^(١)

/ وسئل ابن سيرين عن النساء...؟.. فقال: مفاتيح أبواب الفتن، ومخازن الحزن، إن أحسنت إليك منت عليك، تُفشي سرّك، وتُهمل أمرك، وتميل إلى غيرك...

ومن كلام العرب: لا تأمن قارئاً على صحيفة، ولا شاباً على امرأة، ولا امرأة على سرّ...

وقال جالينوس: إياك ومصاحبة النساء، فإن منهن ما يذهب بصرك، ويذني هَرَمَكَ^(٢)، ويزيل عقلك...

وقيل: النساء.. ريحان بالليل، وشوك بالنهار...

وقيل: النساء كالفاكهة.. [الفاكهة]^(٣) لا تطيب إلا بالغسل، والمرأة لا تطيب إلا بالضرب.. وأرسل معاوية إلى الأحنف، فقال: يا أبا بحر، ما تقول في الولد...؟.. قال: ثمار قلوبنا، وعماد ظهورنا، ونحن لهم أرض ذليلة، وهما طليّة^(٤)، فإن طلبوا فأعطهم، وإن غضبوا فأرضهم، يمنحوك ودّهم، ويحبوك جهدهم، ولا تكن عليهم ثقيلاً فيملوا حياتك، ويحبوا وفاتك.. فقال: لله أنت يا أحنف، لقد دخلت عليّ وإني لمملوء غضباً على يزيد، فَسَلَّتُهُ^(٥) من قلبي.. فلما خرج الأحنف من عنده، بعث معاوية إلى يزيد مئتي ألف درهم، ومئتي ثوب، شاطره إياها محمد بن إسحاق الإسماعيلي، وقال: إن تَسَمَّنِي^(٦)، وإلا فصنت احتماله وسخطه، ومن يأبى

(١) يوجد خرم في المخطوطة بمقدار [٤/أ]، وقد تداركنا ذلك من خلال ما أورده المؤلف من عناوين وأعقدها كأبواب...

(٢) هَرَمَكَ: من باب: تَعِبَ، فهو: هَرِمٌ، أي: كَبِرَ وَضَعُفَ...

(٣) ساقطة من الأصل، وإثباتها يقتضي السياق لإتمام المعنى...

(٤) طليّة: هو الحصير الخلق...

(٥) فَسَلَّتُهُ: انتزعته، الغضب برفق وحنوولين...

(٦) تَسَمَّنِي: الإدعاء بما ليس فيه...

المذلة يعذر، فهذا أنا أسترضيه، لا من جناية جنيت، ولكن من تجنيه فأغفر...

أ/٥/ (١) [وفي حديث خولة بنت ثعلبة، قالت: ظاهر (٢) مني زوجي أوس بن الصامت] (٣)، / ثم أتيت النبي ﷺ أشكوه ما لفيت.. فقال ﷺ: «زوجك وابن عمك، اتقي الله وأحسني صحبتته». قالت: فما برحت حتى نزل قول الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (٤). حتى انتهى إلى الكفارة (٥). قال: «مره فليعتق رقبة». قلت: يا نبي الله، ما عنده رقبة يعتقها. قال: «مره فليصم شهرين متتابعين». قلت: يا نبي الله، شيخ كبير ما به من صيام. قال: «فليطعم ستين مسكيناً». قلت: يا نبي الله، ما عنده ما يطعم. فقال: «بلى سنعينه». ففرق من تمر مكتل يشبع ثلاثين. قالت: فقلت: وأنا أعينه بعرقٍ آخر (٦). قال: «لقد أحسنت فليتصدق» (٧)...

(١) خرم في المخطوطة بمقدار [أ/٥]...

(٢) المظاهرة، أي: قال لها: أَنْتِ عَلَيَّ كَظْهَرِ أُمِّي، أي: أَنْتِ عَلَيَّ حَرَامٌ...

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة من المراجع المعتمدة أصولاً...

(٤) سورة المجادلة - الآية ١...

(٥) المقصود بآيات الكفارة من سورة المجادلة - ٣ و ٤، في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ذَلِكَمْ تَوْعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾...

(٦) العرق: هو السفيفة المنسوجة من الخوص قبل أن يجعل منه الزنبيل، وتجعل بمقدار (٣٩) صاعاً، والصاع أربعة أمداد، والمد (١ رطل)، والرطل البغدادي (١٢٨ درهماً)، والدرهم (٣١٧ غراماً)، ويكون وزن الصاع من القمح (١٢٨ × ٥ = ٦٨٥,٧ درهماً و ٢٧٥١ غراماً، وسعته ٢,٧٥ لتراً) وأن زنة الصاع هنا إذا كان مملوء بالماء، ويختلف باختلاف ما فيه، وذلك لاختلاف الوزن النوعي، إذ أن الأصل فيه الكيل لا الوزن. «انظر: النظم الإسلامية - ٤١٨ و ٤٢٠»...

(٧) رواه أبو داود في سننه، في كتابه الطلاق، باب في الظهار، برقم ٢٢١٤/...

أخبرنا أبو سعيد، قال: قالت عائشة رضي الله عنها: تبارك الذي وسع سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة، ويخفي عليّ بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى النبي ﷺ، وهي تقول: يا رسول الله، أبلى شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبر سني، وانقطع ولدي، ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك.. قالت: فما برحت حتى نزل جبريل عليه السلام يقرأ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾^(١)...

وقوله بالإسناد الصحيح: أن رجلاً^(٢) واقع زوجته في رمضان، فأتى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، هلكت وأهلك. قال ﷺ: «وما ذاك...؟». قال: أتيت أهلي وأنا صائم.. قال ﷺ: / «اعتق رقبة». قال: والله يا رسول الله، لا أملك رقبة غير رقبتني هذه. قال ﷺ: «فصم شهرين متتابعين». قال: من الصيام تم علي هذا.. قال ﷺ: «فأطعم ستين مسكيناً». قال: والله يا رسول الله، ما في هذه البيوت أفقر من بيتي. قال: فأتى النبي ﷺ بوسق تمر^(٣)، قال ﷺ: «فخذ هذا فتصدق به». فقال: يا رسول الله، ومن هو أحق به مني ومن عيالي، فوالله لا بيت أفقر من بيتي، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، فقال ﷺ: «خذه ولا يجزى لأحد غيرك إلى يوم القيامة»^(٤)...

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾^(٥).. قال المفسرون: نزلت في حاطب بن أبي بلتعة، وذلك أن سارة

(١) رواه الحاكم في المستدرک، کتاب التفسیر، باب تفسیر سورة المجادلة، برقم ٢/ - ٤٨١ / عن أبي محمد المزني، وانظر أسباب النزول للواحدي - ص ٣٣٥ - ٣٣٦...

(٢) هو: سلمة بن صخر البياضي الخزرجي، حليف بني بياضة...

(٣) الوسق: هو ما جاء أيضاً في بيان العرق، ستون صاعاً بصاع رسول الله ﷺ، وهو ١/٥ رطل...

(٤) رواه أبو داود في سننه، في كتاب الطلاق، باب في الظهار، برقم ٢٢١٣/، وفيه قال: وزاد ابن العلاء، قال ابن إدريس: وبياضة بطن من بني زريق...

(٥) سورة الممتحنة - الآية ١...

مولاة عمرو بن مهيّب بن عبد مناف، أتت رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة، ورسول الله ﷺ يتجهز لفتح مكة. فقال لها: «أمسلمة جئت...؟». قالت: لا.. قال: «فما جاء بك...؟...؟». قالت: أنتم الأهل والعشيرة والموالي، وقد احتجت حاجة شديدة، فقدمت عليكم لتعطوني وتكسوني. فقال لها: «فأين أنت من شباب [أهل] مكة^(١)». - وكانت مغنية - . قالت: ما طلب مني شيئاً بعد وقعة بدر. فحث رسول الله ﷺ بني عبد المطلب [وبني المطلب]^(٢) عليها. فكسوها وحملوها وأعطوها، فأعطاهما. [وأثاها حاطب بن أبي بلتعة، وكتب معها إلى أهل مكة، وأعطاهما]^(٣) عشرة دنانير على أن توصل الكتاب إلى أهل مكة، [وكتب في الكتاب، من حاطب إلى أهل مكة]^(٤)، أن رسول الله ﷺ يريدكم، فخذوا حذرکم. . وكان النبي ﷺ قد أظهر الخروج إلى خير، / وأخفى المسير إلى مكة، فخرجت سارة، ونزل جبريل عليه السلام فأخبر النبي ﷺ بما فعل حاطب، فبعث رسول الله ﷺ: علياً، وعماراً، والزبير، وطلحة، والمقداد بن الأسود، وأبا مرثد، رضي الله عنهم أجمعين، وكانوا فرساناً، وقال لهم: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ^(٥)، فإن بها ظعينة^(٦)، معها كتاب من حاطب إلى المشركين، فخذوه منها، وخلوا سبيلها، فإن لم تدفعه إليكم^(٧) فاضربوا عنقها». . فخرجوا حتى أدركوها في ذلك المكان.. فقالوا لها: أين الكتاب الذي معك...؟.. فحلفت بالله ما معها كتاب.. ففتشوا متاعها^(٨)، فلم يجدوا معها كتاباً، فهَمُّوا بالرجوع، فقال

ب/٦

(١) ساقطة في الأصل، والزيادة ما بين الحاصرتين من أسباب النزول للواحد - ٣٤٦..

(٢) ساقطة في الأصل، والزيادة ما بين الحاصرتين من أسباب النزول للواحد - ٣٤٦..

(٣) ساقطة في الأصل، والزيادة ما بين الحاصرتين من أسباب النزول للواحد - ٣٤٧..

(٤) ساقطة في الأصل، والزيادة ما بين الحاصرتين من أسباب النزول للواحد - ٣٤٧..

(٥) روضة خاخ: موضع على بعد من المدينة المنورة باتجاه مكة المكرمة..

(٦) ظعينة: في الأصل: ضعينة، والصواب ما أثبتناه، والظعينة هي المرأة، لأنها تظعن إذا ظعن زوجها، وتقيم إذا أقام. «لسان العرب - مادة: ظعن».

(٧) في الأصل لكم، والصواب ما أثبتناه في أسباب النزول للواحد - ص ٣٤٦..

(٨) في الأصل ثيابها، والأصح متاعها، وذلك كما ثبت في أسباب النزول للواحد - ص ٣٤٧، =

علي كرم الله وجهه: ما كذبنا ولا كُذِّبنا، وسلَّ سيفه، فقال: أخرجني الكتاب، وإلا والله لأجزرنك^(١) ولأضربن عنقك.. فلما رأت الجَدَّ منه أخرجته من ذؤابتها^(٢)، وكانت قد خبأتها في شعرها، فخلوا سبيلها ورجعوا بالكتاب إلى رسول الله ﷺ. فأرسل رسول الله ﷺ إلى حاطب، فأتاه. فقال ﷺ: «هل تعرف هذا الكتاب...؟». فقال: نعم.. قال: «فما حملك على ما صنعت...؟». فقال: يا رسول الله، ما كفرت منذ أسلمت، ولا غششتك منذ نصيحتك، ولا أجبتهم منذ فارقتهم، [ولكن لم يكن أحد من المهاجرين إلا وله بمكة من يمنع عشيرته]^(٣)، وكنتم وأهلي غريباً فيهم، وكان أهلي بين أظهرهم، فخفت على أهلي، فأردت أن أتخذ عندهم يداً، [وقد علمت]^(٤) أن الله نازل بهم بأسه، وكتابي لا يغني عنهم شيئاً، / فصدقته رسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾.. فقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق. فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك يا عمر، لعل الله أطلع على أهل بدر، فقال لهم: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»^(٥)...

i/v

= ومعاذ الله أن يدنو أصحاب رسول الله ﷺ الأظفار الأخيار من امرأة يدسون أيديهم في ثيابها...!!.. أما المتاع فيكون عادة موجودة على المركوب - البعير...

(١) في الأصل لأجزرنك، وقد جاء في أسباب النزول للواحدى - ص ٣٤٧: لأجزرنك، من الجزر، وهو: الذبح...

(٢) ذؤابتها: الشعر المصفور...

(٣) ما بين الحاصرتين [...] ساقط في الأصل، تداركناه في أسباب النزول للواحدى - ص ٣٤٧...

(٤) ما بين الحاصرتين [...] ساقط في الأصل، تداركناه في أسباب النزول للواحدى - ص ٣٤٧...

(٥) رواه البخاري - ٤٠٠/٧ و ٤٠١، ومسلم / ٢٩٤٤، وأبو داود / ٢٦٥٠، وذكره الهيثمي في المجمع، وقال: رجاله ثقات - ٣٠٤/٩، وفي الطبراني الكبير - ٣٠٦٦، والحاكم في المستدرک - ٣٠١/٣ و ٣٠٢...

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾^(١). قال ابن عباس رضي الله عنه: كان الرجل يسلم، فإذا أراد أن يهاجر، منعه أهله وولده، فقالوا: نشدك الله أن تذهب وتدع أهلك وعشيرتك، وتسير إلى المدينة بلا أهل ولا مال. فمنهم من يرق ويقيم ولا يهاجر، فأنزل الله تعالى الآية، فأخبر سبحانه وتعالى: أن زوجة الرجل وولده عدو له، ثم قال: ﴿فَاحْذَرُوهُمْ﴾، فهذا أمر مطاع، ويجب على الرجل أن يحذر زوجته وولده، لأنه نبه على المؤامرة، وأمر بالحذر. . .

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَفُّوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا﴾^(٢)، حدثنا شعبة، عن إسماعيل بن أبي خالد، قال: كان الرجل يسلم، فيلومه أهله وبنوه، فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾. قال ابن عباس رضي الله عنه: وهؤلاء الذين منعوهم أهلهم عن الهجرة، لما هاجروا ورأوا الناس قد فقهوا في الدين، همّوا أن يعاقبوا أهلهم الذين منعوهم، فأنزل الله سبحانه وتعالى: / ﴿وَإِنْ تَعَفُّوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. . .

ب/٧

وأما السنة. قال: حدثنا أبو الحسن، أنه سمع علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «النظر إلى محاسن المرأة سهم من سهام إبليس مسموم، فمن ردّ بصره ابتغاء ثواب الله، أبدله الله تعالى بذلك عبادة تسره»^(٣). . .

حدثنا أبو أسامة، عن حماد بن زيد، عن أبي أيوب، عن أبي قلابة، عن أبي أسماء الرحي، عن ثوبان، رفعه إلى النبي ﷺ، قال: «أيما امرأة

(١) سورة التغابن - الآية ١٤. . .

(٢) تنمة الآية - ١٤، من سورة التغابن. . .

(٣) روى الحاكم في المستدرک عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أنه قال: قال النبي ﷺ: «النظر سهم من سهام إبليس مسمومة، فمن تركها في خوف الله، أثابه الله إيماناً يجد حلاوته في قلبه». كنز العمال - ١٣٠٧٣/٥ و ١٣٠٧٥/١. . .

سألت زوجها الطلاق من غير بأس، فحرام عليها لا تشم رائحة الجنة»^(١) . . .

وأخبرني قنحويه مرفوعاً، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «بينما رجل يصلي إذ مرت به امرأة فنظر إليها، فأتبعها بصره، فذهبت عيناه»^(٢) . . .

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: مرَّ رجل على عهد رسول الله ﷺ في طريق من طرقات المدينة، فنظر إلى امرأة، فوسوس لهما الشيطان أنه لم ينظر أحدهما إلى الآخر لأعجبانه، فبينما الرجل يمشي إلى جانب الحائط وهو ينظر إليها، إذ استقبله الحائط، فشقَّ أنفه. فقال: والله لا أغسل الدم حتى آتي رسول الله ﷺ، فأتاه، فقصَّ عليه القصة، فقال النبي ﷺ: «هذه عقوبة ذنبك»^(٣). فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾^(٤) . . .

أ/٨ وروت عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ، / أنه قال: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر إذا غزلت أن تظهر إلا وجهها ويديها»^(٥) . . .

وقال أبو عباد: كتب عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، إلى أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه: «أما بعد، فقد بلغني أن نساء يدخلن الحمّامات مع نساء أهل الكتاب، فامنع ذلك» . . .

ثم إن أبا عبيدة قام في ذلك المقام مبتهلاً، وقال: «أيما امرأة تدخل الحمّام من غير علة، ولا سقم، تريد البياض لوجهها، يُسودّ الله وجهها يوم القيامة، يوم تبيّض الوجوه» . . .

(١) رواه ابن ماجة في سننه - ٦٦٢/١، وحسنه الترمذي . . .

(٢) لم أعثر عليه، ولكن للحديث معنى، انظر الهامش رقم ٣/ والحديث الوارد فيه . .

(٣) رواه أصحاب التفسير، ابن كثير تفسير سورة النور - الآية ٣٠، وغيرهما . . .

(٤) سورة النور - الآية ٣٠ . . .

(٥) لم أعثر عليه، إلا أن هذا الحديث يستفاد منه . . .

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: لم يكن كفر من مضى إلا من قبل النساء . . .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يدخل حليلته الحمام»^(١). قال: كي لا تتجراً وتنزع ثيابها في غير بيت زوجها لما في ذلك من الكشف والهتك . . .
وقال: أخبرنا أبو الفرج مرفوعاً، قال: دخل نسوة من أهل الشام على عائشة رضي الله عنها فقالت: أنتن تدخلن الحمامات . . ؟ . . قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما من امرأة تضع ثيابها في غير بيتها، إلا هتكت سترها بينها وبين الله عز وجل»^(٢) . . .

أخبرنا أبو البركات، عن فاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، عن أبيها، قالت: قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أذن لامرأته في أربع خصال، حرم الله عليه الجنة وأدخله النار، فتستأذنه أن تذهب إلى الأعراس فيأذن لها، أو تستأذنه إلى الحمام، أو تستأذنه في أن تخرج في زقاق بثيابها إلى الطرقات، أو إلى القبور فيأذن لها»^(٣) . . .

أخبرنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال / رسول الله ﷺ: «إنها ستفتح لكم أرض الأعاجم، وستجدون فيها بيوتاً يقال لها الحمامات،

ب/٨

(١) قطعة من حديث، رواه الترمذي في سننه، ٢٤٢/١٠، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه من حديث طاووس عن جابر إلا من هذا الوجه . . .

(٢) روى أبو داود في سننه، في كتاب الحمام، برقم /٤٠١٠/، عن أبي المليح قال: دخل نسوة من أهل الشام على عائشة رضي الله عنها، فقالت: ممّن أنتن . . ؟ . . قلن: من أهل الشام. قالت: لعلكن من الكورة - المدينة والصُّقْع - التي تدخل نساؤها الحمامات . . ؟ . . قلن: نعم . . قالت: أما إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من امرأة تخلع ثيابها في غير بيتها إلا هتكت ما بينها وبين الله تعالى» . . .

(٣) لم أعثر عليه، وفي الحديث نظر: فقد منع رسول الله ﷺ خروج المرأة إلى الطرقات إلا في حدود معلومة في الشرع من لبس وعدم تعطر وغير ذلك، وكذلك في الأمور الأخرى . . .

فلا يدخلها الرجال إلا بالإزار، وامنعوها النساء، إلا مريضة أو نفساء»^(١) . . .

وعن أبي عذرة، كان أدرك النبي ﷺ، عن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ نهى الرجال والنساء عن دخول الحمامات، ثم رخص للرجال الميازير^(٢) . . .

أخبرنا منصور، عن السائب، أن نساء دخلن على أم سلمة زوجة النبي ﷺ فسألتهن: فقلن: من أهل حمص . . . قالت: من أصحاب الحمامات . . .؟ . . . قلن لها: نعم . . . قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أيما امرأة نزع ثيابها في غير بيتها، خرق الله تعالى عنها ستراً»^(٣) . . .

وأنشد بعضهم شعراً:

من كان ذا عرس يضيء بعمرسه	فلا يرسلنها يبتغي ليلة القدر
ولا ترسل الحمام عرسك إنني	أخاف من الحمام قاصمة الظهر
ولنا في المعنى إياك أن تترك	حليتك أن تدخل في حمام أو عرس
أخشى عليك الحادثات التي	تضرب منها العشر في الخمس
وتكثر في لا حول ولا قوة	وليتني لا أصبح ولا أمسي
دهيت في أهلي وخالفت	من قد كان ناصح بالأمس

أ/ كما يحرم [على]^(٤) الرجال أن ينظروا إلى عورة الرجال، وكذلك يحرم على المرأة أن تنظر [إلى]^(٥) عورة امرأة، وجميع بدنها عورة غير الوجه

(١) رواه أبو داود في سننه، في كتاب الحمام، برقم /٤٠١١/، وقال: انفرد أهل مصر بإسناده . . .

(٢) رواه أبو داود في سننه، في كتاب الحمام، برقم /٤٠٠٩/، وقال: قال أبو زرعة: لا أعلم روى حماد بن سلمة عن عبد الله بن شداد عن أبي عذرة عن عائشة رضي الله عنها غير هذا الحديث، ورواه الترمذي، وقال: غريب من حديث حماد، وإسناده ليس بالقائم . . .

(٣) رواه أحمد في المسند، والطبراني في الكبير، والحاكم في المستدرک، والبيهقي في شعب الإيمان، عن أبي أمامة رضي الله عنه . . .

(٤) ما بين الحاصرتين [. . .] ساقطة في الأصل، وإثباتها يقتضي السياق لإتمام المعنى . . .

(٥) ما بين الحاصرتين [. . .] ساقطة في الأصل، وإثباتها يقتضي السياق لإتمام المعنى . . .

والكفين، ويجوز لها كشفه في الصلاة، وإنما رخص النبي ﷺ في هذا القدر من بدن المرأة أن تبديهما، لأنه ليس بعورة، وسائر بدنها عورة، فيلزمها ستره، والتي أمرت بتغطيتهما لم يبح لها كشفهما في الصلاة، ولا [أمام] (١) الأجنيبين، ما عدا الوجه، والكفين، والقدمين، ولا يحل لامرأة أن تتجرد بين يدي امرأة مشركة، إلا أن تكون أمة لها، وذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ (٢) . . .

وعن أبي سعيد مولى بني أسد، قال: تزوجت امرأة، فدعوت أصحاب رسول الله ﷺ، وفيهم: أبو ذر، وحذيفة، وابن مسعود رضي الله عنهم، فتقدم حذيفة، فقال أبو ذر، ليس لك ذلك. فقدموني، فأممتهم، فعلموني إذا دخل عليك أهلك، فصل ركعتين، وخذ بناصيتها، واسأل الله عز وجل خيرها، وتعوذ بالله من شرها، ثم شأنك بها (٣) . . .

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما تركت على أمتي بعدي أضر على الرجال من النساء» (٤) . . .

(١) ما بين الحاصرتين [. . .] ساقطة في الأصل، وإثباتها يقتضي السياق لإتمام المعنى: . . .
(٢) سورة النساء - الآية ٣٦، وروى أبو داود في سننه، باب ما جاء في التعري، عن عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري، عن أبيه، عن النبي ﷺ، قال: «لا ينظر الرجل إلى عرية الرجل، ولا المرأة إلى عرية المرأة، ولا يفضي الرجل إلى الرجل في ثوب واحد، ولا تفضي المرأة إلى المرأة في ثوب واحد» برقم ٤٠١٨/ . . .
(٣) روى أبو داود في سننه، باب في جامع النكاح، برقم ٢٦٦٠/، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ قال: «إذا تزوج أحدكم، أو اشترى خادماً، فليقل: اللهم إني أسألك خيرها، وخير ما جبلتها عليه، وأعوذ بك من شرها، وشر ما جبلتها عليه، وإذا اشترى بغيراً، فليأخذ سنامه وليقل مثل ذلك» قال: وزاد أبو داود قال أبو سعيد: «ثم ليأخذ بناصيتها وليدع بالبركة».

(٤) رواه البخاري، ومسلم، وأحمد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، بلفظ: «ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء» . . .

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني أخوف ما أخاف على أمتي النساء والخمر»^(١) . .

٩/ب وعن سعيد بن المسيب رضي الله عنه، قال: ما آيس الشيطان بنبي قط، إلا من جهة النساء. . ثم قال: «وهو ابن تسع وثمانين سنة، وقد ذهبت إحدى عينيه، وهو يعيش بالأخرى»: وما من شيء أخوف عندي من النساء. . .

وعن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه قال: قام فينا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: إن رسول الله ﷺ قام لقيامي فيكم، ثم قال ﷺ: «لا يخلو رجل بامرأة فإن ثالثهما الشيطان»^(٢) . . .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه يحدث، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لن تستقيم لك امرأة على الخلق الواحد، إنما هي كالضلع إن تقيمها تكسرهما، وإن تركها تستقيم وفيها عوج»^(٣) . . .

وأنشد أبو مرثد الرحبي في الضلع الأعوج:

هي الضلع العوجاء لست تقيمها ألا إن تقويم الضلوع انكسارها
أتجمع ضعفاً واقتداراً على الهوى أليس عجيباً ضعفها واقتدارها

(١) رواه الديلمي عن علي بن أبي طالب، ورفع، بلا سند. . وانظر كشف الخفاء ج ٢، ص ١٨٣ رقم /٢١٩٧/ . .

(٢) جزء من حديث طويل، رواه أحمد في المسند - ٢٦/١، عن جابر بن سمرة عن عمر بن الخطاب. ١٨/١ عن عبد الله بن عمر عن عمر بن الخطاب. ورواه الترمذي في الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة، برقم /٢١٦٦/ . . .

(٣) روى البخاري في صحيحه برقم /٦٠١٨/، ومسلم برقم /٤٧/، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يؤذي جاره، واستوصوا بالنساء خيراً، فإنهن خلقن من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيراً» . . .

وقال علي بن حسنة الرحبي :

تعرفن رمي الصيد لم لا رميتنا من النبل لا بالطائشات الخواطف
ضعائف يقتلن الرجال بلا دم فيا عجباً للقاتلات الضعائف
وقوله ﷺ : «ما للشيطان في نفسه سلاح أبلغ من النساء»^(١) . . .

وقوله ﷺ : «لا أفلح قوم ملك أمرهم امرأة»^(٢) . . .

وقوله ﷺ : «يا عطف، أنتن قوم صواحب داود، وصواحب أيوب،
وصواحب يوسف، وصواحب كرسف». قالوا: يا رسول الله، ومن
كرسف . . ؟ . . قال ﷺ : «رجل عبد الله على ساحل من سواحل البحر ثلاثين
عاماً، يصوم النهار، ويقوم الليل، لا يفتر عن صيام ولا قيام، كفر بالله العظيم
من سبب امرأة عشقها، وترك ما عليه من العبادة لله عز وجل، وقد أراكم الله
بما سلف منه»^(٣) . . .

وبالإسناد، قال: قال رسول الله ﷺ : «ثلاثة لا يعرض لهم: صانع
الحمام، والحجامة، والمرأة الخلساء»^(٤) . .

وعن أبي بردة، عن أبي موسى الأشعري، قال: قال ﷺ : «ثلاثة
يدعون فلا يستجاب لهم: رجل كانت / تحته امرأة سيئة الخلق ولم يطلقها،
ورجل كان له على رجل دين فلم يشهد عليه، ورجل أعطى سفيهاً
ماله»^(٥) . . .

(١) لم أعثر عليه، وانظر حديث: ما تركت بعدي فتنة أضرب على الرجال من النساء، متفق عليه، وهو أقرب إلى المعنى .

(٢) قال في كشف الخفاء - ١٥٠/٢، برقم / ٢٠٨٠، رواه البخاري في الفتن والمغازي عن أبي بكرة، وجاء أيضاً بلفظ: ألا هلك الرجال حين أطاعوا النساء . . .

(٣) ورد في كتاب التوابين - للمقدسي، بلفظ قريب . . .

(٤) رواه الحاكم في المستدرک عن أبي موسى الأشعري، وذكره السيوطي في الجامع الصغير - برقم / ٣٥٥٤ ج ١، ص ٤٨٥ . . .

(٥) لم أعثر عليه لا بهذا اللفظ ولا بقريب منه . . . والحديث فيه نظر.

وقد قال الله سبحانه وتعالى : ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾^(١) . . أي :
الجهال أموالكم . . .

وقوله ﷺ : «أوثق سلاح إبليس النساء»^(٢) .

وقوله ﷺ : «ما خلفت على أمتي شيئاً أضر من النساء»^(٣) . . .

وقوله ﷺ : «النساء حبائل الشيطان»^(٤) . . .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رجلاً قال : يا رسول الله، إن لي امرأة جميلة وأنها لا تمنع يد لامس . قال : «طلقها» . قال : لا أصبر عليها . .
قال : «فأمسكها إذا»^(٥) . . .

وقوله ﷺ : «ليلة أسري بي إلى السماء، فأطلعت على أهل الجنة، فوجدت أقل ساكنيها النساء، وأطلعت على أهل النار، فوجدت أكثر ساكنيها النساء»^(٦) . . .

وقوله ﷺ : «لا تقوم الساعة حتى يقل الرجال، ويكثر النساء، ويكون القيم على أربعين امرأة رجل واحد، حتى ينكر الرجل امرأته، وهي تقول : أنت زوجي»^(٧) . . .

(١) سورة النساء - الآية ٥ . . .

(٢) سبق تخريجه . . .

(٣) سبق تخريجه . . .

(٤) ليس بحديث، بل هو من أقوال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، انظر: مجمع الأمثال للميداني - /٤٢٣٣/ . . .

(٥) رواه أبو داود في كتاب النكاح، باب: النهي عن التزويج من لم يلد من النساء، برقم /٢٠٤٩/، عن ابن عباس: وجاء بدل طلقها - غربها، وبدل فأمسكها إذا - فاستمتع بها . . .

(٦) رواه البخاري بلفظ قريب، في كتاب الصلاة، باب: إذا صلى وقدامه تنورٌ ونارٌ وشيء مما يعبد، وفي أبواب عدة، ١/٤٤٠، ومسلم برقم /٩٠٧/ في كتاب الكسوف . . .

(٧) روى مسلم عن أبي موسى الأشعري قال: إن النبي ﷺ قال: «ليأتين على الناس زمان يطوف الرجل فيه بالصدقة من الذهب، فلا يجد أحداً يأخذها منه، ويرى الرجل الواحد يتبعه أربعون امرأة يلذن به من قلة الرجال وكثرة النساء» . . .

وقوله ﷺ: «استعيذوا بالله من شرار النساء، وكونوا من خيارهن»^(١)...

وقوله ﷺ: «أخوف ما أخاف عليكم فتنة النساء».. قالوا: وكيف يا رسول الله...؟..

قال: «إذا لبسن رباط الشام، وحلل العراق، وعصب اليمن، وملن كما تميل مشيمة البخت، فإذا فعلن.. كلفن المعسر ما ليس عنده»..

وقوله ﷺ: «ناقصات عقل ودين»^(٢)...

وقوله ﷺ: «أيما امرأة خرجت من بيتها بغير إذن زوجها، لعنتها الملائكة إلى أن ترجع»^(٣)...

وقالت عائشة رضي الله عنها: لو لم أكن منهن لقلت ما فيهن...
وقوله ﷺ: «أيما امرأة دعاها زوجها إلى فراشه، فأبت، باتت الملائكة تلعنها إلى أن تصبح»^(٤)...

وقوله ﷺ: «لا يحل لامرأة أن تسافر ثلاثة أيام بغير محرم»^(٥)...
وقد ابتلاهن عز وجل بالحيض / في كل شهر مرتين، والنفاس،
والولادة، وشهادة امرأتين برجل، ولها نصف الميراث مع الرجل، ووفاء العدة

ب/١٠

(١) انظر كشف الخفاء ومزيل الإلباس للعجلوني - ج ٥، ص ١٢٣، حديث رقم /٢٠١٩/، قال: رواه في التذكرة عن علي في آخر كلام له طويل بلفظ: استعيذوا بالله من شرارهن، وكونوا على حذر من خيارهن...

(٢) رواه البخاري - ٣٤٥/١ و٣٤٦، من حديث أبي سعيد الخدري، ومسلم من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما...

(٣) رواه الطبراني في الأوسط، وفيه: سويد بن عبد العزيز، وهو متروك، وقد وثقه دحيم وغيره، وبقية رجاله ثقات، قاله الهيثمي في مجمع الزوائد - ٣١٣/٤...

(٤) رواه البخاري في كتاب النكاح، برقم /٥١٩٣/، ومسلم في كتاب النكاح، برقم /١٤٣٦/، ورواه أبو داود في سننه، في كتاب النكاح، برقم /٢١٤١/...

(٥) رواه أبو داود في سننه، في كتاب المناسك، باب: المرأة تحج بغير محرم، برقم /١٧٢٧/...

للمتوفى عنها أربعة أشهر وعشرة أيام، وللمطلقة ثلاثة قروء، ودية المرأة نصف دية الرجل، وناقصات عقل ودين، ويكفرن العشير، وأنها كلها عورة إلا الوجه والكفين . . .

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: دخلت أنا ورسول الله ﷺ على عائشة رضي الله عنها، وذلك قبل أن تؤمر بالستر، فإذا نسوة من قريش والأنصار. فقالت رضي الله عنها: هؤلاء النسوة جئنك يسألنك عن أشياء يستحين من ذكرها. . فقال ﷺ: «إن الله لا يستحي من الحق». . قالت رضي الله عنها: إن المرأة ترى في المنام ما يرى الرجل، هل عليها الغسل. .؟. . قال ﷺ: «عليها الغسل، إن لها ماء كماء الرجل، لكن الله عز وجل أسرماءها وأظهر ماء الرجل، فإذا ظهر ماؤها على ماء الرجل، ذهب الشبه إليها، وإذا ظهر ماء الرجل على مائها، ذهب الشبه إليه، وإذا اختلط كان الشبه بينهما، وإذا ظهر منها ما يظهر على الرجل، فلتغتسل، ولا يكون ذلك إلا من شرارهن»^(١). . .

وقوله ﷺ: «أيما امرأة خلت مع غير محرّمها، إلا وكان الشيطان ثالثهما»^(٢). . .

وقوله ﷺ: «من شروط الساعة، أن يستغني الرجال بالرجال، ويستغني النساء بالنساء»^(٣). . .

ومن كلام الخلفاء والحكام:

قال: دخل عمرو بن العاص رضي الله عنه، على معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، وفي حجره بنت له يلاعبها، فقال عمرو: ما هذه يا أمير

(١) رواه أبو داود في سننه، في كتاب الطهارة، باب: في المرأة ترى ما يرى الرجل، برقم ٢٣٧/ . . .

(٢) جزء من حديث طويل، رواه أحمد في المسند، ٢٦/١، عن جابر بن سمرة، عن عمر بن الخطاب، ١٨/١ عن عبد الله بن عمر بن الخطاب، ورواه الترمذي في الفتن، باب: ما جاء في لزوم الجماعة، برقم ٢١٦٦/ . . .

(٣) انظر: الترغيب والترهيب - للمندري ٩٨/٣، وفيه: قال ﷺ: إذا استحلّت أمّتي خمساً فعليهم =

المؤمنين . . ؟ . . [قال] ^(١) : هذه ثمرة قلبي عائشة . قال : ارفعها عنك يا أمير المؤمنين ، فإنهن يَلِدْنَ الأعداء ، ويقربن البعداء . . فقال معاوية : يداوين مرضانا ، ويندبن موتانا . . فقال : والله / يا أمير المؤمنين ، خصلتا سوء ليوم سوء . . .

وقال علي رضي الله عنه : إياك ومشاورة النساء ، فإن رأيهن إلى أفن ^(٢) ، وعزمهن إلى وهن ، أكفف أبصارهن بالحجاب ، فإن الحجاب خير لهن من الارتياح ، وليس خروجهن بأضر من دخولهن ، لا يوثق به عليهن ، إن استطعت أن لا يعرف غيرك فافعل ، ولا تملك المرأة أمرها ما جاوز نفسها ، فإن المرأة ريحانة ، وليست بفهمانة ، ولا تغد بإكرامها نفسها ، ولا تطمعها أن تشفع لغيرها ، وإياك والتغاير في غير موضع الغيرة . . .

وقال علي رضي الله عنه : لا تطيعوا النساء على حال ، ولا تأمنوهن على مال ، ولا تذروهن لتدبير العيال ، إن تركن وما يردن أوردن المهالك ، وإن كن الممالك ، ينسين الخير ، ويحفظن الشر ، يتهاقن في البهتان ، ويتمادين في الطغيان . . .

وقال إياس بن معاوية : ثلاثة لا رأي لهن : حاقن البول ، وصاحب الحق الضيق ، وصاحب المرأة السوء . . .
وعن علي رضي الله عنه : النساء كلهن شرٌّ ، وشرُّ ما فيهن قلة الاستغناء عنهن . . .

وقال داود عليه السلام : المرأة السوء لبعْلِها ، كالحمل الثقيل على الشيخ الكبير ، والمرأة الصالحة كالتاج المخوص بالذهب ، كلما رآه قرت عيناه . .

= الدمار : . . . وفي الحديث : واكتفى الرجال بالرجال ، والنساء بالنساء . . .

(١) ساقطة من الأصل ، وإثباتها يقتضي السياق لإتمام المعنى . . .

(٢) أفن : ضعف الرأي ونقص في العقل . . .

وشكت امرأة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه غشيان زوجها، أنه جنب عندي في الشهر مرة.. فقال عمر رضي الله عنه: إن في ذلك شقاً للعاشق، وجمالاً للسابق...

وقال بعض الحكماء: من أطاع عرسه، فقد أضاع نفسه...

ب/١١

وقال/ الشاعر:

وما هي إلا نظرة تبتسم بها فَنَدَّ يَدْرُ حَلاها وتسقط للجنب^(١)

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، [قال]^(٢): إن عمر المرأة الصالحة ليست من الدنيا، إنما هي من الآخرة، لأنها تقر عينيك بها، ولو كنت تطبخ وتغسل لشغلك ذلك...

وشاور رجل، رجلاً آخر في تزويج امرأة. فقال: إن كنت تريد خالصة من دون المؤمنين فلا تطمع...

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن هذه الدنيا خطيرة، وإن الله مستعملكم فيها، فناظروا كيف تعملون، ألا فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت من قبل النساء، كانت المرأة تتخذ النعلين من خشب تحادي بهما المرأة الطويلة»^(٣)...

وقال إبراهيم بن أدهم: من أحب أفخاذ النساء لم يفلح... ونظر عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى رجل يحمل طفلاً على عنقه، فقال: ما هذا منك...؟ فقال: ولدي يا أمير المؤمنين... [قال]^(٤): أما إن عاش فتك، وإن مات أحزنك...

(١) فَنَدَّ: الضعف في العقل. يَدْرُ: تشبيهاً لإدراج اللبن. حلاها: زينتها...

(٢) ساقطة من الأصل، وإثباتها يقتضي السياق لإتمام المعنى...

(٣) انظر كشف الخفاء - ٣٩/١، برقم ٧٦/، قال: رواه الديلمي عن معاذ وفيه زيادة، وعند مسلم عن أبي سعيد...

(٤) ساقطة من الأصل، وإثباتها يقتضي السياق لإتمام المعنى...

وعنه أيضاً، قال: أكثرُوا من هؤلاء، فإن تقربهن عن المسألة...
وقيل للإسكندر: لو استكثرت من النساء، لكثير ولدك، ويدوم
ذكرك...؟!.. فقال: دوام الذكر بتحسين السير، وليس بحسن من غلب
الرجال أن تعلمه النساء...

وقيل لفيلسوف: أي النساء أحسن...؟!.. فقال: مكابدة العقل أيسر
من الاحتيال لمصلحتهن...
وذكر الجماع عند أنس بن مالك رضي الله عنه، فقال: هو نور وجهك،
ومخ ساقلك، فأقلل فيه ولا تكثر...

وقال معاوية: ما رأيت نهماً في النساء إلا عرفت ذلك من وجهه...
وسئل بعضهم: ما عندك في النساء...؟!.. فقال: أطيل الظماً وأردُ ولا
أشرب...

وقيل للمدائني: ما عندك في النساء...؟!.. فقال: إن مُنعت غضبت،
وإن تُركت عجزت...

وقال سليمان: / ما عندك في الأمر بالحجاب...؟!.. - يريد النساء
- قال: يمتد ولا يشتد، ويردُ ولا يشرب...

أ/١٢

وقيل لآخر: ما عندك للنساء...؟!.. قال: ما يقطع حجتها، ويشفي
غلثها...

وقال كسرى وقد ذكر عنده النساء: كنت أراني إذا كبرت فلا يجيبني،
فإذا أنا لا أجيبهن...

وأنشد الرياشي لأعرابي:

تمنيت لو عاد شرخ الشباب	ومن ذا عليه يعطى المنى
وكنت مسكيناً لدى الغانيات	فلا شيء عندي لها ممكنا
فأما الحسان فيأتينني	وأما القماح فأبى أنا

وقال المدائني : كانوا إذا هنوا بجارية، قالوا: أَمِنْكُمْ الله منها العار، وكفاكم منها المؤونة، والمضنون من النساء كفواً، أكرم من قبر... .

وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: نِعَمَ الولد، البنات الممرضات، المؤمنات، النائحات، الباليات... .

وقال: دخل بعض الحكماء على عبد الملك بن مروان، وبين يديه ابنة له وهو يقبلها، [فقال] ^(١)، يا أمير المؤمنين.. إن ماتت أحزنت، وإن أدركت أفقرت، تلبسك العار، وتقدم إليك أشر الأصهار، تتمتع في خيرك، وتميل إلى غيرك، تحفظ بك إن أحسنت إليها، وترفع غيرك على رأسها ويديها، توحد نيران الحرب، ولا تمل من إيقاع الضرب... . فقال: لولا هن ما ظهرت الأنبياء، ولا استنارت الجوزاء... .

وقال شقيق البلخي يوماً لأصحابه: ما أعلم بمدينة بلخ امرأة صالحة قبل فيها من الصوالح كثيرات. قالوا: أيتها أردت فاختر... ؟... فاختر واحدة... قالوا: أذات بعل هي... ؟... قال: نعم... قالوا: فلانة/ عبت الله ب/١٢ ثلاثين سنة صائمة قائمة... قال: فدعا زوجها... فقال: أحب أن تبعث إلي أهلك برسالة. قال: أفعل ذلك يا أبا علي. قال: وجه إليها من يخبرها أنك تقول: يا أهلي، قد كبرت سنك، وضعفتي عن الخدمة، ولا أتمتع بك بالجماع، فأذني لي أن أتزوج بشابة تخدمني وأتمتع بها... فلما أتاها الرسول بالرسالة، وجدها في الصلاة، فلما انصرفت، أخبرها الرسول بالرسالة، فلما سمعت بذلك وثبت قائمة وقالت: إن دخل علي هذا القرنان نتفت لحيته، وفعلت به كذا وكذا... فلما رجع الرسول إلى شقيق، أخبره بما سمع... فقال شقيق: إن صلاحاً أن امرأة تضع بما لا يحل بزوجهما ما سمعتم... فأقروا له... .

(١) ساقطة من الأصل، وإثباتها يقتضي السياق لإتمام المعنى... .

وروي عن أبي مسلم الخراساني صاحب الدعوة، وكان عمره ستاً وثلاثين سنة، وكان له فرسٌ، فقال لقواده: بماذا يصلح هذا الجواد...؟... قالوا: يغزى عليه في سبيل الله تعالى.. قال: لا.. قالوا: فيطلب عليه العدو.. قال: لا.. قالوا: فماذا يصلح أيد الله أمير المؤمنين...؟... قال: يركبه الرجل، فيهرب من الجار السوء، والمرأة السوء...

وقيل لرجل: مات عدوك.. فقال: وددت لو قلتم: تزوج... وقيل لرجل كانت امرأته نشازاً: ما أحد يصلح بينكما...؟... قال: لا، مات الذي كان يصلح بيننا...!!...

وقيل لأعرابي: ما خلفت لأهلك...؟... قال: الحافظين.. قيل: وما هما...؟... [قال]^(١): أعريهن فلا يبرحن، راجعين فلا يمرحن... وقال الجمال لامرأته: أي شيء يطيب في هذا اليوم يا سيدتي...؟... قالت: الطلاق يا سيدي...

وقال بعض الحكماء: لا تحقرن منياً يخرج منك مثلك.. - يعني الجماع..، فأطول الناس أعماراً الخصيان، ولم يُرَ فيما يعايش الناس أعمر من البغال، / ولا أقصر عمراً من العصافير... ١٣/أ

وقال: اجتمعت الغرب والعجم على أربع كلمات.. قال: لا تحملن قلبك ما لا يطيق.. ولا تعملن عملاً ما ليس لك فيه راحة.. ولا تثق بامرأة.. ولا تغتر بمال وإن كثر...

ودخل عبد الله بن الزبير على معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، وابنة له تموج على صدره.. فقال: أمطها عنك يا أمير المؤمنين، فوالله إنهن ليقربن الأعداء، ويورثن الغرباء.. فقال معاوية: يا ابن الزبير، فوالله، ما مَرَضَ المرضي، ولا ندب الموتى، ولا بر الأحياء، كهن.. قال ابن الزبير:

(١) ساقطة من الأصل، وإثباتها يقتضي السياق لإتمام المعنى...

والله، لقد دخلت عليك وما على الأرض أبغض إليّ منهن، وإن لا أخرج من عندك، وما على الأرض أحب إليّ منهن...

وأوصى رجل ابنه، فقال: يا بني، اعص هواك والنساء، واصنع ما شئت...

ولقي عيسى ابن مريم عليه السلام، إبليس - لعنه الله - وهو يسوق أربعة حمير عليها رحال.. فسأله، ما تحمل..؟.. فقال: أحمل تجارة وأطلب مشترين.. أما أحدهما: فالجور.. قال: من يشتريه..؟.. قال: السلاطين.. قال: فما الثاني..؟.. قال: الحسد.. قال: ومن يشتريه..؟.. قال: العلماء.. قال: فما الثالث..؟.. قال: الخيانة.. قال: ومن يشتريها..؟.. قال: التجار.. قال: فما الرابع..؟.. قال: الكيد.. قال: ومن يشتريه..؟.. قال: النساء...

وقيل لمالك بن دينار: لو تزوجت..؟.. فقال: لو استطعت لطلقت...

وقال ابن المقفع لرجل ولدت له جارية: بارك الله لك في الآية المستفادة، وجعلها لك بركة ومنفعة، وجعلها لك ديناً، وأجزي لك بها خيراً، فلا تكرهها، فإنهن: الأمهات، والأخوات، والعلمات، والخالات، ومنهن الباقيات الصالحات...

ومر أعرابي بقوم يدفنون امرأة، فقال: نَعَمْ الصهر صاهرتم^(١)، تأمنون منها العار، وتكفون منها/ المؤونة، وما المضمنون به من النساء أكرم من قبر...

وسئل ابن سيرين رحمه الله عن النساء..؟.. فقال: هُنَّ مفاتيح الفتن، ومخازن الحزن، إن أَحْسَنْتَ إليك منت عليك، تُفْشِي سرك، وتُهْمِلُ أمرك، وتميل إلى غيرك...

(١) يقصد بالصهر القبر...

ومن كلام العرب: لا تأمن قارئاً على صحيفة، ولا شاباً على امرأة،
ولا امرأة على سر...

وقالت الحكماء: لا تثق بامرأة، ولا تغتر بمال وإن كثر...
وقال جالينوس: إياك ومصاحبة النساء، فإن منهن ما يذهب بصرك،
ويزيل عقلك، ويدني هرمك...

وقيل: النساء... ريحان بالليل، وشوك بالنهار...
وقيل: النساء كالفاكهة... فالفاكهة لا تطيب إلا بالغسل، والمرأة لا
تطيب إلا بالضرب...

وأرسل معاوية إلى الأحنف، فقال: يا أبا بحر، ما تقول في
الولد...؟ قال: ثمار قلوبنا، وعماد ظهورنا، ونحن لهم أرض ذليلة، وهم
طليلة، فإن طلبوا فأعطهم، وإن غضبوا فأرضهم، يمنحوك ودهم، ويحبوك
جهدهم، ولا تكن عليهم ثقیلاً فيملوا حياتك، ويحبوا وفاتك... فقال: والله
يا أحنف، لقد دخلت عليّ وإني لمملوء غضباً على يزيد، فسَلَلْتُه من قلبي،
فلما خرج الأحنف من عنده، بعث معاوية إلى يزيد مائتي ألف درهم، ومثني
ثوب، شاطره إياها محمد بن إسحاق الإسماعيلي، وقال: إن تسمني، وإلا
فصنت احتماله وسخطه، ومن يأبى المذلة يعذر، فها أنا أسترضيه، لا من
جناية جنيت، ولكن من تجنيه فأغفر^(١)...

وقالت حكماء الهند: المرأة غل، فانظر ماذا تضع في عنقك...
وخطب بعض الظرفاء خطبة/ نكاح، فقال: أن الحمد لله الذي جعل
في الطرق اختلافاً للأرزاق، وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا
مِنْ سَعَتِهِ﴾^(٢)... أوصيكم عباد الله بالسلوى، والملاية، والتجني، والجهالة،
وقد قال الشاعر:

أ/١٤

(١) يوجد تكرار واضح، ولا ندري أمن المؤلف، أم سهو من الناسخ... والله أعلم...

(٢) سورة النساء - الآية ١٣٠...

اذهبي قد قضيت منك قضاتي وإذا ثنيتي إن بينتي فبينتي

فعاهدوا نساءكم بالسب، وعودوهن بالضرب، وكونوا كما قال الله تعالى: ﴿وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ﴾^(١) . . ثم إن فلاناً في خمول، ونسيان، ونقصان أدب، فإن غدوا فيه، فرق الله بينهما، وجعل الله تعالى لهما حينهما . . .

وقد قال زيد بن علي لابنه: يا بني، إن الله لم يرضك، فأوصلك بي ورضيني لك، واعلم . . أن خير الآباء من لم تدعه المودة إلى التفريط، وخير الأبناء للآباء من لم يدعه التقصير إلى العقوق . . .

وقال الطائي:

إنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشي على الأرض

والنساء الأشرار من يضرب بها المثل . . .

● - أشأم من البسوس^(٢) . .

● - أحمق من ودغة^(٣) . . .

● - أزنئ من ظلمة^(٤) . . .

● - أصلع من أم قرفة^(٥) . . .

(١) سورة النساء - الآية ٣٤ . . .

(٢) انظر: مجمع الأمثال - للميداني برقم /٢٥٢٨/، والفاخر في الأمثال - للمفضل بن سلمة ٩٣/١، والمستقصى في الأمثال - للزمخشري ١٧٦/١ و١٧٧، وأما البسوس فهي: سبة بنت منقذ التميمية . . .

(٣) انظر: مجمع الأمثال - للميداني برقم /١١٧٨/، والفاخر في الأمثال - للمفضل بن سلمة ١٣٤/٢ و٤٩٥، وأما ودغة، فهي: مارية بنت مفيخ، وتلقب بدغة وليس ودعة وهذا تصحيف في بعض المراجع . . .

(٤) انظر: مجمع الأمثال - للميداني برقم /٢٩٥١/، والمستقصى في الأمثال - للزمخشري ٢٨٧/١، جمهرة الأمثال - للعسكري ١٣١/٢، وكانت ظلمة توصي قائلة: إذا مت فأحرقوني، وأتربوا كُتَبَ الأحباب بالرماد، فإنهم يجتمعون لا محالة . . .

(٥) انظر: مجمع الأمثال - للميداني برقم /٢٦٠٧/، والمستقصى في الأمثال - للزمخشري ٢٤٥/١، وجمهرة الأمثال - للعسكري ٦٦/٢، وهي: فاطمة بنت ربيعة بن بدر الفزارية، =

● - أدجى من زرقاء اليمامة^(١) . . .

- والبسوس : جارة جساس بن مرة بن ذهل بن شيان، ولها كانت الناقة، والذي قتل من أجلها كليب بن وائل، وبها ثارت حرب بكر وتغلب، والتي يقال لها: حرب البسوس . . .

- وأم قرفة: امرأة مالك بن حذيفة بن بدر الفزاري، وكان يتعلق في بيتها خمسون سيفاً، كل سيف منها بمحرم لها . . .

- ودغة: امرأة من عجل بنت تخيم، / تزوجت من بني العنبر بن عمر بن تميم^(٢) . . . ١٤/ب

- وزرقاء اليمامة: امرأة كانت باليمامة تبصر الشعرة البيضاء في اللبن، وتنظر الراكب على مسيرة ثلاثة أيام، وكانت تنذر قومها بالجيوش إذا غزتهم، فلا يأتيهم جيش إلا وقد استعدوا له، حتى احتال عليها بعض من غزاهم، فأمر أصحابه، فقطعوا شجراً، وأمسكوها أمامهم بأيديهم. ونظرت الزرقاء، فقالت: إني رأيت شجراً قد أقبلت إليكم . . فقالوا: خرفتي وذهب عقلك ودق بصرك . . فكذبوها . . فصباحتهم الخيل فأغار عليهم، وقتلوا الزرقاء،

= روي: أنه كان يُعلق في بيتها خمسون سيفاً لخمسين محرمًا لها كلهم فارس شجاع . . .
(١) انظر: مجمع الأمثال - للميداني برقم ٥٧٤/، وجمهرة الأمثال - للعسكري ٢٤١/١، وفي الباب: أحكم من زرقاء اليمامة . . وذلك لما اشتهرت بحكمتها . . وأيضاً: أبصر من زرقاء اليمامة . . .

(٢) روي أنه من حمقها، أنها زُوِّجَتْ صغيرة من بني العنبر بن تميم، فحملت، فلما ضَرَبَهَا المخاض ظَنَّت أنها تُريد الخلاء، فَبَرَزَتْ إلى بعض الغيطان، فولدت، فاستهلَّ الولدُ، فانصرفت تُقَدِّرُ أنها أُحْدِثَتْ، فقالت لَصُرَّتْهَا: يا هَنَاهُ، هل يَفْقَرُ الجَعْرُ فاه . . ففطنت . . فقالت: نعم، ويدعو أباه . . فَمَضَتْ الضَّرَّةُ وأخذت الولد . . وأيضاً من حمقها، أنها نظرت إلى يافوخ وَلَدِهَا وهو يضطرب، وكان قليل النوم كثير البكاء. فقالت لَصُرَّتْهَا: أعطيني سكيناً . . فناولتها وهي لا تعلم ما تُريد. فمضت وشَقَّتْ يافوخ ولدها، فأخرجت دماغه. فلحقتْها الضَّرَّةُ، فقالت: ما تصنعين . .؟ . . فقالت: أخرجت هذه المِدَّة - القيح - من رأسه ليأخذه النوم، فقد نام الآن.

وشقوا عينيها، فوجدوا عروق عينيها قد غرقت بالأثمد من كثرة ما كانت تكتحل به . . .

- وظلمة امرأة من هذيل، زنت أربعين عاماً، وقادت أربعين عاماً، فلما عجزت عن الزنا والقواد، اتخذت تيساً وعنزاً، فكانت تُلقي التيس على العنز، .. فقيل لها: لِمَ تفعلين ذلك ..؟ .. قالت: حتى أسمع أنفاس الجماع . . .

وقد ورد فيهن ما لا يحصى من الأخبار، والاقتصار يغني عن الإكثار، وبالله التوفيق، وبه الاستعانة، وقد جعلت القصيدة على وضع الأبيات، فكل بيت منها نذكر تحته ما يعضدنا على صحة ما ذكرنا فيه من الكتاب العزيز، وما نُقل من التواريخ وغيرها . . .

* * *

قصة آدم

- ٢٠ - فِيهِنَّ جُرْعَ آدَمَ مِنْ الْمَآكِلِ وَالْمَشَارِبِ
٢١ - أَنْزَلْنَاهُ بِخِدَاعِهِنَّ وَمَكْرِهِنَّ عَنِ الْمَرَاتِبِ
٢٢ - وَتَرَكْنَاهُ لَا يَسْتَفِيقُ مِنَ الْمَصَائِبِ وَالنَّوَائِبِ
٢٣ - وَغَدَا لَذَا الدُّنْيَا حَزِينًا بَاكِيًا مِنْهُنَّ تَائِبًا

قال المفسرون وأصحاب التاريخ :

لما سكن آدم وحواء الجنة، أباح الله سبحانه وتعالى لهم نعيم الجنة كلها، إلا شجرة واحدة، وذلك قوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ (١) . . . أي : اتخذوها مأوى ومنزلاً . . معناه : استقر مكانك ولا تتحرك . . والرغد : أن يأكل منها ما شاء، إذا شاء، حيث شاء . . والشجرة في اللغة : ما لها ساق . . والنجم : ما ليس له ساق . . قوله تعالى : ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ (٢) . . قال ابن عباس رضي الله عنه، ووهب : إنها سنبلة . . وقال ابن مسعود، والسدي : هي الكرم . . وقال ابن جريج : إنها التين . . وقيل :

(١) سورة البقرة - الآية ٣٥ . . .

(٢) سورة الرحمن - الآية ٦، وقال حسين مخلوف في كلمات القرآن : النَّجْمُ : هو النبات الَّذِي يَنْجُمُ وَلَا سَاقَ لَهُ . . .

إن بعض أهل حضرموت وجدوا في أرض كورا^(١)، وفيه سنبلة، فوزنوها فكانت منا بالمكي، وجبها كالبيض.. فأزلهما الشيطان. أي: نحاها. فأكلا ما نهاهما ربهما عن أكله، وحسن لهما معصية الله تبارك وتعالى.. وإن إبليس لعنه الله، أراد أن يدخل الجنة ليوسوس لآدم، فمنعه الخزنة، فأتى الحية، وكانت من أحسن الدواب خلقاً، لها أربع قوائم كقوائم البعير، وكانت من خزان الجنة، وكانت لإبليس - لعنه الله - صديقة، فسألها أن يدخل الجنة من فيها، فأدخلته في فمها، ومرت له على الخزنة وهم لا يعلمون، وأدخلته الجنة، ورأى ما فيها من النعم والكرامة، وكان إبليس لما دخل الجنة، فوقف على باب الجنة يتعبد هناك ثلاثمائة سنة، وعرفوه بها، ولم يخرج إليه خلق منها، وجاء حتى وقف بين يدي آدم وحواء عليهما السلام، وهما لا يعلمان أنه إبليس، فناح عليهما نياحة أحزنتهما.. وبكى، وهو أول من ناح.. فقالا له: ما يبكيك..؟.. فقال: أبكي عليكما، تموتان وتفارقان ما أنتما عليه من النعمة والكرامة. فوقع كلامه في قلوبهما.. فقال: ﴿يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾^(٢).. / قال: نعم.. قال: كُلْ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ.. قال: نهاني عنها ربي.. قال إبليس: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾^(٣).. فأبى أن يقبل منه - ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾^(٤).. فاغترا بذلك.. وما كانا يظنان في أن أحداً يحلف بالله تعالى كذباً، فبادرت حواء إلى الأكل من الشجرة، ثم ناولت آدم حتى أكل..

١٥/ب

وروي في الحديث، قال: سمعت سعيد بن المسيب يحلف بالله، ما

(١) الكورة: الحفرة...

(٢) سورة طه - الآية ١٢٠...

(٣) سورة الأعراف - الآية ٢٠...

(٤) سورة الأعراف - الآية ٢١...

يستثني أن آدم ما أكل من الشجرة وهو يعقل، ولكن حواء أسقته الخمر حتى سكر، فنادته إليها، فأكل^(١) . . .

فلذلك قال رسول الله ﷺ: «الخمر مجمع الخبائث وأم الذنوب»^(٢) . . .

وأنه لما أصاب آدم الذنب، بدت سوءته، وتهافت عنه ما كان عليه من لباس الجنة، فأخذت شجرة العناب بناصيته . . وناداه ربه: أفراراً مني يا آدم . . فقال: لا، ولكن حياءً منك . . .

ولما بدت عورته، وبدت سوءته، طاف بأشجار الجنة، حتى رحمة شجرة التين، فأعطته ورقة، فطفقا . . يعني: آدم وحواء، يخصفان عليهما من ورقة الجنة . . .

وان الحكمة في إخراج آدم من الجنة، أنه كان من صلبه من لا يستحق الولاية، ولا يصلح لحضرة القدس، فإذا أخرجهم من صلبه، عاد إليها . . فقال الله تعالى: ما حملك على ما صنعت . . ؟ . . فاعتل آدم . . فقال: يا رب، زينته لي حواء . . قال: إني قد أعقبتها لا تحمل إلا كرهاً، ولا تضع إلا كرهاً، ودميتها في كل شهر مرة، فرئت^(٣) حواء على ذلك . . ف قيل لها: عليك الرئي^(٤) وعلى بناتك . . .

وقال: ألم أنهكما . . قال: يا رب، أطعمتني حواء . . فقال لحواء: لم أطعمته . . ؟ . . قالت: أمرتني الحية . . فقال للحية: لم أمرتها . . ؟ . .

(١) لا يمكن لسعيد بن المسيب أن يقول ذلك، وذلك لأن من المعروف أن خمر الجنة لا غول فيه، كما بين الله تعالى في كتابه الكريم، أي: أن الغول هو الذي يذهب بالعقل، وخمر الجنة لا غول فيه . . .

(٢) انظر: كشف الخفاء ومزيل الإلباس - للعجلوني ١/ ٣٨٢، رقم الحديث / ١٢٢٥ / قال: رواه القضاعي بهذا اللفظ عن ابن عمرو بسند حسن . . .

(٣) فرئت: صوتت، رفعت صوتها بالبكاء . . .

(٤) الرئي: الخلق جميعهم . . .

قالت: أمرني إبليس.. فقال للحية: تقطع قوائمك، وتمشين جراً على بطنك، ويشرح رأسك كل من لقيك...

قال حوشب: بلغني أن آدمًا/ مكث ثلاثمائة سنة لا يرفع رأسه حياء من الله عز وجل...

وقال ابن عباس رضي الله عنه: بكى آدم وحواء على ما فاتهما من نعيم الجنة مئتي سنة، لم يأكلا، ولم يشربا أربعين سنة...

وأهبط آدم في الهند في وادي سرنديب^(١)، ونزلت حواء بجدة، وأزلفا في المزدلفة^(٢)، واجتمعا وتعارفا بعرفة يوم التروية، وهو اليوم الثامن من ذي الحجة، سمي يوم التروية، لأن جبريل عليه السلام رأى قبة أبونا عليه السلام إبراهيم أول المناسك^(٣)...

وأهبط إبليس بالبصرة، وأهبطت الحية بأصفهان، ولم يفارق آدم حواء مائة سنة، فلما أراد الله تعالى أن يرحم عبده آدم لقنه كلمات، فتاب عليه، إنه التواب الرحيم، وهي قوله: سبحانك، لا إله إلا أنت ويحمدك، عملت سوءاً، وظلمت نفسي، فاغفر لي إنك أنت الغفور الرحيم...

قال الشاعر:

غرتك نفسك ضالة فأبحثها	سبل الرجاء وهن غير قواصد
تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجي	درك الجنان وفوز نيل العابد
ونسيت أن الله أخرج آدمًا	منها إلى الدنيا بذنب واحد

(١) سرنديب: تدعى اليوم سيلان، وهي جزيرة تقع جنوب شرق الهند...

(٢) المزدلفة: موضع بين عرفات ومنى، يبيت فيها الحجاج بعد الإفاضة بعرفات، وعليهم أن يصلوا صلوات المغرب والعشاء، من ٩/ ذي الحجة، وصلاة الصبح من ١٠/ ذي الحجة، ولا يصح أن يفوتها الحاج...

(٣) المناسك: مواضع العبادات، ومناسك الحج، عباداته...

ذكر البكائين

وبكى آدم وحواء عليهما السلام على ما فاتهما من نعيم الجنة مائتي سنة، حتى صار في خديهما شباك، ولم يأكلا ولم يشربا أربعين سنة: . .

وبكى شعيب عليه السلام شوقاً إلى الله تعالى ثلاثمائة سنة، حتى دمت بصره، فأوحى الله تعالى إليه: يا شعيب، أشوقاً إلى جنتي فقد أبحتكها، أو خوفاً من ناري فقد أمنتكها. . فقال: وعزتك وجلالك، بل عقد حبك على قلبي عقدة لا يحلها إلا النظر إليك. . فأوحى الله تعالى إليه بعد أن ردّ بصره: لا آخذ منك/ من يكلمني وأكلمه، فكان موسى عليه السلام. . .

ب/١٦

وبكى يعقوب عليه السلام على يوسف عليه السلام ثمانين سنة، كما قال الله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللّٰهِ تَفْتَوُاْ تَذَكَّرْ يُّوسُفَ﴾^(١) . . الآية . .

وبكى يوسف عليه السلام على أبيه في السجن اثني عشر سنة، حتى ناداه أهل السجن: إمّا تبكي الليل، أو النهار. . فصالحهما على أحدهما. . .

وبكى يحيى عليه السلام، حتى قطعت الدموع لحم خديه. . .
وبكى علي بن الحسين على أبيه أربعين سنة، وما وضع بين يديه طعام إلا بكى. . فقال له أصحابه: يا ابن بنت رسول الله، إنّنا نخاف عليك أن

(١) سورة يوسف - الآية ٨٥ . .

تكون من الجاهلين . . فقال: إنما أشكو بثي وحزني إلى الله تعالى ، فإنني لم أذكر مصرع ابن فاطمة رضي الله عنهما إلا خنقتني العبرة . . .

وبكى داود عليه السلام على خطيئته أربعين سنة ، حتى نبت العشب من دموعه^(١) . . .

* * *

ذكر من خلق محتونا

آدم - وشيت - وإدريس - ونوح - وسام - ولوط - ويوسف - وشعيب -
- وموسى - وسليمان - وعيسى - ويحيى - ومحمد ، صلوات الله تعالى وسلامه
عليهم أجمعين . . .

(١) روى الديلمي : عن سمرة أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كانت خطيئة داود النظر » . انظر : كنز العمال - حديث رقم / ١٣٠٨٢ / . . .

ذكر تاريخ الأنبياء عليهم السلام

من هبوط آدم عليه السلام، إلى هجرة محمد ﷺ، ستة آلاف ومائة وعشرين سنة، منها:

من هبوط آدم عليه السلام إلى الطوفان ألفين ومائتي سنة، ومن الطوفان إلى مولد إبراهيم عليه السلام ثمانين سنة خلت من عمر موسى وهود وقت خروجه إلى بني إسرائيل، ومن مضى خمسمائة وخمسين سنة، ومن خروجهم إلى سنة أربع من ملك سليمان، وذلك ابتداء بيت المقدس ستمائة وثلاثين سنة، ومن بناء المقدس إلى ملك الإسكندر سبعمائة وسبعة عشر سنة، ومن ملك الإسكندر إلى مولد المسيح عليه السلام ثلاثمائة وتسعة وتسعين سنة، ومن مولد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام إلى هجرة النبي رسول الله ﷺ خمسمائة وأربعة وستين سنة. .

قصة قابيل وهابيل

٢٤ - / وَدَّمَ لِهَابِيلَ أَرِيْقَ لِأَجْلِهِنَّ بَغِيرَ وَاجِبِ
٢٥ - وَسَعَى بِهِ حَتَّى وَهَرُ مِنْ حَمْلِهِ مِنْهُ الْمَنَاجِبِ

قال أهل العلم:

إن حواء كانت تلد لآدم عليه السلام، توأمين في بطن، غلاماً وجارية، شيث، فإنها ولدته منفرداً، وكان جميع ما ولدته حواء تسعة وثلاثون ولداً ذكراً وأنثى، في عشرين بطناً، أولهم قابيل وتوأمته اقليما، وآخرهم عبد المغيث وتوأمته أم المغيث، ثم بارك الله سبحانه وتعالى في نسل آدم عليه السلام...

قال ابن عباس رضي الله عنه: لم يمت آدم عليه السلام، حتى بلغ ولده وولد ولده أربعين ألفاً، ورأى آدم عليه السلام فيهم الزنا وشرب الخمر والفساد...

قال بعضهم: غشي آدم عليه السلام حواء بعد مهبطهما إلى الأرض مائة سنة، فولدت قابيل وتوأمته اقليما في بطن، ثم هابيل وتوأمته في بطن...

قال محمد بن إسحاق عن بعض أهل الأول: إن آدم كان يغشى حواء في الجنة قبل أن يصيب الخطيئة، فحملت بقابيل وتوأمته، ولم يجر عليها

وحماً ولا نفاساً، ولا طلقاً حين ولدتهما، ولم ترَ معهما دمًا لطهارة الجنة، فلما أهبطا إلى الأرض واطمأنا، غشاها، فحملت بهابيل وتوأمته، فوجدت الوحَم، والوَصْبَ^(١)، والطلق، والدم^(٢) . . .

وكان آدم عليه السلام إذا شبَّ أولاده، تزوج غلام هذا البطن بالأخرى، ليست التي ولدت معه، فإنها لا تحل له، وذلك لأنه لم يكن نساء إلا أخواتهم وأمهم حواء، فلما ولدت قابيل وتوأمته اقليما في بطن، وهابيل وأخته لبود في بطن، وكان بينهما سنتان في قول الكلبي^(٣) . . .

وأمر الله تعالى آدم عليه السلام، أن قابيل ينكح لبودا أخت هابيل، وهابيل ينكح أخت قابيل اقليما، وكانت من أحسن الناس وجهاً، فذكر ذلك آدم عليه السلام لولده هابيل، فرضي هابيل، وسخط قابيل، وقال: هي أختي، ولدت معي في بطن واحد، وهي أحسن من / أخت هابيل، فأنا أحقُّ بها، ونحن من أولاد الجنة، وهما ولادة الأرض، فأنا أحقُّ بأختي، فقال له أبوه: إنها لا تحل لك، فأبى أن يقبل ذلك منه، وقال: إن الله لم يأمر بذلك، وإنما هو من رأيه، فقال لهما: قَرِّبا قرباناً، فأيكما يُقبل قربانه فهو أحقُّ بها. وكانت القرايين إذا كانت مقبولة، نزلت من السماء نار بيضاء تأكلها، وإذا لم تكن مقبولة لم تنزل النار وأكلتها الطيور والسباع، فجاءوا ليقربا، وكان قابيل صاحب زرع، فقرب سنبلًا من ردى زرعه، وضمّر في نفسه لا أبالي إن تقبل مني أو لا يتزوج بأختي أبداً، وكان هابيل صاحب ماشية، فقرب جملاً سميناً ومن خير غنمه لبناً وزبدة، وضمّر في نفسه الرضى لله سبحانه وتعالى . . .

ب/١٧

(١) وَصَبَ: وجد وجعاً، وقد يطلق على التعب والفتور في البدن . .

(٢) قال الطبري في تاريخه ١/١٤٠، أن قابيل قد رفض تزويج أخته من هابيل، فقال: نحن ولادة الجنة، وهما ولادة الأرض . . .

(٣) الكلبي: هو . . محمد بن السائب الكلبي، اشتهر بالتفسير، وإلى جانب ذلك كان له معرفة بالأنساب والأخبار، ومن أجل كونه اخبارياً كثرت رواياته الإسرائيلية في التفسير والحديث، بل لعل أهم أسباب إكثاره منها كونه يهودي النزعة، فقد كان من أتباع عبد الله بن سبأ اليهودي، وكان يقول عن نفسه: إني سبئي . . .

قالوا: فوضعا قرايينهما على الجبل، ثم دعا آدم عليه السلام، فنزلت نارٌ من السماء، فأكلت النمل والزبدة واللبن، ولم تأكل من قربان قابيل شيئاً لأنه كان غير زاكي القلب، فذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾^(١) . . .

فنزلوا عن الجبل، وتفرقوا، وقد غضب قابيل لما ردَّ الله تعالى قربانه، وظهر منه الحسد والبغي، ويقال: إن الحسد أول ذنب عُصي الله به في السماء، وأول ذنب عُصي به في الأرض، وقال: فأما في السماء فحسد إبليس لآدم عليه السلام، وأما في الأرض فحسد قابيل لهابيل . . .

وقال بعض أهل التفسير في قوله عز وجل: ﴿رَبَّنَا ارْنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾^(٢) . . . فالذي من الجن إبليس، والذي من الإنس قابيل، وذلك أن إبليس أول من سنَّ الكفر، وقابيل أول من سنَّ القتل، وإنما أصل ذلك كله الحسد، وكان يضمّر ذلك في نفسه، إلى أن أتى آدم عليه السلام مكة ليزور البيت، فلما أراد أن يأتي مكة حرسها الله تعالى، / قال: اللهم احفظ في السماء ولدي بالأمانة . . . فأبت . . . وقال للأرض، فأبت . . . وقال للجبال، فأبت . . . فقال لقابيل - قال: نعم، ترجع ترى أهلك كما يسرك . . .

فرجع آدم عليه السلام، وقد قتل قابيل أخاه هابيل، فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾^(٣) . . . حين حمل أمانة أبيه، ثم خانه . . .

(١) سورة المائدة - الآية ٢٧ . . .

(٢) سورة فصلت - الآية ٢٩ . . .

(٣) سورة الأحزاب - الآية ٧٢ . . .

قال: فلما غاب آدم عليه السلام، أتى قابيل إلى هابيل وهو في غنمه، قال له: لأقتلنك.. قال: ولم..؟.. قال: لأن الله قبل قربانك ورد عليّ قرباني، وتنكح أختي الحسنة، وأنكح أختك القبيحة الدميمة، فتتخذ الناس بأنك خير مني، ويفتخر ولدك على ولدي.. فقال له هابيل: وما ذنبي.. ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ، لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾^(١)...

قال الله تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٢)...

وقال السدي: فلما قصد قابيل هابيل، راح هابيل إلى رؤوس الجبال، ثم أتاه يوماً من الأيام، وهو نائم فوق صخرة، فشدخ بحجر رأسه، فمات... وقال ابن جريج: لم يدر قابيل كيف يقتل هابيل، فتمثل له إبليس لعنه الله، وأخذ طيراً، فوضع رأسه على حجر، ثم شدخ رأسه بحجر آخر...

وكان لهابيل يومئذ عشرون سنة^(٣)، فلما قتله نزل بالعراق، ولم يدر ما يصنع به، لأنه كان أول ميت على وجه الأرض من بني آدم عليه السلام، فقصدته السباع، فحمله في جراب على ظهره سنة تروح، وعكفت عليه الطيور، / والسباع، تنظر متى يرميه فتأكله، فبعث الله تعالى غرابين، فاقتتلا، فقتل أحدهما صاحبه، ثم حفر له بمنقاره ورجليه، ثم ألقاه في الحفرة، وأوراه التراب، وقابيل ينظر إليه، فلما رأى ذلك، قال: ﴿يَا وَيْلَتِي أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾^(٤).. على حمله، لا على قتله...

(١) سورة المائدة - الآية ٢٨...

(٢) سورة المائدة - الآية ٣٠...

(٣) روي: أن قابيل كان عمره خمساً وعشرين سنة، وهابيل كان عمره عشرين سنة...

(٤) سورة المائدة - الآية ٣١...

أخبرنا أبو عبد الله بن محمد، قال: حدثنا المطلب بن عبد الله بن حنظلة المخزومي، قال: لما قتل ابن آدم أخاه، رجفت الأرض بما عليها سبعة أيام، ثم شربت الأرض دمه كما تشرب الماء، فناداه الله تعالى: أين أخوك...؟ قال: ما أدري، ما كنت عليه رقيباً. فقال الله عز وجل: إن صوت دم أخيك ليناديني من الأرض... قال: فلم قتلت أخاك...؟ قال: فأين دمه إن كنت قتلتَه...؟! فحرم الله سبحانه وتعالى يومئذ أن تشرب الأرض دماً من بعده أبداً...

وسُئل رسول الله ﷺ عن يوم الثلاثاء...؟ قال: «يوم دم». فقالوا: فكيف ذلك يا رسول الله...؟ قال ﷺ: «فيه حاضت حواء، وفيه قتل ابن آدم أخاه»^(١)...

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنه: إنا لنجد ابن آدم القاتل يقاسم أهل النار العذاب، قسمة صحيفته، عليه شطر عذابهم...

وعن مسروق، عن عبد الله، عن النبي ﷺ، قال: «لا تُقتل نفس مؤمنة إلا كان على ابن آدم كِفْلٌ منها من دمه لأنه أول من استنَّ القتل»^(٢)...

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قتل قابيل أخاه هابيل، وآدم عليه السلام بمكة، فاشتبكت الشجر، وتغيرت، وحمضت الفواكه، وانتن الماء، واغبرت الأرض، فقال آدم عليه السلام: قد حدث في الأرض

(١) انظر كشف الخفاء - للعجلوني ٣٩٧/٢، برقم /٣٢٥٥/ وفيه: الثلاثاء يوم بأس وحديد، وأيضاً: يوم الثلاثاء يوم دم وفيه ساعة في اجتمع فيها لم يرقأ،.. الخ، وروى مسلم عن أبي هريرة قال: في خلق الأشياء، من الحديث: خلق المكروه يوم الثلاثاء...

(٢) روى البخاري في كتاب الأنبياء، باب: خلق آدم وذريته برقم /٣٣٣٥/، ومسلم في كتاب القسامة، باب: إثم من سن القتل، برقم /١٦٧٧/، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «ما من نفس تُقتل ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ من دمها، لأنه أول من استنَّ القتل»...

حادث . فأتى الهند، فإذا قابيل قد قتل هابيل، فأنشد يقول، وهو أول من قال الشعر:

أ/١٩ / تَغَيَّرَتِ الْبِلَادُ وَمَنْ عَلَيْهَا فَوَجَّهُ الْأَرْضِ مُغْبِرٌ قَبِيحُ
تَغَيَّرَ كُلُّ ذِي طَعْمٍ وَلَوْنٍ وَقَلَّ بَشَاشَةُ الْوَجْهِ الصَّبِيحُ
وَقَابِيلُ أَذَاقَ الْمَوْتَ هَابِيلَ فَوَاسِفًا لَقَدْ فَقَدَ الْمَلِيحُ^(١)

وقال سالم الجعدي: لما قتل قابيل هابيل، مكث آدم عليه السلام مائة سنة حزينا لا يضحك، ثم أُوتي إليه . ف قيل له: حباك الله ونباك - أي، أضحكك - . ولما مضى من عمر آدم عليه السلام مائة وثمانون سنة، وذلك بعد أن قُتل هابيل بخمسين سنة، ولدت له حواء شيثاً، وتفسيره - هبة الله - يعني: أنه خلق من هابيل، وعلمه ساعات النهار والليل، وولي عهده، واتخذ ولد قابيل آلات اللهو، مثل: الطبول، والمزامير، والعيدان، والطنابير، وشرب الخمر، وعبادة النار، والفواحش، حتى أغرقهم الله تعالى بالطوفان أيام نوح عليه السلام . . .



(١) ورد البيتان الأولان في قصص القرآن - جاء المولى، ص ٥٠، وفي تاريخ الطبري ١/١٤٥، وروي: أن العلماء قد رووا هذين البيتين عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأن قائلهما هو آدم عليه السلام، وذلك لما قتل قابيل أخاه هابيل، ولقد زاد البعض على الأبيات الثلاثة، بيتان آخران، هما . . .

وما لي لا أجود بسكب دمعي وهابيل تضمنه الضريح
أرى طول الحياة علي غما فهل أنا في حياتي مستريح

قصة هاروت وماروت

٢٦ - وَكَذَا لِهَارُوتَ وَمَارُوتَ الْعَذَابَ بِهِنَّ وَاصِبٌ^(١)

قال المفسرون^(٢):

إن الملائكة لما رأت ما يصعد إلى السماء من أعمال بني آدم الخبيثة، وذنوبه الكثيرة، وذلك كان في زمن إدريس عليه السلام، فعيروهم في ذلك، ودعوا عليهم، فقالوا: هؤلاء الذين خلفتهم في الأرض واخترتهم يعصونك..

(١) إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكٍ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحَرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.. سورة البقرة - الآية ١٠٢...

(٢) ذكرت هذه الرواية في تفسير الألوسي المسمى: روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني، وهذا التفسير يُعد من أشد الكتب نقداً للإسرائيليات، فكان الألوسي يذكر الأخبار من دون تصديق أو شغف بها، بل للتنبيه عليها، ونجده في تفسير الآية ١٠٢ من سورة البقرة، يذكر ما روي من أن الملائكة تعجبت من بني آدم... إلخ، وذلك كما وردت القصة هنا، وقد أنكر الألوسي ذلك، ثم قال: هذا ومن قال بصحة هذه القصة في نفس الأمر وحملها على ظاهرها فقد ركب شططاً، وقال غلطاً، وفتح باباً من السحر يضحك الموتى، ويبكي الأحياء، وينكس راية الإسلام، ويرفع رؤوس الكفرة الطغام، كما لا يخفى ذلك على المنصفين من العلماء المحققين...

فقال الله سبحانه وتعالى : لو أنزلتكم الأرض ، وركبت فيكم ما ركبت فيهم ،
لفعلتم مثل ما فعلوا . . فقالوا : سبحانه ربنا ما ينبغي لنا أن نعصيك . فقال
الله سبحانه وتعالى : فاختروا ملكين من خياركم أهبطهما إلى الأرض . . .

قال : فاختروا هاروت وماروت ، وكانا من أصلحهم وأعبدهم . قال :
فركب الله سبحانه وتعالى فيهم الشهوة التي ركبها في بني آدم عليه السلام ،
وأهبطوا إلى الأرض ، وأمرهم أن يحكموا بين الناس بالحق ، ونهاهم عن
الشرك والعمل بغير الحق ، والزنا ، وشرب الخمر . . .

فجعلوا يحكمان بين الناس ، حتى جاءتهم امرأة من أحسن الناس /
وأجملهم ، تُخاصم زوجها . . قال : فكانا يقضيان بين الناس يومهما ، فإذا
أمسيا ذكرا اسم الله الأعظم ، وصعدا إلى السماء . . .

ب/١٩

قال قتادة : فما مرَّ عليهما شهر حتى افتتنا . قالوا : وذلك أنه اختصمت
إليهم الزهرة ذات يوم ، وكانت من أجمل الناس . . .

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، عنها : كانت من أهل فارس ،
وكانت ملكة في بلدها ، فلما رأياها أخذت بقلوبهما . فقال أحدهما للآخر :
هل سقط في نفسك مثل الذي سقط في نفسي . ؟ . قال : نعم . . قال : فهل
لك أن تقضي على زوجها . . فقال له صاحبه : أما علمت ما عند الله من
العقوبة والعذاب . . فقال له صاحبه : أما علمت ما عند الله من العفو
والرحمة . . فسألاها نفسها . . فقالت : لا ، إلا أن تقضيا لي علي زوجي . .
فقضيا لها . ثم سألاها نفسها . . فقالت لهما : لا ، إلا أن تقتلوه ، فأفرغ
لكما . . فقال أحدهما للآخر : أما تعلم ما عند الله تعالى من العقوبة
والعذاب . . فقال له صاحبه : [أما تعلم] ^(١) ما عند الله من الرحمة
والمغفرة . . فقتلاه ، ثم سألاها نفسها . . فقالت : لا ، إن لي صنماً أعبد ، إن

(١) ساقطة من الأصل وإثباتها يقتضي السياق لإتمام المعنى . . .

أنتما صليتما معي عنده.. فعلت.. فقال أحدهما لصاحبه مثل القول الأول.. وقال له صاحبه مثل قوله الأول.. فصليا معها عنده، فمسخت عند ذلك شهباً...

وقيل: إنهما ألحوا عليها لما وقع في قلوبهما منها، إلا أن تعبدا ما أعبد، وتصليا لهذا الصنم، وتقتلا النفس، وتشربا الخمر.. فقالا: لا سبيل إلى تلك الأشياء، فإن الله نهانا عنها، فانصرفت. ثم عادت في اليوم الثالث، ومعها قدح خمر، وعرضا أنفسهما من الميل إليها، وفي أنفسهما من الميل إليها ما فيها، فراوداها على نفسها، فعرضت/ عليهم ما قالت بالأمس. فقالا: الصلاة لغير الله [أمر]^(١) عظيم، وقتل النفس [أمر]^(٢) عظيم، وأهون الثلاثة شرب الخمر، فشربا، فانتشيا، ووقعوا بالمرأة، فزنيا، فلما فرغا رآهما إنسان فقتلاه....

قال الربيع بن أنس: وسجدوا للصنم، فمسخهما الله كوكباً... وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إنما قالت: لن تدركاني حتى تخبراني بالذي تصعدان به إلى السماء. فقالا: بسم الله الأعظم الأكبر. فقالت: فما أنتما مدركاني حتى تعلمانيه...؟.. قال أحدهما لصاحبه: إني أخاف الله تعالى.. فقال الآخر: فأين رحمة الله تعالى.. فعلمها ذلك.. فتكلمت، فصعدت إلى السماء، فمسخهما الله تعالى كوكباً...

قال الأستاذ: فعلى قول هؤلاء [هي]^(٣) الزهرة بعينها، وقيدوها.. قال: وهي الكوكبة الحمراء، واسمها بالفارسية «نَاهِيكَ»، وبالنبطية «بِيدُخَتْ» ويدل على صحته هذا القول.. قال: كان النبي ﷺ إذا رأى سهيلاً قال:

(١) ساقطة من الأصل وإثباتها يقتضي السياق لإتمام المعنى...

(٢) ساقطة من الأصل وإثباتها يقتضي السياق لإتمام المعنى...

(٣) ساقطة من الأصل وإثباتها يقتضي السياق لإتمام المعنى...

«لعن الله سهيلاً، لأنه كان عشاراً، ولعن الله الزهرة لأنها فتنت ملكين»^(١)...

وقال مجاهد: كنت مع ابن عمر ذات ليلة، فقال لي: انظر الكوكبة - يعني الزهرة - فإذا طلعت فأيقظني. فلما طلعت أيقظته.. فجعل ينظر إليها ويسبها سباً شديداً. فقلت: يرحمك الله، تسب نجماً ساطعاً سامعاً مطيعاً.. فقال: إن هذه كانت بغياً، فلقي الملكان منها ما لقيا..

وكذلك قال ابن عباس رضي الله عنه: وإنما كانت التي فتنت هاروت وماروت امرأة حسناء تسمى الزهرة من جمالها، فلما بغت مسخها الله شهاباً، فلما رأى رسول الله ﷺ الزهرة، ذكر هذه المرأة لموافقة الاسمين، فلعنهما. وكذلك سهيل العشار، / وكان رجلاً، فلما رأى رسول الله ﷺ النجم، ذكره، فلعنه... ٢٠/ب

قالوا: فلما أمسى هاروت وماروت بعدما فارقا الذنب، هما بالصعود إلى السماء، فلم تطاوعهما أجنحتهما، فلما علما ما حل بهما، قصدا إدريس

(١) انظر: كشف الخفاء - للعجلوني ج ٢، ص ٣٢٩، حديث رقم /٢٨٧١/ قال: هاروت وماروت وقصتهما مع الزهرة، رواه أحمد وابن حبان وابن السني وآخرون عن ابن عمر رضي الله عنه مرفوعاً، وفي سنده موسى ابن جبير، قال فيه ابن القطان لا يعرف حاله، وقال ابن حبان: يخطيء ويخالف.. وفيه القصة والحديث... فائدة:

إن السحر عُدٌّ من الموبقات، وحُدُّ الساحر القتل، لأنه كَفَرَ بالله أو ضَارَعَ الكفر، وروي عن بجاله بن عبد الله، قال: أتانا كتاب عمر رضي الله عنه قبل موته بسنة، أن اقتلوا كل ساحر وساحرة.. كما أن السحر هو في عرف الشرع: كل أمر يخفى سببه ويتخيل على غير حقيقته، ويجري مجرى التمويه والخداع. والسحر اصطلاحاً: مزاوله النفوس الخبيثة لأفعال وأقوال يترتب عليها أمور خارقة للعادة.. وعند العلماء على قسمين: طائفة قالت: إن السحر تخييل لا حقيقة له.. وأخرى قالت: السحر به حقيقة.. وقال بعض الفقهاء: السحر كلام يعظم به غير الله، وينسب إليه المقادير والكائنات، وقيل: هو عقد ورقى وكلام يتكلم به الساحر أو يكتبه أو يعمل شيئاً يؤثر في بدن المسحور أو قلبه أو عقله من غير مباشرة له.. وفي الحديث: «ثلاثة لا يدخلون الجنة، مدمن خمر، وقاطع رحم، ومصدق بالسحر». رواه أحمد في المسند ٣٩٩/٤، وقال: صحيح ووافقه الذهبي في التلخيص...

عليه السلام، فأخبراه بأمرهما، وسألاه أن يشفع لهما عند الله تعالى، وقالوا: إنا رأيناك يصعد لك من العبادة مثل ما يصعد لجميع أهل الأرض، فاشفع لنا إلى ربك... ففعل إدريس عليه السلام، فخيرهم الله تعالى بين عذاب الدنيا، وبين عذاب الآخرة، فاختروا عذاب الدنيا، إذ علما أنه ينقطع، فهما ببابل يُعذبان...

واختلف العلماء في كيفية عذابهما:

قال ابن مسعود رضي الله عنه: هما معلقان بنحورهما إلى يوم القيامة...

وقال قتادة: كُبلًا من أقدامهما إلى أصول أفخذهما...

وقال مجاهد: ملئت جبًّا ناراً فجعلوا فيها...

وقال عمير بن سعيد: هما معلقان منكسان في السلاسل، يُضربان بسياط الحديد...

وروي أن رجلاً أراد أن يتعلم السحر، فقصد هاروت وماروت، فوجدتهما معلقين بأرجلهم، مزرقة أعينهما، مسودة جلودهما، ليس بين ألسنتهما وبين الماء إلا أربع أصابع، وهما يُعذبان بالعطش، فلما رأى ذلك، هاله مكانهما... فقال: لا إله إلا الله، وقد نهى عن ذلك الله، فلما سمعا كلامه، قالوا له: من أنت...؟ قال: رجل من الناس... قالوا: ومن أي أمة أنت...؟ قال: من أمة محمد ﷺ... قالوا: وقد بُعث محمد ﷺ... قال: نعم... قال: فحمداً الله تعالى، وأظهرا الاستبشار. قال: ومما استبشاركما...؟ قالوا: لأنه نبي الساعة، وقد دنا انقضاء عذابنا...

* * *

قصة نوح عليه السلام

٢٧ - وَكَذَا أَبُونَا نُوحٌ أَصْبَحَ مِنْ عَصَائِبِهِنَّ شَائِبَ

٢٨ - مِنْهُنَّ أَلْقَى نَفْسَهُ فِي السُّفْنِ فَوْقَ اللُّجِ رَاكِبَ

أ/٢١ / وأما نوح عليه السلام، وهو أول نبي بعد إدريس عليه السلام، وكان نجاراً، بعثه الله تعالى إلى قومه وهو ابن خمسين سنة، فنجاه الله تعالى والذين معه^(١) . . .

قال ابن إسحاق: يعني بنيه الثلاثة: سام، وحام، ويافث، وأزواجهم، وستة أناس ممن كان قد آمن به، وحملهم في الفلك، وهي: السفينة.

وقال الكلبي: كانوا ثمانين إنساناً، أربعون رجلاً، وأربعون امرأة. . .
وعن وهب بن منبه، قال: لما أمر نوح عليه السلام أن يحمل من كل زوجين اثنين، قال: كيف أصنع بالأسد والبقرة. . ؟. . وكيف أصنع بالعقاب والذئب. . ؟. . وكيف أصنع بالحمائم والهر. . ؟. . قال: من ألقى بينهم العداوة. . ؟. . أنت يا رب. . قال: فأني أولف بينهم حتى لا يضاروا، فحمل السباع والدواب في الطبقة الأولى، وألقى الله تعالى الأسد وأشغله

(١) انظر قصص الأنبياء - لابن كثير ص ٧٩، وقصص الأنبياء - محمد جاد المولى ١٣، وانظر: تفسير النهر الماء لأبي حيان التوحيدي ٦٦/٢ . . .

بنفسه عن الدواب، وكذلك الفيل، وأما الكلب فمحموماً وإن طال عمره، إلا
إنما حمي عن أسد الورد... .

ثم بعث الله سبحانه وتعالى جبريل عليه السلام ليعلم نوحاً صنعة
الفلك، فكان نوح عليه السلام يقطع الخشب، ويضرب الحديد، وجعل قومه
يمرون عليه وهو في عمله ذاك، ويسخرون منه، ويقولون: يا نوح، صرت
نجاراً بعد النبوة... ويقولون: ألا ترون إلى هذا المجنون، يريد أن يتخذ بيتاً
يسير به على الماء، ويضحكون منه... .

وذلك قوله عز وجل: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ
سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ، فَسَوْفَ
تَعْلَمُونَ﴾^(١)...

وروت عائشة رضي الله عنها، عن رسول الله ﷺ، قال: «لورحم الله
أحداً من قوم نوح، لرحم أم الصبي، وذلك أنها خشيت عليه، وكانت تحبه
حباً شديداً، فخرجت به إلى / الجبل حتى بلغت قمته، فلما بلغ الماء إلى
ترقوتها رفعت يدها، حتى ذهب بها الماء، فلورحم الله أحداً لرحم أم
الصبي»^(٢)...

قيل: لما أحب الله أن يجعل جميع خلقه من بعد الطوفان من صلب
نوح، عقم جميع من يجامع في السفينة من الآدميين، إلا بنيه الثلاثة: سام،
وحام، ويافث... فجميع من في الأرض أعقاب هؤلاء من ولد نوح عليه
السلام...

فلما تم لنوح عليه السلام ألف وأربعمائة وخمسين سنة، حضرته
الوفاة، فأوصى إلى ابنه سام، وجعله خليفته على ولده، ثم توفي... .

(١) سورة هود - الآية ٣٨ و ٣٩...

(٢) انظر: بدائع الزهور في وقائع الدهور - محمد بن أحمد بن إياس الحنفي، نقلاً عن الثعلبي
في أخبار الطوفان، فذكر القصة كلها، ص ٦٩...

قال : وكان عمره عندما بعثه الله تعالى رسولاً إلى قومه مائتين وخمسين سنة، ولبت في قومه رسولاً كما قال الله عز وجل : ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾^(١) . . ثم عاش بعد الطوفان مائتين وخمسين سنة . . .

وكان اسم امرأته : واعلة . . وقال مقاتل : والعة^(٢) . . وكانت امرأة نوح تخبر الناس أنه مجنون، وتطلع الناس على سره، فإذا آمن به أحد، أخبرت الجبابرة من قومها، فكانوا يقتلونهم، فكانت تعطل أموره، وكانت أكفر أهل زمانها، وتقول : لا تصدقوه فإنه مجنون . . .

وكانت السفينة طولها ألف ومائتي ذراع، وعرضها ستمائة ذراع^(٣)، والذراع إلى المنكب، وكانت ثلاث طبقات : طبقة فيها الدواب والوحش، وطبقة فيها الإنس، وطبقة فيها الطير . . .

فلما كثرت أرواث الدواب والوحش، سلخ الفيل خنزيراً أو خنزيرة لتأكل الروث، وخرقت الفأرة السفينة، فعطس الأسد سنوراً أو سنورة فأكل الفأر، وبعث نوح عليه السلام الغراب ليأتيه بخبر نشاف الماء فيه /، فوجد جيفة فوق عليها، فدعا عليه بالخوف، فلذلك لا يألف البيوت، ثم بعث الحمامة، فجاءت بورقة زيتون في منقارها، وطين في رجلها، فعلم أن الماء قد نشف، وطوقها بالخضرة التي في عنقها، ودعا لها بالأنس والأمان، فلذلك تألف البيوت^(٤) . . .

أ/٢٢

(١) سورة العنكبوت - الآية ١٤ . . .

(٢) قال السيوطي في المفحمت ص ١١١، أن اسم امرأة نوح : والهة . . .

(٣) ذكر ابن كثير أن ارتفاع السفينة ثلاثين ذراعاً، وهي ثلاث طبقات كل طبقة عشرة أذرع، ووافقه ابن الأثير، وقال : وطولها ثمانين ذراعاً، وعرضها خمسين ذراعاً، انظر : قصص الأنبياء - لابن كثير ص ٧٨، والكامل لابن الأثير ١/٦٩ . . .

(٤) انظر تفسير ابن جرير، ج ١٢، ص ٢٢، ولم يعقبها بنقد، واكتفى بذكر سنده عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس رضي الله عنه، وانظر أيضاً الإسرائيليات في التفسير والحديث، للدكتور محمد السيد حسين الذهبي، ص ١٢٤ و ١٢٥ . . .

وكانت السفينة من خشب الساج^(١)، وأول ما حمل من الدواب: الدودة، وآخر ما حمل: الحمار ونفس الحمار، فقال نوح عليه السلام: ادخل يا شيطان معه، وهي كلمة زلت على لسانه . . .

وقال أهل التوراة: كان بين الفلك وبين الطوفان أربعون يوماً، وارتفع الماء فوق الجبال خمسة عشر يوماً، ثم مكث الماء على وجه الأرض ستة أشهر وعشر ليال، ونبت الساج أربعين عام، وبقي يعمل في السفينة أربعمئة سنة، واختلف في التنور^(٢) . . .

قيل: إن التنور على وجه الأرض أبخس منه . . .
وقال الإمام علي رضي الله عنه: هو تنور الصبح قبل الشرق . . .
وقيل: التنور الذي يخبز فيه، وهو بمسجد الكوفة ينبع الماء منه . . .
وقيل: كان بالهند . . .

وحمل معه من كل زوجين اثنين، ذكر وأنثى، وغرقت امرأته، وأصاب حام امرأته، في السفينة، فدعا عليه نوح عليه السلام أن يغير نطفته، فجاء بالسودان^(٣) . . .

وكان إذا أراد أن تجري يقول: بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا . . .
وإذا أراد أن ترسي يقول: بِسْمِ اللَّهِ مُرْسَاهَا^(٤) . . .

(١) الساج: شجر من فصيلة «رُغِي الحَمَام» مهددة الأصلي: آسيا الجنوبية، وأندونيسيا، وهو جميل المنظر لكثافته والتفافاته، وينتج منه أحد أجود أنواع الأخشاب الصلبة الشهيرة . . .

(٢) إشارة إلى قوله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ . . . سورة هود - الآية ٤٠، وفار التنور، أي: انبعث بقوة، جاش بشدة، والتنور وجه الأرض كما تسميه العرب - تنوراً، قال ذلك ابن عباس، وكذلك التنور مستوقد النار، أي: تنور الخبز المعروف، قيل هو: بالكوفة، وقيل: بالهند، وقيل: غير ذلك . . . انظر: تاريخ الطبري ١/١٨٦، وتفسير النهر الماء في البحر المحيط لأبي حيان التوحيدي - ٦٦/٢ و٦٧ . . .

(٣) قال ابن كثير: أن نوحاً عليه السلام دعا على ابنه أن تشوه خلقه نطفته، فولد ولداً أسود، وهو كنعان بن حام جد السودان، انظر: قصص الأنبياء - ابن كثير ص ٨٧ . . .

(٤) إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿وَقَالَ أَرَكُبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ . . . سورة هود - الآية ٤١ . . .

وطافت السفينة حول البيت الحرام أربعين يوماً...
قال عكرمة: [وسارت]^(١) السفينة لعشر خلون من رجب، واستوت
على الجودي لعشر خلون من المحرم، ورفع الله تعالى البيت المعمور الذي
كان يحجبه آدم عليه السلام صيانة له من الغرق، وهو البيت المعمور، وخبأ
جبريل عليه السلام الحجر الأسود في جبل أبي قبيس^(٢)، وحج آدم^(٣) عليه
السلام أربعين حجة على قدميه...



(١) ساقطة في الأصل وإثباتها يقتضي السياق لإتمام المعنى...
(٢) جبل أبي قبيس: مشرف على مكة المكرمة من شرقها، قيل: سمي باسم رجل من مذحج،
كان يكنى أبا قبيس لأنه هو أول من بنى فيها قبة...
(٢) المقصود نوح وليس آدم، وذلك تصحيف من الناسخ...

قصة إبراهيم الخليل عليه السلام

٣٠- وَكَذَا الْخَلِيلُ فَلَمْ يَزَلْ مِنْ كَيْدِهِنَّ لَهُ مُغَاضِبٌ

٣١- / مِنْهُنَّ أَلْقَى ابْنَهُ بَيْنَ الْجَنَادِلِ وَالْمَارِبِ ٢٢/ب

واختلف العلماء في الموضع الذي ولد فيه إبراهيم عليه السلام . . .

فقال البعض : كان بأرض الأهواز . . .

وقال بعضهم : كان مولده ببابل من أرض السواد بناحية يقال لها :

توقات^(١) . . .

وقال عامة السلف من أهل العلم : ولد إبراهيم عليه السلام في زمن

نمرود بن كنعان بن كوش، وكان بين الطوفان، وبين مولد إبراهيم عليه

السلام، ألف ومائتا وثلاثة وستون سنة، وذلك بعد خلق آدم عليه السلام

بثلاثة آلاف وثمانمائة وسبعة وثلاثين سنة . . .

(١) توقات : اسم أطلق على بلاد بابل على القسم الجنوبي من بلاد ما بين النهرين، وذلك

لتمييزها عن بلاد آشور، وبابل مدينة قديمة في أواسط ما بين النهرين، تقع أنقاضها على

الفرات، قرب الحلة على مسافة ٨٠ كم / شرقي بغداد، وأما توقات فهي مدينة شمال تركيا

على نهر قزل أرمق . . .

وفي الحديث: «إن ملوك الدنيا أربعة: مؤمنان وكافران، فأما المؤمنان: سليمان بن داود، وذو القرنين.. وأما الكافران: فنمرود، ونبوخذنصر»^(١)...

وكان النمرود أول من وضع التاج على رأسه وتجراً في الأرض ودعا الناس إلى عبادته، وكان له كاهن ومنجمون، فقالوا له: يولد في بلدك هذه السنة غلام يعير دين أهل الأرض، ويكون هلاكك وهلاك ملكك على يديه.. ويقال: إنهم وجدوا ذلك في كتب الأنبياء...

وقال السدي: رأى النمرود في منامه كأن كوكباً طلع، فذهب بضوء الشمس والقمر، حتى لم يبق بهما ضوء، ففزع من ذلك فزعاً شديداً، ودعا السحرة والكهنة، فسألهم عن ذلك...؟... فقالوا: هو مولود يولد في ناحيتك هذه السنة، يكون هلاكك وهلاك أهل بيتك على يديه.. قالوا: فأمر بذبح كل غلام يولد في تلك السنة، وأمر بعزل الرجال عن النساء، وجعل على كل عشرة رجلاً رقيباً أميناً، وإذا حاضت المرأة خلا بينه وبينها إذا أراد الرجل المواقعة، فإذا طهرت عزل الرجل عنها، فرجع آزر ووجد امرأته قد طهرت من الحيض، فوقع عليها، فحملت بإبراهيم عليه السلام...

قال محمد بن إسحاق: بعث النمرود بن كنعان إلى كل امرأة حُبلى في المدينة، فحبسها عنده، / إلا ما كان من أم إبراهيم عليه السلام، فإنها لم تعلم الحبل، وذلك لأنها كانت جارية حديثة السن، لم تعرف الحبل، ولم يتبين لها ما في بطنها... ٢٣/أ

وقال الكاهن للنمرود: إن الغلام الذي أخبرناك به قد حُمِل به الليلة.. فأمر النمرود بذبح الغلمان...

وقال السدي: لما عظم بطن أم إبراهيم، خشي آزر أن يُذبح ولده، فانطلق بها إلى أرض بين البصرة والكوفة يقال لها: أرفة، فنزلها في سرب من

(١) ورد ذكر الحديث في كتاب: تفسير النهر الماء من البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، ص ٢، ص ٣٦٦.. انظر الهامش رقم ٢/ من هذا الكتاب في قصة ذو القرنين...

الأرض، وجعل عندها ما يصلحها، وجعل يتعهدا ويكتم ذلك عن أصحابه . . .

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾^(١) . . أي : وفقناه للحق ، وأنقذناه من عبادة عشيرته ، وهديناه إلى الرشاد ، وهو صغير السن ، وكنا به عالمين . . أي : عَلِمْنَاهُ أَنَّهُ ذُو يَقِينٍ وَإِيمَانٍ بِاللَّهِ تَعَالَى وَتَوْحِيدِهِ . . .

وقال كعب الأحبار، وقتادة، والزهري : ما انتفع أحد من أهل الأرض بنار، ولا أحرقت النار يومئذ شيئاً سوى وثاق إبراهيم عليه السلام ، ولم يبق يومئذ دابة إلا أطفأت عنه النار، إلا الوزغ^(٢)، ولذلك أمر النبي ﷺ بقتله، وسماه فويسقاً، وأقام إبراهيم عليه السلام في النار سبعة أيام^(٣) . . وقال إبراهيم عليه السلام : ما كانت أياماً أطيب من أيامي التي كنت فيها قط . . .

وقالوا : احرقوه . . قيل : إن الذي قال ذلك رجل من الأكراد، كان من أكراد فارس، اسمه هيزر، فخسف الله تعالى به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة، والكرد هم أعراب فارس، ثم بنوا له بيتاً للحريق، وجمعوا

(١) سورة الأنبياء - الآية ٥١ . . .

(٢) روى أبو داود في سننه برقم ٥٢٦٣ / عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «من قتل وزغة في أول ضربة فله كذا وكذا، ومن قتلها في الضربة الثانية فله كذا وكذا، حسنة أدنى من الأولى، ومن ضربها الثالثة فقتلها فله كذا وكذا، حسنة أدنى من الثانية». وورد في مسند ابن أبي شيبه أبو بكر، عن نافع، عن سائبة مولاة الفاكه بن المغيرة أنها دخلت على عائشة رضي الله عنها، فرأت في بيتها رمحاً موضوعاً، فقالت : يا أم المؤمنين، ما تصنعين بهذا . . ؟ . . قالت : نقتل به الأوزاغ، فإن نبي الله ﷺ أخبرنا أن إبراهيم عليه السلام لما أُلقي في النار، لم تكن في الأرض دابة إلا أطفأت عنه النار، غير الوزغ، فإنه كان ينفخ عليه، فأمر رسول الله ﷺ بقتلها . . .

(٣) قيل : إن إبراهيم عليه السلام مكث في السجن مدة شهر كامل، وذلك أثناء جمع الحطب، ومكث في النار سبعة أيام وهو يقول : ما كنت أياماً قط أنعم مني من الأيام التي كنت فيها في النار . . .

له الحطب، حتى أنه كان المريض يقول: إن عوفيت وشفيت، لأجمعن لإبراهيم حطباً، فأضرموها حتى أنها صارت تخطف الطير بخروجها. . .

فلما رفعوه على البنيان، استغاثت الأرض والجبال، وقالت: يا ربنا، إن سيدنا إبراهيم يُحرق. . فقال الله تعالى: أنا أعلم به / فأغيثوه بدعائكم. . ثم رفع إبراهيم عليه السلام رأسه إلى السماء، فقال: اللهم، أنت الواحد في السماء، وأنا واحد في الأرض، لا أحد بعدك غيرك، حسبي الله ونعم الوكيل^(١). . .

٢٣/ب

فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾^(٢). . وكان جبريل عليه السلام الذي صاح بها، ولو لم يتبعها سلاماً لمات من بردها. . .

وقيل: لم يبق يوم الحريق نار في الدنيا إلا أطفئت، لأنها ظنت أن النداء عموم للنار كلها. . فلما رأوه، رأى رجلاً معه آخر يواسي إبراهيم عليه السلام في حجره، يمسح وجهه من العرق، يقال: إنه ملك الظل. . وأدخلوه على النمروذ، ولم يُحرق منه إلا أكتافه. . .

قال إبراهيم عليه السلام: ما نعمت إلا يوم رُميت في النار. . . وقيل: إن أباه لما رُفع الطبق عنه، فنظره يرشح عرقاً. قال: نعم الرب ربك يا إبراهيم. . ولما خرج من النار، قال له النمروذ: يا إبراهيم، من كان الرجل الذي رأيناه معك في مثل صورتك قاعداً إلى جانبك. . ؟. . قال: ذاك ملك الظل، أرسله الله تعالى إليّ يؤنسني فيها. . .

(١) عن أبي بن كعب: أن إبراهيم عليه السلام قال حين أوثقوه ليلقوه في النار: لا إله إلا أنت، سبحانه لك الحمد، ولك الملك، لا شريك لك. ثم رموا به في المنجنيق إلى النار، فاستقبله جبريل عليه السلام، فقال: يا إبراهيم، ألك حاجة. . ؟. . فقال: أما إليك فلا، قال جبريل عليه السلام: فاسأل ربك. . فقال إبراهيم عليه السلام: حسبي من سؤالي علمه بحالي. . .

(٢) سورة الأنبياء - الآية ٦٩. . .

واختار الله تعالى لإبراهيم عليه السلام رجالاً من قومه حين رأوا ما صنع الله تعالى به من جعل النار حين قال: ﴿بَرْدًا وَسَلَامًا﴾. . . فآمن به لوط، وكان ابن أخيه، وهو لوط بن هازان، وآمنت به سارة، وهي ابنة عمه، وهي: سارة بنت هازان الأكبر، عم إبراهيم عليه السلام. . .

قال السدي: كانت سارة بنت هازان قد طعنت على قومها في دينهم، فتزوجها إبراهيم عليه السلام على أن لا يضرها. . .

وقال أبي بن كعب: وكانت سارة من أحسن النساء، وكانت لا تعصي إبراهيم عليه السلام شيئاً. . .

وفي بعض الأخبار: أن النمرود لما سمع بحسنها، أراد أخذها. . . فقال إبراهيم عليه السلام: هي أختي^(١). . . فلما رآها هوى إليها/ ليتناولها، فبيست يده إلى صدره، فلما رأى ذلك. . . عظم أمرها، وقال لها: اسألي إلهك أن يطلق يدي، فوالله لا أؤذيك. . . فقالت سارة: اللهم، إن كان صادقاً فأطلق له يديه. . . فأطلقها الله سبحانه وتعالى، فعل ذلك ثلاث مرات يقصد أن يتناولها فتبيس يده، فلما رأى ذلك ردّها إلى إبراهيم عليه السلام، ووهبها له، ووهب لها هاجر، وهي جارية نبطية^(٢). . .

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات، ثنتين منهن في ذات الله، قوله: «إني سقيم». وقوله: «بل فعله كبيرهم هذا». وقال: بينما هو ذات يوم وسارة، إذ أتى على جبار من الجبابرة، فقيل له: إن ههنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه، فسأله عنها، فقال: من هذه. . .؟ قال: «هي أختي». فأتى سارة، قال: يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإن هذا سألني، فأخبرته أنك أختي، فلا تكذبيني. . . فأرسل إليها، فلما دخلت عليه، ذهب يتناولها بيده، فأخذ. . . فقال: ادعي الله لي ولا أضرك. . . فدعت الله. . . فأطلق. . . ثم تناولها الثانية، فأخذ مثلها أو أشد، فقال: ادعي الله ولا أضرك. . . فدعت، فأطلق. . . فدعا بعض حجبه، فقال: إنكم لم تأتونني بإنسان، إنما أتيتموني بشيطان. فأخدمها هاجر، فأتته وهو قائم يصلي، فأوماً بيده منها، قالت: ردّ الله كيد الكافر - أو الفاجر - في نحره، واخدم هاجر. انظر: البخاري في الفضائل ١١٢/٥، ومسلم في الفضائل ١٨٤٠/٤. . .

(٢) ذكر جودة السحار في كتابه محمد رسول الله والذين معه، أن هاجر هي زوجة فرعون مصر المخلوع. . .

وفي بعض الأخبار: أن الله سبحانه وتعالى رفع الحجاب عن إبراهيم عليه السلام وسارة، حتى كان ينظر إليها، فطيب قلب إبراهيم عليه السلام.. فقالت: إني أراها امرأة مرضية، فخذها لعل الله سبحانه وتعالى يرزقك منها ولداً.. وكانت سارة قد مُنعت الولد حتى يئست، فوقع إبراهيم عليه السلام على هاجر، فولدت له إسماعيل عليه السلام...

وقال السدي، وابن يسار، وغيرهما من أصحاب الأخبار: فحملت سارة بإسحاق عليه السلام، قال: وكانت هاجر قد حملت بإسماعيل عليه السلام، فوضعا معاً، وشبَّ الغلامان، فبينما هما يتناضلان^(١) ذات يوم، وقد كان إبراهيم عليه السلام يسبق بينهما، فسبق إسماعيل، فأخذه، وأجلسه في حجره، وأجلس إسحاق إلى جانبه، وسارة تنظر إليه، فغضبت، وقالت: عمدت إلى ابني فأجلسته إلى جانبك، وإلى ابن الأمة فأجلسته في حجرك، وقد جعلت أن لا تغيرني ولا تسوّني، فأخذ ما يأخذ النساء من الغيرة، فحلفت لتقطعن بضعة منها، ولتغير خلقها، ثم أتى إليها عقلها، فبقيت متحيرة في ذلك، فقال إبراهيم عليه السلام: أحفظيها واثقي أذنيها، ففعلت ذلك، فصارت سنة في النساء...

ثم إن إسماعيل وإسحاق اقتتلا يوماً كما يفعل الصبيان، فغضبت سارة على هاجر، وقالت لها: لا تساكيني في بلد واحد، وأمرت إبراهيم أن يأتي بهاجر وابنها إلى مكة، فذهب بها، / حتى قَدِمَ مكة، حيث دك عصاه، وهي في موضع البيت يومئذ، ربوة حمراء مدرجة، فقال إبراهيم عليه السلام: هاهنا أمرت أن أضعها، فعمد إلى موضع الحجر فأنزلها فيه.. وكانت سارة قد أمرت إبراهيم عليه السلام أن يعزل هاجر، فأوحى الله سبحانه وتعالى إلى إبراهيم عليه السلام أن يأتي بهاجر وابنها إلى مكة، ثم أمر إبراهيم عليه السلام هاجر أم إسماعيل أن تتخذ عريشاً، ثم قال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ

٢٤/ب

(١) يتناضلان: يتباريان في السبق.

ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْتِدَةً
مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿١﴾ . . ثم
انصرف . فاتبعته هاجر ، فقالت : إلى من تكلنا . ؟ . . فجعل لا يرد عليها . .
فقالت له : الله أمرك بهذا . ؟ . . قال : نعم . . قالت : إذاً إن الله تعالى لا
يضيعنا . . ثم انصرف راجعاً إلى الشام . . .

وكان مع هاجر شنة^(٢) فيها ماء ، فنفذ الماء ، فعطشت وعطش الولد ،
فعمدت إلى الصفا^(٣) فصعدت وتسمعت ، هل تسمع صوتاً ، أو ترى أنيساً ،
فلم تسمع شيئاً ، ولم تر أحداً ، ثم إنها سمعت أصوات السباع في الوادي ،
فذهبت نحو إسماعيل وأقبلت إليه بسرعة ، ثم سمعت صوتاً نحو المروة^(٤) ،
ثم صعدت المروة فسمعت صوتاً ، فقالت كالإنسان الذي يكذب سمعه : قد
أسمعني صوتك ، فأغثني فقد هلكت وهلك من معي ، فإذا هم بجبريل عليه
السلام ، فقال لها : من أنت . ؟ . . فقالت : سرية إبراهيم ، تركني أنا وابني
ها هنا . قال : إلى مَنْ وَكَلَكُمَا . ؟ . . قالت : وكلنا إلى الله تعالى كافينا . . ثم
جاء بهما وقد نفذ طعامهما وشرابهما ، حتى انتهى إلى موضع زمزم ، فضرب
بقدمه فعادت عيناً ، فلذلك يقال لزمن ركضة جبريل ، فلما نبع الماء أخذت
هاجر شنة تسقي فيها وتدخره . فقال لها جبريل عليه السلام : قد انهارت . .
فجعلت أم إسماعيل تجعلها حديثاً . . .

قال رسول الله ﷺ : «لو أنها تخوض ، لكانت زمزم ، زمزم عين
معين»^(٥) . . .

(١) سورة إبراهيم - الآية ٣٧ . . .

(٢) شنة : القربة يوضع فيها الماء . . .

(٣) الصفا : موضع في مكة في أصل جبل أبي قبيس . . .

(٤) المروة : هي الحجارة البيض البراقة ، تقدح منها النار ، وبها سميت المزوة بمكة ، وهي
المكان الذي في طرف المسعى . . .

(٥) قطعة من حديث ، عن ابن عباس ، وعين معين ، أي : ظاهراً جرياً على وجه الأرض ، وهذا
القدر صرح ابن عباس برفعه إلى النبي ﷺ ، وفيه إسفار بن جميع الحديث مرفوع . . .

قال لها جبريل عليه السلام: لا تخافين الظمأ على أهل هذه البلدة،
فإنها عين يشرب منها ضيوف الله تعالى . . / وقال لها: أما إن أبا هذا الغلام
سيجيء فيبني الله تعالى بيتاً هذا موضعه . . . ١/٢٥

ومرّت رفقة من جرهم^(١) تريد الشام، فرأوا الطير، فقالوا: إنه حائم
على ماء، فإذا هم بالماء، فقالوا لها: إن شئت كنا معك وآنسناك، والماء
ماؤك. فأذنت لهم، فنزلوا معها، فكانوا أول سكان مكة . . .

وشبَّ إسماعيل، وماتت هاجر، فتزوج إسماعيل من جرهم امرأة،
وأخذ لسانهم، فتعرف بهم، فهؤلاء أولاد العرب المتعربة . . .

ثم إن إبراهيم عليه السلام استأذن [سارة]^(٢) أن يزور هاجر وابنها،
فأذنت له، وقد اشترطت عليه أن لا ينزل إبراهيم عليه السلام مكة، وقد ماتت
هاجر . . .

ويقال: إنه قدّمها راكباً البُراق، فلما قدّمها ذهب إلى بيت إسماعيل،
فقال لامرأته: أين صاحبك . . ؟ . . قالت: ليس هو هاهنا ذهب يتصيد . .
وكان إسماعيل يخرج من الحرم فيصيد ثم يرجع، وكان مخصوصاً بالقنص
والفروسية والرمي والصراع . . فقال إبراهيم عليه السلام: هل عندك
ضيافة . . ؟ . . هل عندك طعام أو شراب . . ؟ . . قالت: ما عندي شيء قط،
ما عندي أحد . . فقال لها إبراهيم عليه السلام: إذا جاء زوجك فأقريه
السلام، وقولي له: فليغير عتبة باب داره . . .

فذهب إبراهيم عليه السلام، ودخل إسماعيل فوجد ريح أبيه، فقال
لامرأته: هل جاءك أحد . . ؟ . . قالت: جاءني شيخ صفته كذا وكذا،

(١) جرهم: هي قبيلة عربية قديمة، قيل: إنها جاءت من اليمن، ومنها العاربة والبائدة، والعاربة
كانت تقيم في مكة . . .

(٢) ساقطة في الأصل وإثباتها يقتضي السياق لإتمام المعنى . . .

كالمستخفة بشأنه . . قال : فما قال لك . . ؟ . . قالت : قال لي : أقري زوجك السلام ، وقولي له : فليغير عتبة بابه . . فطلقها ، وتزوج بأخرى ، ولبت إبراهيم عليه السلام ثم استأذن هاجر أن يزور إسماعيل ، فأذنت له ، وشرطت عليه أن لا ينزل مكة . . .

فجاء إبراهيم عليه السلام ، حتى انتهى إلى بيت إسماعيل ، فقال لامرأته : أين صاحبك . . ؟ . . قالت : ذهب يتصيد ، وهو يجيء إن شاء الله تعالى الآن ، فانزل يرحمك الله تعالى . . فقال لها : هل عندك ضيافة . . ؟ . . / ٢٥ ب قالت : نعم . . فجاءته باللبن واللحم . فدعا لها بالبركة ولو جاءت بخبز بُراً أو شعيراً أو تمرّاً ، [لأكل وشرب] ^(١) ثم شكر . . ثم قالت له : يا ابن أخي ، هلم حتى أغسل رأسك وشعثك . . فلم ينزل ، فجاءته بالمقام ، فوضعتة عن شقه الأيمن ، ورفعت قدميه ، فغسلت شق رأسه الأيمن ، ثم حولت المقام إلى شقه الأيسر ، فغسلته . . فقال لها : إذا جاء زوجك فأقره السلام ، وقولي له : قد استقامت عتبة دارك . . فلما جاء إسماعيل وجد ريح أبيه ، فقال لامرأته : هل جاء أحد . . ؟ . . قالت : نعم ، جاء شيخ حسن الوجه ، طيب الريح ، كبير السن ، فقال لي : كذا وكذا . . وغسلت رأسه ، وهذا موضع قدميه على المقام . . فقال : ذاك والدي إبراهيم عليه السلام . . .

وأقام إبراهيم عليه السلام في السراب الذي ولد فيه خمسة عشر سنة ، ذكره البغوي في تفسيره . . .

وقال أبو الليث السمرقندي في تفسيره : لبت إبراهيم عليه السلام في السراب إلى أن أدرك مدرك الصبيان ، ورمي في النار وهو ابن ست عشرة سنة ، وأقام في النار سبعة أيام ، واختتن بقدميه وله مائة وعشرون سنة ، وبُشِّرَ بإسحاق وله مائة وعشرون سنة ، وكان لسارة يومئذ تسعون سنة ، وتوفي إبراهيم عليه السلام وهو ابن مائة وثمان وتسعين سنة ، وماتت سارة وهي بنت مائة

(١) ساقطة في الأصل وإثباتها يقتضي السياق لإتمام المعنى . . .

وسبع وعشرين سنة بالشام بقرية الجبابرة، فدفنت في مزرعة اشتراها إبراهيم عليه السلام، وكانت هاجر قد ماتت قبل سارة بمكة، ودفنت بالحجر، فلما ماتت سارة، تزوج إبراهيم عليه السلام بامرأة من الكنعانيين يقال لها: قطور بنت يفظن، فولدت له ستة أنفار: نمسان، وزمران، ومديان، وسبق، وسرح، وبني آدم... وتزوج أيضاً امرأة أخرى من العرب اسمها: حجور بنت هيب، فولدت / له خمس بنين: كيسان، وشوزخ، واهيثم، ولوكان، ويافس... فكانوا بني إبراهيم عليه السلام جميعهم بإسحاق وإسماعيل ثلاثة عشر، وأنزل الله تعالى إسماعيل أرض الحجاز، وإسحاق أرض الشام، وفرق سائر ولده في البلاد...

أ/٢٦

قال أهل التاريخ والسير: لما أراد الله سبحانه وتعالى، قبض روح إبراهيم عليه السلام، أرسل إليه ملك الموت في صورة شيخ كئيس...

قال السدي بإسناده: كان إبراهيم عليه السلام كثير الطعام، يطعم الناس ويضيفهم، فبينما هو يطعم الناس ويضيفهم، فإذا هو بشيخ كئيس يمشي إليه في الحبوّة، فبعث إليه بحماره، فركبه حتى إذا أتاه، أطعمه، فجعل الشيخ يأخذ اللقمة يريد أن يدخلها فيه، فيدخلها عينه، ومرة في أذنه، ثم يدخلها فاه، فإذا أدخلها فاه خرجت من دبره، وقد كان إبراهيم عليه السلام قد سأل ربه تعالى أن لا يقبض روحه حتى يكون هو الذي يسأله الموت... فقال له إبراهيم عليه السلام حين رأى ما له: ما بالك يا شيخ تصنع هكذا...؟ قال: يا إبراهيم، الكبر... قال: ابن كم أنت...؟ قال: كيت وكيت... فوجد عمره قد زاد على عمر إبراهيم عليه السلام سنتين... فقال إبراهيم عليه السلام: فإذا بلغت صرت مثلك، إنما بيني وبينك ستان...

قال إبراهيم عليه السلام: اللهم اتبعني إليك... عند ذلك قام الشيخ فقبض روحه، وكان الشيخ ملك الموت، وكان عمر إبراهيم عليه السلام

مائتي سنة . . وقيل : مائة وخمسة وتسعين سنة ، فدفن عند قبر هاجر . . .

وروي في بعض الحديث : أن إبراهيم عليه السلام كان من أغير الناس ، فلما حضرته الوفاة ، دخل عليه ملك الموت في صورة رجل أنكره . فقال له : من أدخلك داري . . ؟ . . قال : الذي أسكنك منذ كذا وكذا سنة . . قال : ومن أنت . . ؟ . . قال : أنا ملك الموت ، جئت لقبض روحك . . فقال إبراهيم عليه السلام : أئذن لي حتى أودع ابني إسحاق . . فأرسل إلى إسحاق ، فلما أتاه ، أخبره ، فتعلق إسحاق بأبيه إبراهيم عليه السلام ، / وجعل ينقض عليه ويبكي . . فخرج ملك الموت عليهما ، وقال : يا رب ، ذبيحك تعلق بخليلك . . فقال الله سبحانه وتعالى : قل له إني أمهلتك . . فقال له . . وانحل إسحاق عن أبيه ، ودخل إبراهيم عليه السلام بيته لينام فيه ، فقبض ملك الموت روحه وهو نائم . . .

* * *

قصة صالح عليه السلام

٢٩ - وَعَقَرْنَ نَاقَةَ صَالِحٍ وَقَتَلْنَ حَمَزَةَ فِي الْكَتَائِبِ

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾^(١) . . وهو :
ثمود بن عاد بن إرم بن سام بن نوح^(٢) ، وأراد هاهنا القبيلة . . .

قال أبو عمرو بن العلاء : سميت ثمود لقلة مائها . . والشمدة : الماء
القليل . . وكانت مساكن ثمود ، والحجر بين الشام والحجاز ، وكانت قصتهم
على ما ذكر محمد بن إسحاق ، عن يسار ، والسدي ، والكلبي ، ووهب ،
وغيرهم من أهل الكتب ، دخل كلاً بعضهم في بعض : إن عاداً^(٣) لما هلكت

(١) سورة الأعراف - الآية ٧٣ . . .

(٢) ورد في كتاب سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب ، محمد البغدادي ص ٣٨ ، قال : فبنو
ثمود من العرب العاربة البائدة ، اشتهرت باسم أبيها ، وبذلك ورد القرآن حيثما ورد ذكرها ،
وكانت مساكنهم بالحجر ، وكانوا ينحتون بيوتهم في الجبال مراعاة لطول أعمارهم إذ كانت
تطول ، وقد بعث الله تعالى إليهم صالحاً عليه السلام رسلاً ، فلم يؤمنوا ، فأهلكهم الله تعالى
بصيحة في السماء كما ورد ذلك في القرآن الكريم ، وتفصيل ذلك في التواريخ والتفاسير ،
وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ مرَّ بالحجر في غزوة تبوك ، فنهى عن دخول
مساكنهم ، وأمر بإراقة ما استسقى من آبارهم ، وأن يستسقوا من البئر التي كانت تردها الناقة . .
وقال في العبر : إن من بقاياهم أهل الرس الذين بعث الله تعالى إليهم حنظلة بن صفوان نبياً ،
وهم قبيلة حضوراً ، والله أعلم . . .

(٣) عاد ، وبنوه قبيلة من العرب العاربة البائدة ، غلب عليهم اسم أبيهم ، وبه ورد القرآن الكريم ، =

وانقضى أمرها، عمّرت ثمود بعدهم، فاستخلفوا في الأرض، فنزلوا فيها، وكثروا حتى جعل أحدهم بيني المسكن في المَدْر^(١)، فينهدم، فلما رأوا ذلك اتخذوا من الجبال بيوتاً، وخالفوا أمر الله سبحانه وتعالى، وعبدوا غيره، واعتدوا وأفسدوا في الأرض، فبعث الله سبحانه وتعالى إليهم صالحاً نبياً، وهو: صالح بن عبيد بن آسف بن ماشبح بن عاد بن ثمود، وكانوا قوماً عرباً، وكان صالح من أوسطهم نسباً، وأفضلهم موضعاً، فبعثه الله سبحانه وتعالى شاباً، فدعاهم إلى الله سبحانه وتعالى، ولم يتبعه إلا قليل مستضعفون، فلما أُلح بالدعاء والتبليغ، وأكثر لهم من التحرير والتخويف، فسألوه أن يريهم آية، تكون تصديقاً لما يقول.. فقال: أي آية تريدون...؟.. قالوا: تخرج معنا إلى عيدنا هذا - وكان لهم عيد يخرجون إليه بأصنامهم في يوم معلوم من السنة - فتدعو إلهك، وتدعو آلهتنا، فإن استجاب لك اتبعناك، وإن استجيب لنا تبعنا.. فقال لهم صالح عليه السلام: نعم.. فخرجوا بأوثانهم، وسألوا أن لا يستجاب لصالح في شيء مما يدعوا، ثم قال جندع وهو يومئذ سيد ثمود: / يا صالح، أخرج لنا من هذه الصخرة - هي صخرة منفردة من الجبال في ناحية الحجر، يقال لها: الكائنة - ناقةً من الإبل غراء سوداء، ذات عُرفٍ وناصية، وشعر ووبر، عُشراء^(٢) متوجة، فإن فعلت، صدقناك وآمنا بك، فأخذ عليهم الميثاق، لتصدقوني ولتؤمنن بي.. قالوا: نعم.. فصلى صالح عليه السلام ركعتين، ودعا ربه تعالى، فتمخضت الصخرة تمخض الأنثى في توجعها في الولادة، ثم تحركت، فانصدعت عن ناقة عُشراء جوفاء ذات شعر ووبر كما قالوا، لا يعلم ما بين جنبها إلا الله سبحانه وتعالى من عظمتها، وهم ينظرون، ثم تنحت لسقيها مثلها، في العظم، فأمن به جندع بن عمرو، ورهط من قومه، وأراد أشراف ثمود أن يؤمنوا بصالح عليه السلام ويبايعوه،

أ/٢٧

= ويقال لهم: عاد الأولى، وكانت منازلهم بالأحقاف بين اليمن وعمان من البحرين وحضرموت،

وقيل: إن عاد أول من ملك من العرب وطال عمره وكثر ولده...

(١) المَدْر: الطين العلك الذي لا يخالطه رمل.

(٢) عُشراء: الناقة التي مضى على حملها ثمانية أشهر أو عشرة...

فنهاهم رواب بن عمرو بن لبید، والحباب صاحب أوثنانهم وديار صغيرة، وكان من أشرافهم شهاب بن خليفة فأراد أن يسلم، فنهاه . . .

فلما خرجت الناقة، قال لهم: لها شرب، ولكن شرب يوم معلوم، فمكثت الناقة ومعها سقيها في أرض ثمود، ترعى الشجر، وتشرب الماء، وكانت تَرِدُ الماء غباً، فإذا كان يومها وضعت رأسها في بئر بأرض الحجر، يقال له: بئر الناقة، فيرتفع الماء إليها، فما ترفع رأسها حتى تشرب كل ما فيه، ولا تدع قطرة فيه، ثم ترفع رأسها، فتنتفخ، حتى ينتفخ أبزازها، فيحلبون ما فيها من لبن، فيشربون ويدخرون، ويملاؤن أوانيهم كلها من اللبن، ثم تصدرُ من غير الفج الذي وردت منه، لا تقدر على أن تصدر من تَرِدُ لضيق عليها . . .

قال أبو موسى الأشعري: فبات أرض ثمود قد رعت الصدر الناقة، فوجد له ستين ذراعاً، فإذا كان الغد من يومهم شربوا من الماء، وقد أخرج الله سبحانه وتعالى لهم من البئر ماء، وادخروا ما شأؤوا ليوم الناقة، فهم في ذلك في سعة ودعة . . .

وكانت الناقة تصيِّف إذا/ كان الحرُّ ظهر الوادي، فتهرب منها أغنامهم وإبلهم وبقرهم، فتهبط إلى بطن الوادي في حرته وجذبه، وذلك أن المواشي تنفر منها إذ رأتها، فإذا كان الشتاء، فتسبق الناقة إلى بطن الوادي فتهرب مواشيهم إلى ظهر الوادي في البرد والحر، فأخذ ذلك بمواشيهم البلاء والإحصار . . .

٢٧/ب

وكانت مراعيها الحبُّ من كل ذلك، ترعى في وادي الحجر، فكَبُرَ ذلك عليهم، حتى حملهم على عقر الناقة، فاحتالوا في عقرها . . .

وكانت هناك امرأتان من ثمود، واحدة يقال لها: عنيزة بنت غنم بن مخلد، وتكنى بأم غنم، وكانت عجوز مسنة، ولها بنات حسان، ومال كثير

من الإبل والبقر والغنم . . وامرأة أخرى يقال [لها]^(١) : صدوق بنت المحيا بن زاهر، وكانت جميلة غنية، ذات مواشي كثيرة، وكانت من أشد الناس عداوة لصالح عليه السلام، فكانتا تتحيلان لعقر الناقة، مع كفرهما بصالح عليه السلام، لما أضر بهما في مواشيهما . . .

ثم إن صدوق وعنيزة احتالتا على عقر الناقة للشيء الذي كُتب عليهما، فدعت صدوق رجلاً من ثمود يقال له : الحباب، لعقر الناقة وعرضت عليه نفسها إن هو فعل ذلك، فأبى عليها . . فدعت ابن عم لها يقال له : مصدع، وجعلت له نفسها إن فعل ذلك، وكانت من أوفر الناس جمالاً، وأحسنهم حالاً، فأجابها إلى ذلك . . ودعت عنيزة، قدار بن سالف، وكان رجلاً أشقر أزرق قصيراً، ويزعمون أنه كان يربيه رجل يقال له : ضيان، فقالت : أعطيك أي بناتي شئت على أن تعقر الناقة، وكان قدار عزيزاً في قومه، وكان أشد الناس، وقد ذكره رسول الله ﷺ، فقال : «انبعث أشقاها، رجل عزيز منيع في رهطه مثل أبي زمعة»^(٢) . . .

فانطلق قدار بن سالف وجلس مع الناس يصيبون الشراب، فأرادوا ما يمزجون به شرابهم، وكان ذلك اليوم يوم شرب الناقة، فوجدوا الماء قد شربته الناقة، / فاشتد ذلك عليهم، وقالوا : ما نحن نصنع باللبن، لو كان ٢٨ نأخذ هذا الماء الذي تشربه الناقة فنسقيه أغنامنا وحروثنا، لكان خيراً لنا، فهل لكم أن تعقروها، فقالوا : نعم . . .

وكان سبب عقر الناقة، أن امرأة يقال لها : ملكة ثمود، فقالت لامرأة أخرى يقال لها : قيال، كانت معشوقة مصدع بن مخرج، وكان قدار ومصدع يجتمعان معاً كل ليلة يشربون الخمر، فقالت لها ملكة : إن أتاكم الليلة قدار

(١) ساقطة في الأصل وإثباتها يقتضي السياق لإتمام المعنى . . .

(٢) حديث متفق عليه، عن عبد الله بن زمعة رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يخطب، وذكر الناقة والذي عقروها . . وذكر الحديث، ثم ذكر النساء، فوعظ فيهن . . .

ومصدع، فلا تطيعاهما، وقولا لهما: إن الملكة حزينة لأجل صالح وناقته، ونحن لا نطيعكم حتى تعقروا الناقة، فإن عقرتموها أطعناكم، فلما أتيها، قالت لهما هذه المقالة، فقالوا: نحن نكون ولا عقرها... .

فانطلق قدار ومصدع وأصحابه السبعة، فرصدوا الناقة، حتى صدرت عن الماء، وقد كَمِنَ قدار لها في ظل شجرة على طريقها، وكَمِنَ لها مصدع في ظل شجرة أخرى، فمرت الناقة على مصدع، فرماها بسهم فانتظم في عضلة ساقها، وخرجت أم غنم وغيرها، وأمرت ابنتها، وكانت من أحسن الناس، فأسفرت لقدار، ثم حضته على عقر الناقة، فشد عليها بالسيف فكشف عرقوبها، فخرجت ورغت رغاء، وتحدر سقيها، ثم قام قدار وطعنها في رقبتها، فنحرها في رقبتها، وخرج أهل البلدة، واقتسموا لحمها وطبخوها، فلما راب سقيها ذلك، انطلق حتى أتى جبلاً منيفاً يقال له: منوف، وقيل اسمه قارة.. . وروي ذلك عن رسول الله ﷺ سنداً^(١)...

وأتى صالح عليه السلام، ف قيل له: أدرك/ الناقة فقد عُقرت، فأقبل وقد خرجوا يعتذرون إليه، ويقولون: يا نبي الله، إنما عقرها فلان، ولا ذنب لنا... .

٢٨/ب

فقال لهم: هل تدركون فصيلها، فإن أدركتموه فعسى أن يرفع عنكم العذاب.. . فخرجوا يطلبونه، فلما رأوه على الجبل ذهبوا ليأخذوه، فأوحى الله عز وجل إلى الجبل، فتطاول في السماء، حتى ما يناله الطير، وجاء صالح عليه السلام، فلما رأى الفصيل بكى حتى سالت دموعه، ثم دعا ثلاثاً، وانفجرت له الصخرة فدخلها^(٢)...

فقال صالح عليه السلام: انتهكتم حرمة الله تعالى، فأبشروا بعذابه ونقمته.. . فقالوا له مستهزئين: ومتى يكون ذلك يا صالح.. ؟.. وما آية

(١) انظر الهامش في الحديث السابق...

(٢) المقصود: أن الفصيل هو الذي دخل الصخرة...

ذلك . . ؟ . . وكان ذلك يوم الأربعاء . . فقال صالح عليه السلام حين سأله عن وقت العذاب : وابتلاؤكم تصبحون غداة الخميس ووجوهكم مصفرة، ثم تصبحون يوم الجمعة ووجوهكم محمرة، ثم تصبحون يوم السبت ووجوهكم مسودة، ثم يصبحكم العذاب يوم الأحد ووجوهكم محمرة مصفرة كأنها طليت بالخلوف^(١)، صغيركم وكبيركم، ذكركم وأنثاكم، وأيقنوا بالعذاب، وعرفوا أن صالحاً عليه السلام قد صدقهم، فطلبوه ليقتلوه، فخرج صالح عليه السلام هارباً حتى أتى إلى بطن ثمود يقال لهم : بني غنم، فنزل على سيدهم، وكان رجل منهم يقال [له]^(٢) : نفيل، ويكنى : أبا هذب . . فغييه، فلم يقدروا عليه، فغداً إليه أصحاب صالح عليه السلام، فقالوا : يا نبي الله، إنهم ليعذبونا بالنداء عليك، فندلهم عليك . . قال : نعم، قل لهم : مبدع بن هرم، فكلّموه في ذلك . . فقال : نعم عندي صالح عليه السلام، وليس لكم إليه سبيل فأعرضوا عنه . . فتركوه وشغلهم عنه . .

فأنزل الله عز وجل من عذابه، فجعل بعضهم يخبر بعضاً بما يرون في وجوههم، فلما أمسوا صاحوا بأجمعهم : ألا قد مضى يوم من العذاب، فلما أصبحوا في اليوم الثاني، فإذا وجوههم محمرة كأنما خضبت / بالدم، فصاحوا وضجوا وبكوا وعرقوا إنه العذاب، فلما أمسوا، صاحوا بأجمعهم : ألا قد مضى يومان من الأجل وحضركم العذاب . . فلما أصبحوا في اليوم الثالث، فإذا وجوههم قد طليت بالغار، فصاحوا جميعاً : ألا قد حضركم العذاب، فلما كانت ليلة الأحد، خرج صالح عليه السلام من بين أظهرهم، وخرج معه من أسلم، حتى جاؤوا الشام، فنزلوا رملة فلسطين، فلما أصبح القوم، تحنطوا وتكفنوا، وكان حنوطهم الصبر المر، وكانت أكفانهم الأنطاع^(٣)، ثم ألقوا أنفسهم للأرض، فجعلوا يقلبون أبصارهم إلى السماء مرة، وإلى

(١) الخلوف : رائحة الفم المتغيرة، أو الفاسدة . . .

(٢) ساقطة في الأصل وإثباتها يقتضي السياق لإثبات المعنى . . .

(٣) الأنطاع : جلد من بساط، يفرش تحت المحكوم عليه بقطع الرأس أو العذاب . . .

الأرض مرة، ثم لا يدرون من أين يأتيهم العذاب، فلما اشتد يوم الأحد ضحاها، أتتهم صيحة من السماء، فيها صوت كالصاعقة، فتقطعت قلوبهم في صدورهم، ولم يبق منهم لا صغير ولا كبير إلا هلك^(١)...

وكما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ، فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾^(٢).. فأصبحوا في ديارهم جاثمين كأن لم يعيشوا فيها...

قال أهل العلم: توفي صالح عليه السلام وهو ابن ثمان وخمسين سنة، وكان ذلك أنه انتقل بعدما هلك قومه من الشام إلى مكة، فكان في قومه عشرين سنة...



(١) انظر قصة صالح عليه السلام في كل من: قصص القرآن - ابن كثير ١١٢ وما بعد، وقصص القرآن - محمد جاد المولى ص ٢٧ وما بعد، والكامل في التاريخ ٩١/١ وما بعد، وقصص الأنبياء للنجار ص ٢٨٣، وانظر كل من الآيات في كل من السور الكريمة: هو - ٦١/٦٨، الأعراف - ٧٩/٧٣، الشعراء - ١٤١/١٥٩، النحل - ٥٣/٤٥، القمر - ٣١/٢٣، الشمس - ١١/١٥...

(٢) سورة هود - الآية ٦٧...

ذكر الموجب لقتل حمزة رضي الله عنه

٢٩ - وَعَقَرْنَ نَاقَةَ صَالِحٍ وَقَتَلْنَ حَمْزَةَ فِي الْكَتَائِبِ^(١)

قال: وذلك أن حمزة خرج مع رسول الله ﷺ إلى غزوة بدر، وذلك في يوم الاثنين، وقبل يوم الجمعة السابع عشر من رمضان في السنة الثانية من الهجرة النبوية، لثلاث خلون من رمضان، وكان المهاجرون يوم بدر سبعة وثلاثون رجلاً، وكان صاحب راية الأنصار سعد بن عباد^(٢)، وجعل على الساقة^(٣) قيس بن أبي صعصعة، وكان عدد أصحاب رسول الله ﷺ ثلاثمائة وثلاثة عشر، بعدد أصحاب طالوت، وأما/ المشركون فكانوا ألفاً، وقيل: ٢٩/ب تسعمائة وخمسون.. وأن أصحاب رسول الله ﷺ ظفروا برجل من المشركين، فأتوا به إلى رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: كم عدد أصحابك..؟.. فقال: يا محمد - ﷺ -، وهل تحصى النجوم.. فقال: قل لي وإلا ضربت عنقك.. فقال: وهل يحصى الرمال والجنادل إلا الله

(١) البيت مكرر في قصة صالح عليه السلام...

(٢) قال ابن كثير في السيرة النبوية ٣٨٨/٢: «قال ابن هشام: كانت راية الأنصار مع سعد بن معاذ.. وقال الأموي: كانت مع الحباب بن المنذر»، ونقول: وليس من المستبعد أن يكون الاثنان سعد والحباب قد حملا معاً راية الأنصار، وذلك بتكاليف من رسول الله ﷺ بالتناوب، لأن سعد بن معاذ أوسي، والحباب بن المنذر خزرجي.. والله أعلم...

(٣) الساقة: موضع السقي، الإناء الذي يُسقى به، أي: استعمله على السقاية...

تعالى .. قال: مِنْ عِنْدَ مَنْ ضَحُوا...؟ .. قال: عند الأمير فلان .. قال: وكم عقر لهم من الإبل...؟ .. قال: عشراً .. قال: وعند مَنْ أَمْسُوا...؟ .. قال: عند الأمير فلان .. قال: وكم عقر لهم من الإبل...؟ .. [قال: عشراً^(١)] .. فقال النبي ﷺ: إِذَا هُمْ أَلْفًا، لكل مائة بعير^(٢)... ولم يكن فيهم فارس سوى المقداد بن الأسود، وهو أول فارس ركب في سبيل الله تعالى، والنبي ﷺ قدم أصحابه للقتال، فقال: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض»^(٣)...

فبرز عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وهم من سادات قريش، وطلبوا المبارزة، فتقدم إليهم ثلاثة من الأنصار، هم: عوف ومعوذ ابنا عفراء، وعبد الله بن رواحة .. فقالوا: من أنتم...؟ .. قالوا: رهط من الأنصار .. قالوا: فما لنا بكم من حاجة .. ثم نادوا: يا محمد، أخرج إلينا أكفاء .. فبرز إليهم: حمزة بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب، وعبيدة بن الحارث .. فقالوا: من أنتم...؟ .. فقالوا، فانتسبوا إليهم .. فقالوا: أنتم لنا أكفاء .. فقال حمزة: الكهل للكهل، والحدث للحدث، والشاب للشاب ..

(١) ساقطة في الأصل وإثباتها يقتضي السياق لإتمام المعنى ...

(٢) قال ابن كثير في الفصول في سيرة الرسول ﷺ: «ثم رحل رسول الله ﷺ ونزل قريباً من بدر، وركب ﷺ مع رجل من أصحابه مستخبراً ثم انصرف، فلما أمسى بعث علياً وسعداً والزبير إلى ماء بدر يلتمسون الخبر، فقدموا بعبدين لقريش، ورسول الله ﷺ قائم يصلي، فسألهما أصحابه لمن أنتما...؟ .. فقالا: نحن سقاة لقريش. فكره ذلك أصحاب رسول الله ﷺ، وودّوا أن لو كانا لعير أبي سفيان وأنه قريب منهم ليفوزوا به، لأنه أخف مؤونة من قتال النفير من قريش لشدة بأسهم واستعدادهم لذلك، فجعلوا يضربونهما، فإذا آذاهما الضرب، قالوا: نحن لأبي سفيان، فإذا سكتوا عنهما قالوا: نحن لقريش. فلما انصرف رسول الله ﷺ من صلاته قال: «والذي نفسي بيده إنكم لتضربونهما إذا صدقا، وتتركونهما إذا كذبا». ثم قال لهما: أخبراني أين قريش...؟ .. قالوا: وراء هذا الكثيب .. قال: كم القوم...؟ .. قالوا: لا علم لنا .. فقال: كم ينحرون كل يوم...؟ .. فقالوا: يوماً عشراً، ويوماً تسعاً .. فقال ﷺ: القوم ما بين التسعمائة إلى الألف.

(٣) في السيرة النبوية لابن هشام ٦٢٧/١، قال: فذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ ... سورة الأنفال - الآية ٩ .. وكذلك قال ابن كثير في الفصول في سيرة الرسول ﷺ ص ١٣٥ ...

فوقف حمزة مقابل شيبه، والإمام علي مقابل عتبة، وعبيدة مقابل الوليد بن عتبة، ثم إن حمزة ضرب شيبه على عنقه فرمى برأسه لعنه الله، وأما علي فإنه ضرب عتبة بن ربيعة على عاتقه الأيسر، فأخرج سيفه من تحت عاتقه الأيمن، / وأما الوليد بن عتبة فقد ضرب عبيدة بن الحارث فأصاب رجله، فرمى بها، فحُمِلَ إلى الصفراء^(١)، فمات بها، فصلى عليه رسول الله ﷺ ودفنه فيها. . وقتل يوم بدر عبد الله بن عمر بن حزام، وعمر بن الجموح، ودفنا في قبر واحد^(٢)، وأخرجنا بعد خمسين سنة، في آخر ولاية معاوية بن أبي سفيان، فإذا هما رطاب لم ييسا، ويد عبد الله على وجهه، ويدي عمرو بن الجموح على رأسه، إذا رُفعت أيديهما سالت جراحاتهما، فإذا تُركت أيديهما رجعت إلى جراحهما. . وأول قتيل قُتل يومئذ مهجع مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، رجل من الأنصار، قتله ابن أبي معيط قبل الغداة، فقام إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقتله. . .

وأما أولئك الثلاثة^(٣): أخو هند بنت عتبة، وزوجها، وابنها، فعظمت عليها الفرقة، واشتد بها البلاء، وانكسر المشركون يومئذ، وقتل منهم سبعون، وأسر منهم سبعون. .

ووقف رسول الله ﷺ على القتلى، وقال: يا عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، وشيبه بن ربيعة، ويا وليد بن عتبة، ويا أبا جهل بن هشام. . وجعل يسميهم واحداً بعد واحد، إنا وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً. . قالوا: يا رسول الله، أتخاطب الموتى. . ؟. . فقال:

(١) الصفراء: قرية كثيرة النخل والمزارع وماؤها عيون كثيرة، يجري ماؤها إلى ينبع، وهي في طريق الحاج الذي سلكه رسول الله ﷺ غير مرة جنوبي بدر. . .

(٢) ورد في كتاب جوامع السيرة النبوية لابن حزم ص ١٣٨، أنهما قتلا يوم أحد، ودفنا في قبر واحد، وليس كما ذكر هنا في وقعة بدر. . .

(٣) قيل: هما الوليد بن عتبة أخ لهند، وعتبة بن ربيعة والدها، وحنظلة بن أبي سفيان ابنها. . . وذلك هو السبب. . .

«والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع منهم، ولكن لا يجيئون»^(١) . . .

وأُسِرَ عمه العباس، وعقيل، ومسلم بن عقيل، والعاص زوج ابنة رسول الله ﷺ، وأول من انهزم من المشركين جميل بن معمر الفهري، وكان رجلاً لبيباً حافظاً لما يسمع، فقالت قريش: ما حفظ هذه الأشياء إلا وقلبه له اثنان في جوفه . . . وكان يقول: أنا لي قلبان أعقل بهما، واحد منهما أفضل من عقل محمد . . . فلما كانت بدر، وانهزم المشركون، تلقاه أبو سفيان وهو معلق أحد نعليه، والأخرى في رجله . . . قال: ما شعرت إلا أنهما في رجل، وعرفوا أنه يريد لو كان له / قلبان لما نسي نعله في يده، فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾^(٢) . . .

ب/٣٠

فلما دخلت السنة الثالثة، والذي أهاج غزوة أحد لما أصيبت يوم بدر قريش من أصحاب القليب، فرجع منهم إلى مكة ابن أبي جهل، وصفوان بن أمية، ورجال من قريش ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم ببدر، فكلّموا أبا سفيان بن حرب، ومن كان له في تلك العير من قريش، فقالوا: يا معشر قريش، إن محمداً قتل خياركم، فأعينونا بالمال، فاجتمعت قريش لحرب رسول الله ﷺ حين فعل ذلك أبو سفيان وأصحاب العير . . .

فخرج أبو سفيان بن حرب وهو قائد الناس ومعه هند بنت عتبة، وخرج عكرمة بن أبي جهل بن هشام بن المغيرة بأمر حكيم بنت الحارث، وخرج الحارث بن هشام بفاطمة بنت الوليد . . .

قال: فلما سمع بهم رسول الله ﷺ أن رأيهم أن يقيموا بالمدينة، وقد تركت قريش منازلها من أحد يوم الأربعاء، وأقاموا ذلك اليوم، ويوم

(١) قال ابن عبد البر في كتابه - الدرر ص ١١٥: فقليل له: يا رسول الله، تنادي أقواماً أمواتاً قد جيفوا . . . فقال: «ما أنتم بأسمع منهم ولكن لا يجيئون». وفي هذا المعنى قوله ﷺ في

الميت إذا دفن وانصرف الناس عنه: «إنه ليسمع خفق نعالهم إذا ولّوا عنه مدبرين» . . .

(٢) سورة الأحزاب - الآية ٤، وانظر: أسباب النزول - للواحدي ص ٢٩٢، ٢٩٣ . . .

الخميس، ويوم الجمعة، وصلى رسول الله ﷺ، فأصبح بالشعب من أحد يوم السبت من منتصف شهر شوال، ولبس لامته^(١)، وذلك يوم الجمعة حين فرغ من الصلاة، ثم خرج عليهم وقد قدموا الناس، وقالوا: استكرمنا رسول الله ﷺ، لا ينبغي لنبي أن يلبس لامته، ويضعها حتى يخرج يقاتل، فخرج رسول الله ﷺ إلى أحد في ألف رجل، وقد وعدهم الفتح إن صبروا، فلما خرج رجع عبد الله بن أبي ابن سلول في ثلاثمائة، فتبعهم أبو جابر يدعوهم. فقالوا: لو نعلم قتالاً لاتبعناكم. فقالوا: لا ينبغي لنبي لبس لامته أن يضعها حتى يقاتل، ولما رجع عبد الله بن أبي سلول، فقال: أبعدكم الله، أعداء الله، فسيغني الله تعالى عنكم، وبقي رسول الله ﷺ / في سبعمائة، وكان المشركون ثلاثة آلاف، والخيول مائتي فرس، والظعان خمس عشرة امرأة، وكان في المشركين سبعمائة ذراع، وكان في المسلمين مائة ذراع، ولم يكن معهم من الخيل إلا فرسان، فرس لرسول الله ﷺ، وفرس لأبي بردة، وجعلوا على الميمنة خالد بن الوليد، وعلى ميسرتها عكرمة بن أبي جهل، وبعث رسول الله ﷺ الزبير، وقال: استقبل خالد، فحمل على خالد بن الوليد فهزمه، ثم إن طلحة بن عثمان صاحب لواء المشركين قام، فقال: يا أصحاب محمد، إنكم تزعمون أن الله يعجله بسيفي إلى الجنة، ويعجلني بسيفه إلى النار. فقام إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال: والذي نفسي بيده، لا أفارقك حتى أعجلك بسيفي إلى النار، أو يعجلني الله بسيفك إلى الجنة. فضربه الإمام علي رضي الله عنه فقطع رجله، فانكشفت عورته. فقال: أنشدك الله والرحمة يا ابن العمة... فبرز رسول الله ﷺ، وأقامت هند بالنسوة اللواتي معها، وأخذن الدفوف يضربنها خلف الرجل ويحرضنهم...

وكان حنظلة بن أبي عامر قد التقى هو وأبو سفيان، فقال: ضربه شداد فقتله، فقال رسول الله ﷺ: «إن صاحبكم حنظلة لتغسله الملائكة». فقالوا لأهله: ما شأنه...؟... فقالت: خرج وهو جنب حين سمع الهاتف، فقال

(١) لامته: الدرع أو جميع السلاح...

رسول الله ﷺ: «غسلته الملائكة»^(١) . . .

قال أبو جعفر: فلما رأى المسلمون من خلفهم انكشفوا، وأصاب منهم المشركون، وكان المسلمون لما أصابهم ما أصابهم من البلاء، ثلاثة قُتلوا، وثلاثة جُرحوا، وثلاثة انهزموا، وأصيبت رباعية رسول الله ﷺ، وشُقت شفته، / وكُلِمَ في وجنتيه وفي جبهته وفي أصول شعره، وعلاه ابن قمئة على شقه الأيمن، وكان الذي أصابه عتبة بن أبي وقاص . . .

ب/٣١

وقالت هند بنت عتبة: من قتل النبي، أو حمزة، أو علي، أعطيته عشرين أوقية من الذهب، ومائة ناقة، وكان وحشي مملوكاً حبشياً، فقالت له: إن قتلت حمزة فأنت حر. . . وكان يقذف بالحربة، فاستتر تحت صخرة، وتقدم إلى حمزة، سباع بن عبد العزى، فلما وقف حمزة، وكانوا قد قالوا له: أما النبي فما لنا إليه وصول، وأما علي فلا طاعة لنا به في الحرب، وما لنا إلا حمزة، وطُلب سباع بحمزة، فبرز إليه حمزة. . . قال: من أنت. . .؟. . . فانتسب. . . فقال: أنت من ألقى بي حتى تطلبني. . . فحمل عليه، فولى منهزماً. . . ولكن. . . إذا قضى الله أمراً كان مفعولاً. . . فساقه إلى الصخرة التي عندها وحشي، فنغز فرسه، فوقع، فضربه وحشي بحربة فقتله. . .

وجاءت هند بنت عتبة، فشقت جوفه، وأخرجت معلاقه، وأكلت كبده، وشربت دمه، وجدعت أنفه وأذناه، وقطعت مذاكيره، وهشمته حتى لا يبقى يعرف. . . والنبي ﷺ يقول: عمي . . . عمي . . . وانكسر المسلمون، وقُتل وجرح منهم سبعون رجلاً^(٢) . . .

قال ابن سعد: لما انصرف رسول الله ﷺ كئيباً حزيناً يوم أحد، والتي جعلت المرأة تجيء بزوجهها وابنها وأبيها مقتولين وهي تبكي. . . فقال رسول

(١) هو حنظلة بن أبي عامر بن صيفي بن مالك بن أمية بن ضبيعة بن زيد بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس بن حارثة الأنصاري، الأوسي، المعروف بمن غسلته الملائكة.

انظر: الإصابة في تمييز الصحابة - لابن حجر ٢/٢٨٨ و ٢٨٩.

(٢) إن المؤلف هنا يبالغ إذ لم يرد في كتب التواريخ قطع المذاكير، والتهشيم، وشرب الدم، وقد ورد فقط شق الجوف، وإخراج الكبد، وقد لاكنه فلم تستسغه فلفظته. . .

الله ﷺ : «أهكذا يفعل برسولك». فأنزل الله سبحانه وتعالى : ﴿إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾^(١) . . . وانهزم عثمان بن عفان، ورافع بن أبي المعلى، وجماعة، انهزموا يوم أحد إلى جبل، فأقاموا فيه ثلاثة أيام، /
أ/٣٢ ورجعوا إلى رسول الله ﷺ، فقال: لقد ذهبتم فيها عريضة. . .

وتشاجر عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، فرفع عثمان بن عفان صوته، فقال له عبد الرحمن: بأي شيء ترفع صوتك عليّ، شهدت بدرًا ولم تشهد، وبايعت رسول الله ﷺ ولم تبائع، وفررت يوم أحد ولم أفر. . . فقال له: أما قولك شهدت بدرًا ولم أشهد، فإن رسول الله ﷺ جعلني خليفة على ابنته، وأمر رسول الله ﷺ فرض من الجهاد، وأما قولك بايعت رسول الله ﷺ ولم أبائع، فإن رسول الله ﷺ أنفذني إلى أناس من المشركين فأبطأت عليه، فضرب بشماله على يمينه، وقال: هذه لعثمان، وشمال رسول الله ﷺ خير من يميني، ولقد علمت ذلك، وأما قولك انهزم يوم أحد ولم تنهزم، فلا تعيرني بذنوب عفا الله تعالى عنه في قوله سبحانه وتعالى : ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾^(٢) . . .

ولما وقف النبي ﷺ على القتلى، ورأى ما كان من حمزة، قال: «والذي نفسي بيده، لولا أخاف أن تكون سنة لتركته في مخالف السباع وحواصل الطير، والله لئن ظفرتني الله بهم لأقتلن سبعين سيداً من سادات قريش»^(٣) . . . فأنزل الله سبحانه وتعالى : ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ﴾^(٤) . . .

(١) سورة آل عمران - الآية ١٤٠، وانظر أسباب النزول - للواحدي ص ١٠٦، عن راشد بن سعد، وانظر الاستيعاب لابن عبد البر ٣٧٢/١ و٣٧٤ . . .

(٢) سورة آل عمران - الآية ١٥٥ . . .

(٣) انظر أسباب النزول للواحدي ص ٢٣٨ و٢٣٩، والحديث عن ابن عباس، وبلغظ آخر عن أبي هريرة . . .

(٤) سورة النحل - الآية ١٢٦ . . .

وقال: «لا تخلُّوا صفية تنظر إليه»^(١). . . فأتت صفية بكفنه، فمنعوها عن ذلك. . . فقالت: والله ليسرني هذا اليوم، وأنه ﷺ لما نظر إلى حمزة، ولم ينظر إلى شيء قط كان أوجع لقلبه منه، فقال ﷺ: «رحمة الله عليك، فإنك كنت فعالاً للخير، وصولاً للرحم، فلولا حزني بعدك، لسرني أن أدعك تحشر في أجواف شتى»^(٢). . .

ولحق ابن قميئة وقال: التفت يا محمد. . . فالتفت إليه النبي ﷺ. . . فضربه بحجر فشج وجهه، وقال: خذها وأنا ابن قميئة. . . وراح ابن قميئة إلى غنمه، فنطحه منها كبش، فمات. . . / فهو يتجلجل في النار إلى يوم القيامة. . .

ب/٣٢

وجاءت فاطمة رضي الله عنها، ومعها حشوة لجراح رسول الله ﷺ، والدم لا ينقطع، فأتاه جبريل عليه السلام، لا تخلي ينزل من دمك على الأرض قطرة ما يعود ينبت فيها أخضر. فجعل يلتقيه في كفه ويدربه في الهواء، ويقول: كيف يفلح قوم فعلوا بنبيهم هذا الفعال، وهو يدعوهم إلى الإسلام. . . فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾^(٣). . . وأخذت فاطمة رضي الله عنها قطعة من حصير، فأحرقتها وجعلتها في الجرح، فانقطع الدم. . .

وأحضر النبي ﷺ القتلى أحد عشر، وحمزة معهم، ليصلي عليهم، فصلى على حمزة سبعين تكبيرة، ودفن في موضعه رضي الله عنه. . .

(١) انظر الاستيعاب لابن عبد البر ١/٣٧٢. . .

(٢) انظر الحاكم في المستدرک ٣/١٩٩. . .

(٣) روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كسرت رباعية رسول الله ﷺ يوم أحد، ودمي وجهه، فجعل الدم يسيل على وجهه، ويقول: «كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم، وهو يدعوهم إلى ربهم». قال: فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾. . . وانظر: أسباب النزول - للواحدي ص ١٠٢ و ١٠٣، والبحاري في التفسير - باب: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ برقم ٤٢٨٣، ومسلم في الجهاد والسير، باب: غزوة أحد، برقم ١٧٩١. / سورة آل عمران - الآية ١٢٨. . .

وقيل : إن هند بنت عتبة ، لما قطعت مذاكيره ، فأخذت قطعة من كبده ، فمضغتها ، ثم بصقتها ، فبلغ ذلك النبي ﷺ ، فقال : «أما لو أكلتها لم تدخل النار أبداً ، لأن حمزة أكرم على الله أن لا يدخل شيئاً من جسده النار»^(١) . . .

فلما نظر ﷺ إلى عمه ، لم ينظر إلى شيء كان أوجع منه لقلبه ، فقال رسول الله ﷺ : «رحمة الله عليك ، كنت وصولاً للرحم ، فعالاً للخيرات ، ولولا حزني من بعدك عليك ، لسرني أن أدعك تحشر في أجواف شتى ، أما والله لئن أظفرنني بهم لأمثلن بسبعين منهم» . . . فأنزل الله سبحانه وتعالى : ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ﴾ . . . وتتمتها : ﴿بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾^(٢) . . . فأمسك ﷺ عما أراد ، وكفر عن يمينه . . .

وعن جعفر بن عمرو بن أمية الضمري ، قال : خرجت أنا وعبد الله بن عدي بن الخيار ، فمررنا بحمص ، فلما قدمناها ، / قال لي عبد الله بن عدي : أ/٣٣ هل لك أن تأتي وحشي ، فنسأله كيف كان قتل حمزة رضي الله عنه . . ؟ . . فقال له : إن شئت . فخرجنا نسأل عنه ، فقال لنا رجل : أما إنكما ستجدانه بفناء داره ، وهو رجل قد علمت عليه الخمرة^(٣) ، فلن تجدانه صاحياً ، تجدا رجلاً غريباً ، وتجدنا بعض ما تريدان . . فلما انتهينا إليه ، وسلمنا عليه ، رفع رأسه . . قلنا : حياك الله ، جئناك لتحدثنا عن قتلك حمزة رضي الله عنه . . [فقال]^(٤) : أما إني سأحدثكما كما حدثت النبي ﷺ حين سألني عن ذلك . . قال : كنت غلاماً لجبير ، وكان عمه طعيمة قد أصيب يوم بدر ، فلما سارت

(١) انظر : الاستيعاب لابن عبد البر ص ٣٧٣ . . .

(٢) سورة النحل - الآية ١٢٦ . . .

(٣) قال الدكتور مصطفى ديب البغا في كتاب أسباب النزول - للواحيدي ، في تحقيقه ص ٢٤٠ ، معلقاً على لفظ : قد غلب عليه الخمر : وهذا غريب عنه رضي الله عنه ، على أن الصحابة رضي الله عنهم ليسوا معصومين من الوقوع في المعصية ، وذلك لا ينقص من فضل صحبتهم طالما أنهم ثبتوا على الإيمان ، وغالب الظن فيهم أنهم إن وقعت منهم هفوة لا يصرون عليها ، وأنهم يتوبون إلى الله تعالى توبة نصوحاً . . .

(٤) ساقطة في الأصل وإثباتها يقتضي السياق لإتمام المعنى . . .

قريش إلى أحد، قال لي جبير: إن قتلت حمزة عم محمد - ﷺ - بعمي طعيمة فأنت معتوق.. فخرجت وكنت حبشياً أقذف بالحربة قذف الحبشة، قد ما أخطىء بها شيئاً، فلما التقى الناس، خرجت أنظر حمزة حتى رأيته في عرض الجيش مثل الجمل الأورق يهد للناس سيفه هدأً، ما يقوم له شيء، فوالله إنني لا أتهدأ له، وأستتر بحجر، أو شجر. ليدنو مني، إذ تقدم مني إليه سباع بن عبد العزى، فلما رآه حمزة رضي الله عنه قال: ها يا ابن مقطعة البظور. قال: ثم ضربه فكأنما أخطأ رأسه، وهزرت حربتي حتى إذا رضيت منها، دفعتها إليه في ثنيته، حتى خرجت من بين رجله، فذهب لينوء نحوي، فقلب، وتركته حتى مات، ثم أتيته فأخذت حربتي، ثم رجعت إلى الناس فقعدت في العسكر، ولم يكن لي بغيره حاجة، إنما فعلته لأعتق، فلما قدمت مكة عتقت، فأقمت فيها حتى فشا الإسلام فيها، ثم خرجت إلى الطائف، فأرسل إلي رسول الله ﷺ، وقيل لي: إنه ﷺ لا يهيج الرسل. قال: فخرجت معهم حتى قدمت مكة، ووفدت على النبي ﷺ، فلما رآني قال: / أنت وحشي...؟ قلت: نعم.. قال: أنت قتلت حمزة...؟ قلت: قد كان ذلك من الأمر ما بلغك.. قال: فهل تستطيع أن تغيب وجهك عني.. فخرجت، فلما قبض رسول الله ﷺ، وخرج الناس إلى مسيلمة الكذاب، قلت: لأخرجن إلى مسيلمة، لعلِّي أقتله فأكافئ به حمزة، فخرجت مع الناس وكان من الأمر ما كان^(١)...

ب/٣٣

(١) انظر الحديث بكامله في أسباب النزول - للواحدي ص ٢٤٠ - ٢٤١، وانظر: البداية والنهاية لابن كثير ١٨/٤...

قصة ذو القرنين

٣٢ - وَبِهِنَّ ذُو الْقَرْنَيْنِ أَضْحَىٰ جِسْمُهُ مِنْهُنَّ دَائِبٌ
٣٣ - أَلْقَيْنَهُ فِي مَهْلِكٍ وَخَدَعْنَاهُ خَدْعَ الثَّغَالِبِ

وأما الإسكندر^(١)، فإنه سمي بذو القرنين لأنه ملك قرني الشمس، وقيل: إنه كان له قرنان^(٢)، واختلفوا في أنه نبي أولاً، فمنهم من قال: إنه ليس بنبي، وحجته أنه ليس له أربعين سنة. . وأما من قال إنه نبي، فحجته أن الله سبحانه وتعالى لم يخاطب إلا الأنبياء، في قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا ذَا

(١) إن البعض قد توهم في: الإسكندر بن فيلبس المقدوني، وفي الإسكندر الوارد ذكره بلقب ذو القرنين، وإن كان الاثنان قد سُميا بنفس الاسم: الإسكندر، فلا يعني ذلك أنهما شخص واحد كما يظن البعض أمثال ابن سينا وغيره، فالإسكندر بن فيلبس المقدوني متأخر عن ذو القرنين، وهو لم يبن سوراً، ولا وصل إلى بلاد يأجوج ومأجوج، وهو أيضاً مؤرخ للروم معروف ومشهور، كان أرسطو وزيره، أما الإسكندر ذو القرنين فقصة معروفة مشهورة. . .

(٢) قال أبو حيان الأندلسي في كتابه: تفسير النهر الماء من البحر المحيط ج ٢، ص ٣٦٥ - ٣٦٦، في تفسير: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾. . الآية، الضمير في ويسألونك عائد على قريش حين دستها اليهود على سؤاله ﷺ عن الروح، والرجل الطواف، وفتية ذهبوا إلى الدهر، ليقع امتحانه بذلك، وذو القرنين هو الإسكندر، ذكره ابن إسحاق، وعن علي رضي الله عنه قال: كان عبداً صالحاً، ليس بملك ولا نبي، ضُرب على قرنه الأيمن في طاعة الله تعالى، فمات، فبعثه الله تعالى، وضُرب على قرنه الأيسر، فمات، فبعثه الله تعالى، فسمي: ذا القرنين. . . وورد في الحديث: أن الذين ملكوا الأرض أربعة، مؤمنان، وكافران، المؤمنان: سليمان وذو القرنين، والكافران: نمرود وبخت نصر. . . وكان بعد نمرود قوله. . .

الْقَرْنَيْنِ ﴿١﴾ . . الآية . . وتوفي وله من العمر ثلاث وثلاثون سنة، وقيل :
خمساً وثلاثين، وقيل : سبعاً وثلاثين . . وكان الخضر عليه السلام وزيره وابن
خالته، وما كان على وجه الأرض أعلم من أبي الإسكندر في علم النجوم،
ولا راقب أحد الفلك ما راقبه، ومدَّ الله تعالى له في الأجل . . .

فقال أبو الإسكندر ذات ليلة لزوجته : قد كلني السهر، فخليني أرقد
ساعة، وانظري في السماء، إذا رأيت قد طلع في هذا المكان - وأشار إليه
بيده إلى الموضع - أنبهيني حتى أطأك، تعلقين مني بولد يعيش إلى يوم
القيامة . . وكانت أخت زوجته تسمع كلام أبي الإسكندر . . ونام، وجعلت
أختها تراقب النجم، فلما طلع، قالت لزوجها : قم لتنالي، فإن زوج أختي
قد ذكر كذا وكذا . . فقام فواقعها، فعلقت منه بالخضر عليه السلام . . ثم
استيقظ أبو الإسكندر من نومه، فرأى النجم قد نزل في غير البرج الذي كان
يرقبه فيه، فقال لزوجته : / لِمَ لا أيقظتني . . ؟ . . قالت : والله استحييت أن
أقول لك : قم واقعني . . فقال لها : أما تعلمين أني أرقب هذا النجم منذ
أربعين سنة، ولقد ضيعت عمري فيه، ولكن الساعة يطلع نجم في أثره
فأطأك فيه، فترزقين مني ولداً يملك قرني الشمس، فلما وطئها، علقت منه
بالإسكندر، وولدا يوم الاثنين في ليلة واحدة . . .

١/٣٤

ثم إن الإسكندر فتح الله تعالى عليه بتمكينه في الأرض، وفتح البلاد
على يديه، وأنه توجه إلى الصين، فسمعت به ملكة الصين الأولى،
فأحضرت كل من أبصر الصورة - صورة الإسكندر -، فأمرتهم أن يصوروه في
جميع الصنائع، خيفة منه، حتى جمعت عندها جميع من تعلم الرسم،
وصوروه على البُسط والأواني والرقوم الأدهان، وكل من كانت صنعة بتبييض
هذا الشغل، فوضعت جميع ما صنعوه بين أيديها من أشغالهم، حتى تقارب
عمل بعضهم من بعض، وهي تنظر إلى العمل . . .

(١) سورة الكهف - الآية ٨٦ .

فلما قدم عليها الإسكندر، ونزل على بلدها . . فقال الملك للإسكندر:
أدخل هذه البلدة متنكراً، وأبصر كيف تعمل فيها . . فلما دخلها، نظرت إليه
من حصنها، فعرفته بتقريب الصور التي عُملت لأجله، فأحضرتة ووضعتة في
مطمور^(١)، لا يعرف الليل من النهار، وبقي فيها ثلاثة أيام، لا يأكل ولا
يشرب، حتى كادت قوته أن تسقط، والعسكر محيط به، والخضر عليه السلام
يسكنهم، فلما كان في اليوم الرابع مدّت له سماط^(٢) نحو عشرين ذراعاً،
ووضعت فيه أواني الذهب والفضة والجواهر، فكانت أواني الذهب واللؤلؤ
والزبرجد، وأواني الفضة والياقوت، وفي أواني البلور والذهب، وما فيهما من
شيء يؤكل، إلا ملك لا يعلم به إلا الله سبحانه وتعالى، وفي آخر السماط
صحن فيه طعام، وعنده / رغيف خبز، وشربة ماء . . وأمر بإخراجه، وأجلسته
على السماط، فنظر، فلم يجد شيئاً يأكله، ثم نظر في آخر السماط فإذا بإناء
فيه طعام، فسعى إليه، وتسمى باسم الله تعالى، وأكل، فلما فرغ من أكله
وشرب الماء، قال: الحمد لله . . .

ب/٣٤

فحينئذ خرجت إليه وجلست، وقالت: يا سلطان، بعد ثلاثة أيام لم
يغن عنك هذا الملك شيئاً، وكانت قوتك بعد ثلاثة أيام ما يساوي قيمته
درهم، وقد صرت بهذه الصفة بعد ثلاثة أيام، ما صدّ عنك هذا الذهب
والفضة والجواهر سلطان الجوع، وأغناك هذا كله ما قيمته درهم واحد، فما
لك تتعرض إلى أحوال الناس وأنت بهذه المرتبة . . .

فقال لها الإسكندر: لك دينك، وعليك بلادك، ولا بأس عليك بعد
اليوم . . .

ثم قدمت جميع ما كانت أحضرته قُدّامه، ومن المواشي مثل ذلك،
ونزل إلى عسكره، وراح عنها، وتقبل جميع ما أهدت إليه، ثم إنه سار حتى
دخل سور الصين . . .

(١) المطمور: حفرة تحت الأرض، تُجعل كالسجن . . .

(٢) السماط: ما يبسط ليوضع عليه الطعام . . .

وروى قتادة عن أبي الخلف، قال: الدنيا أربعة وعشرون ألف فرسخ^(١)، اثنا عشر ألف فرسخ للحبشة، وثمانية آلاف فرسخ للروم، وثلاثة آلاف فرسخ لفارس، وألف للعرب...

ووصل الإسكندر إلى السد، وبناه، وعرض السد سبعون ذراعاً، وارتفاعه مائتي ذراع، وطوله تسعة عشر فرسخاً...

قال بعض العلماء: هو ذو القرنين، وقد ذكره تبع في قوله شعراً:

قد كان ذو القرنين قبلي مسلماً ملك تدين له العباد وتحفد^(٢)
من قبله بلقيس كانت عمتي ملكتهم حتى أتاهم الهدد

وكان من خراب بيت المقدس إلى ملك الإسكندر مائتي وتسعة وستين سنة، ومن هبوط آدم عليه السلام إلى ملك الإسكندر خمسة آلاف ومائة وثلاثة وتسعون سنة...



(١) الفرسخ: ثلاثة أميال هاشمية، وقيل: اثنا عشر ألف ذراع، وهي تقريباً ثمانية كيلومترات...

(٢) تحفد: تخدم...

قصة لوط عليه السلام

٣٤ - وَبِهِنَّ لُوطٌ قَوْمُهُ أَضْحَتْ مَدَائِنُهُمْ سَبَابِيبَ

١/٣٥ وهو لوط بن هاران / بن تارخ بن أخي إبراهيم عليه السلام، وإنما سمي لوط، لأن حبه لاط^(١) بقلب إبراهيم عليه السلام، أي: تعلق ولصق، ومنه حديث أبو بكر رضي الله عنه حين ذكر عمر رضي الله عنه: اللهم اغفر والولد الوط... أي: ألصق...

وكان إبراهيم عليه السلام يحبه حباً شديداً، وكان أمر لوط فيما ذكر أهل العلم بأخبار الأنبياء، وذكر وهب بن منبه في المسند: أن شخص بأرض بابل مع عمه إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن، مؤمناً، متبعاً له على دينه، مهاجراً معه إلى الشام، ومعهما سارة بنت هازان، وشخص معهم تارخ أبو إبراهيم مخالفاً لإبراهيم عليه السلام في دينه، مقيماً على كفره، شخص وإبراهيم ولوط، وساروا إلى الشام، فنزل إبراهيم عليه السلام فلسطين، ونزل لوط عليه السلام الأردن، فأرسله الله سبحانه وتعالى إلى سدوم^(٢) وما يليها، وكانوا أهل كفر بالله تعالى، وركوب الفواحش، كما أخبر الله سبحانه وتعالى

(١) يقال: التاط بقلبي، أي: التصق به وأحبه...

(٢) سدوم: مدينة قديمة في فلسطين على شاطئ البحر الميت...

عن قوم لوط عليه السلام: ﴿آتَاوُنَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ، إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾^(١) . . .

وكان لوط عليه السلام ينهاهم عن ذلك، ويدعوهم إلى عبادة الله سبحانه وتعالى، ويتوعددهم على اضراره على ما كانوا عليه، وتركهم التوبة، وحذرهم من العذاب الأليم، فلا يزرهم من ذلك وعيد، ولا يزيدهم وعظه إلا تمادياً وعتواً، واستعجالاً لعذاب الله سبحانه وتعالى إنكاراً وتكذيباً، ويقولون له: ﴿إِنَّا نَجِدُكَ اللَّهُ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾^(٢) . . . حتى سأل لوط عليه السلام ربه تبارك وتعالى أن ينصره عليهم، فقال: ﴿رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾^(٣) . . . فأجاب الله سبحانه وتعالى دعاءه، وبعث جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام، لإهلاكهم: ﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَيِّئًا بِهِمْ﴾^(٤) . . . يعني: الملائكة سيء بهم، حزن لمجيئهم، لأنهم إثرة في غلمان جرد، فلما نظر إلى حسن وجوههم وطيب روائحهم، أشفق عليهم من قومه أن يقصدوهم بالفاحشة، وعلم أنه سيحتاج إلى المدافعة عنهم، ﴿وَصَاقَ بِهِمْ ذُرْعًا﴾^(٥) . . . ضاق: ضره وعظم المكروه عليه، / وقال: ﴿هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ، وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾^(٥) . . .

ب/٣٥

قال المفسرون: لما أضافهم لوط، مضت امرأة عجوز السوء واسمها واهلة، فقالت: استضاف لوط قوماً لم أر أحسن وجوهاً منهم، ولا أطيب ريحاً، ولا أنظف ثياباً منهم، . . . ومن قبل مجيئهم إليه، كانوا يعملون السيئات، فأمرهم أن النساء هن أطهر لكم، سُمي النساء بناته من حيث هو

(١) سورة الأعراف - الآية ٨٠ و ٨١، وقال عمرو بن دينار: ما رُوي ذكر على ذكر قبل قوم لوط . . .

(٢) سورة العنكبوت - الآية ٢٩ . . .

(٣) سورة العنكبوت - الآية ٣٠ . . .

(٤) سورة العنكبوت - الآية ٣٣ . . .

(٥) سورة هود - الآية ٧٧ و ٧٨، وانظر: تفسير النهر الماء من البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي

ج ٢، ص ٨١ و ٨٢ . .

وليهم . قالوا: لقد علمت ما لنا في بناتك من حق ، وأنتك لتعلم ما نريد . .
فلما رأت الملائكة ما يتم على لوط من قومه ، قالوا: يا لوط ركنك شديد ،
وإنا رسل ربك ، فافتح الباب ودعنا وإياهم . . ففتح الباب ، فضرب جبريل
بجناحه وجوههم فأعماهم ، فصاروا لا يعرفون الطريق ، ولم يؤمن بلوط إلا
إنسان . . ويقال: إن قومه ما كانوا يفعلون هذا الفعل إلا مع الغرباء ، لا مع
بعضهم البعض . . .

وقال رسول الله ﷺ:

● - «لعن الله من عَمِلَ عَمَلَ قوم لوط»^(١) . . .

● - «لعن الله من أتى غير مواليه»^(٢) . . .

● - «ملعون من أتى امرأة في دبرها»^(٣) . . .

ولنا في هذا المعنى:

وقوم من بقايا قوم لوط	يروا أن الياط من الرشاد
فقلت وقد رأيتهم جميعاً	يسوق الفسق في طلب الفساد
ألا بعداً لكم يا قوم لوط	كما بعد ثمود من قوم عاد

وأما الفواحش التي كانت عليهم ، فهي عشرة من القول والفعل ، فهي:
حذف الحصى ، والسخرية ، والصفير ، ولعب الحمام ، والرمي بقوس البندق ،
وحل الإزار ، والمشي بلا سراويل ، والعلك عند الناس ، والتعمم طبقة ،
وكانوا ينكحون بعضهم أمام بعض . . قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ
الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ﴾^(٤) . . .

(١) رواه النسائي ، وانظر: تحفة الأشراف ١٥٩/٥ . . .

(٢) رواه الحاكم في المستدرک ١٥٣/٤ . . .

(٣) رواه أحمد في المسند ٤٤٤/٢ و ٤٧٩ ، وأبو داود في كتاب النكاح ، باب في جامع النكاح ،

برقم ٢١٦٢/ ، عن أبي هريرة . . .

(٤) سورة العنكبوت - الآية ٢٩ . . .

قال المفسرون: أدخل جبريل عليه السلام جناحه تحت مدائن لوط، وهي أربع مدرارات^(١)، في شمل المدينة أربعمئة ألف مقاتل سوى المدرارات، / فاقتلها، حتى سمع أهل السماء نهيق الحمار، وصياح الديك، ولم تسقط لهم جرة، ولم ينكب لهم آنية، وكان الطير يخرج في الهواء لا يدري أين يذهب، فلما قلبها عليهم مكانها، وجعل عاليها سافلها، وامراته معهم^(٢) . . .

وقيل: إن قرية لوط أتوها نصف النهار، فلما بلغوا، انهزم سدوم . . ولقوا بنتا لوط تستسقي الماء لأهلها، وكان له بنتان، اسم الكبرى - ريثا -، واسم الصغرى - عريثا - . فقالوا لها: يا جارية، هل من منزل . .؟ . . قالت: نعم، قفوا مكانكم ولا تدخلوا حتى آتيكم . . فرقت عليهم من قومها وأتت أباهما، فقالت: يا أبتاه، أدرك فتينا على الباب، ما رأيت وجوهاً قط أحسن منهم، لا يأخذهم قومك فيفضحوك . . وكان قومه قد نهوه أن يضيف الرجال . . فذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿قَالُوا أَوْ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾^(٣) . . فخرجت امرأته فأخبرت قومها، قال: ما رأيت أحسن من قوم في بيت لوط، فامراته كانت سبباً لهلاكهم . . والله أعلم^(٤) .

قال: كتب عبد الملك بن مروان، إلى ابن حبيب قاضي حمص، يسأله: كم عقوبة اللوطي . .؟ . . فكتب إليه أن عليه رمي الحجارة، كما رُجم قوم لوط، فإن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ

(١) المدرارات: الطرقات . . .

(٢) المقصود: امرأة لوط عليه السلام . .

(٣) سورة الحجر - الآية ٣٠ . . .

(٤) انظر كل من الآيات في كل من السور الكريمة: الأعراف - ٨٠/٨٤، النحل ٥٤/٥٨، هود - ٦٧/٨٣، العنكبوت - ٢٦/٣٥، الشعراء - ١٦٠/١٧٥، الحجر - ٥٧، الصافات - ١٣٣/١٣٨، الأنعام - ٨٦، الأنبياء - ٧٤/٧٥، الحج - ٤٣/٤٤، ق - ١٣/١٤، القمر - ٣٩/٣٣ . . .

سَجَّيلٍ مَنْضُودٍ ﴿١﴾ . . . فقبل عبد الملك ذلك منه ، واستحسنه . . .

قال : وكان رجل منهم يتحدث في قريته التي كان فيها ، فيأتيه حجر فيقتله . . .

قال : وسمعت امرأة لوط الهدة ، فالتفت وقالت : واقوماه ، فأدركها حجر فقتلها ، فذلك قوله سبحانه وتعالى : ﴿إِلَّا امْرَأَتُهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ ﴿٢﴾ . . .

قالت : خالفت ، فمسخت حجراً ، تسمى هيلسفع ، وقال غيره : اسمها واعلة . . .

وكانت قرى قوم لوط خمس مدائن : / صدوم ، وعامورا ، ودادوما ، وميراهيم ، وسدوم ، وهي القرية العظمى ، وكانت في هذه القرية أربعة آلاف ألف ، وأما القرية الخامسة فإنها نجت من العذاب لأن أهلها قد آمنوا بلوط . . .

ولما نزل قوله سبحانه وتعالى : ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ، مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ ﴿٣﴾ . . .

وقال رسول الله ﷺ : «لقد أحسن في وصفك ربك فقال تعالى : ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ . . . فما بلغ من قوتك ، وما بلغ من أمانتك . . . ؟ . . . قال : أما قوتي ، فأرسلت إلى مدائن لوط وهي أربع مدائن ، في كل مدينة أربعمئة ألف مقاتل ، فرفعتها إلى السماء ، ثم جعلت أعلاها

(١) سورة هود - الآية ٨٢ . . . وقال الإمام الذهبي : اللواط أفحش من الزنا وأقبح ، انظر كتاب الكبائر ، في الكبيرة السابعة عشرة ، وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال : «لعن الله من عمِلَ عَمَلَ قوم لوط» . وإسناده حسن ، وقال ابن الطلاع في أحكامه : لم يثبت عن رسول الله ﷺ أنه رجم في اللواط ، ولا أنه ﷺ حكم فيه ، وثبت عنه ﷺ أنه قال : «اقتلوا الفاعل والمفعول به» . وذهب الشافعي رحمه الله أن حد اللوطي ، وحد الزنا سواء . . .

(٢) سورة الأعراف - الآية ٨٣ . . .

(٣) سورة التكوين - الآية ٢٠ و ٢١ . . .

أسفلها - قال: وما بلغ من طاعتك...؟.. قال: إن رضوان خازن الجنان، ومالك خازن النار، متى كلفتهما فتحا أبواب الجنة، وفتحا أبواب النار.. قال: فأخبرني عن قوله تعالى: ﴿أَمِينٌ﴾...؟.. قال: إن الله عز وجل أنزل من السماء مائة كتاب، وأربع كتب على أنبيائه، لم يأتهم عليهم غيري...

وفي حديث آخر، قال: أخبرني عن أمانتك...؟.. قال: ما أقول إلا ما قد قيل لي، لا أزيد حرفاً، ولا أنقص حرفاً...

وروى أبو ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، كم الأنبياء...؟.. قال: مائة وعشرون ألفاً.. قلت: فكم الرسل...؟.. قال: ثلاثمائة وثلاثة عشر، أولهم آدم، وآخرهم نبيك.. قلت: يا رسول الله، كم كتاب أنزله الله سبحانه وتعالى...؟.. قال: مائة كتاب، وأربع كتب، أنزل الله على شيث خمسين صحيفة، وعلى نوح ثلاثين صحيفة، وعلى إبراهيم عشرة صحائف، وعلى موسى قبل التوراة عشرة صحائف، ثم أنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان...

* * *

قصة جذيمة والزباء

٣٥ - وَكَذَلِكَ حُصِّنَ بِالْعِرَاقِ بِهِنَّ أُمْسَى وَهُوَ ذَاهِب
٣٦ - خَرَّبْنَهُ وَتَرَكْنَهُ لِلْبُومِ وَالْعُقْبَانِ سَائِب

قال ابن الكلبي: إن جذيمة من العرب الأولى، وكان في أيام الطوائف، وكان الحائل يسمى: جذيمة الأبرش، لأنه أصابه حرق نار، / ٣٧ أ / فبقي أثره نقط سود وحممر...

وقال أبو عبيدة: كان جذيمة بعد عيسى عليه السلام بثلاثين سنة، وكان قد ملك شاطئ الفرات إلى الأنبار، وكان يكنى بأبي مالك، وكان الملك قد قتل جذيمة أباه، وكان أول من ملك الجزيرة، وقتل جذيمة أبا الزباء، وغلب على ملكه، وألجأ الزباء إلى أطراف مملكتها، وكان يغير على ملوك الطوائف، حتى غلب على كثير ممّا في أيديهم، وهو أول من أوقد الشمع، ونصب المناجيق للحرب، وأول من اجتمع له الملك بأرض العراق، وكانت الزباء عاقلة أديبة، وسميت الزباء، قيل: إنه كان لها شعر يجللها، وما كان يقدر عليها رجل، فكان جنود الزباء: العماليق^(١)، والعاذية

(١) العماليق: قبيلة من العرب العاربة، وهي أمة عظيمة يضرب بهم المثل في الطول، وقد تفرقت في البلاد، فكان منهم أهل المشرق، وأهل عمان، والبحرين، والحجاز، وكان منهم ملوك العراق، والجزيرة، وجبابة الشام، وفراغة مصر. والله أعلم... جدهم الأول: عمليق، وقيل: عملاق. انظر: سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب - للسويدي ص ٣٧...

الأولى^(٢)، وسليخ ويزيد ابني حلوان بن عمران، فكان معهم من قبائل قضاعة^(١)، وكانت الزباء لها أخت يقال لها: زبيبة، فبنت لها قصرًا حصينًا على شاطئ الفرات الغربي، وكانت تتوعد أختها، وترتع بطن التجار، وتسير إلى تدمر، فلما استجمع لها أمرها، طلبت بثأر أبيها، فنهتها أختها عن ذلك، فبعثت إليه تخطبه على نفسها ليتصل ملكه بملكها، فدعته نفسه إلى ذلك، فشاور وزراءه على ذلك، وكل شار عليه أن يفعل، إلا قصير بن سعد اللخمي، فإنه قال له: أيها الملك، لا تفعل فإنها خديعة ومكر، فعصاه، وأجابها إلى ما سألت. فقال قصير عند ذلك: لا يطاع لقصير رأي.. فذهبت مثلاً.. ولم يكن قصيرًا، بل كان هذا اسمه، ثم كتبت إليه أن سر إلي.. فجمع أصحابه في بيته، في قرية على الفرات، وشاور وزراءه، فشاروا عليه بمثل المشورة الأولى.. فقال قصير: أيها الملك، أما إذا أغضبتني، فإذا رأيت جندها قبل أن يقبلوا إليك، ترحلوا وحيوك، ثم ركبوا وتقدموا، فقد كذب ظني، وإذا رأيتهم حيوك/ وطافوا بك، فإنني معرض لك العصا - وهي فرس كانت لجذيمة لا تدرك - فاركبها وانج بنفسك...

ب/٣٧

فلما أقبل جيشها حيوه، ثم طافوا به، ف قرب إليه القصير العصا، ففشل عنه، وأبى ركوبها، فركبها قصير فنجا، فنظر جذيمة إلى قصير على العصا وقد حال دونه السراب، فقال: ما ضلّ من جرت به العصا. وصارت مثلاً.. وجرت إلى غروب الشمس، ثم تعبت، وكانت قد قطعت أرضاً بعيدة، فبنى عليها برجاً يقال له: برج العصا. وقالت العرب: خير ما جاءت به العصا.. تضربه مثلاً العرب...

العادية الأولى: تسمى باسم أبيها عاد، والذي ورد اسمه في القرآن الكريم، وبنوه قبيلة من العرب العاربة البائدة، وقد غلب عليهم اسم أبيهم، وكانت منازلهم بالأحقاف بين اليمن وعمان، من البحرين وحضرموت، انظر: سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب - للسويدي ص ٤١...

(١) قضاعة: قبيلة من حمير من القحطانية، وهذا هو المشهور فيهم...

ودخل جذيمة على الزباء وبين يديها ألف وصيفة، وقد أطالت شعر عانتها، فلما دخل تكشفت له، وقالت: أمتاع عروس ترى يا جذيمة...؟.. فقال جذيمة: بل متاع أمة بدراناً.. فقالت: أما إنه ليس من عدم المواشي.. ثم أمرت به، فجلس على نطع، فأمرت براهشه^(١) فقطعت.. وقد كان قد قيل لها: احتفظي بدمه، فإنه إن أصاب الأرض قطرة من دمه على الأرض طُلب.. فقالوا: لا تضيعوا به المُلْك.. فقال جذيمة: دعوا دماً ضيعه أهله.. ومات...

وروي من طريق آخر: أنه بعث إليها فخطبها.. فكتبت إليه: إني فاعلة، ومثلك يُرغب فيه، فإذا شئت فاحضر إلي.. فجمع عند ذلك جذيمة وزراءه، واستشارهم كالذي تقدم...

وروي أن جذيمة دخل القصر، وليس فيه إلا الجواري، وهي على سريرها، فقالت للإماء: خذوا بيد سيدكم.. ففعلن.. ثم دعت بنطع، فأجلسته عليه، فعرف عندئذ الشر، فكشفت عن عورتها، فإذا هي قد عقدت/ أستها من ورائها، فقالت: أسوار عروس ترى...؟.. فقال جذيمة: بل سوار أمة انظر.. ثم تمام الحديث ما قدمنا.. فهذا ما كان من جذيمة والله أعلم...

وقيل: سقته الخمر حتى ذهب عقله، ثم أمرت برواهشه فقطعته، وكانت الزباء اسمها نائلة، وكانت زرقاء، وكانت الزباء يقال لها: اليمامة الزرقاء، وكذلك البسوس أيضاً زرقاء، وصاحبة دير الزبيب بنت اليمان أيضاً زرقاء، وأيضاً الزرقاء بنت عدي بن غالب من الوافدات على معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه^(٢)...

(١) براهشه: عروق في ظاهر الكف، أو في يدي الدابة، تعقر عند الاصطكاك، والراهشان هما عرقان في باطن الذراعين...

(٢) خبر الزرقاء مع معاوية من طريق العباس بن بكار، في بلاغات النساء ص ٥٠، والعقد الفريد =

وهنّ أربع، واختلف في نسب الزباء، فقليل: كانت رومية، وكانت
تتكلم العربية، ومدائنّها على الفرات من الجانب الشرقي والغربي...

* * *

= ٣٢٩/١، ومن طريق آخر- في تاريخ دمشق ص ١٠٩، تراجم النساء.. وفي صبح الأعشى
٢٥٢/١، وفي جمهرة خطب العرب ص ٣٧٣، وهي الزرقاء بنت عدي بن قيس الهمدانية،
من أهل الكوفة، شهدت مع قومها صفين، وكان لها لسان وعقل...

قصة يوسف عليه السلام

- ٣٧ - قَدْ أَوْدَعُوا السَّجْنَ الْعَزِيزَ بِكَيْدِهِمْ وَكَانَ غَالِبَ
٣٨ - وَقَدَدَنْ مِنْهُ قَمِيصَهُ فَرَأَى بِرَاهِيْنِ الْعَجَائِبِ
٣٩ - وَكَذَّبْنَ فِيمَا قُلْنَ فِيهِ وَكُنَّ فِيهِ مِنَ الْكَوَازِبِ
٤٠ - وَطَلَبْنَ مِنْهُ رِضَاؤَهُنَّ فَخَابَ مِنْهُنَّ الْمَطَالِبِ

قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾^(١) . . .

(١) ورد في تفسير النهر الماء من البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، ج ٢، ص ١٠٣، في تفسير الآية: قال: ومن حديث جابر بن عبد الله أن يهودياً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، أخبرني عن أسماء الكواكب التي رآها يوسف. فسكت عنه، ونزل جبريل عليه السلام، فأخبره بأسمائها، فدعا رسول الله ﷺ، ذلك الرجل اليهودي، فقال: هل أنت مؤمن إن أخبرتك بذلك؟.. قال: نعم.. فقال ﷺ: جريان، والطارق، والذيال، وذو الكتفين، وقابس، ووثاب، وعمودان، والفليق، والمصبح، والضروح، وذو الفرع، والضياء، والنور.. فقال اليهودي: أي والله إنها لأسمائها.. وقال الزمخشري: فإن قلت: لِمَ أخرج الشمس والقمر؟.. قلت: أخرهما لعطفهما على الكواكب على طريق الاختصاص بياناً لفضلهما واستبدادهما بالمزية على غيرهما من الطوالع كما أخبر جبريل وميكائيل عن الملائكة، ثم عطفهما عليهما لذلك. ويجوز أن تكون الواو بمعنى: مع أي رأيت الكواكب مع الشمس والقمر.. انتهى . . . سورة يوسف - الآية ٤ . . .

وكانت القصة على ما ذكره أصحاب الأخبار: إن يعقوب عليه السلام، لم يكن يأمن أحداً على يوسف عليه السلام، وكان بنوه إلى جانبه، فبينما يوسف عليه السلام نائماً عند أبيه ليلة من الليالي، إذ رأى الرؤيا التي ذكرها الله عز وجل في كتابه، وكانت ليلة الجمعة، فانتبه من نومه فزعاً مرعوباً، فالتزمه يعقوب عليه السلام، فضمه إلى صدره، وقال: يا حبيبي ما لك...؟... ما الذي أصابك...؟... فقال: يا أبت، رأيت رؤيا أفزعني... قال: يا بني خيراً/ رأيت، فما الذي رأيت...؟... قال يوسف عليه السلام: رأيت كأن أبواب السماء فتحت، وقد أشرق منها النور، واستنارت النجوم، وأشرقت الجبال، وزجرت البحار، وعلت أمواجهها، وسبحت الحيتان بأنواع اللغات، ورأيت كأني لبست رداء أشرقت الدنيا من حسنه وجماله ونوره، ورأيت كل مفاتيح خزائن الأرض بين يدي، فبينما أنا كذلك، إذ رأيت أحد عشر كوكباً انقضت من السماء، ومعها الشمس والقمر، فخرروا لي ساجدين... فقال يعقوب عليه السلام: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾^(١). ثم عبر رؤياه، فقال: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾^(٢)...

ب/٣٨

قال: وسمعت امرأة يعقوب عليه السلام ما قاله يوسف عليه السلام لأبيه، فقال لها يعقوب عليه السلام: اكنمي ما قاله يوسف، ولا تخبري أولادي بذلك... قالت: نعم... فلما أقبل أولاد^(٣) يعقوب عليه السلام من مراعيهم، أخبرتهم بالرؤيا التي أمرها يعقوب عليه السلام بكتماها، فانتفخت أوداجهم، واقشعرت جلودهم غضباً على يوسف عليه السلام، وقالوا لها: ما

(١) سورة يوسف - الآية ٥...

(٢) سورة يوسف - الآية ٦...

(٣) قال ابن كثير في البداية والنهاية ١/١٩٥، هم: رأوبين، وشمعون، ولاوي، ويهوذا، ويساكر، وزبولون... وهؤلاء من ليسا، ويوسف، وبنيامين من راحيل، ودان، ونفتالي، من بلهة جارية راحيل، وقيل: من زلفة جارية ليسا، وقد ولدوا جميعاً في فدان آرام، إلا بنيامين فإنه ولد في أرض كنعان...

عنى بالشمس غيرك، ولا بالقمر غير أبينا، ولا بالكواكب غيرنا. ثم قالوا: إن ابن راحيل يريد أن يملك علينا، ويقول: أنا سيدكم، وأنتم عبيدي. فحسدوه على ذلك، وران الشيطان في نفوسهم...

وكذلك قيل في الحكمة: لا تأمن قارئاً على صحيفة، ولا شاباً على امرأة، ولا امرأة على سر...

قال: وكتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف الثقفي، يأمره بأمر، وأمره أن يستره، وكان على رأس عبد الملك في ذلك الوقت وصيفة تقرأ، / وهو لا يعلم ذلك، فاطلعت على ما كتب، فأذاعته، فلما يشك أحد أن الحجاج صاحبه، فكتب يقطعه عذراً، فكتب وحلف أنه لم يخرج منه ذلك السر إلى أحد، ويسأله أن ينعم النظر، ويتذكر لعله أن يكون قد أفضى به إلى غيره، أو احتال محتال على الكتاب ففضه، أو اطلع فيه مطلع وهو يكتبه، فتذكر عبد الملك، فذكر الجارية التي كانت عند رأسه في وقت كتابته، فدعا بها، فسألها وأرهبها، فاعترفت بالقضية، فتمهل عبد الملك، وقال: ألم تر أن وشاة الرجال لا يدعون أديماً صحيحاً، ولا تُفش سرّاً إلا إليك، فإن لكل نصيح نصيحاً...

ثم رجعنا إلى القصة:

قال أهل التاريخ: لما فارق يوسف عليه السلام أباه، كان ابن اثني عشرة سنة، وراودته زليخا وهو ابن عشرين سنة، وأودع في السجن وهو ابن سبع وعشرين سنة، وأقام في السجن اثني عشرة سنة، منها خمس سنين قبل تعبير الرؤيا، وسبع بعدها عقوبة، لقوله سبحانه وتعالى: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾^(١). فنزل جبريل عليه السلام، فقال له: الفرج تطلبه من غيرنا لمعاقبتك بها بضعاً. وشكا يوسف عليه السلام طول مكثه في السجن،

(١) سورة يوسف - الآية ٤٢...

فنزل إليه جبريل عليه السلام، وقال: أنت طلبت السجن.. فقال: ﴿رَبِّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾^(١).. ولو قلت: العافية، لعوفيت.. وقام على الأهرام سنة...

وقال رسول الله ﷺ: «لو لم يقل يوسف، اجعلني على خزائن الأرض، لملك من يومه»^(٢)..

وقد أقام في الملك اثنتين وسبعين سنة، وغاب عن أبيه ثمانين سنة، وأقام أبوه عنده في مصر بعد اجتماعه به ثلاثاً وعشرين سنة، ومات يوسف وله مائة وعشرون سنة، / ومات يعقوب عليه السلام وهو ابن مائة وخمس وسبعون سنة، ومات إسحاق عليه السلام وله ستون سنة...

ب/٣٩

قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَرَأَوْدَتُهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾^(٣).. أي: قصده وطلبته، وقالت: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾.. معناه: إني قد هيات الزينة لك^(٤).. أي: عجب من زليخا حين جاءت بيوسف، أغلقت على نفسها باب المدح والذم، وفتحت على نفسها باب المحبة، فقال يوسف: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾.. معناه: أي أنه رباني في بيته، وأكرمني، هذا العزيز فلا أخونه في بيته وماله.. ﴿إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾...

قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾^(٥).. ورد في الخبر

(١) سورة يوسف - الآية ٣٣...

(٢) عن ابن عباس، قال رسول الله ﷺ: «رحم الله أخي يوسف، لو لم يقل اجعلني على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته، ولكنه أخره لذلك سنة، فأقام في بيته سنة مع الملك».

انظر: تفسير البغوي - تفسير الآية ٥٥ من سورة يوسف.

(٣) سورة يوسف - الآية ٢٣، وتمامها: ﴿وَرَأَوْدَتُهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا وَغَلَقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾...

(٤) قيل: هيت، اسم فعل بمعنى أسرع، ولك، للتبيين، أي لك أقول، أمرته بأن يسرع إليها، وقال الكسائي والفراء: إنها لغة حورانية وقعت لأهل الحجاز فتكلموا بها ومعناها: تعال...

(٥) سورة يوسف - الآية ٢٤، وتمامها: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾...

أنها لما ذكرت محاسنه همَّ بها.. وقال بعضهم: همَّت به بالحرام، وهمَّ بها بالحلال...

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿لَوْلَا أَنَّ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾.. اختلفوا في البرهان ما هو...؟ فقال بعضهم: إن طيراً وقع على كتفه، وقال: رفعت ومحييت من ديوان النبوة.. وقيل: إنه رأى يعقوب عليه السلام وهو عاض على إصبعه، وهو يقول: يا يوسف لا تفعل فعل السفهاء.. قال: فعند ذلك هرب منها، وقصد الباب عند رؤيته يعقوب عليه السلام، وقد تصور له على صورة يعقوب عليه السلام، جبريل عليه السلام...

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَرَأَوْدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾.. يعني: امرأة العزيز التي كان يوسف عليه السلام في بيتها، طلبت منه أن يواقعها، والمرادة، المطالبة بأمر العمل به، لقد طالبت به بما تريد النساء من الرجال.. ﴿وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾ معناه: قال المفسرون: غلقت سبعة أبواب، ثم دعت إلى نفسها.. ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾.. معناه في جميع قول [أهل]^(١) اللغة والتفسير: هلم.. قال يوسف عليه السلام: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾.. أعوذ بالله أن أفعل هذا، والمعنى، أعتصم بالله سبحانه وتعالى من هذا، إنه ربي الذي اشتتراني، / وهو سيدي^(٢) أحسن مثواي، أي: أنعم عليّ بإكرامي، فلا أخونه، إن فعلت ذلك كنت ظالماً، ولا يفلح الظالمون، ولا يسعد العصاة الزانون..

(١) ساقطة في الأصل وإثباتها يقتضي السياق لإتمام المعنى...

(٢) هو ليس بسيد ليوسف عليه السلام، والسيد في لغتهم هو الزوج، فالمرأة تقول لبعْلِها: سيدي، وفي قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَالْفَيْنَا سَيِّدَهَا لَذَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾.. سورة يوسف - الآية ٢٥، ويكون السيد لها فقط، وهو ليس سيِّداً ليوسف عليه السلام على الحقيقة.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: أفرس^(١) الناس ثلاثة: العزيز حين تفرس في يوسف عليه السلام، فقال لامرأته: أكرمي مثواه.. والمرأة التي أتت موسى عليه السلام، فقالت لأبيها: يا أبت استأجره.. وأبو بكر رضي الله عنه حين استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنه...

قال: وجعلت تراوده:

فقالت: يا يوسف، ما أحسن شعرك...؟!...

قال: هو أول ما ينثر من جسدي...

قالت: يا يوسف، ما أحسن وجهك...؟!...

قال: هو للتراب مأكلاً...

قالت: يا يوسف، ما أحسن صورتك...؟!...

قال: ربي صورني في الرحم...

قالت: يا يوسف، ما أحسن عينيك...؟!...

قال: هي أول ما تسيل على الأرض من جسدي...

قالت: يا يوسف، صورة وجهك أنحلت جسمي...؟!...

قال: الشيطان يعينك على ذلك...

قالت: فراش الحرير قد بسطته، قم فاقض حاجتي...

قال: إذا... يذهب نصيبي من الجنة...

قالت: ادخل الستر معي...

قال: أيسترني من ربي...؟!...

فلم تزل تطمعه مرة، وتدعوه للذة، وهو شاب...

قالت: يا يوسف، قد التهمت الجنة ناراً قم فأطفئها...

قال: إن أطفأتها ففيها أحترق...

قالت: يا يوسف، الجنة قد عطشت قم فاسقها...

قال: من كان المفتاح في يده فهو أحق أن يسقيها مني...

(١) أفرس: من الفراسة، ثبت النظر وإدراك الباطن من النظر بالظاهر...

قالت: ضع يدك على صدري تشفيني بذلك...

قال: سيدي أحق مني بذلك...

فقامت امرأة العزيز إلى الصنم، فأظلت دونه بثوب...

فقال: ما هذا...؟

قالت: أستحي أن يرانا...

فقال: أتستحين ممن لا يسمع ولا يبصر ولا يفقه ولا يعقل، ولا

تستحي ممن خلق السموات والأرض، وخلق الأشياء وعلمها...

قالوا: فلما رأى يوسف عليه السلام البرهان، قام مبادراً إلى الباب هارباً ممّا أرادته منه، واتبعته المرأة، فذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ﴾^(١).. يعني: تبادل يوسف عليه السلام والمرأة إلى الباب.. أما يوسف عليه السلام فراراً من ركوب الفاحشة، وأما المرأة فطلباً ليوسف ليقضي حاجتها التي راودته عليها، فأدركته، فتعلقت بقميصه من خلفه، فجذبتة إليها مانعة له فقدته، أي: خرقت وشقت قميصه من دُبُرٍ، من خلف، لأن يوسف عليه السلام كان الهارب، والمرأة هي الطالبة، فلما خرجا لقياً سيدها لدى الباب، أي: وجدها زوجها فوطيفار^(٢) جالساً مع ابن عم راعيل^(٣)، فلما رآته هابته، فقالت سابقة القول: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٤).. يعني: الضرب بالسياط.. وهذا المثل السائر: خذ اللص قبل أن يأخذك.. فقال يوسف عليه السلام: بل هي التي راودتني عن نفسي فأبيت وفررت منها، فأدركتني وشقت قميصي...

(١) سورة يوسف - الآية ٢٥...

(٢) فوطيفار: هو عزيز مصر، ومعناه: عطية إله الشمس، وهو قائد حرس فرعون...

(٣) راعيل: روي أن راعيل هو اسم زوجة فوطيفار.

(٤) تمام الآية - ٢٥، من سورة يوسف، قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَالْفَيْتَا سَيِّدَهَا لَذا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾...

قال نوف الشامي : ما كان يوسف عليه السلام يريد أن يذكره . . فلما قالت : ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً . . غضب يوسف عليه السلام ، وقال : هي راودتني عن نفسي . . وشهد شاهد من أهلها . . .

قال الشعبي : كان في قميص يوسف ثلاث آيات حين جاؤوا بقميصه إلى أبيه ، فقالوا : أكله الذئب . . لشق قميصه . . وحيث سعى نحو الباب فأدرسته ، فشقت قميصه من خلفه ، فعرف الملك أنه لو كان هو الذي راودها ، لكان الشق من بين يديه ، وحيث ألقى القميص على وجه أبيه فارتد بصيراً . . واختلف العلماء في هذين الشاهدين . . .

قال سعيد بن جبير ، والضحاك ، كان في المهد صبياً ، أنطقه الله سبحانه وتعالى ، يدل عليه حديث ابن عباس رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ ، قال : « تكلم أربعة وهم صغار ، ابن ماشطة فرعون ، وشاهد يوسف ، / وصاحب جريج الراهب ، وعيسى ابن مريم »^(١) . . .

أ/٤١

وقيل : إن شاهد يوسف كان عمره ستة أشهر ، فلما رأى قميصه قد من دُبِّرَ ، وعرف خيانة المرأة وبراءة يوسف عليه السلام ، قال : ﴿ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾^(٢) . . ثم أقبل على يوسف عليه السلام ، وقال : يا يوسف ، أعرض عن هذا ولا تذكره لأحد . . ثم قال لامرأته : استغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين ، أي : من المذنبين . . .

قال : فشاع أمر يوسف عليه السلام وراعى في مصر ، وتحدث الناس بذلك نسوة في المدينة ، وهن : امرأة الساقى ، وامرأة الخباز ، وامرأة صاحب الدواب ، وامرأة صاحب السجن ، وامرأة الحاجب . . أن امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ، يعني : عبدها الكنعاني قد شغفها حباً ، حلَّ حبه شفاف قلبها

(١) حديث متفق عليه ، بلفظ : لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة : عيسى ابن مريم ، وصاحب جريج ، وصبي كان يرضع من أمه ، عن أبي هريرة . . . وليس فيه شاهد يوسف ، وابن ماشطة فرعون . . .

(٢) سورة يوسف - الآية ٢٨ .

وهو حجابُه وعلاقه: ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(١) . . أي: خطأ بين، حيث تراود عبدها عن نفسه، فلما سمعت بمكرهن راعيل، وبقولهن وحديثهن، وذلك إنما قلن ذلك مكرّاً بها، لتريهن يوسف عليه السلام، لما كان بلغهن من حسنه وجماله، اتخذت مائدة، ودعت أربعين امرأة من النسوة اللواتي عيرنّها، فلذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكَيِّئًا﴾^(٢) . . متكأ، أي: مجلساً للطعام، ومائدة عليها أصناف الطعام . . قال: اعتدت لهن، أترجأ، وبطيخاً، وموزاً، ورماناً، وورداً . . ﴿وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ . . وقالت ليوسف: ﴿اُخْرِجْ عَلَيْنَ﴾ . . وكانت قد أجلسته في مجلس غير المجلس الذي هنّ فيه جلوس، فخرج يوسف عليه السلام عليهن: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾ . . وهالهن أمره وبهتن، ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ . . بالسكاكين التي معهن، وهن يحسبن أنهم يقطعن الأترج . . .

ب/٤١

وعن وهب: بلغني أن تسعاً من الأربعين متن في ذلك المجلس، ووجدوا يوسف عليه السلام: ﴿حَاشَا لِلَّهِ﴾ . . معاذ الله . . ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾^(٣) . . فقالت راعيل عند ذلك للنسوة: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾^(٤) . . أي: من جهة حبه وشغفي، ثم أبدت لهن ما بان من عذرها لهن، فقالت: ﴿وَلَقَدْ رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ . . أي: امتنع واستعصى، فقالت النسوة ليوسف عليه السلام: أطع مولاتك . . فقالت راعيل: ﴿وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمْرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَنَّ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾^(٥) . . فاختر يوسف عليه

(١) سورة يوسف - الآية ٣٠، وتامها: ﴿وَقَالَتْ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ . . .

(٢) سورة يوسف - الآية ٣١ . . .

(٣) تنمة الآية - ٣١، من سورة يوسف . . .

(٤) سورة يوسف - الآية ٣٢ . . .

(٥) سورة يوسف - تنمة الآية ٣٢ . . .

السلام حين عاودته المرأة في المراودة وتوعدته على المخالفة، فقال: ﴿رَبِّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ، فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ﴾^(١). . . الدالة على براءة يوسف عليه السلام، وهي: قد القميص من دبر، وخمش الوجه، وقطعن النسوة أيديهن. . . ﴿لَيْسَ جُنَّتُهُ حَتَّىٰ حِينَ﴾^(٢). . .

قال السدي: وذلك حين قالت لزوجها: إن هذا العبراني قد فضحني في الناس، يعتذر إليهم، ويخبرهم بأني راودته عن نفسه، ولست أطيق أن أعتذر بعذري، فإما أن تأذن لي فأخرج وأعتذر، وإما أن تحبسه، فحبسه بعد علمه ببراءته، وذلك دفعاً للتهمة عن امرأته، / وذكر أن الله سبحانه وتعالى قد جعل له الحبس تطهيراً. . .

أ/٤٢

وقال ابن عباس رضي الله عنه: عثر يوسف عليه السلام ثلاث عثرات:

- ١ - حين هم بها فسجن^(٣). . .
- ٢ - حيث قال: اذكرني عند ربك فلبث في السجن بضع سنين^(٤). . .
- ٣ - وحين قال لإخوته: إنكم لسارقون. فقالوا: إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل^(٥). . .

(١) سورة يوسف - الآيات ٣٣، ٣٤، ٣٥. . .

(٢) تنمة الآية ٣٥، من سورة يوسف. . .

(٣) إشارة إلى الآية - ٢٤، من سورة يوسف: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾. . .

(٤) إشارة إلى الآية - ٤٢، من سورة يوسف: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾. . .

(٥) إشارة إلى الآية - ٧٠ من سورة يوسف: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيُّهَا الْعَبْرِيُّ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾. والآية - ٧٧، من سورة يوسف: ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾. . .

قال: سمعت محاضر بن الورع يقول: أول من شعر يعقوب عليه السلام، لما جاؤوا فأخبروه عن يوسف عليه السلام، فقال:

صبر جميل في الذي جئتم به فحسبي إلهي في المهمات كافيا

قال:

أما في رسول الله يوسف أسوة لمثلك محبوس على الظلم والإفك
أقام جميل الصبر في الحبس برهة وقاد به الصبر الجميل إلى الملك

وكتب بعضهم إلى صديق له، قال: ورأيي أن ضيق الخوف متسع
الأمّن، وأول مفروج به آخر الحزن، فلا تبتئس، والله في ملك يوسف عليه
السلام خزائنه بعد الخلاص من السجن...

ولنا في المعنى:

الحبس تجربة الصديق وإنه	لشماتة الحساد والأعداء
وقبور قوم لا تزار بيوتهم	موتى وهم في صورة الأحياء
قطعت علائقهم وقل نصيرهم	فعليهم أبداً بغير شفاء
فاصبر على جور الزمان فلا	تدم حالات في السراء والضراء

وكتب يعقوب عليه [السلام]^(١) إلى يوسف عليه السلام لما استبعد
أخاه بالسرقة...

بسم الله الرحمن الرحيم

من يعقوب نبي الله، بن إسحاق ذبيح الله، بن إبراهيم خليل الله...
أما بعد:

فإنّا أهل بيت نبوة/ موكل بنا، أما أبي فشدت يداه، وألقيت السكين
على نحره ففداه الله، وأما جدي فشدت يداه، وألقي في النار فنجاه الله،
ولما كان لي ولد كنت مغرم بحبه، ففرق الله بيني وبينه، وإنّا لا نسرق ولا نلد

(١) ساقطة في الأصل وإثباتها يقتضي السياق لإتمام المعنى...

سارقاً، وأما أنت فلئن لم تردد عليّ ولدي لأدعون عليكم دعوة تعمل معك إلى سبع من عقبك . . .

وملك يوسف عليه السلام مصر، وأوحى الله سبحانه وتعالى أن اتخذ لك وزيراً، فأتاه جبريل عليه السلام، فقال: ما يصلح هذا، فاتخذ غيره . . . فاتخذ يوسف عليه السلام . . . فأتاه ثانياً، وقال: ما يصلح هذا . . . ومن ثم اتخذ ثالثاً . . . فأتاه جبريل عليه السلام، فقال: ما يصلح هذا . . . قال يوسف عليه السلام: ناشدتك الله، أرشدني إلى من أتخذه وزيراً . . . فقال له: إن في المسجد الفلاني فقيراً فاتخذه وزيراً . . . فصلى يوسف عليه السلام المغرب، ونزل إليه، وعليه ثياب رثة الفقر، فدخل عليه وسلم عليه، فلما آنسه بالكلام، قال له يوسف عليه السلام: أتعرف من أنا . . .؟ قال: لا . . . قال: أنا يوسف عزيز مصر، وإن الله تعالى أمرني أن أتخذك وزيراً . . . ثم أخذه بيده، وقام معه، ويوسف عليه السلام يتفكر بأي شيء يستحق هذه الوزارة . . . فنزل جبريل عليه السلام إليه وقال: ألا تعرف هذا الرجل يا يوسف . . .؟ قال: لا . . . قال: هذا الذي شهد ببراءتك وله ستة أشهر، ألا يستحق الوزارة . . .؟ قال: بلى . . .

قال: وإن يوسف عليه السلام لما اجتمع بأبيه . . . قال له يوسف عليه السلام: يا أبت، بكيت عليّ إلى أن أذهب الله بصرك . . . قال: نعم . . . قال: وحزنت عليّ إلى أن تقوس ظهرك . . . قال: نعم . . . قال: ما علمت/ أن القيامة تجمعننا . . . قال: بلى، ولكن خشيت أن تموت على غير دين الإسلام، فلا نلتقي أبداً . . . فقال له أبوه: يا يوسف، علمت ما كان مني لأجلك، وما افتقدت عرفتني بخبرك أعققتني . . . قال: لا والله يا أبي، ولكن، كنت أقف على هذه الخزانة، وكلما كتبت إليك كتاباً، يأتيني جبريل عليه السلام يأمرني بتركه . . . وأن امتثال أمر الله سبحانه وتعالى حق . . .

* * *

قصة يونس عليه السلام

٤١- وَكَذَلِكَ يُونُسُ لَمَ يَرْلُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا صَوَاحِبُ

وأما يونس عليه السلام^(١)، وهو ذو النون صاحب الحوت، وهو يونس بن متى من سبط لاوي، وبعث نبياً وهو ابن أربعين سنة، وكان من عماد بني إسرائيل، فهرب بذنبه، واختلفوا في ذهابه مغاضباً، وعلى من كان غضبه...

فقال قوم: غاضب قومه وذهب عنهم...
وقيل: ذهب مغاضباً لربه عز وجل لما أصاب الذنب، وهي زلة استزله الشيطان...

وكان يونس عليه السلام ضيق الخلق، لأنه لما تاب قومه من ذنوبهم، ورفّع عنهم العذاب، أنف من ذلك أن ينسبوه إلى الكذب، وكان من سنتهم أن يقتلوا الكذاب، فخرج هارباً من ذلك...

(١) انظر الآيات في كل من السور الكريمة: يونس - ٩٨، الأنبياء - ٨٧ و ٨٨، الصافات - ١٣٩ و ١٤٠ و ١٤١ و ١٤٢ و ١٤٣ و ١٤٤ و ١٤٥ و ١٤٦ و ١٤٧ و ١٤٨... والقلم - ٤٨ و ٤٩ و ٥٠...

[قال الله تعالى] ^(١): ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ ^(٢).. أي: لن نعاقبه بالضيق له، والحبس.. وقيل: ظن أن يهرب إلى ربه عز وجل، فهرب: **إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ** ^(٣). أي: هرب إلى السفن الموقرة المملوءة.. **فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ** ^(٤).. أي: قارع فكان من المغلوبين ^(٥)، لأنه/ قد احتبست السفينة التي ركب فيها من حدث أحدثوه.. فساهم، فوقع على يونس عليه السلام ^(٦)، فرمى نفسه في البحر، **فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ** ^(٧)...

وقيل: إن السفينة وقفت لا تمشي يمينا ولا شمالاً.. فقال: ما لسفينتكم لا تجري..؟.. ف قيل: إن فيها عبداً هارباً من ربه عز وجل، لا تسير السفينة حتى تلقوه منها.. فقالوا: أنت يا نبي الله، فرمى بنفسه فبلعه الحوت، وأوصى الله سبحانه وتعالى إلى الحوت أني لم أجعله لك رزقاً، وإنما جعلته لك حرزاً، خذه ولا تخذش له لحماً، ولا تكسر له عظماً.. فأخذه، ثم هوى به إلى مسكنه في البحر، فلما انتهى به إلى أسفل البحر، سمع يونس عليه السلام حساً، فأوحى الله سبحانه وتعالى إليه وهو في بطن الحوت: هذا تسبيح دواب البحر.. قال: فسبح وهو في بطن الحوت، **فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ** ^(٨).. ظلمة البحر، وظلمة الليل، وظلمة جوف

(١) ساقطة في الأصل وإثباتها يقتضي السياق لإتمام المعنى...

(٢) سورة الأنبياء - الآية ٨٧.. قيل: نضيق عليه من القدر، فالنبي نبي حتى يموت، فإذا أراد ترك هذا الشرف لا يسمح له، وكذلك نجد أن الإيمان شرف، ولو أراد أن يرتد يقتل، وهكذا مراتب التقوى فمن بلغ درجة منها ثم أراد التدني يبتليه ربه حتى يعود...

(٣) سورة الصافات - الآية ١٤٠..

(٤) سورة الصافات - الآية ١٤١..

(٥) روي أنه قارع من كان في الفلك فكان من المغلوبين بالقرعة..

(٦) روي أن القرعة كانت ثلاث مرات، وفي كل مرة كانت القرعة تقع على يونس عليه السلام، فأدرك عندئذ أن من وراء ذلك سراً، وأن الله تعالى في ذلك حكمة وتدبيراً..

(٧) سورة الصافات - الآية ١٤٢..

(٨) سورة الأنبياء - الآية ٨٧.. وروي، أن رسول الله ﷺ قال: «لما أراد حبس يونس في بطن =

الحوت . . وقيل : إن الحوت بلعه حوت آخر، ثم بلغ أيضاً آخر، وهو قول سالم بن الجعدي . فسمعت الملائكة تسبيحه، فقالوا : ربنا، إنا نسمع صوتاً ضعيفاً في أرض غريبة . . قال : هو يونس الذي يصعد إلى عمله الصالح . . فشفعوا فيه، فقبل شفاعتهم . . ولبت في بطن الحوت أربعين يوماً، فقذفه على ساحل البحر، وطرحه بالفضاء من الأرض حيث لا يواريه من شجر ولا غيره مثل الفرخ الممعوط، ولم ينقص من خلقه شيء، واليقطين كل شجرة لا تقوم على ساق، مثل : الدباء، والبطيخ، والحنظل . .

وقيل : هو القرع . . وقيل : إن الله تعالى أرسل إلى الشجرة دابة الأرض تقرض عروقه . . فانقضت عليه الشمس، فشكاها . . ف قيل : يا يونس، جزعت لحر الشمس، ولم تجزع / لمائة ألف أو يزيدون، تابوا إليّ، فتبت عليهم^(١) . . .

٤٤ / أ

وقيل : إن يونس عليه السلام سأل الله عز وجل، فقال : ما كنت معاقبي به في الآخرة، فعجله في الدنيا . . فأوحى الله تعالى إليه : أن عقوبتك بنت فلان، فتزوج بها . . .

= الحوت، أوصى الله إلى الحوت أن خذه ولا تخدش له لحماً ولا تكسر له عظماً، فلما انتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حساً، فقال في نفسه : ما هذا . . ؟ . . فأوحى الله له وهو في بطن الحوت : إن هذا تسبيح دواب البحر . . قال : وسبح وهو في بطن الحوت، فسمعت الملائكة تسبيحه، فقالوا : يا ربنا، إنا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غريبة . قال : ذلك عبدي يونس، عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر . . قالوا : العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح . . . قال : نعم . . قال : فشفعوا له عند ذلك . . . فأمر الحوت فقذفه في الساحل وهو سقيم . . . رواه البزار عن أبي هريرة . . .

(١) إشارة إلى الآيات الكريمة : ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ، وَأُنْبِتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ، وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ، فَأَمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ . . سورة الصافات - الآيات ١٤٥ و ١٤٦ و ١٤٧ . . وقوله تعالى : ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ . . سورة يونس - الآية ٩٨ . . .

ثم إن قوماً دخلوا عليه، فأضافهم، فكان يدخل ويخرج إلى منزله، فتؤذيه زوجته، وتستطيل عليه وهو ساكت، فعجبوا من ذلك، وهابوه أن يسألوه لمكانته في النبوة، فقال لهم يونس عليه السلام: لا تعجبوا مني، فإنني سألت الله تعالى، فقلت: يا رب، ما كنت معاقبي به في الآخرة، فعجله لي في الدنيا، فأولى الله تعالى: أن عقوبتك بنت فلان، فتزوجت بها وأنا صابر منها على ما ترون...

ولنا فيه لغز:

وحاملة من غير فحل وجنيها تكلم في الأحشاء

وهو مليح وقد وضعته والبياض بخده، وأعجب من ذلك أنها حملت به صحيحاً، وقد ألقته وهو سقيم...

ولنا فيه أيضاً شعر:

وما ولد قد جاء من غير جنسه وفي بطنها كانت تربيته كالولد
وقد أرضعته والبياض بخده وعاشا ولم يجتمعا إلى الأبد

* * *

قصص متفرقة

١ - ● قال سفيان بن عيينة: شكّا جرير بن عبد الله، إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما يلقي من النساء...؟.. فقال له: لا عليك، فإن التي عندي ربما خرجت من عندها فتقول: إنما تريد أن تتطلع لفتيات بني عدي^(١)... وسمع كلامهما عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، فقال: لا عليكما، فإن إبراهيم الخليل عليه السلام شكّا إلى ربه ذرعاً من خُلق سارة، فأوحى الله سبحانه وتعالى إليه: إني ألبستها لباسها ما لم ترَ في دينها وصماً... فقال عمر رضي الله عنه: إن بين جوانحك علماً...

٢ - ● وحكي عن بعض المشايخ أنه كانت له جارية سفيهة اللسان، قليلة الإحسان، وكانت/ تأخذ من عرضه وتؤذيه، وما كانت تراقب الله فيه، وكان من كبار المشايخ، وأكثرهم اجتهاداً في عبادته، وأعظمهم شأنًا، وكانت الفقراء تأوي إليه وتبيت عنده، فسمعوها وهي تأخذ من عرضه وتستطيل عليه... فقالوا له يوماً: لِمَ لا تبيعها وتستخلف غيرها وتستريح ممّا أنت فيه من مكائدها وسوء فعالها...؟.. فقال: والله إني لأستحي من الله سبحانه وتعالى أن أبلي مسلماً بها...

(١) بنو عدي: بطن من بني النجار في الخزرج...

ولنا في هذا المعنى قول:

تلوموني على جور الهوى فأنا أخبركم عذري بها
فبلائي كيف أبلي مسلماً بالذي ألقاه من تعذيبها

٣ - ● وحكي أيضاً أن بعض كبار المشايخ المتصوفة، وكان لسان الحقيقة، وسلطان الطريقة، وصاحب قدم واجتهاد، وكانت له زوجة سوء، من أشر خلق الله تعالى وأدهاهم.. وكانت لا تزال تهينه في كل وقت، وتأخذ من عرضه، وهو صابر عليها.. فلما كان في بعض الأيام، أخذ المصحف الكريم على عادته حتى يقرأ فيه ما تيسر له، فأول ما فتحه وجد فيه: ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ، الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ، ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾^(١).. فوضع المصحف من يده على كرسيه، ثم قال: اللهم لا تفعل.. اللهم لا تفعل.. اللهم لا تفعل، أسألك بهذا الكتاب العزيز، وأسألك بكل كتاب أنزلت، وكل نبي أرسلت، اللهم لا تفعل.. وجعل يقسم على الله تعالى.. فقالت له زوجته: ما بك يا رجل، وما الذي دهاك، فإني أراك تقسم على الله سبحانه وتعالى بهذه الأقسام..؟.. فقال: يا امرأة، وكيف لا أقسم وقد قال الله عز وجل: ﴿أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾.. فإني في هذه الدنيا التي هي ساعة لا أقدر أن أقاسمك فيها، فكيف يكون في دار الأبد الأزلي.. قالت: يا رجل، لا تدع الله بحقي عليك، فإني تائبة على يد الله تعالى وعلى يدك، وإني لا أعود إلى مثل ذلك، / ولا أوديك، ولا أشغل لك قلباً، ولا أضيق لك صدرًا في الدنيا ولا في الآخرة إن شاء الله تعالى، لعل الله سبحانه وتعالى يجمع بيننا في الآخرة^(٢)..

٤٥/أ

(١) سورة الزخرف - الآيات ٦٨ و ٦٩ و ٧٠.

(٢) إشارة إلى الحديث الشريف، عن حذيفة، رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال لامرأته: «إن سرك أن تكوني زوجتي في الجنة فلا تزوجي بعدي، فإن المرأة في الجنة لآخر أزواجها في الدنيا».. قال الذهبي: الحديث عن إسحاق السلولي. حدثنا ابن عبد الرحمن، عن أبي =

٤ - ● وحكي أيضاً عن بعض الصالحين: أنه كانت له زوجة، وكانت سليطة اللسان عليه، وكانت تبتليه بأشد البلاء، فلما ماتت، وقف على قبرها، وقال: أشهدوا عليّ رحمكم الله تعالى إنها طالقة مني ثلاثاً.. فقالوا له: ويحك، إنها قد بأت منك، وهي طالقة منك شئت أم أبيت، فما يحتاج إلى ذكر ذلك.. فقال: بلى، خيفة أن تكون زوجتي في الجنة، فإني لقيت منها في هذه الدنيا ابتلاءً شديداً، والله سبحانه وتعالى أكرم من أن يعذبني بها في الدنيا والآخرة...

٥ - ● وحكي عن بعض السلف الصالح: أن رجلاً كان بأرض فلسطين بقرية من قراها، مقيم بها عن قرب بيت المقدس، وكان زاهداً ورعاً، قديم الهجرة، عظيم الشأن، وصاحب قدم ومعاملة، وكان من أكابر الصوفية، مشغول بكتاب الله تعالى وسنته، كثير البكاء والتقرب إلى الله تعالى، وكان كل جمعة يصلي بمكة شرفها الله تعالى الجمعة والعصر، فإذا صلى العصر، رجع إلى منزله الذي في الشام، فنظر إليه يوم الجمعة صبي وهو قاصد إلى مكة، فسعى في أثره، حتى دخل مكة فصلى بها الجمعة والعصر، واشتغل الصبي، ورجع الشيخ إلى منزله، وجاء الصبي، فسأل عن الشيخ الذي كان بجانبه، فقيل له: راح إلى قريته. فقال: وأين أنا...؟.. قالوا: بمكة.. فبكى الصبي.. فقيل له: اصبر يا ولدي إلى الجمعة الثانية، تبعه الصبي، فلما وصل إلى قريته، وجد زوجته على عاتقها جرة تحمل فيها الماء، فلما نظرت إلى الشيخ والصبي خلفه، لم تتمالك حتى ألقت الجرة عن عاتقها على الأرض فكسرتها، وأخذت حجراً وضربت به وجه الشيخ، فشجته، فسال الدم على بياض لحيته، وقالت له: يا هذا، / ما هذا الصبي الذي معك، أنت تسافر مني حتى تجتمع بهذا الصبي وتشغل به عني.. فنظر إلى

٤٥/ب

= إسحاق، عن صلة، عن حذيفة، وأما صلة فهو ابن زفر، قال: ورجاله ثقات: انظر سير أعلام النبلاء للذهبي - ٢٠٨/٢...

الشيخ رجل موسر، فشق عليه لما رأى من قبح فعال زوجته، فأنفذ إليه مائة دينار، وقال له: بالله عليك إقبل مني هذه الدراهم وادفعها في صداق امرأتك واخلص منها، فقد ساءني ما صنعت بك في حقك.. فقال له: يا ولدي، وفقك الله تعالى، اعلم.. أنني ما نلت هذه المنزلة إلا بصبري عليها، ثم ردّ الذهب إليه...

٦- ● وحكي أن بعض الزهاد المجتهدين كان يتسبب في حرفة تقوم بأوده، وكان كثير الاجتهاد، صائماً طوال دهره، فإذا جاء الليل، أحضر الذي فتح الله تعالى له فأفطر عليه، وصلى عشاء الآخرة، ثم يقوم بوطء امرأته، ثم يغتسل، ويقرأ ثلث القرآن، ثم يطأها، ثم يغتسل، ثم يقرأ ثلث الثاني، ثم يطأها، ثم يغتسل، ثم يقرأ ثلث الثالث، ثم يطأها، ثم يغتسل.. فكان في كل ليلة له ختمة للقرآن الكريم، ويجامع زوجته ثلاثاً، فلما توفي الرجل إلى رحمة الله سبحانه وتعالى، جاءت زوجته إليه وقبلته من بين عينيه، وقالت: يرحمك الله، إنك لنعم الرجل، لقد أرضيت ربك، وأرضيت زوجتك...

* * *

قصة قارون

٤٢ - وَبِهِنَّ قَارُونٌ غَدَا مُتَجَلِّلاً فِي الْأَرْضِ ذَائِبٌ

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾^(١)...

قال العلماء بأخبار القدماء: كان قارون ابن عم موسى عليه السلام، وكان أعلم بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام، وأفضلهم وأعبدهم...

قال قتادة: ويسمى المفتون لحسن صورته، ولم يكن في بني إسرائيل أقرأ للتوراة منه، ولكن عدو الله تعالى نافق كما نافق السامري^(٢)، فبغى عليه قومه، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾...

واختلفوا في معنى هذا البغي:

قال ابن عباس رضي الله عنه: كان فرعون قد ملك قارون على بني إسرائيل حين كان بمصر، وكان يبغى عليهم ويظلمهم، وقيل: زاد عليهم في الثياب شبراً...

(١) سورة القصص - الآية ٧٦...

(٢) إشارة إلى الآيات الكريمة في سورة طه - ٨٥ و ٨٧ و ٩٥...

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ﴾^(١) . . أي : لتنقل وتميل ، إذ جعلوها لنقلها ، وكانت مفاتيح خزائن قارون ستين بغلاً غراً محجلة ، ما يزيد منها مفتاح على إصبع ، لكل مفتاح منها كنز ، وكان قارون أينما يذهب يحمل مفاتيح كنوزه ، وكانت من حديد ، فلما ثقلت عليه جعلها من خشب ، فثقلت عليه ، فجعلها من جلود البقر على طول الإصبع ، تحمل معه إذا ركب ، وكان قارون قد قام بجبل أربعين سنة يتعبد حتى غلب بني إسرائيل في العبادة ، فبعث إليه إبليس شياطينه ، فلم يقدروا عليه ، فتصدى له ، فجعل يتعبد إبليس ، وقارون يتعبد ، وجعل إبليس يقهره في عبادته^(٢) . . فقال إبليس : يا قارون ، قد رضينا بالذي نحن فيه ، لا نشهد لبني إسرائيل جماعة ، ولا نعود لهم مريضاً ، ولا نشهد لهم جنازة ، وأنزله من الجبل إلى البيعة ، فكان يكسب يوماً ، ويتعبد ويتصدق ويعطي ، فلما كسب يوماً ، وتعبد يوماً ، جلس إبليس وقد تركه ، ففتحت الدنيا على قارون ، فبلغ أمر ما أخبرنا به ، أن أوعية ماله كانت أربعمئة ألف في أربعين جراباً ، فصار يُضرب بها الأمثال : «أوعدتني وأعدك ، حتى إذا طمعتني في كنز قارون ، جئت في الليل بغسالة لتغسل ما قلت بالصابون» . ويحتاج من يرجو آنذاك إلى ثلثه من غير تكذيب كنوز قارون تكون له : عمر نوح ، وصبر أيوب . . .

(١) تتمه الآية ٧٦ ، من سورة القصص ، وقد ورد في تفسير النهر الماء لأبي حيان الأندلسي ، ج ٢ ، ص ٦٦٤ ، قوله تعالى : فبغى عليهم . أي : كفر وتكبر وحسد موسى عليه السلام على نبوته ، وعلى هارون على الذبح والقربان . . . وقوله تعالى : لتنوء . . . أي : لثقل عليكم . . . وقيل : الصحيح أن الباء للتعدي ، أي : لتنيء العصبه ، أي : هذه الكنوز لكثرتها واختلاف أصنافها يتعب حفظها القائمين عليها . . .

(٢) أي : لقد أخذ يتعبد الله تعالى مع قارون كي يطمئن إليه ، ثم أخذ إبليس يزداد في عبادته لله تعالى أمام قارون وذلك لغاية في نفسه . . .

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي / زِينَتِهِ﴾^(١) . . قيل : ٤٦/ب
خرج ببراذين^(٢) بيض عليها مروج الأرجوان، وعليهم المعصفرات، وهو على
بغلة شهباء، عليها سرج من الذهب، ومعه ألف فارس، وعلى دوابهم
الأرجوان، ومعهم ثلاثمائة جارية كلهم بيض الثياب، وعليهم الحلبي الحمر،
ويركبون البغال الشهب . . فلما قطع موسى عليه السلام ببني إسرائيل البحر،
جُعلت الحبورة، وهي : الرياسة، والمديح، وبيت القربان، وكان بنو
إسرائيل يأتون بهديهم وهداياهم ويدفعونها إلى هارون، فيضعها على المذبح،
فتنزل نار من السماء فتأكلها، فوجد قارون في نفسه من ذلك تهاوناً، فأتى إلى
موسى عليه السلام، وقال : يا موسى لك الرسالة، ولهارون الحبورة^(٣)،
ولست أنا في شيء من ذلك . . فقال موسى عليه السلام : لا . . فقال قارون :
أنا أقرأ التوراة، وإني أقوى منكما^(٤)، ولكن لا صبر لي على ذلك . . فقال
موسى عليه السلام : والله ما جعلتها أنا في هارون، بل الله جعلها له . . فقال
قارون : والله لا أصدقك في ذلك حتى تريني برهان ذلك . . فجمع بني
إسرائيل وقال : هاتوا عصيكم . . فجاءوا بها، فحزمها وألقاها في القبة التي
يعبد الله فيها، وجعلوا يحرسون عصيهم حتى أصبحوا، فأصبحت عصا
هارون قد نبت لها ورق أخضر، وكانت من شجر اللوز . . فقال موسى : يا
قارون، أترى هذا . . ؟ . . قال قارون : والله ما هذا بأعجب ممّا تصنع
السحرة . . وذهب، واعتزل موسى عليه السلام بأصحابه وأتباعه، وجعل
موسى عليه السلام يداريه للقرابة التي بينهما، / وهو يؤدبه في كل وقت، ولا
يزيد قارون كل يوم إلا تجبراً وعتواً ومخالفة ومعاداة لموسى عليه السلام،
حتى بنى داراً، وجعل بابها من الذهب، وضرب على جدرانها صفائح

(١) سورة القصص - الآية ٧٩ . . .

(٢) براذين : جمع برذون، وهي : دابة الحمل الثقيل . . .

(٣) الحبورة : هي الإمامة، ومأخوذة من الجبر، أي : بمعنى الرئيس في الدين . . .

(٤) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيَتْهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ . . . سورة القصص - الآية

الذهب، وكان الملاء من بني إسرائيل يفدون إليه ويروحون، فيطعمهم الطعام ويحدثونه ويصاحبونه . .

قال ابن عباس رضي الله عنه: ثم إن الله تعالى أنزل الزكاة على موسى عليه السلام، فلما أوجب الله تعالى عليهم الزكاة، أتى قارون إلى موسى عليه السلام، فصالحه على كل ألف دينار، دينار، وعن كل ألف درهم، درهم، وعن كل ألف شاة، شاة، فرجع إلى بيته، فحسبه فوجده كثيراً، فلم تسمح نفسه بذلك، فجمع بني إسرائيل، وقال: إن موسى قد أمركم بكل شيء فأطعتموه، وهو الآن يأخذ أموالكم، أتحبوا أن أرسل إليه فلانة البغية فنجعل لها جعلاً على أن تقذف موسى بنفسها، فإذا فعلت ذلك، خرج عليه بنو إسرائيل فرفضوه واسترحنا منه، فوافقوه . . .

قال: فجعل قارون لها ألف دينار . . وقيل: ملأ طشت ذهباً، وقال لها: إني أخ لك، وأخلطك مع نسائي، على أن تقذفي موسى بنفسك غداً إذا حضر بنو إسرائيل . . .

فلما كان الغد جمع قارون بني إسرائيل، ثم أتى موسى عليه السلام، فقال: إن بني إسرائيل ينتظرون خروجك لتأمرهم وتنهاهم، وتبين لهم أعلام دينهم وأحكام شرعهم . . فخرج إليهم موسى عليه السلام، وهم في براح في الأرض، فقام فيهم خطيباً/ ووعظهم، فقال: يا بني إسرائيل، من سرق قطعنا يده، ومن افترى جلدناه ثمانين جلدة، ومن زنا وله امرأة رجمناه حتى يموت . . فقال له قارون: وإن كنت أنت . . ؟ . . فقال: وإن كنت أنا . . فقال قارون: إن بني إسرائيل يزعمون أنك قد فجرت بفلانة . . !! . . فقال موسى عليه السلام: أنا . . ؟ . . قال: نعم . . قال موسى عليه السلام: ادعوها فإن قالت، فهو كذلك . . فلما جاءت، قال موسى عليه السلام: يا فلانة، أنا فعلت بك ما يقول هؤلاء . . وعظم عليها، وسألها بالذي فلق البحر لنبي إسرائيل، وأنزل التوراة على موسى، إلا صدقت . . فلما ناشدها، تداركها الله

٤٧/ب

سبحانه وتعالى بالتوفيق . . . وقالت في نفسها: لئن أحدث اليوم توبة أفضل من أن أؤذي رسول الله موسى . . . فقالت: لا، فقد كذبوا، ولكن . . . قد جعل لي قارون جعلاً، وأعطاني هذين الكيسين على أن آتي جماعتكم، فأزعم أن موسى يراودني عن نفسي، وأنه زنى بي، ومعاذ الله أن أفترى على نبي الله، وهذه أكياسه وخاتمه عليها . . . فعرف بنو إسرائيل خاتم قارون، فغضب موسى عليه السلام، ونكس قارون رأسه، وسكت الملاء، وعرف قارون أنه وقع في مهلكة، وخرَّ موسى عليه السلام ساجداً يبكي، وهو يقول: يا رب إن عدوك آذاني، وأراد فضيحتي وسبي، اللهم . . . إن كنت رسولك، فاغضب لغضبي، وسلطني عليه، فأوحى الله سبحانه وتعالى إليه أن ارفع رأسك، وأنتك تأمر الأرض بما شئت فتطيعك . . . فقال موسى عليه السلام: يا بني إسرائيل، قد بعثني الله تعالى إلى قارون، كما بعثني إلى فرعون، فمن كان معي فليثبت معي، ومن كان معه فليعتزل . . .

فاعتزل قارون، ولم يبق معه إلا رجلان . . . ثم موسى عليه السلام قال: يا أرض خذهم . . . فأخذتهم إلى عقوبهم^(١) . . . / ثم قال: يا أرض خذهم . . . فأخذتهم إلى أعناقهم . . . وقارون وأصحابه في ذلك يتضرعون، وأخذ قارون يناشده بالرحم^(٢) . . . حتى روي في بعض الأخبار: أن قارون ناشده تسعين مرة، وموسى عليه السلام لا يلتفت لشدة غضبه عليه . . . ثم قال: يا أرض خذهم . . . فانطبقت عليهم الأرض . . . فأوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام: يا موسى استغاثوا بك تسعين مرة، فلم تغثهم، ولم ترحمهم، فوعزتي وجلالي، لو استغاثوا بي لوجدوني قريباً مجيباً . . .

وقال قتادة: ذكر لنا أنه يخسف به كل يوم قامة، فكأنه يتجلجل في الأرض، فلا يصل إلى قعرها إلى يوم القيامة . . .

(١) عقوبهم: العقب، والعقب، مؤخر القدم . . .

(٢) الرحم: أي: كان يناشده بشدة القرابة فيما بينهم، فهو ابن عم له . . .

قالوا: فلما خسف الله تعالى بقارون وصاحبيه، أصبحت بنو إسرائيل يتناجون فيما بينهم: إنما موسى دعا على قارون ليستبدل بداره وأمواله الأرض، فأوحى الله سبحانه وتعالى إلى موسى عليه السلام، لا عبد الأرض بعداً أبداً، فذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ (١) . . .

* * *

(١) سورة القصص - الآية ٨١ . . .

قصة بلعم بن باعور

٤٣- وَبِهِنَّ نَزَلَتْ بِبَلْعَمِ بْنِ بَاعُورَ النَّوَائِبِ
قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا
فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾^(١) . . .

قال أكثر المفسرين: هو بلعام بن باعورا^(٢)، وكان من الكنعانيين، من
مدينة الجبارين، وسميت بلق، لأن ملكها يقال له: بالق بن صابورا^(٣) . . .

وكانت قصة بلعم بن باعورا على ما ذكره ابن عباس رضي الله عنه: أن
موسى عليه السلام، لما قصد حرب الجبارين ونزل أرض بني كنعان من
أرض الشام، أتى قوم بلعم، إلى بلعم، وكان يعرف اسم الله الأعظم . .
فقالوا/ له: إن موسى رجل شديد، ومعه جنود كثيرة، وأنه قد يُخرجنا من
أرضنا وبلادنا، ويدخلها بنو إسرائيل، ونحن قومك وبنو عمك وجيرانك،
وليس لنا منزل، وأنت رجل مجاب الدعوة، فأقدم علينا في أمر هذا العدو
الذي أرهقنا، وادعُ الله أن يردَّ عنا موسى وقومه . . فقال: ويلكم، نبي الله

(١) سورة الأعراف - الآية ١٧٥ . . .

(٢) بلعام: لفظ باللغة العبرية، ومعناه: الملتهم . . .

(٣) هو الملك: بالاق، أو بالق، بن صابورا، وهو ملك موآب، وموآب الآن هي القسم الشرقي
من البحر الميت . . .

ومعه الملائكة والمؤمنون، كيف أدعو الله عليهم وأنا أعلم من الله تعالى ما أعلم، وإنني إذا فعلت هذا ذهبت دنيائي وآخرتي، فلم يزالوا به حتى قال: اصبروا حتى أستاذن في الدعاء ربي، وكان لا يدعو حتى ينظر ما يؤمر به في المنام، فأمر بالدعاء عليهم.. فقبل له في المنام: لا تدع عليهم.. فقال: حتى أستاذن ربي ثانية، فاستأذن، فلم يجبه الله تعالى بشيء.. فقال: استأذنت فلم يجب لي شيء.. فقالوا: لو كرر ربك أن ندعوا عليهم لنهاك كما نهاك في المرة الأولى.. فلما آن أن يدعوا على موسى وقومه، اجتمعت أمراء قومه على أن يحملوا شيئاً إلى امرأة بلعام، فقالوا: إنها فقيرة، وأنه يصدر عن رأيها، فانطلق عشرة من عظمائهم، وحمل كل منهم صحيفة من ذهب مملوءة، ثم أهدوا ذلك إليها، فأقبلت على صاحبها، وألحت عليه، وقالت: راجع ربك واسأله أن يأذن لك فيما أمرك بالدعاء على عدوهم، فلم تزل به حتى دعا، ولم يستجاب بشيء.. فقالت: إنه قد خيرك في الدعاء عليهم، ولو لم يأذن / لك ربك لنهاك...

أ/٤٩

قال: فركب أتاناً^(١) له متوجهاً إلى الجبل ليطلع منه على عسكر بني إسرائيل يقال له: حسان، وكانت مراكب العباد الأولين، فلما سار عليها غير كثير، حتى ربضت به^(٢)، فنزل عنها فضربها، فلم تسرب به كثيراً حتى ربضت، ففعل بها مثل الأولى، فقامت، فركبها، فلم تسر إلا قليلاً حتى ربضت، ففعل بها مثل الأولى والثانية، فأنطقها الله عز وجل، وفي الكلام حجة عليه، فقالت: ويحك يا بلعم، أين تذهب، ألا ترى الملائكة أمامي تضربني على وجهي حتى لا أذهب إلى نبي الله والمؤمنون يدعون عليهم...

فلما سمع بلعام ذلك خرب ساجداً لله سبحانه وتعالى، فلم يزل باكياً متضرعاً حتى غاب عنه الملك، فرفع رأسه فجأة فإذا بالشیطان يقول له:

(١) أتاناً: حماراً...

(٢) ربضت: بركت بالمكان لا تبرحه...

امض لوجهتك، وأن ربك أحب ذلك، ولو لم يرد ذلك لما برحت الملائكة، ولا خلوا سبيلك. . فركب أتانته، وخل الله تعالى سبيله، فانطلقت به حتى أشرفت على جبل حسان، وجعل يدعو عليهم، فلا يدعو بشيء إلا صُرف لسانه على قومه، ولا يدعو لقومه بخير إلا صُرف لسانه لقوم موسى، فقال له قومه: يا بلعم، ما تصنع. .؟. . إنما تدعو لهم وتدعو علينا. . فقال: هذا ما لا أملكه، هذا شيء قد غلبني الله تعالى عليه. .

ثم. . اندلع لسانه فوق على صدره، فعلم ما حلَّ به. . فقال لقومه: الآن ذهبت مني الدنيا والآخرة، / فلم يبق إلا المكر والحيلة، فساء مكرهم واحتيالكم، جملوا النساء وزينوهن وأعطوهن المبلغ، ثم أرسلوهن إلى العسكر، وأمروهن أن لا تمنع المرأة نفسها من رجل إذا أرادها، فإنهم إن زنى رجل منهم كفيتموهم، ففعلوا، ودخلت النساء إلى العسكر، فمرت امرأة من الكنعانيين اسمها: كئما بنت صور، برجل من عظماء بني إسرائيل، يقال له: زمري بن شلون، رأس سبط شمعون بن يعقوب بن إبراهيم. . فقام إليها، وأخذ بيدها حين أعجبتة، وقد رأى جمالها، ثم أقبل على موسى عليه السلام، فقال: إني أظنك أن تقول: هذا حرام عليك. .؟! . . فقال: أجل هي حرام عليك، فلا تقربها. . قال: والله لا نطيعك في هذا. . ثم دخل بها قبة، فوقع عليها، فأرسل الله عز وجل الطاعون على بني إسرائيل في الوقت، وكان فلحاص صاحب موسى عليه السلام، رجلاً قد أُعطي بسطة في الخلق، وقوة في البطش، وكان غائباً حين صنع زمري بن شلون ما صنع، فجاء والطاعون يجيش في بني إسرائيل، فأخذ الجند، وأخذ حربته، وكانت من حديد، ثم دخل عليهما القبة وهما متضاجعان، فانتظمهما بحربته، ثم خرج بهما وقد رفعهما إلى السماء، والحربة قد قبضها بذراعه، واعتمد مرفقه على خاصرته، واستل الحربة إلى لحيته، وجعل يقول: اللهم. . هكذا نفعل بمن يعصيك، فرُفع الطاعون، فحسب من هلك من بني إسرائيل، فوجدوا قد هلك منهم سبعون ألفاً في ساعة من ذلك النهار، فمن ذلك يعطي / بني

إسرائيل ولد فلحاص من كل ذبيحة يذبحونها: الخاصرة، والذراع،
واللحية . . . وأخذه إياها . . .

ووقع موسى عليه السلام وبني إسرائيل بدعائه في التيه^(١) . . . فقال
موسى عليه السلام: يا رب، بأي ذنب أوقعتنا في التيه . . .؟ . . . فقال: بدعاء
بلعم . . . فقال: فكما سمعت دعاءه علي، فاسمع دعائي عليه . . . فدعا موسى
عليه السلام على بلعم أن يُنزع منه الاسم الأعظم والإيمان . . . فسلخه الله
سبحانه وتعالى ممّا كان عليه، فنزع منه المعرفة، فخرجت من صدره كحمامة
بيضاء . . .

وأنزل الله سبحانه وتعالى فيه هذه الآية، قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِنَّهَا
مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾^(٢) . . . في ستة فراسخ، يسير ويأكل في يوم،
حتى إذا أمسوا فإذا هم في نفس الموضع الذي ارتحلوا منه، وكانوا ستمائة
ألف مقاتل، ومات نقباؤه العشرة، وكل من دخل في التيه، ممّا جاوز عشرين
سنة مات في التيه، غير يوشع بن نون . . .

فلما هلكوا وانقضت أربعون سنة، ونشأت المواشي في ديارهم، ساروا
إلى حرب الجبارين، وإن يوشع بن نون سار إليهم بعد موسى عليه السلام،
وهلاك جميع من كان في المسير إليهم، ومات موسى عليه السلام وهارون
في التيه . . .

قال: لما قُذِف موسى عليه السلام في اليم، كان له أربعة شهور،
وخرج من عند فرعون وله ثمانية عشر سنة، وأقام أجيراً عند شعيب عشر
سنين، وتزوج ابنته، وله ثمانية وعشرون سنة، وأقام عند ابنته سهل اثنتي عشرة

(١) التيه: في اللغة: الحيرة، تاه، يتيه، ويتوه، وتيهته، وتوتهه، والأرض التيهاء، هي التي لا
يهتدي فيها أحد، والمعنى: يتيهون في الأرض، وقال أبو حيان الأندلسي، في كتابه تفسير
النهر الماء من البحر المحيط ج ١، ص ٥٧٠: كان التيه عذاباً لبني إسرائيل، وزحمة لموسى
عليه السلام وهارون لما توفيا . . .

(٢) سورة المائدة - الآية ٢٦ . . .

سنة، وخرج من عند شعيب وله أربعون سنة، وقال الله سبحانه وتعالى : ﴿ثُمَّ
جِئْتُ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ﴾^(١) / أي : جئت للوقت الذي أذنّا لك إرسالك
إلى فرعون رسولا، وقيل : إن يوشع بن نون رأى موسى عليه السلام بعد موته
في المنام، فقال : كيف وجدت الموت . . ؟ . . قال : كشاة تُسلخ وهي حية . .
وقام بين أظهر بني إسرائيل أربعين سنة، ومات موسى عليه السلام آخر أيام
التيه، وله من العمر مائة وعشرون سنة، وعمر فرعون أربعمائة وتسعون سنة،
وقيل : ثمانين سنة، ونزل يوشع بن نون على الجبارين يوم الجمعة، فقتل
أكثر الجبارين، فبقي منهم بقية، وكادت الشمس أن تغرب، فخشى أن
يعجزوه لدخول السبت عليهم، فقال : اللهم . . أردد علي الشمس . . فقال
للشمس : إنك في طاعته . . فردت عليه الشمس، وزيد له في النهار حتى
قتلهم أجمعين . . .

* * *

(١) سورة طه - الآية ٤٠ . . .

قصة الزاهد والبسوس (١)

٥٢ - وَكَذًا الْبَسُوسُ فَشَرُّهَا شَرُّ الْأَفَاعِي فِي الْمَضَارِبِ
٥٣ - هَلَكْتُ وَأَهْلَكْتُ التَّقِي الزَاهِدَ الْوَرَعَ الْمُرَاقِبَ

روي عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنه، في قوله تعالى: ﴿فَأَنْسَلَخْ مِنْهَا﴾ (٢) . . قال: هو رجل من بني إسرائيل، كان زاهداً، أعطي ثلاث دعوات يستجاب له فيها، وكانت له امرأة يقال لها: البسوس (٣)، وكان له منها ولد، وكان له معها صحبة، ويضرب بها المثل، فيقال: أشأم من البسوس، وكانت زرقاء، فأخبرها بأن الله تعالى قد أخبره أنه يستجاب له ثلاث دعوات . . فقالت: اجعل لي واحدة منها . . فقال لها: لك منها واحدة، فماذا تريد . . ؟ . . قالت: ادع الله أن يجعلني أجمل بني إسرائيل وأحسنهم، وأكون بحظك، ولم يكن في بني إسرائيل أجمل وأكمل وأحسن مني . . فدعا لها، فجعلت أجمل امرأة في بني إسرائيل، فلما علمت أن ليس

(١) انظر: أسباب النزول للواحدي ص ١٩١ و ١٩٢، رواية عكرمة عن ابن عباس، وفيه أيضاً: عن ابن مسعود قال نزلت في بلعم بن باعور، وفيه أيضاً قال الوالي: هو رجل من مدينة الجبارين يقال له: بلعم . . .

(٢) سورة الأعراف - الآية ١٧٥ . . .

(٣) لا علاقة بين البسوس امرأة الزاهد، والبسوس المضروب بها المثل، وهي البسوس بنت منقذ التميمية، وقصتها معروفة في كتب التاريخ بحرب البسوس . .

فيهم مثلها، مالت إلى غيره، فغضب الرجل، ودعا عليها، فصارت كلبة
نباحه، فنفذت منهما دعوتان، فجاء بنوها، فقالوا: ليس لنا على هذا فرار،
أ/٥١ قد صارت أمنا كلبة نباحه، وقد انقطع نسبك، وما بقي لنا/ غير اسم: أولاد
الكلبة، والناس يعيروننا بذلك، فادعُ الله أن يردها إلى الحالة التي كانت
عليها، فدعا إلى الله عز وجل، فصارت كما كانت.. فذهبت فيها الدعوات
الثلاث، فأهلكته وأهلكت نفسها...

قصص متفرقة

١ - ● حكي عن منصور بن عمار: أنه كان يمشي في موضع، فسمع رجلاً يقول لامرأة في خفية: خذي مني درهمين وامضي معي إلى البيت.. فغطى منصور بن عمار رأسه، وقال: خذي مني خمس دراهم، واحضري داري.. فأتت داره، فوقف ابن عمار يصلي.. فقالت المرأة في نفسها: يصلي ركعتين ويسلم ويحيي إلي.. فسلم وأقام من جديد إلى الصلاة، فثقل على المرأة ذلك، فقالت له: إما أن تكلمني، وإما أن تأذن لي في الخروج.. فقال لها منصور: أسألك مسألة.. ما تقولين فيمن ادعى على رجل دعوى، وأتى على ذلك شاهدين عدلين، هل كان يأخذ منه الحق أم لا..؟ قالت: فلو أتى على ذلك بأربعة شهود عدول، وعلم القاضي أن الأمر كما ذكر، هل يقضي له بشيء هذا أولى به.. قال: كيف أكلمك وعلي عليك أربعة عدول يشهدون، والحاكم الله سبحانه وتعالى يعلم، وهما شاهدا على منكبي.. قالت: من أين..؟.. قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ، كِرَامًا كَاتِبِينَ، يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾^(١).. فهم الشهود، وأما الحاكم، فقله عز وجل: ﴿أَلَمْ

(١) سورة الانفطار - الآيات ١٠ و ١١ و ١٢...

يَعْلَمُ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴿١﴾ . . . فصاحت المرأة صيحة، وخرّت ميتة رحمها الله تعالى . . .

٢ - ● قال: وحكى الأصمعي عن عمّه، قال: عشق رجل من النساك جارية من أهل البصرة، فبعث إليها يخطبها، فأبت عليه، وقالت: إن أراد غير هذا فعلت . . .!! / فأرسل إليها يقول: يا سبحان الله أيتها المرأة، أدعوك إلى الأمر الصحيح الذي لا عيب فيه، ولا وهن، فتأبين وتدعينني إلى الأمر الذي لا يصلح لا لي ولا لك، فأرسلت إليه تقول: قد أخبرتك بالذي عندي، فإن أردت فتقدم، وإن كرهت ذلك فتأخر . . .
فأنشأ يقول شعراً:

أسألها الحلال وتدعيني إلى ما تشتهي من الحرام
فلما علمت أنه قد أصعب عليه من أمر الفاحشة، أرسلت إليه تقول:
أنا بين يديك على ما تحب . . . فكتب إليها يقول: هيهات، لا حاجة لي فيمن دعوتها إلى الطاعة، وهي تدعوني إلى المعصية . . .

٣ - ● وحكى عن الأصمعي، قال: رأيت امرأة عليها ثوب لين، وهي منفثة مكتتبة، وقد وضعت وجهها وهي منفوشة الأطراف، وقد تهيأت للزينة، وعلى كتفها سجادة، وفي يدها سبحة . . . فقلت لها: يا جارية، ما هذا، قد جمعت بين الزهد والفسق . . . فقالت: هذا لله سبحانه وتعالى . . . وهذا لزوجي . . . وأنشأت تقول شعراً:

فلله عندي جانب لا أضيعه وللهو عندي والتصنع جانب

* * *

(١) سورة العلق - الآية ١٤ . . .

قصة داود عليه السلام

٤٤ - وَتَرَكَنَّ دَاوُدَ حَزِينًا دَمْعُهُ مِنْهُنَّ سَاكِب

٤٥ - حَتَّى لَقَدْ نَدَبَتْ عَلَيْهِ لِحُزْنِهِ فِيهِ النَّوَادِب

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضَمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾^(١).. الآية، اختلف العلماء بأخبار الأنبياء في سبب امتحان الله سبحانه وتعالى داود عليه السلام، لما امتحن به من الخطيئة...

فقال قوم: كان سبب ذلك أنه تمنى يوماً من الأيام على ربه عز وجل منزلة آبائه: إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب/ عليهم أفضل الصلوات والتسليم، وسأله أن يمتحنه نحو الذي امتحنهم، ويعطيه من الفضل الذي أعطاهم...

١/٥٢

وروى السدي، والطائي، ومقاتل، عن أشياخهم، قالوا: كان داود عليه السلام قد قسم الدهر ثلاثة أيام، يوماً يقضي بين الناس، ويوماً يخلو بنسائه وأشغاله، ويوماً لعبادته وقراءته، وكان يجد فيما قرأ من الكتب فضل إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام، فقال: يا رب، أرى الخير قد ذهب به آبائي كله الذين كانوا من قبلي.. فأوحى الله عز وجل إليه: أنهم ابتلوا بلاءً عظيماً

(١) سورة ص - الآية ٢١، وانظر: الكامل لابن الأثير ١/٢٢٢، وتفسير النهر الماء من البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ج ٣، ص ٨٢٤...

لم يُبلَ به أحد فصبروا عليه، ابتلي إبراهيم بالنمرود، وابتلي بذبح ابنه إسماعيل . . . وابتلي يعقوب بذهاب بصره، وأنتك لم تبل بشيء من ذلك . . . فقال داود عليه السلام: فابتليني بمثل ما ابتليتهم، واعطني مثل ما أعطيتهم . . . فأوحى الله سبحانه وتعالى إليه: إني مبتليك في شهر كذا وكذا، فاحرص . . .

فلما كان في اليوم الذي أوعده الله عز وجل، دخل داود عليه السلام محرابه، وأغلق بابه، وجعل يصلي، ويقرأ الزبور، فبينما هو كذلك إذ جاءه الشيطان قد تمثل في صورة حمامة من ذهب، فيها من كل لون حسن، فوقعت بين رجله، فمدَّ يده ليأخذها، فتنحت وطار، فمدَّ يده ليأخذها لابن صغير له، فلما هوى إليها طارت حتى وقفت، فذهب ليأخذها، فطارت من الكوة، فنظر داود عليه السلام أين وقعت، فبعث إليها من يصطادها، فأبصر امرأة من بستان على شط بركة بها تغتسل . . . / هذا قول الكلبي . . .

٥٢/ب

وقال السدي: رآها على سطح، فرأى امرأة من أجمل النساء خلقاً، فأعجب داود عليه السلام بها، فنفضت شعرها، فغطى بدنهما كله، فزاده ذلك إعجاباً بها، فسأل عنها . . . ف قيل: هي سابع بنت شايح، امرأة أوريا بن حنان^(١)، وكان زوجها في غزاة بالبلقاء مع أيوب بن سوريا ابن أخت داود عليه السلام، فكتب داود عليه السلام إلى ابن أخته أيوب: أن ابعث أوريا إلى موضع كذا وكذا، وقدمه على التابوت . . . وكان من قدم على التابوت لا يحل له أن يرجع حتى يفتح الله تعالى على يديه، أو يستشهد، فبعثه وقدمه، ففتح له، فكتب إلى داود فأعلمه، فكتب إليه أيضاً: أن ابعثه إلى عدو كذا وكذا، أشد منه بأساً . . . فبعثه، فكتب له الفتح، وكتب إلى داود بذلك أيضاً، فكتب داود عليه السلام أيضاً: أن ابعثه إلى عدو كذا وكذا، أشد منه بأساً،

(١) أوريا بن حنان: قائد كبير في جيش داود عليه السلام، وهو من أصل حثي . . .

فبعثه، فقتل في المرة الثالثة، فلما انقضت عدتها، تزوجها داود عليه السلام، وهي أم سليمان عليه السلام...

قالوا: فلما دخل داود بامرأة أوريا، لم يلبث إلا يسيراً، حتى بعث الله سبحانه وتعالى له ملكين في صورة رجلين، وطلبا أن يدخلوا عليه، فوجداه في يوم عبادته، فمنعهم الحرس أن يدخلوا عليه، فتسوروا المحراب وهو يصلي، فما شعر إلا وهو بهما بين يديه جالسين، فذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضَمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ، إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾^(١)... فزع منهما حين هجما عليه في محرابه بغير إذنه، قالوا: ﴿لَا تَخَفْ خَضَمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾^(٢)... أي: لا تجور ولا تفرط... ﴿وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾^(٣)... وأرشدنا إلى الطريق المستقيم، / ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعَجَةً وَلِيَ نَعَجَةٌ وَاحِدَةً﴾^(٤)... وهذا من أحسن التعريف حين كنى بالنعاج عن النساء، والعرب تفعل ذلك كثيراً، تكني عن النساء بالظباء والنعاج، وهو كثير في أشعارهم^(٥)... ﴿فَقَالَ اكْفُلْنِيهَا﴾^(٦)... أي: أعطيتها، وتحول عنها، واجعلها نصيبي، وعزني: وغلبني في الخطاب...

(١) سورة ص - الآية ٢١ و ٢٢...

(٢) سورة ص - من الآية ٢٢...

(٣) سورة ص - تنمة الآية ٢٢...

(٤) سورة ص - الآية ٢٣...

(٥) إشارة إلى قول الشاعر:

أغادي الصبوح عند هر وفرتنا وليداً وهل أفنى شبابي سوى هر
هما نعجتان من نعاج تباله لدى جوذرين أو كبعض دمي هكر
هر وفرتنا، علمان، وتباله مكان فيه النعاج الحسان، ودمي جمع دمية وهي صور الرخام، وهكر موضع فيه هذه الصور...

(٦) سورة ص - الآية ٢٣، وتتمتها: ﴿فَقَالَ اكْفُلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾...

قال الضحاك: إذا تكلم أفصح مني، وإن حارب كان أبطش مني..
فقال داود عليه السلام: لقد ظلمك بسؤاله ضم نعجتك إلى نعاجه^(١)...

قال السدي بإسناده: إن أحدكما لما قال: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي﴾.. الآية..
قال داود عليه السلام للآخر: ما تقول إن لي تسعة وتسعين نعجة، ولأخي
هذا نعجة واحدة، وأنا أريد أن أخذها منه، فأكمل نعاجي مائة.. قال: وهو
كاره.. قال: إذا لا يدعك ذلك، وإن رمت ذلك، ضربنا منك هذا، يعني
طرف الأذن وصلبة الجبهة.. قال: يا داود، أنت أحق أن يضرب منك هذا
وهذا.. لك تسع وتسعون امرأة، ولم يكن لأوريا إلا امرأة واحدة، فلم تنزل
تعرضه للقتال، حتى قُتل، وتزوجت امرأته، فهذا وجه الآية...

قال النبي ﷺ: «لا تتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى، وليست لك
الأخرى»^(٢)...

وقال بعضهم: كان ذنب داود عليه السلام، أن أوريا قد خطب تلك
المرأة، فتزوجها داود عليه السلام، حيث لم يترك هذه الواحدة، وله تسع
وتسعون امرأة، ونزل الملكان يقصان عليه القصة، ففطن داود عليه السلام،
فمكث أربعين ليلة ساجداً، حتى نبت الزرع من دموعه على رأسه، وأطلت
الأرض من جبهته، وهو يقول في السجود: زلّ داود زلّةً هي أبعد ممّا بين
المشرق والمغرب، إن لم ترحم ضعف داود وتغفر ذنبه، جعلت ذنبه حديثاً
في الخلق من بعده.. فجاءه جبريل عليه السلام بعد أربعين ليلة، فقال: يا
داود، إن الله عز وجل قد غفر لك الذي هممت به، وقد عرفت أن الله تعالى

(١) سورة ص - الآية ٢٤، وتتمتها: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجَتِكَ إِلَى نَعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾...

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده، والترمذي في سننه، وأبو داود في سننه. عن علي رضي الله عنه، والحاكم في المستدرک عن بريدة، انظر - كنز العمال - ج ٥، ص ٣٢٦، حديث رقم ١٤٠٥٣/...

قادر على أن يغفر لك الذي هممت به، وقد عرفت أن الله تعالى عدل لا يميل، فكيف بفلان - يعني أوريا - إذا جاء يوم القيامة، فقال: يا رب ذنبي الذي عند داود... فقال: ما سألت ربك عن ذلك، ولكن إن شئت لأفعلن... قال: نعم... فخرج جبريل عليه السلام، فقال: قد سألت ربك يا داود عن الذي أرسلتني فيه... فقال: قل لداود: إن الله تعالى سيجمعكما يوم القيامة، فيقول له: هب ذنب أخيك لداود... فيقول: هو لك يا رب... فيقول: إن لك في الجنة ما اشتهيت وما شئت عوضاً...

وعن وهب بن منبه، قال: إن داود عليه السلام لما دخل عليه الملكان، فعرجا وهما يقولان: قضى على نفسه الرجل... فعلم داود عليه السلام أنهم قد عنوا به، فخر ساجداً لله سبحانه وتعالى أربعين ليلة لا يرفع رأسه إلا لحاجة، ولوقت صلاة مكتوبة... فنودي: يا داود ارفع رأسك فقد غفرت لك... فلم يرفع رأسه حتى جاءه جبريل عليه السلام فرفعه...

قال وهب بن منبه: إن داود عليه السلام أتاه النداء: إني قد غفرت لك... فقال: يا رب، وأنت لا تظلم أحداً... قال: اذهب إلى قبر أوريا فناده، وأنا أسمع بذلك، فتحلل منه...

/ قال: فانطلق حتى أتى قبر أوريا، وقد لبس المسوح، فجلس عند قبره، ثم ناداه: يا أوريا... فقال: لبيك، من هذا الذي قطع عليّ لذتي وأيقظني...؟... قال: أنا داود... فقال: فما جاء بك يا نبي الله...؟... قال: أسألك أن تجعلني في حل ممّا كان مني لأجلك... قال: وما كان منك إليّ...؟... فقال: عرضتك للقتال... قال: عرضتني للجنة، وأنت في حل مني...

أ/٥٤

قال: فأوحى الله سبحانه وتعالى: يا داود، ألم تعلم أن الحكم عدل، لا أقضي بالتعيب، والتعزيز إلا أعلمته أنك قد تزوجت امرأته... قال: فرجع داود عليه السلام، فناده: يا أوريا... فأجابه: من الذي قطع عليّ

لذتي...؟.. قال: أنا داود.. قال: يا نبي الله، أليس قد عفوت عنك...؟! قالت: ولكن ما فعلت ذلك إلا لمكان امرأتك، وقد تزوجتها.. قال: فسكت ولم يجبه.. فقام داود عليه السلام عند قبره، وجعل التراب على رأسه، ثم نادى: الويل لك يا داود، ثم الويل لك يا داود، ثم الويل الطويل لداود.. قال: يا رب، كيف تغفر لي وصاحبي لم يعف عني، أعطيته ما لم تر عيناه، ولا تسمع أذناه^(١).. قال: رضيت عبدي.. فيقول: يا رب، من أين لي هذا ولم يبلغه عملي.. قال: هذا عوض منّا عن عبدي داود، فاستوهبك منه، فيهبك لي.. قال: يا رب، الآن قد عرفت أنك قد غفرت لي.. فذلك قوله عز وجل: ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ، فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ﴾^(٢)...

قال وهب: إن داود عليه السلام لما تاب الله تعالى عليه، بكى على خطيئته ثلاثين سنة، لا ترقى له دمة لا ليلاً ولا نهاراً، وكان قد أصاب الخطيئة وهو ابن سبعين سنة.. والله تعالى أعلم...

وقيل فيما ورد عنه عليه الصلاة والسلام: أنه خطر في باله / أن يحصي عدد بني إسرائيل.. فأوحى الله سبحانه وتعالى إليه: يا داود، أرزاق بني داود عليك، أم آجالهم في يديك.. قال: بل رزقي وأرزاقهم كلها عليك، وأجلي وآجالهم كلها بيدك.. قال: فلم تشارك في علمه...

قال لبني إسرائيل: اختار واحدة من ثلاث، إما أن أسلط عليهم ملكاً جباراً ظالماً قادراً، أنزع الرحمة من قلبه، وألبسه الهيبة، أو سبع كسبع

(١) إشارة إلى الحديث الشريف، عن أبي هريرة، رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: أعددت لعبادي ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، واقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾...»

السجدة - ١٧، متفق عليه...

(٢) سورة ص - الآية ٢٤ و ٢٥...

يوسف، أو الطاعون.. فجمع بني إسرائيل وأخبرهم، وقال لهم: إن الله سبحانه وتعالى أمرني أن أخبركم أن تختاروا واحدة من هذه الثلاثة، وذكر حالهم.. فقالوا: أما الملك الجبار الظالم فلا طاقة لنا به، وأما سبع سنين، كسبع يوسف، فيهلك أغنامنا، وتموت فقراؤنا ومواشينا، وإنما نختار الطاعون، فمن جاء أجله مات.. فأرسل الله سبحانه وتعالى عليهم الطاعون، فمات منهم من طلوع الشمس إلى نصف النهار أربعمئة ألف، فبكى داود عليه السلام، وقال: اللهم.. ارفع عنهم الويل...

قال: فنظر داود عليه السلام إلى صخرة بيت المقدس، وقد نصب عليها سلماً إلى السماء، والملائكة يصعدون فيه، وهي تغمد السيوف.. فقال: لا بد أن أبني لبني إسرائيل بيتاً يتعبدون الله سبحانه وتعالى فيه، فأقام حائطاً للأقصى ثلاث مرات، وهو يسقط إلى الأرض.. فقال: يا أخي جبريل، إنما أبني لوجه الله سبحانه وتعالى، ليتعبد فيه بني إسرائيل.. قال: هذا البيت لا يبنيه من ارتكب ذنباً، ولا من سفك دماً..

فقال داود عليه السلام: ومن يبنيه..؟.. قال: ولدك سليمان.. قال: الحمد لله الذي جعل عمارته على أيدينا..

قال: وكان من بناء سليمان عليه السلام لبيت المقدس إلى خرابه على يد نبوخذ نصر أربعمئة وإحدى وثلاثين سنة، وتوفي داود عليه السلام وعمر ولده/ سليمان يومئذ ثلاث عشرة سنة، وكان أول ما ظهر من أمره لبني إسرائيل، لما خرج في جنازة أبيه إلى الدفن، وكان يوماً شديداً حراً، فأمر سليمان عليه السلام السحاب فأظلتهم، والرياح فهبّت عليهم، فاستبشرت بنو إسرائيل بذلك، وعلموا أن الله سبحانه وتعالى قد أعطى لسليمان ملكاً عظيماً..

٥٥/أ

وحكي عن امرأتين كانتا على نهر، وكان لهما ولدان في سن واحدة، وكانت إحداهما غنية، والأخرى فقيرة، فغرق ابن الغنية، فقبضت على ابن

الفقيرة، وقالت: غرق ابنك وهذا ولدي، وأحضرت أربعة شهود قبلوا الرشوة، فحضرُوا معها إلى داود عليه السلام، وشهدوا أن الولد هو ولد الغنية.. فحكم داود عليه السلام بالولد لها، فخرجت الفقيرة تبكي، فوجدها سليمان عليه السلام، فقال لها: ما لك تبكين..؟.. قالت: أخذت ولدي، وقويت عليَّ بمالها.. فقال لها سليمان: ارجعي.. فدخل على أبيه عليه السلام وقال: يا نبي الله، هذا الحكم الذي حكمت به من تلقاء نفسك، أم الله سبحانه وتعالى أمرك به.. فقال: من تلقاء نفسي حكمت به.. قال: أتأذن لي أن أحكم بينهما.. قال: نعم.. قال: فدعاهن، فلما حضرا بين يديه - قال لإحداهن: ما تقولين أيتها المرأة..؟.. قالت: الولد ولدي، وقد قدمت بيتي في مجلس الحكم بين يدي أبيك.. وقال للأخرى: وأنت فما تقولين..؟.. قالت: الولد ولدي، وقد غصبتني عليه.. فقال: ائتوني بقصاب.. قيل: وما تصنع به..؟.. قال: أقسمه نصفين وأعطي كل واحدة منهن شطراً منه.. فقالت الغنية التي أقامت بيتها عند أبيه: رضيت بذلك.. وقالت الأخرى: بحق الله تعالى عليك يا نبي الله، لا تفعل، / دعها تأخذه وتروح.. فقال لها سليمان عليه السلام: الولد ولدك.. فحكم لها لأنها طلبت بقاءه، فكان الولد للفقيرة لحنيته عليه..

* * *

قصص متفرقة

١ - ● - قال: حدثنا عبد الرزاق بن منصور، عن ابن عمر، قال: لقد سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً، لو لم أسمعه إلا مرة واحدة أو مرتين حتى عدّ سبع مرات ما حدثت به، ولكنني سمعته أكثر من ذلك وهو حديث الكفل^(١)...

كان الكفل من بني إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله، فأتته امرأة، فأعطاهما ستين ديناراً على أن يطأها، فلما قعد منها مقعد الرجال من النساء، ارتعدت وبكت.. فقال لها: ما يبكيك..؟.. أأكرهتك على نفسك..؟.. قالت: لا، ولكن.. هذا عمل لم أعمله قط..!!.. قال: فتركها وقال لها: فلم تفعلين هذا ولم تكوني فعلتيه قط..؟.. قالت: حملتني الحاجة... فتركها وقال لها: اذهبي والدنانير لك.. ثم قال: والله لا يعصي الله الكفل أبداً.. فمات من ليلته، فأصبح مكتوباً على بابه: غفر الله للكفل^(٢)...

(١) هو رجل أدركته توبة بعد اقترام ذنب، وقال بعضهم هو غير ذي الكفل الذي ذكر في القرآن الكريم في سورتي الأنبياء - الآية ٨٥، وسورة ص - الآية ٤٨، وفي تفسير النهر الماء لأبي حيان الأندلسي ص ٤٧٥، ج ٢ قال: قيل: كان عبداً صالحاً ولم يكن نبياً، وقيل: كان نبياً...

(٢) رواه الترمذي في سننه برقم ٢٤٩٨/، وقال: هذا حديث حسن، ورواه الحاكم في المستدرک وقال: حديث صحيح الإسناد...

٢ - ● قال : وحديثي من أثق بحديثه ، قال : بلغني أن رجلاً حداداً أخته امرأة في سنة مجدبة ، تطلب منه شيئاً لله تعالى . . فقال لها : خذي مني خمسة دراهم وانزلي منزلي . . فأعرضت عنه وولت . . ثم أتت إليه مرة أخرى . . فقال لها مثل الأول ، فأعرضت عنه ولم تكلمه ، وراحت إلى زوجها وقصت عليه القصة - فقال لها : استعيني بالله تعالى ، فقد هلك الصغار ، فاقض شغله واغن أولادك . . فأتت إليه ، فقال لها : خذي مني خمسة دراهم وامنض معي إلى البيت . . قالت : نعم . . فقام من دكانه ، وهي تتبعه . . فلما دخلت معه الدار ، وقعد منها مقعد الرجل من المرأة ، ارتعدت وجرت دموعها . . فقال : ما لي أراك باكية . . ؟ . . قالت : والله العظيم هذا شيء ما فعلته وإنني امرأة شريفة ، وإنني والله لأستحي من رسول الله ﷺ أن أكون من سلالة وأنا زانية . . فقال : ناشدتك الله تعالى ، أنت شريفة . . ؟ . . قالت : أي والذي أمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه . . قال : ثم أخرج من جيبه خمسة دراهم أخرى ، وقال : خذي الخمسة دراهم ، / والأخرى كرامة لجدك رسول الله ﷺ . . فقامت المرأة ومعها عشرة دراهم ، ومضى الرجل ، فلما دخل الليل وقام إلى مضجعه ، نام . . فرأى رسول الله ﷺ في نومه وهو يقول له : أطلقت ابنة عم لي ، قد ألنا الحديد لداود عليه السلام بارداً ، وألنا لك ناراً خذه ولا تخف . . فقام الرجل ، ولما أصبح ذهب إلى دكانه ، وقد نسي المنام ، فلما أوقد الكير على قطعة الحديد حتى صارت حمراء ، أخذ الكلابتين ليخرجها من الكير ، تذكر المنام ، فوضعهما ومدّ يده ، فأخذها ومدّها ودارت في يده إلى أن بردت ، فلما رأى الناس ذلك منه ، اجتمعوا عليه ، ورفعوا قصته إلى الملك . . قال : فاستحضره وأدخله عليه ، وكانوا قد ألقوا في الكير قطعة حديد ، وجعل ينفخ عليها بالمنافخ إلى أن صارت حمراء . . فقال الرجل للملك : ما تشتهي أن أصنع لك فيها . . قال الملك : امسكها . . فمدّ يده فأخرجها ، وهي في يده كالعجين إلى أن بردت ، فإذا بردت ما يقدر أن يعمل فيها شيء . . فقال له الملك : أصدقني حديثك ، وإلا

ضربت عنقك .. فأخبره بالقصة .. فقال له : تبيعني ثوابها بعشرة آلاف درهم .. فقال الرجل : لا والله ولا بخزائن الأرض ...

٣ - ● - حدثنا أبو يوسف عن عكرمة، قال : كنت أنا مع عبد الله بن عباس رضي الله عنه، عشية عرفات، إذ أقبل فتية يحملون فتى من بني عذرة، وقد بلي بدنه، وقد كانت له حلاوة وجمال، حتى أوقفوه بين يديه، ثم قالوا : استشف لهدايا ابن عمه رسول الله ﷺ .. قال : ما به .. ؟ .. قال : فترنم الفتى بصوت ضعيف خفي، وهو يقول شعراً :

يا من هو الأحزان والحب لوعة تكاد لها نفس الشفوق تدوب
/ ولكنما بقي حشاشة مغول على ما به عود هناك صليب
وما عجب موت المحبين في الهوى ولكن بقاء العاشقين عجيب

٥٦/ب

ثم شهق شهقة فمات رحمه الله تعالى ...

٤ - ● - قيل : إن بعض أهل حضرموت وجدوا في أرض كوز فخار في جوفه سنبله من حنطة، قد امتلأ منها ذلك الكوز، فوزنوها، فكانت منا بالمكي، وحبها كالبيض، وكان بحضرموت شيخ قد عمّر، وقد أتى عليه خمسمائة عام، وله ابن قد أتى عليه أربعمائة سنة، ولابن ابنه قد أتى عليه ثلاثمائة سنة، فحملوا تلك السنبله، وانطلقوا بها إلى الأصغر منهم، ورجوا أن يكون الثالث أثبت منهم عقلاً، فقالوا : إنا نراك أصبت عقلاً من أبيك .. فلما أتوه وجدوه قد خرف وذهب جميع عقله، ثم انطلقوا إلى أبيه، فوجدوه قد ذهب شطر عقله، ثم انطلقوا إلى الشيخ والدهم الذي له خمسمائة سنة، فوجدوه أثبت عقلاً من الأوسط والأصغر. فقالوا له : إنا نراك أشب من أولادك، وأثبت عقلاً، فما سبب ذلك .. [قال : إن] ^(١) ابن ابني كانت له امرأة سوء تؤذيه وتخالف عليه وتعصيه وتتسافه عليه، فذهب بمقاساتها عقله .. فقلنا له : لو استراح ممّا رأينا .. ولنا في هذا المعنى شعراً :

(١) ساقطة في الأصل وإثباتها يقتضي السياق لإتمام المعنى ...

يقولون من مات قد استراح فقلت اعذروني فما هذا صحيح
إذا لم يكن فوقها مستريح فما أحد تحتها مستريح

وأما ابني فكانت له امرأة تحسن إليه مرة، وتسيء إليه أخرى، فبقي له
بعض عقله، وذهب بعضه، وأما أنا فكانت لي امرأة صدق، إن رأيتني / حزينا
لم تزل تسليني حتى تذهب عني حزني، وإن كنت مسروراً، أخذتني من وجه
يزيدني سروراً...

فأخرجوا له تلك السنبلة، فلما نظر إليها.. بكى.. قال: هذا من زرع
عاد في زمانهم.. قالوا: ما بلغ من أحكامهم، وحسن سيرة ملوكهم..؟..
فقال: لم يزل من أحد غيري ممّا يحدث عمن سلف ممّا أعطي قوم عاد من
فضل الحكم وما كانت ملوكهم عليه من حسن السيرة، كان رجل هو شديد،
عاش في طول ملكه، متحريراً للحق، مؤثراً للنصفة والعدل، وقيل: بلغنا أنه
استعمل قاضياً بحضرموت، وأجرى رزقاً من بيت المال، فمكث حولاً لا
يحتكم إليه أحد، فدخل عليه شديد وقال: إنك تجري رزقاً من بيت المال
عليّ، ولم يحتكم عندي أحد، فاعفني.. فقال: قف على عملك، وأرزاقك
عليّ من مالي.. فأقام على عمله.. فأتاه رجلان يوماً بعد حول ثانٍ من عاد
يختصمان إليه.. فقال أحدهما: أيها القاضي، اشتريت من هذا أرضاً، فلما
حوشتها وجدت فيها معدناً من معادن الذهب، فسألته أن يرد عليّ مالي
ويأخذها، فإني اشتريت منه أرضاً، ولم أشتري منه معدناً.. فقال للآخر: ما
تقول أنت..؟.. قال: أيها القاضي، أنا بعته الأرض بما فيها جميعاً من
معدن وغيره.. فقال لأحدهما: هل لك ولد..؟.. قال: بنت.. وقال
للآخر: هل لك ولد..؟.. قال: ابن مدرك.. قال: ابنك بابنته، فيكون
المعدن بينكما جميعاً.. قال: فملك شديد ثلاثمائة سنة، ثم مات.. والله
أعلم...

٥ - ● - وحكي أن الديار المصرية خلت من قاضٍ، فأنفذوا إلى
المعتضد / عرّفوه بذلك يطلبون منه قاضياً.. فأحضر وزيره وقال له: خلت

الديار المصرية من قاضي ، فإلى من ترشدني أستخلفه للقضاء . . قال : ما أعرف أحداً سوى رجل في قريته من قرى الشام ، يقال لها : داريا ، فيها رجل يصلح للقضاء . . قال : اكتب له توقيعاً ، واكتب معه كتاباً إلى الوالي الذي لنا بمصر يكرم مثواه للأوامر العالية . . فأنفذ إليه غلام بالتوقيع وخمسائة دينار ، فلما وصل دمشق المحروسة ، استدل على داريا ، فوجد شيخاً فقيراً ، فدق على بابه ، فلما خرج ، سلم عليه وقال له : هذا توقيع بقضاء مصر ، وقد أرسل الخليفة معي هذا . . فقال : والله لا أقضي أمراً دون أن أشاور والدتي ، فدخل إليها وأخبرها الخبر . . قالت له : يا ولدي ، إن علمت أن أحداً غيرك يقوم في هذا المقام ، ويكون أفقه منك ، فلا تدخل فيه ، وإن لم تعلم فیتعين عليك الطاعة ونفع المسلمين . . قال : لا أعلم أحداً . . قالت : فقد تعين عليك . . فخرج وأخذ الذهب ، وتصدق بأكثره على جميع الفقراء من أهل القرية ، وأبقى معه ما يوصله إلى مصر ، فلما أمسى أحضر الضيف للشيخ تبع من المعز فحلبها ، وأتى بقرصين من الشعير ، فأفطر عليه . . قال : فلما وصل إلى مصر أكرم مثواه ، وأول يوم جلس للحكم ، فحضر عنده خصمان ، مدعي ومدعى عليه . . فقال المدعي : إن لي في قلب خصمي عشرة دنانير . . فقال للمدعى عليه : ما تقول . . ؟ . . قال : ما يستحق في قلبي حق . . قال له : يا ولدي ، قد أنكرك خصمك . . قال : يحلف . . قال : يا ولدي قد طلب منك اليمين ، وقد وجب عليك . . قال : أحلف . . قال : قد أجابك خصمك إلى اليمين . . قال : استخلفه يا سيدنا القاضي . . قال : من قال إنه يحلف فإنه يحلف ، ويستخلفها في جنب الله تعالى . . قال : إن كنت تعلم أنني أستخلفه وأنا صادق في دعواي إثم فلا تستخلفه . . قال : لا ، هذا حق من حقوق الله تعالى . . فقال له : يا شاب ، أتخلف . . ؟ . . أحلف . . قال : اتق الله تعالى . . / قال : إن كنت تعلم أنني إذا حلفت صادقاً . . إثم . . قال : لا . . قال : وتحلف . . قال : نعم . . قال : قل والطور . . قال : ﴿ وَالطُّورِ ﴾ ، وَكِتَابِ

مَسْطُورٍ، فِي رَقٍّ مَنُشُورٍ^(١).. إلى قوله تعالى: ﴿إِنْ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾^(٢).. فلما قال: إن عذاب ربك لواقع، هوت عيناه إلى الأرض، فبقي القاضي إلى أن مات.. فما حكم بين اثنين، وقد أعطى الذي أحضر له التوقيع قرصي شعير، فلما وصل إلى الخليفة حدثه حديثه.. قال: وما أعطاك.. قال: والله ما أعطاني ما أعطاني سوى قرصي شعير، وما أكلتهما وهما معي.. فقال: أحضرهما بين يدي.. فكسرهما، وجعل يفرقهما على أولاده وأهل بيته، وكان عنده مرضى، فعافاهم الله سبحانه وتعالى.. فقال: هكذا يكون القضاة رضي الله سبحانه وتعالى عنهم:..

٦ - ● - وحكي أن المأمون قد طلب أبا قلابة لقضاء البصرة، فهرب إلى الشام، فأقام حيناً، ثم رجع، فقال له أيوب: لو وليت القضاء وعدلت كان لك أجران.. قال: يا أيوب، إذا وقع السباح في البحر، فكم عسى أن يسبح... .

٧ - ● - قال: وولى عبد الملك بن مروان، عامر الشعبي قضاء البصرة، فهرب إلى الشام.. ف قيل له: لِمَ هربت.. فقال: سمعت المنقول عن النبي ﷺ: «من جعل قاضياً، فكأنما ذبح بغير سكين»^(٣).. وقال ﷺ: «قاض في الجنة، وقاضيان في النار»^(٤).. فخشيت أن أكون مع الأكثر..

٨ - ● - وعن بعض الشيوخ في المدينة حكاية، قيل: تقدمت إلى إبراهيم بن سعد الزهري، امرأتان.. عجوز وصبية.. فقالت العجوز

(١) سورة الطور - الآية ١ و ٢ و ٣..

(٢) سورة الطور - الآية ٧، وتمام الآيات: ﴿وَالطُّورِ، وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ، فِي رَقٍّ مَنُشُورٍ، وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ، وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ، إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾...

(٣) رواه الترمذي في سننه برقم ١٢٣٥/، وأحمد في مسنده ٢٣٠/٢ و ٣٦٥، وأبو داود في سننه برقم ٣٥٧٢/، والنسائي ٤٨١/٩، والحاكم في المستدرک ٩١/٤، والحديث بمجموع طرقه صحيح...

(٤) رواه أبو داود في سننه، برقم ٣٥٧٣/، والترمذي برقم ١٣٢٢/، والحاكم في المستدرک ٩٠/٤، والحديث صحيح بمجموع طرقه، وانظر: إرواء الغلیل ٢٣٥/٨، وتمام الحديث: =

للقاضي : انظر في أمري ، وفي هذه المرأة ، فإنها عدة الله . . .!! / فقال
القاضي للشابة : ما خطبك . . ؟ . . قالت : قليلاً تفرج روعتي فانظرها . . فلما
سكنت ، قالت : أيها القاضي ، أتأذن لي في كشف وجهي . . فقال القاضي :
لا تتجردي ممّا لا يحب أن يظهر . . فكشفت عن وجهها . . فقالت العجوز :
والله أيها القاضي ، ما قصدت إلا أن تريك وجهها ، فإنه ما خلق دابة أجمل
منها . . فقال القاضي للشابة : تكلمي . . فقالت الشابة : هي عمتي ، وأنا يتيمة
من الأبوين ، فكفلتني وربتني ، وأحسن الصيانة ، فلما أن صلحت للزواج ،
زوجتني من ابن عمي ، وأخذت صداقي ، وزادت عليه من مالها ، وجهزني
وأحسن إليّ ، وأهدتني إليه ، وكنا على غاية ، وكان لها ابنة صغيرة ، فلما
أدركت ابنتها ، خطبها ابن عمي . . فأرسلت إليه : لا أزوجك بها إلا بعد أن
تجعل أمر امرأتك في يدي . . ففعل . . فوجهت إليّ من قال لي نيابة عنها :
أن زوجك خطب ابنتي ، فأبيت إلا أن يجعل أمرك في يدي ، وقد فعل ، وأنت
طالق . . فنالني من الأسف ، والأنين ، والزفير ، ما أرق عليّ حياتي . . وقد
كان لها زوج غائب ، كنت أجد منه محل الولي ، فقدم زوجها ، فجاءني مغرمًا
بي ، داعمًا عليّ ما فعلت ، وكثر بطائي بين يديه ، فكأنه رق ليّ ، وقال لي :
هل لك أن تزوجيني نفسك . . ؟! . . قلت : نعم ، على أن تجعل أمر عمتي
في يدي . . قال : قد فعلت . . فوجهت إليها من يقول : أن الشيخ قد خطبني ،
فأبيت عليه إلا بعد أن يجعل أمرك في يدي ، وقد فعل ، وأنت طالق . . فقالت
العجوز للقاضي : أيها القاضي ، أحلّ ذلك . . ؟ . . فقال القاضي : البادىء
أظلم . . قالت الشابة : فبقي معي الشيخ أياماً قليلة ثم مات ، فجاء ابن عمي
الذي كان زوجي في الأول يطالبني بميراثه من الشيخ ، ويزعم أنه خلف
عندي مالاً ، وأسمعني ما كرهت . . فقلت : والله ما أنصفتني بدءاً ، ولا
أكرمتني في أمري آخراً ، طلقني بدءاً ، والآن قد جئتني تصول عليّ . . / فلما

= «قاص في الجنة، وقاضيان في النار، قاص عرف الحق فقضى به فهو في الجنة، وقاص عرف
الحق فقضى فجار متعمداً فهو في النار، وقاص قضى بغير علم فهو في النار» . .

سمعني ، فكأنه استحيا مني .. فقال : هل لك أن تراجعيني ..؟! .. فقلت :
قد طلبت ذلك .. قال : فافعل .. قلت : لا أفعل إلا بعد أن تجعل أمر ابنة
عمتي في يدي .. قال : قد فعلت ذلك .. فوجهت إليها أن ابن عمي أراد
المراجعة ، فأبيت إلا بعد أن يجعل أمر ابنتك في يدي ، وقد فعل ، وهي
طالق .. فقالت العجوز للقاضي : أطلق أنا ، وتطلق ابنتي ، أحل الله تعالى
هذا ..؟! .. فقال القاضي : نعم ، ولو كنتن مائة على هذا الشرط .. قال :
فاتصل الخبر بالرشيد ، فكتبت إليه عرفته الخبر على حاله ...

* * *

قصة سليمان عليه السلام

٤٦ - وَسَلَبْنِ مَمْلَكَةً ابْنَهُ وَسَلَكْنَهُ ضَيْقَ الْمَذَاهِبِ
قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ
أَنَابَ﴾^(١)...

قال أكثر المفسرين: إن سليمان عليه السلام تزوج امرأة من بنات
الملوك، وكان له ألف امرأة، سبعمائة وصيفة، وثلاثمائة بكتاب، وكانت ممن
لم ير مثلاً حسناً وجمالاً، وكان اسمها جرادة، فاصطفاه لنفسه، ودعاها
للإسلام، فأسلمت على جفاء منها.. وأحبها سليمان عليه السلام حباً لم
يحبه لأحد من نساءه، فكان لا يطيق الصبر عنها ساعة، وكانت على منزلتها
عنده لا يذهب حُسنها، ولا يرقأ دمعها، فشق ذلك على سليمان عليه
السلام.. فقال لها: ويحك، ما هذا الحزن الذي لا يذهب، والدمع الذي لا
يرقأ.. فقالت: إني أذكر مملكة أبي، وما كان فيها، وما أصابه، فيحزنني..
فقال لها سليمان عليه السلام: قد أبدلك الله تعالى ملكاً أعظم من ملكه،
وسلطاناً أعظم من سلطانه، وهذاك للإسلام.. / فقالت: إن ذلك كذلك،
ولكن إذا ذكرته أصابني ما ترى من الحزن، فلو أنك أمرت الشياطين،

ب/٥٩

(١) سورة ص - الآية ٣٤ ..

فصوروا صورته في داري التي أنا فيها بكرة وعشية، لرجوت أن يذهب حزني، ويسلبني بعض ما أجد في نفسي.. قال: فأمر سليمان عليه السلام الشياطين.. فقال: مثلوا لها صورة أبيها بعينه، إلا أنه لا روح فيه، فعمدت إليه حين صوروه لها بردائه وقميصه وعمامته مثل ثيابه التي كان يلبسها، ثم كانت إذا خرج سليمان من دارها، تغدو عليه في دارها حتى تسجد له، وذلك كما كانت تصنع به في مملكته، وتروح كل عشية لمثل ذلك، وسليمان عليه السلام لا يعلم من ذلك أربعين ليلة، وأربعين صباحاً^(١)...

قال: وبلغ ذلك آصف بن برخيا، وكان صديقاً له، وكان لا يرد عن باب سليمان عليه السلام أي ساعة أراد دخول بيت من بيوته يدخل حاضراً سليمان عليه السلام كان أو غائباً فأتاه.. فقال: يا سليمان، كبرت سني، ورق عظمي، ونفذ عمري، وحن مني ذهاب، وقد أحببت أن أقوم مقاماً قبل الموت، أذكر فيه من مضى من أنبياء الله تعالى، وأثني عليهم بعلمي فيهم، وأعلم الناس بعض ما يحملون من كثير أمورهم، فقال سليمان عليه السلام: افعل...

قال: فجمع له سليمان عليه السلام الناس جميعاً، فقام فيهم خطيباً، فذكر من مضى من أنبياء الله عز وجل، وأثنى على كل نبي مناقبه، وذكر ما فضلهم الله تعالى به، حتى انتهى إلى سليمان عليه السلام، فقال: يا سليمان، ما كان أحلمك في صغرك، وما كان أورعك/ في صغرك، وأقصذك في صغرك، وأحكم أمرك في صغرك، وأبعد كل شيء ما يكره في صغرك... ثم انصرف.. قال: فوجد سليمان عليه السلام في نفسه من ذلك أمراً عظيماً، فلما دخل سليمان عليه السلام إلى داره، أرسل إليه، فقال: يا آصف، لقد ذكرت من مضى من أنبياء الله تعالى، فأثنت عليهم خيراً في كل

(١) قال الطبري: إن سليمان عليه السلام قد سبى جرادة في إحدى جزائر البحر، جزيرة يقال لها: صيدون، وكان أبوها سلطان تلك الجزيرة، ثم ذكر القصة... انظر: تاريخ الطبري ج ١، ص ٤٩٦...

زمانهم، وعلى كل حال من أمورهم، فلما ذكرتني أثبت عليّ بخير في صغري، وسكت عن ما سوى ذلك في كبري، فما الذي أحدث في آخر أمري.. فقال آصف: إن غير الله تعالى يُعبد في دارك أربعين صباحاً ومساءً، في هوى امرأة.. فقال سليمان عليه السلام: إنا لله وإنا إليه راجعون، لقد عرفت أنك ما قلت الذي قلت إلا عن شيء قد بلغك^(١)...

قال: ثم رجع سليمان عليه السلام إلى داره، فكسر تلك الأصنام، وعاقب تلك المرأة، ثم أمر بثياب الطهر، فأتي بها، وهي ثياب لا يغزلها إلا الأبقار، ولا تمسها امرأة، ثم خرج إلى فلاة من الأرض، فأمر برماد، ففرش له، ثم أقبل تائباً إلى الله عز وجل، وجلس على ذلك الرماد، وتمعك فيه بشيابه تضرعاً لله تعالى وتذلاًً إليه، يبكي ويدعو ويستغفر مما حدث في داره، فلما أمسى رجع إلى داره.. قال: وكانت له خادمة يقال لها: أمينة.. كان إذا دخل مذهب، أو أراد إصابة امرأة من نسائه وضع خاتمه عندها ليتطهر، وكان لا يمس خاتمه إلا وهو طاهر، / لأن خاتمه كان من ياقوتة حمراء، أتاه به جبريل عليه السلام من الجنة، ومكتوب عليه: لا إله إلا الله، محمد رسول الله...

ب/٦٠

قال: وكان ملكه في خاتمه، فوضعه يوماً من الأيام عند موضع كان يضعه، ثم أتاه دخل مذهب، فأتاها الشيطان صاحب البحر، وكان اسمه صخرأ، على صورة سليمان لا يُنكر منه شيئاً. فقال: يا أمينة، خاتمي.. فناولته إياه، فجعله في يده ثم خرج حتى جلس على سرير سليمان، وعكفت عليه الجن، والإنس، والطير...

قال: وخرج سليمان عليه السلام، فأتى أمينة، وقد غير حالته وهيئته عند كل من يراه.. فقال: يا أمينة خاتمي.. فقالت: ومن أنت..؟.. قال:

(١) وردت القصة كاملة في تاريخ الطبري ج ١ ص ٤٩٦ / ٤٩٩، وفي الكامل في التاريخ لابن الأثير - ج ١ ص ٢٣٩...

سليمان بن داود . . . فقالت: كذبت، لست بسليمان، وقد جاء سليمان وأخذ خاتمه، وهو جالس على سرير في مملكته . . . فعرف سليمان أن خطيئته قد أدركته، فخرج، ثم جعل يقف على كل دار من دور بني إسرائيل، فيقول: أنا سليمان بن داود . . . فيحثون عليه التراب ويسبونه ويقولون: انظروا إلى هذا المجنون، أي شيء يقول: يزعم أنه سليمان . . . قال: فلما رأى سليمان ذلك، عمد إلى البحر، فكان ينقل الحيطان لأصحاب البحر إلى السوق، فيعطونه سمكتين في كل يوم، فإذا أمسى باع سمكة واشترى أرغفة، ويشوي الأخرى ويأكلها، فمكث على ذلك أربعين صباحاً، مدة ما كان عبادة ذلك الوثن في داره، فأنكر ذلك آصف بن برخيا، وعظماء بني إسرائيل حكم عدو الله تعالى، ذلك الشيطان في تلك المدة الأربعين يوماً . . . / فقال آصف: يا معشر بني إسرائيل، هل رأيتم من اختلاف حكم ابن داود ما رأيتم . . .؟! . . . قالوا: نعم . . . قال: أمهلوني حتى أدخل على نسائه فأسألهن، هل تكون منه في خاصة أمره ما أنكرناه في عامة الناس وعلايته . . . فدخل على نسائه، فقال: ويحك، هل أنكرتن من أمر سليمان ما أنكرناه . . .؟! . . . فقلن: أشد، فهذا لا يغتسل من جنابة . . . فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، إن هذا هو البلاء المبين . . .

قال: فلما مضى أربعون يوماً، طار الشيطان عن مجلسه حتى مرّ بالبحر، فقف الخاتم من فمه، فبلعته سمكة، وأخذها بعض الصيادين، وقد عمل له سليمان عليه السلام صدر يومه، حتى إذا كان العشي، أعطاه سمكتين على حسب العادة، وخرج سليمان عليه السلام، فباع السمكة التي ليس في بطنها الخاتم، واشترى أرغفة، ثم عمد إلى السمكة الأخرى فشققها ليشويها، فاستقبله الخاتم في جوفها، فأخذه، وجعله في يده، ووقع ساجداً، وعكفت عليه الطير والجن . . . وقيل: وأقبل الناس، وعرفوا الذي دخل عليه لما كان يحدث في داره، فرجع إلى ملكه، وأظهر التوبة من ذنبه، وأمر الشياطين، فقال: ائتوني بصخر . . . فطلبته الشياطين حتى أتوا به، فجاء

بصخرة، فأدخله فيها، ثم سدَّ عليه بأخرى، ثم أوثقها بالحديد والرصاص،
ثم أمر به فقذف في البحر... .

وهذا حديث ابن منبه، قال: ولما جلس الشيطان على سريره، كان له
في الملك عشرون سنة، / وبقي لما أعاد الله تعالى إليه ملكه عشرين سنة،
فكان ملكه أربعين سنة^(١)... .

* * *

(١) قال الدكتور محمد السيد حسين الذهبي في كتابه: الإسرائيليات في التفسير والحديث
ص ١٢٦: إن هذا واضح كل الوضوح أنها كذب وافتراء، فمحال أن يُلقي الله تعالى الشبه
لسليمان عليه السلام على شيطان فيلبس على الناس أمر نبيهم، ومحال أن يمكن الله شيطاناً
من التسلط على ملك سليمان عليه السلام فيتحكم فيه كيف شاء، وما لنا نذهب في تفسير
هذه الآية إلى هذه القصة التي لا أصل لها، وقد روى البخاري عن رسول الله ﷺ ما يمكن أن
تحمل الآية عليه من غير أن نقول زوراً أو نرتكب محظوراً، روى البخاري بسنده عن أبي
هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال سليمان بن داود عليه السلام: لأطوفن
الليلة على مائة امرأة، أو تسع وتسعين، كلهن يأتي بفارس مجاهد في سبيل الله. فقال له
صاحبه: قل إن شاء الله، فلم يقل: إن شاء الله، فلم يحمل منهم إلا امرأة واحدة جاءت بشق
رجل، والذي نفسي بيده لو قال: إن شاء الله، لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون».
صحيح البخاري - كتاب الجهاد - باب: طلب الولد للجهاد - ج ٤، ص ٢٢... .

قصة يحيى عليه السلام

٤٧ - وَقَتَلْنِ يَحْيَىٰ غَامِلًا وَتَرَكْنَاهُ فِي الدِّمِّ خَاضِبًا
قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ يُشْرِكُ بِيَحْيَىٰ﴾^(١) .. واختلفوا فيه، لم
سُمي يحيى...

فقال ابن عباس رضي الله عنه: لأن الله تعالى له أحبابه، وقد غفر
لهم...

وقال قتادة وغيره: لأن الله سبحانه وتعالى أحياء بالطاعة، فلم يعص،
ولم يهمل بمعصية...

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أحد
إلا ويلقى الله عز وجل، قد هم بخطيئة وعملها، إلا يحيى بن زكريا، فإنه لم
يهم ولم يعملها»^(٢)...

وقال النبي ﷺ: «من هوان الدنيا على الله، أن يحيى بن زكريا قتلته
امرأة، وقتل يحيى بن زكريا قبل أن يُرفع عيسى عليه السلام، وأول من آمن

(١) سورة آل عمران - الآية ٣٩... وانظر: سورة الأنعام - الآية ٨٥، وسورة مريم - الآية ٧
و١٢، وسورة الأنبياء - الآية ٩٠...

(٢) لم أعثر عليه، وانظر التفاسير لكل من: آل عمران - الآية ٣٩، والأنعام - الآية ٨٥، ومريم
- الآية ٧ - ١٢، والأنبياء - الآية ٩٠...

بعيسى وصدقه يحيى بن زكريا عليهما السلام»^(١) . . .

وذلك أن أمه كانت حاملة به، فاستقبلتها مريم، وقد حملت بعيسى عليه السلام. فقالت: يا مريم أحامل أنت..؟.. فقالت لها: لماذا تقولين..؟.. فقالت: إني أرى ما في بطني يسجد إلى ما في بطنك.. فذلك تصديق وإيمان به، وكان يحيى عليه السلام أكبر من عيسى عليه السلام بستة أشهر. . .

قال: وذلك أن مولد يحيى عليه السلام كان قبل مولد عيسى عليه السلام بستة أشهر، ثم قُتل يحيى عليه السلام قبل أن يُرفع عيسى عليه السلام إلى السماء، وفي الخبر أن الشمس بكت على يحيى أربعين صباحاً، وكان بكائها أنها طلعت حمراء، وغربت حمراء. . .

وروي أن يحيى بن زكريا عليه السلام سيد الشهداء يوم القيامة، وقائدهم إلى الجنة. . .

وقد اختلف العلماء في سبب قتل يحيى بن زكريا عليه السلام: فقال بعضهم: كان يحيى عليه السلام في زمن ملك من ملوك بني إسرائيل، وكانت له امرأة وهي ابنة ملك، وكان قتاله للأنبياء والصالحين، وكانت تبرز للناس كاشفة وجهها، وكان يحيى عليه السلام يزجرها عن ذلك، ويقول لها: لا تبرزى كاشفة/ وجهك.. وكان كثيراً ما يقول لها: مكتوب في التوراة، أن الزناة يقفون يوم القيامة وريحهم أنتن من الجيف.. فأمرت بيحيى فحُبس.. وكان قد حبسه رجل من أبناء الملوك، كان يختلي إليها بالليل، فعلم به يحيى فزجره، فبلغ ذلك امرأة الملك، فحملت بنتاً لها، واستقبلت به زوجها.. فقال: لِمَ فعلت ذلك..؟.. فقالت: وجب لها عليك حق.. فقال لها: سلي ما شئت.. فقالت: استوهب منك أهل السجن،

١/٦٢

(١) انظر المصدر السابق. . .

أصنع بهم ما شئت.. فظن أبوها أنها ترحمهم وتسرحهم.. فقال: قد فعلت.. فأمرت أمها بأهل السجن، فعرضوا عليها، فلما مرّ بها يحيى، أمرت به، فذبح في طشت، ثم حمل الطشت إلى أبيها بأمر أمها.. وقالت: أيها الملك، إني ذبحت لكم ذبيحة من أعظم ما وجدته، ولو كان مثله ألف لذبحته لك.. فقال الملك: ومن هو..؟.. قالت: يحيى بن زكريا..!!.. فقال: هلكت وأهلك أباك.. فغير الله تعالى ما بهم من النعم، وسلط الله تعالى عليهم عدوًّا، فذبح الابنة وأمها، وسلط الله تعالى عليهم الكلاب والسباع حتى أكلتهم...

وعن سعيد، قال: بعث عيسى ابن مريم عليه السلام، يحيى بن زكريا عليه السلام إلى اثني عشرًا من الحواريين يعلمون الناس ممّا نهاهم عنه، نكاح بنت الأخ، وكان لملكهم بنت أخ تعجبه يريد أن يتزوج بها، وكان لها كل يوم حاجة يقضيها، فلما بلغ ذلك أمها أنه نهى عن نكاح بنت الأخ.. قالت لابنتها: إذا دخلت على الملك، فسألك حاجتك، فقول لي له: حاجتي أن تذبح يحيى... فلما دخلت عليه، سألتها عن حاجتها.. فقالت: حاجتي أن تذبح يحيى..؟!.. فقال: أسألي غير هذا.. فقالت: ما أسألك إلا هذا.. فلما ألحت عليه بيحيى، / دعا بطشت، فذبحه، فبزغت قطرة من دمه على الأرض، فلم تزل تغلي حتى بعث الله على القوم بخت نصر.. فجاءته عجوز من بني إسرائيل، فدلته على ذلك الدم، فألقى الله تعالى في نفسه أن يقتل منهم على ذلك الدم حتى يسكن، فقتل سبعين ألفاً منهم على سن واحد منهم، فسكن الدم^(١)...

(١) روى ابن الأثير في كتابه: الكامل في التاريخ ج ١، ص ٣٠٢، أن دم يحيى عليه السلام فار وغلى، وظل يغلي حتى قيض الله تعالى لبخت نصر أن يغزوهم، فألقى الله تعالى في قلبه أن يقتل منهم على ذلك الدم حتى يسكن، فقتل منهم سبعين ألفاً، فسكن الدم.. وفي قصص الأنبياء - للنجار - أن هناك روايات أخرى في سبب مقتل النبي يحيى عليه السلام، انظر: قصص الأنبياء ص ٥٥٦، ويذكر ابن الأثير المصدر نفسه: أن المرأة حين رأت رأس يحيى =

وقيل : وكان ملك بني إسرائيل يكرم يحيى عليه السلام ، ويأتي إلى مجلسه ويستشيره في أمره ، ولا يقطع أمراً دونه ، وإنما هوي أن يتزوج امرأة^(١) . . فسأل يحيى عليه السلام عن ذلك . . فنهاه عن نكاحها ، وقال : لست أرضاها لك . . فبلغ ذلك أمها ، فحققت على يحيى عليه السلام حيث نهاه عن تزويجها ، فعمدت أم الجارية حين جلس الملك على شرابه ، فألبستها ثياباً رفاقاً حمراء ، وطيبتها ، وألبستها من الحلي أفخر ما يكون ، وألبستها فوق ذلك كساء أسود ، وأرسلتها إلى الملك ، وأمرتها أن تسقيه الخمر ، وأن تتعرض له بمفاتها ، فإذا أرادها عن نفسها ، أبت عليه حتى يعطيها ما تسأله ، فإذا أعطاها ذلك ، سألته أن يأتيها برأس يحيى بن زكريا عليه السلام في طشت . . ففعلت ذلك ، وجعلت تسقيه وتتعرض له ، فلما أخذ منه الشراب ، راودها عن نفسها . . فقال : لا أفعل حتى تعطيني ما أسألك . . قال : ما تسأليني . . ؟ . . قالت : أسألك أن تبعث لي يحيى بن زكريا عليه السلام ، فيؤتي برأسه في هذا الطشت . . فقال : ويحك ، سلي غير هذا . . فقالت : ما أسألك غير هذا . . قال : وأكدت عليه وألحت بالطلب . . فبعث إليه ، فأتي برأسه ، والرأس يتكلم ، حتى وضع بين يديه ، وهو يقول : لا يحل لك ، لا يحل لك . . فلما أصبح ، إذ بدمه يغلي ، فأمر بتراب فألقي عليه ، وارتفع الدم فوقه ، فلم يزل يلقي التراب حتى بقي إلى سور المدينة ، وهو في ذلك يغلي . . . وذكر الحديث الطويل . . .

/ قالت علماء النصارى : إن الذي قتل يحيى عليه السلام ، ملك لبني إسرائيل يقال له : هيرودوتس ، بسبب امرأة يقال لها : هيروديا ، وكانت امرأة

١/٦٣

= عليه السلام في الطشت ، قالت : اليوم قرت عيني ، فصعدت إلى سطح قصرها فسقطت منه على الأرض ، ولها كلاب ضارية تحتها ، فوثبت عليها الكلاب ، فأكلتها ، وذكر أبو الفرج ابن الجوزي في كتابه درياق القلوب نحو ذلك في القصة . . .

(١) روى ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ ج ١ ، ص ٣٠٢ ، أن المرأة كانت ابنة أخ للملك ، والملك هو هيرودوس حاكم فلسطين ، وابنة أخيه التي هواها هي هيروديا . . .

فيلسوف عشقها، فوافقت على الفجور، فأعلمه يحيى عليه السلام أنها لا
تحل له. فسألت المرأة هيروديا أن يأتيها برأس يحيى بن زكريا عليه السلام،
ففعل، فلما سقط من يده، جزع جزعاً شديداً...

* * *

قصة خراب بيت المقدس

٤٨ - وَبِهِنَّ بَيْتُ الْمَقْدِسِ خَرِبَتْهُ يَدُ الْأَغَالِبِ

قال أصحاب العلم والتاريخ :

- لما قُتِلَ يحيى بن زكريا عليه السلام، أوحى الله سبحانه وتعالى إلى شعيب^(١) أني مرسل عليهم ملكاً جباراً ظالماً، انتزع الرحمة من قلبه، وألبسه الهيبة لأربع عشر من ملك حزقيا، سار مرزبان^(٢) بابل سنحاريب^(٣) في مائة ألف راية، فنزل على بيت المقدس، فحاصروهم، فهابوه وأيقنوا بالهلاك، فأصبح أصحاب سنحاريب كلهم موتى، لم ينج غيره وخمس أنفار من أصحابه، أحدهم بخت نصر، وهو ابن عمه، فانصرفوا إلى بابل، وبقي سنحاريب بعد ذلك سبع سنين ومات . . .

وقدم بخت نصر، وكان ملك حزقيا سبعة وعشرين سنة، ونزل عليهم بخت نصر بعد ذلك من بابل في ستمائة ألف راية، فأقبل سائراً حتى نزل حول بيت المقدس، وأقام حوله مدة، / وهم أن يرحل لقلّة مؤونة العسكر،

٦٣/ب

(١) انظر: سورة الأعراف - الآية ٩٣/٨٥، وسورة هود الآية ٩٥/٨٤، وسورة الشعراء - الآية

١٧٦/١٩١، وسورة العنكبوت - الآية ٣٦/٣٧ . . .

(٢) مرزبان: الرئيس، والمرزبان جمع مرزبة عند الفرس، والمرزبة عندهم الرئاسة . . .

(٣) سنحاريب: ملك آشور، عُرف بقساوته.

فجاءت إليه امرأة عجوز، فقالت له: يا ملك، ما تستحي، جئت من بابل بهذا الجيش العظيم، وترحل عنها وما تنال إرباً، اركب غداً وأحيط بالمدينة، وقل: جئناك نأخذ بثأر يحيى بن زكريا عليه السلام إذا تكاملت.. ففعل كما قالت، فأرسل الله سبحانه وتعالى صاعقة من السماء في بيت المقدس، فالتهب مكان القربان، وخسف بسبعة أبواب من أبوابها.. قال: فلما رأى أرميا، صاح وبكى وشق ثيابه، ثم نبذ التراب على وجهه، وقال: يا مالك السموات والأرض، أين ميعادك الذي وعدتني، إنهم لن يصيبوا الذي أصابهم إلا بقينك، واستيقن النبي أنها فتاة، فطار أرميا عليه السلام حتى خالط الوحوش، ودخل بخت نصر بيت المقدس، وهم مثل الجراد المنتشر، ثم أمر جنوده أن يملأ كل رجل ترسه تراباً، ثم يقذفه في بيت المقدس، فقفوا التراب حتى ملئ، وجاء ووقف على الدم الذي ليحيى، فقال: ما هذا..؟.. فقالوا: هذا دم القربان، ما أكلته النار، لذلك بقي، فجاءت امرأة عجوز وقالت: ما تعرف هذا الدم..؟.. قال: لا.. قالت: هذا الذي فتح الله تعالى عليك به بيت المقدس، هذا دم يحيى بن زكريا عليه السلام، فألقى الله تعالى في قلبه ليضربن عليها الأرقاب حتى يسكن الدم، فجعل يقدم خمسمائة خمسمائة يضرب أعناقهم، فما سكن الدم حتى ضرب سبعين ألف رقبة، فسكن الدم، فأمسك عنهم، وارتفع الدم إلى حرم الصخرة، ونزل من باب الرحمة / إلى وادي جهنم، وأحرق التوراة، وأسر من أولاد الأنبياء سبعين ألف صبي، منهم: دانيال، وعزير.. وغيرهم، وسبى أهلها، وقتل الأنبياء، وسلب بيت المقدس، واستخرج سبعين ومائة عجلة من حلي بيت المقدس..

أ/٦٤

قال حذيفة رضي الله عنه: يا رسول الله، لقد كان بيت المقدس عظيماً عند الله سبحانه وتعالى.. فقال ﷺ: «أجل، بناه سليمان بن داود عليهما السلام من ذهب وياقوت وزبرجد، وكان بلاطة فضة، وبلاطة ذهب، أعطاه الله سبحانه وتعالى ذلك، وسخر له الشياطين يأتون بهذه الأشياء في طرفه

عين، فسار بخت نصر بهذه الأشياء إلى بابل حتى نزل بها، وأقام بنو إسرائيل في يده مائة سنة يستعبدهم المجوس، وأبناء المجوس»^(١) . . .

قال رسول الله ﷺ: «فهذه صفة حلي بيت المقدس، ويرده المهدي إلى القدس، وهو ألف سفينة وتسعمائة سفينة، يُرمى بها على يافا حتى تنتقل بها إلى بيت المقدس، وبها يجمع الأولين والآخرين»^(٢) . . .

قال: ولما أراد أن يقسم الغنائم في جنده، قالت له الملوك الذين كانوا معه: يا أيها الملك، لك غنائمنا كلها، فأقسم بيننا هؤلاء الصبيان الذين اخترتهم من بني إسرائيل، ففعل ذلك، فأصاب كل رجل أربع غلمان، وكان من أولئك: دانيال، وحنانيا، وعزازيا، وميسايل، وتسعة آلاف من أهل بيت داود عليه السلام، وأحد عشر ألف/ من سبط يوسف بن يعقوب عليه السلام، وسبعة آلاف من سبط لاوي بن يعقوب عليه السلام، وثمانية آلاف من سبط ابن يعقوب عليه السلام، وأربعة آلاف من سبط يهوذا بن يعقوب عليه السلام، ومن بقي من بني إسرائيل، فجعل بخت نصر سبايا بني إسرائيل ثلاث فرق، ثلث أقر بالشام، وثلث سبي، وثلث قُتل، وذهب بأواني بيت المقدس إلى بابل، وذهب بالسبعين ألفاً من الصبيان، وسائر السبايا حتى أقدمهم بابل، فكانت هذه الواقعة الأولى التي أنزلها الله سبحانه وتعالى على بني إسرائيل بإحداثهم وظلمهم، وذلك في قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾^(٣) . . . يعني: بخت نصر وأصحابه^(٤) . . .

(١) انظر: بدائع الزهور في وقائع الدهور - محمد بن أحمد بن إياس الحنفي، نقلًا عن الثعلبي ص ١٦٧ و ١٦٨ . . . وانظر: السيرة النبوية - لابن هشام - والسيرة النبوية - لابن كثير، فصل الإسراء والمعراج . . .

(٣) سورة الإسراء - الآية ٥ . . .

(٤) انظر: تفسير النهر الماء لأبي حيان الأندلسي - من البحر المحيط ج ٢، ص ٢٨٢ و ٢٨٣ . . .

قال: وقيل ذلك من طريق آخر، أن بخت نصر لما نزل بيت المقدس، تحصنوا منه في مدائنهم، فلم يطقهم، فلما اشتد عليه المقام وجاع أصحابه أراد الرجوع، فخرجت إليه عجوز من عجائز بني إسرائيل، فقالت للجند: أين الأمير...؟.. قال: فأُتي بها إليه.. فقالت له: قد بلغني أنك تريد أن ترحل بجندك قبل أن تفتح هذه البلدة.. فقال: نعم، طال مقامي، وقد جاع أصحابي، فلست أستطيع المقام الذي كان مني.. فقالت: أرايت إذا أمرتك أن تكف.. فقال لها: نعم.. فقالت له: غداً غدٍ إذا أصبحت، فأقسم جندك أربعة أقسام، ثم أقسم على كل زاوية أربعاً، ثم ارفعوا أيديكم إلى السماء، ونادوا: إنا نستفتحك بالله تعالى بدم يحيى بن زكريا عليه السلام.. فإنها تسقط.. ففعلوا ذلك، فسقطت المدينة، ودخلوا من جوانبها.. فقالت العجوز: كف اليد، واقتل على هذا الدم حتى يسكن.. فانطلقت به إلى دم يحيى بن زكريا عليه السلام وهو على تراب كثير، فقتل سبعين ألفاً حتى سكن الدم.. فقالت له: كف يدك، فإن الله تعالى إذا قُتل نبياً لم يرض حتى يُقتل من قتله ومن رضي بقتله..

قال: وخرب بيت المقدس، وأمر أن تطرح فيه الجيف^(١)، وقال: من طرح فيه جيفة، فله جزيته تلك المدينة، فلما خربه بخت نصر، ذهب معه بوجوه بني إسرائيل وسراياهم..

وقيل: إنه لما وصل إلى بابل، نظرت نساء أهل بابل إلى الصبيان، فضربت أرقابهم تعبیر الرؤيا التي هالته، وأن بخت نصر لما ضرب رقاب الأسارى أولاد بني إسرائيل، رأى رؤيا هائلة هالته، واشتد منها رعباً، فجمع علماء أهل مملكته، فسألهم عن رؤياه.. فقالوا: أخبرنا بها لنعبر لك إياها.. فقال: إني قد نسيتها.. فقال رجل منهم: أيها الملك، إن الغيب لا يعلمه إلا نبي يوحى إليه، فعليك بهذا الإسرائيلي الذي في حقك، وهو دانيال..

(١) الجيف: الجثث..

وقد زعموا أنه نبي يوحى إليه، فاسأله عنها، فلعلك / أن تتخذ عنده حاجتك .. فأمر به .. فأحضر .. ووقف عنده ولم يجبه بتحية الملوك، ولم يسجد له كما كان يفعل من يدخل عليه .. فقال بخت نصر: ما الذي منعك من السجود ..؟ .. قال: إن لي رباً أعطاني النبوة، وخصني بالوحي، وأمرني أن لا أسجد إلا له .. فأعجب بخت نصر من قوله، وأيقن أن حاجته عنده .. فقال: نعم ما قلت، فإن العبيد هم المؤمنون لأربابهم، فإني دعوتك لرؤيا رأيته في منامي، وقد هالطني واشتد منها رعبى، ثم نسيتها، فهل عندك فيها علم ..؟ .. قال دانيال: قد أوحى إليّ ربي بها، وتفسيرها أيضاً، فهو الذي منّ عليّ بالنبوة، وخصني بالفضيلة، قال: هاتها وعبرها .. قال: رأيت صنماً عظيماً، قدماه في الأرض، ورأسه في السماء، رأسه من ذهب، وصدره من فضة، وبطنه من نحاس، وفخذه من حديد، وساقاه من فخار، فبينما أنت تتأمله وتتعجب منه، إذ سقط من السماء حجراً، فهشمه، فاختلط بعضه ببعض، وكان الحجر الذي سقط عليه يفوقه ويعظمه وقد انبسط حتى ملأ الأرض، فجعلت لا ترى السماء ولا الأرض .. فقال بخت نصر: صدقت وبررت، هذه رؤياي التي رأيته، فما تأويلها ..؟ .. قال دانيال: أما الصنم فهو أنتم معشر الأعاجم، وأما الذهب فالملوك منكم، وأما الفضة فهم ذوو الملوك والأشراف، وأما النحاس فهم من دون أولئك الناس، وأما الحديد فهو من أرباب الحرب منكم لأن بهم قوام ملككم، / وأما الفخار فهو أسفلكم وأرداكم، وأما الحجر الذي سقط على الصنم حتى هده وطحنه، فإن الله تعالى سيحطمكم ويغشي ملككم في آخر الزمان، زمان نبي يخرج من تهامة، ويهاجر إلى طيبة اسمه محمد ﷺ، يطحن الله سبحانه وتعالى به يد الكفر، ويفرق بين الحق والباطل، يعز به الدليل، ويقوى به الضعيف، ويغنى به الفقير، ويأمن به الخائف، ولا يزال أمره يعظم، ودينه يقوى، وأمه تزداد، حتى تملأ الأرض في ذلك العصر، ويبقى الملك في قومه إلى يوم القيامة .. فقال بخت نصر: متى يكون ذلك ..؟ .. قال: بعدك بألف عام .. فلما سمع

ذلك بخت نصر، فزع من دانيال، وأمر فأطلق من سجنه، وأمر بإكرامه والإحسان إليه، وجعله وزيراً له ومستشاراً، فغم ذلك أشراف مملكته، وظنوا أنه يريد أن يفارق دينه، ويدخل في دين بني إسرائيل، فاجتمع أشرافهم وعظماؤهم وأهل النباهة منهم، فدخلوا على بخت نصر، فقالوا: أيها الملك، قد أريتنا بإكرامك هذا الإسرائيلي، وقبولك فعله، ومنتك إياه بأسرارك، وقد ظننا أنك تهتم بترك دينك الذي وجدت عليه آباءك وأجدادك، وتدخل في دينه، فتكسب بذلك العار، وتلازمنا فيه الشقاء. . فقال لهم بخت نصر: إني لم أهتم بترك ديني، والدخول في دينه ساعة واحدة قط، غير أنني رأيت رجلاً من أعظم أهل الأرض علماً، فاستكفيته عيش أفضل من هذا. . . ثم قال لدانيال: إني معيد لك ولأصحابك أفضل ما كنتم عليه من الكرامة والبر والإحسان، فاطمئن وطب نفساً، وقد أطلقت لك / جميع الأسارى، وجميع من كان في حبسي من قومك، وإني منزلكم جميعاً منزلة رحيمة، ومُجْرٍ عليكم ما يقيمكم من الطعام والكسوة. . . فقال دانيال: افعل من ذلك ما ترى. . فأمر بهم فأنزلوا في المنازل البهية الواسعة، وأجري عليهم من الطعام والمفرش والملابس ما وسعهم. . فمكث بذلك ما شاء الله تعالى، ثم إنه رأى رؤيا كانت أقطع من الأولى وأهول هولاً أيضاً، ونسي كما نسي في المرة الأولى، فدعا عظماء قومه، وأخبرهم بذلك. . فقالوا: أيها الملك، لقد عبرت دهرأ لا تعرف من هذه الأحلام شيئاً، حتى استخلفت هذا الإسرائيلي الساحر، وهو يريك السحر كالأحلام الكاذبة ليرهبك بها، والدليل على سحره أن النار لم تحكم فيه. . فسكت عنهم، حتى إذا خرجوا من عنده، استدعى دانيال، وأعلمه ما داخل به من رؤيا رآها ثانية من الفزع الشديد، وسأله أن يخبره بها، ويعبرها له. . فقال له دانيال: إن ربي قد أوحى إليّ بها، وعرفني تأويلها. . قال: إنك رأيت شجرة عظيمة، أصلها في الأرض، ورأسها في السماء، ذات فروع باسقة، وغصون نائفة، ورأيت عليها كل طير بذكر الأرض مشعشة مع أفراخها في غصونها، حتى امتلأت تلك الشجرة، وما

والاها من تلك الطيور، فبينما أنت تنظر إليها وتتعجب من حسنها وعظمتها وكثرة ما اكتنفها من الطير، إذ أقبل ملك من السماء، يجتثها من أصلها، فنودي من السماء: اجتث بعضها ودع بعضها. . فأباد أغصانها كلها، وبقيت ساق قائمة على حالها، وتفرق ما كان عليها من الطير. . . فقال بخت نصر: صدقت هذه رؤيائي، وما خرم منها شيء، فما تأويلها. . ؟. . فقال دانيال: أما الشجرة فملكك هذا الواسع، وأما ما كان عليها من الطير فجندك، وأما ما رأيته بها فذهاب ملكك، وإبادة سلطانتك، وأن الله سبحانه وتعالى ماسخك سبع سنين على صورة كل من في الأرض، وكل دابة، إلا أنك تمسخ على صورة شيء من الطيور والدواب، ألا وكنت أقواها قوة، وأشدّها بأساً كنعوما كنت عليه في قوة ملكك، وشدة سلطانتك، وذلك عقوبة من الله تعالى لك، فما كان لودك لصنمك، وما كان لهدمك من بيت المقدس، وذلك ما كان في مسجده من الجواهر وسائر ما كان فيها من الذهب والفضة، وذلك كرسي نبيه سليمان عليه السلام في مكانه الذي كان، واستخفافك بأولياء الله تعالى وأهل طاعته من بني إسرائيل الذين أكرمهم الله تعالى، وأن الله سبحانه وتعالى ماسخك من صورة إلى صورة حتى يحولك الله تعالى على هيئة البهائم والسباع والطيور، وينقذك من كل شيء، غير أنك تكون ملك ذلك الجنس الذي تكون فيه، فتمكث بذلك سبع سنين، ثم تعود إنساناً كما كنت، ليعرفك من قدرته ما غاب عنك وغبت عنها. . . فقال بخت نصر: فهل ربك يقبل مني توبة. . ؟. . قال: أما دون أن يمسحك على صورة جميع الدواب والسباع والطيور. . .

فقام بخت نصر، فدخل دار نسائه، فبينما هو جالس إذ نظر إلى الريش قد بدت عليه، فكان أول ما مُسَخَّ عقاباً، فقهر كل طير حتى تحدث الناس بأرض بابل. . قالوا: قد حدث في بلدنا عقاباً لا يقوم له شيء إلا قهره من الطيور، ثم مُسَخَّ أسداً، فقهر جميع السباع، ثم مُسَخَّ جميع الأصناف، فكان آخر ما مسخ بعوضة، وأقبل يطير حتى أتى قصره، فأعاده الله سبحانه

وتعالى / إنساناً، وذلك عند تمام ميقاته، فاغتسل ولبس المسوح، وسلّ سيفه ٦٧/ب
وخرج إلى جنوده، وهم مجتمعون.. فقال: يا أيها الناس، إنّنا كنا نعبد
الأصنام، لا تنفعنا، ولا تضرنا، ولا ترزقنا، ولا تميتنا، ولا تحيينا، وأن الله
سبحانه وتعالى قد أراني من قدرته ما استيقنت، أنه الملك الذي لا يبارى،
الجبار الذي لا يساوى، وأنه واحد أحد، لا شريك له ولا ولد، فمن أجابني
إلى توحيد الله سبحانه وتعالى، والإيمان به، وخلع الأنداد، وما يعبد من
دونه، كان له ما لي، وعليه ما لي، ومن أبى ضربته بسيفي هذا حتى يحكم
الله تعالى وهو خير الحاكمين، وقد أجلتكم يومي هذا، ولا يتيقن أحد منكم
إلا على نفسه، ثم انصرف إلى قصره، فلما دخل الليل، وأخذ مضجعه،
قبض الله تعالى روحه، فأصبح ميتاً، وكان ملكه تسعين سنة، وهذا آخر ما
أخبرنا...

وقد اختلف العلماء فيه: فمنهم من يقول: لا يدخل الجنة لأنه خرب
بيت المقدس، وأحرق التوراة، وقتل الأنبياء، وأسر الأولاد، ومنهم من قال:
لا بل يدخل الجنة لأنه فعل ذلك وقد كان كافراً، والإسلام مع التوبة يمحو
جميع ما فعلته مع كفره...

* * *

قصة شمشون

٥٤ - وَبِهِنَّ شَمْشُونُ دُهِيَ بِمَصَائِبٍ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ
٥٥ - وَخَدَعْنَهُ بِالْمَكْرِ حَتَّى أَوْثَقَتْهُ يَدَا الْقَوَاضِبِ

فأما شمشون فكان على زمن عيسى عليه السلام، وكان من الحواريين، وكان في قرية من قرى أهل الروم، قد هداه الله تعالى الرشد، وكان أهله أصحاب أوثان يعبدونها، وكان من خبره وخبرهم فيما ذكر من حديث ابن حميد عن وهب بن منبه اليماني: أن شمشون كان في قومه رجلاً مسلماً، وكانت أمه / قد جعلته نذيراً، وكان أهل قرية من قراهم كفاراً يعبدون الأصنام، وكان منزله منها على أميال كثيرة، وكان يغزوهم وحده، ويجاهدهم في سبيل الله تعالى، فيصيب منهم وفيهم حاجته، فيقتل ويسبي ويصيب المال، وكان إذا رآهم بالحي عبره، فإذا قاتلوه قاتلهم، فعطش ذات مرة، فانفجر حجر في الحي، فأخرج ماء عذب، فشرب منه حتى ارتوى، وكان قد أعطي قوة في البطش، وكان لا يوثقه حديد ولا غيره، وكان على ذلك يجاهدهم في الله تعالى، ويغزوهم، ويبطش بهم، ويصيب منهم حاجته، ولا يقدر من على شيء... حتى قالوا: لن تأتوه إلا من قبل امرأته، فدخلوا على امرأته، فجعلوا لها جعلاً^(١)، حتى قالت: أنا أوثقه لكم...!!..

(١) جعلاً: الغل من الحديد، إذ إنه يجمع بين اليدين والعنق...

فأعطوها حبلاً وثيقاً، وقالوا لها: إذا نام فأوثقي يديه إلى عنقه بهذا الحبل . .
ففعلت ذلك، فلما انتبه جذبته بيده، فوقع في عنقه، فقال: لم فعلت
ذلك . . ؟ . . قالت: أختبر به قوتك، فما رأيت مثلك قط، وأرسلت إليهم إني
قد ربطته بالحبل فلم يغن شيئاً، فأرسلوا إليها بجامعة^(١) من حديد، فقالوا:
إذا نام، فاجعليها في عنقه . . فلما نام جعلتها في عنقه ثم أحكمتها . . فلما
انتبه جذبها، فوقعت في يده وعنقه . . فقال لها: لِمَ فعلت هذا . . ؟ . .
فقالت: أجرب به قوتك، فما رأيت مثلك في الدنيا يا شمشون . . .

قال: وقالت: أما في الأرض شيء يغلبك . . ؟ . . قال: الله عز وجل
يغلبني، / وشيء آخر . . قالت: وما هو . . ؟ . . فقال لها: ما أنا بمخبرك عنه
أبداً . . فلم تزل تسأله عن ذلك . . وكان صاحب شعر كثير . . فقال: ويحك،
إن أُمِّي كانت قد جعلتني نذيراً، فلا يغلبني شيء أبداً، ولا يضبطني إلا
شعري . . فلما نام، أوثقت يده إلى شعره بعنقه، فأوثقته بذلك . . ثم بعثت
إلى القوم، فجاؤوا وأخذوه، فجدعوا أنفه، وصمّوا أذنيه، وفقؤوا عينيه،
وأوقفوه للناس في ظهير آتي المدينة، وكانت مدينة ذات أساطير، وكان
ملكهم قد أشرف عليهم لينظر إلى شمشون حيث يصنع به، فدعا الله تعالى
شمشون حين مثلوا به وأوقفوه، أن يسلطه عليهم . . فأمره الله تعالى أن يأخذ
بعمودين من أعمدة المدينة التي عليها الملك والناس الذين معه، ثم يجتهد
بهما، فرد الله تعالى بصره، وما أصابوا منه، ووقعت المدينة ومن عليها من
الناس، فهلكوا فيها هدماً . . .

* * *

(١) جامعة: جعلاً . . مقدار من مال أو ما شابه ذلك على سبيل الرشوة . . .

قصة جريج الراهب

٥٨ - وَكَذَا جُرِيحٌ نَالَهُ مِنْ كَيْدِهِنَّ لَهُ مَصَائِبُ

٥٩ - أُنْزِلَتْهُ بِخَدَائِعِهِنَّ وَمَكْرِهِنَّ عَنِ الْمَرَاتِبِ

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: إن رجلاً يقال له جريج الراهب، كان راهباً في بني إسرائيل، وكان أعبدهم لله تعالى وأعلمهم بكتاب الله تعالى، وأقرأهم للإنجيل، وكان له صومعة مقيم فيها يعبد الله تعالى، ولم يكن يُقبل على الناس لما عنده حب العبادة لله عز وجل، ولم يكن يقبل من بني إسرائيل نذراً ولا غيره.. وكانت والدته تأتيه بما يقوم بأوده، وكان قوياً على الاجتهاد في العبادة، وكانت صومعته خارجة عن البلد، وكانت الرعاة ترعى في أرضها، وكانت والدته تعود إليه / في كل أسبوع، فأتته يوماً، فوجدته يصلي، فنادته وقالت: يا جريج، أخرج رأسك وكلمني حتى أنظر إليك.. قال: صلاتي وأمي، أوتر صلاتي على أُمي، فلم ينظر إليها.. فرفعت رأسها إليه وقالت: تبخل بالنظر علي، لا أملك الله تعالى حتى تنظر في وجوه زواني المدينة، وانصرفت لشأنها.. ثم بقي في صومعته يتعبد الله تعالى...

١/٦٩

ثم إن جارية لبني إسرائيل حملت وظهر حملها.. فقال لها بنو إسرائيل: من أين حملت..؟.. قالت: من جريج الراهب..!!.. نزل من

صومعته، فغلب علي، فافتضني، فحملت منه، وهذا ولدي منه.. فرفعوها إلى الملك، فلما حضرت عنده سألها عن حالها.. فقالت: كنت أرعى المواشي، فنال مني، وهذا ولدي منه.. فأمر بالصومعة أن تخرب وهو فيها، حتى ينزل مع حجارته.. فلما قدموا عليه، خربوها، وأخذوه إلى قدام الملك، فعبروا به حتى أحضروه أمام الملك...

فقال له الملك: ويحك، أنت عابد بني إسرائيل، وما تقبل نذورهم، وتفعل هذا..؟.. فقال: وما صنعت..؟.. قال: زنيت بامرأة، وقد ولدت منك، وأريد أن أحرقك بعد أن أضرب عنقك.. فقال: أيها الملك، أين الجارية..؟.. فقال الملك: أحضروها.. فلما مثلت بين يدي جريج، وضع جريج يده على الصبي، وقال: / يا أيها الصبي، ناشدتك الله من أبوك..؟.. فقال: أبي فلان الراعي.. وبرأ الله سبحانه وتعالى جريجاً.. فقال الملك: ردوا صومعته، وابنوها بالذهب والفضة، لتعود إلى ما كانت عليه.. فقال: والله ما بقيت أسكنها أبداً، وساح في الجبال، إلى أن مات رحمة الله تعالى عليه^(١)...



(١) حديث متفق عليه، جاء بلفظ: لم يتلکم فی المهد إلا ثلاثة: عيسى ابن مريم، وصاحب جريج، وذكروا القصة...

ذكر من تكلم في المهد صبيا

وذكر بالإسناد ممّا روي عن رسول الله ﷺ، قال: «أربعة تكلموا في المهد صغارا، عيسى ابن مريم صلوات الله عليه، وشاهد يوسف، وابن ماشطة فرعون، وشاهد جريج»^(١)...

وأما ماشطة فرعون، عن ابن عباس رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «ليلة أُسري بي إلى السماء الدنيا، شممت رائحة أطيب من الكافور، وأزكى من المسك، فقلت: يا جبريل، ما هذه الرائحة...؟.. قال: رائحة ماشطة فرعون وأولادها.. قلت: وما شأنها يا أخي جبريل...؟.. قال: بينما ذات يوم تمشط بنت فرعون، إذ سقط المشط من يدها.. فقالت: بسم الله.. قالت الابنة: أبي.. قالت: لا.. قالت: فلك رب غير أبي.. قالت: نعم، ربي وربك الله.. قالت: فأعلمه.. قالت: فأعلميه.. قال: فمضت إليه فأعلمته.. فدعا بها، وقال: ألك رب غيري.. قالت: نعم، ربي وربك الله.. قال: فدعا ببقرة من نحاس، فأذاب فيها الرصاص، وجعل يأخذ أولادها واحداً بعد واحد يلقيه في البقرة.. فقالت: إن لي إليك حاجة.. قال: وما هي...؟.. قالت: أحب أن تجمع عظامي وعظام أولادي في ثوب

(١) حديث متفق عليه عن أبي هريرة بلفظ: لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة، عيسى ابن مريم، وصاحب جريج، وصبي يرضع من أمه.. وليس فيه شاهد يوسف، وابن ماشطة فرعون...

واحد.. قال: ذلك لك علي.. / ولم يزل يلقي واحداً بعد واحد، وهي واقفة
تنظر إليهم، ولم يبق سوى ولد صغير على صدرها، والثدي في فمه لا يدعه،
فتحرك قلب أمه عليه.. فقال: يا أماه اصبري، فإن عذاب الدنيا أهون من
عذاب الآخرة»^(١)...

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «بينما امرأة فيمن
كان قبلكم ترضع ابناً لها، إذ مر بها فارس متكبر عليه ثياب حسنة.. فقالت
المرأة: اللهم، لا تُمَتِّنِي حتى أرى ابني هذا مثل هذا الفارس.. فنزع
الصبي الثدي من فمه، ثم قال: اللهم، لا تجعلني مثل هذا الفارس.. ثم
عاد إلى الثدي يرضع من فيه.. ثم مرّوا بحبشية أو زنجية.. فقالت: أعيذ
بالله ابني أن لا يموت مودة الحبشية أو الزنجية.. فنزع الصبي الثدي من فمه،
ثم قال: اللهم، أمتني ميتة الحبشية أو الزنجية.. فقالت أمه: يا ولدي،
سألت ربك أن يجعلك مثل الفارس، فقلت: اللهم لا تجعلني مثله، وسألت
ربك أن لا يميّتك ميتة الحبشية أو الزنجية، فسألت ربك أن يميّتك ميتتها..
فقال الصبي: إنك دعوت ربك أن يجعلني مثل رجل من أهل النار فأبيت،
وأن الحبشية أو الزنجية، كان أهلها يسبّونها ويضربونها، فتقول: حسبي الله
ونعم الوكيل»^(٢)...

وأما قوله سبحانه وتعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾^(٣)..
قال: كانوا قوماً من القبط...

وقال الكلبي: كانوا نصارى، وذلك أن ملكهم نجران، وقد أخذهم
القوم المؤمنين، فخذلهم في الأرض سبعة أخاديد، طول كل واحد أربعون
ذراعاً، وعرضه اثنا عشر ذراعاً، ثم طُرح فيه النفط والحطب، ثم عرضهم

(١) انظر: بدائع الزهور في وقائع الدهور - محمد بن أحمد بن إياس الحنفي ص ١٣٧، وقد ذكر
القصة كاملة...

(٢) حديث متفق عليه، وبلفظ قريب، وهو قطعة من حديث، لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة...

(٣) سورة البروج - الآية ٤...

عليها، فمن أبى قذفه/ في النار، فبدأ برجل يقال له: عمر بن زيد، فسأله ملكهم، وقال: من علمك هذا التوحيد...؟.. فقال: أيها الملك، أنا علمته - وكان رجلاً اسمه عبد الله بن شمر-، فقذفه في النار، ثم عرض على النار واحداً واحداً، حتى أنه قد تتبع بقية المؤمنين... .

قال: ثم صنع ملكهم صنماً من الذهب، ثم أمر كل عشرة من المؤمنين عليهم رجلاً يقول لهم: إذا سمعتم صوت المزامير فاسجدوا للصنم، فمن لم يسجد فألقوه في النار. فلما سمع بذلك النصارى، سجدوا للصنم، أما المؤمنون فأخذهم، ثم ألقاهم في النار، فارتفع الناس فوقها اثني عشر ذراعاً، وأن امرأة جاءت ومعها صغير رضيع لا يتكلم، فلما قامت على شفير الخندق، نظرت إلى ابنها فحمحت على النار، فضربت حتى تقدمت، فلم تزل كذلك ثلاث مرات، فلما كان في الثالثة، ذهبت لترجع... فقال لها ابنها: يا أماه، إني أرى أمامك ناراً لا تطفأ... فلما سمعت ابنها يقول ذلك، قذفا جميعاً أنفسهما في النار، فجعلها الله تعالى وابنها في الجنة، وقد قذف الملك في يوم واحد سبعة وسبعين ألفاً^(١)...



(١) جاءت قصة أصحاب الأخدود هذه في صحيح مسلم عن صهيب الرومي رضي الله عنه، عن النبي ﷺ... وملخصها:

أن ملكاً كان له ساحر، فلما كبر ضم إليه غلاماً ليعلمه السحر، وكان في طريق هذا الغلام راهب، فمال قلبه إليه، فرأى في طريقه ذات يوم حية قد حبست الناس، فأخذ حجراً، وقال: اللهم إن كان هذا الراهب أحب إليك من الساحر فاقتلها... فقتلها... وكان الغلام بعدُ يبصر الأكمه والأبرص ويشفي من الأدواء بإذن الله تعالى، وعمي جليس للملك، فأبرأه الغلام. فسأله الملك عمن أبرأه. فقال: ربي... فغضب. فعذبه حتى دل على الغلام، فعذبه فدل على الراهب. فقعد بالمنشار، وأرسل الغلام إلى جبل لي طرح من ذروته، فدعا، فرجف، فهلكوا ونجا، وأجلسه في سفينة ليغرق، فدعا، فانكفت السفينة بمن معه فغرقوا ونجا، فقال الغلام للملك: لست بقاتلي حتى تجمع الناس، وتصلبني، وتأخذ سهماً من كنائتي، وتقول: بسم الله رب الغلام... ثم ترميني به، فرماه فوق في صدغه، فمات... فأمن الناس، فأمر بأخاديد وأوقدت فيها النيران، فمن لم يرجع منهم طرحه فيها، حتى جاءت امرأة معها صبي، فتقاعست... فقال الصبي: يا أماه اصبري، فإنك على الحق... فاقتحمت...

قصة الزباء ودير الزبيب

٤٩- وَبِهِنَّ دَيْرُ الزَّبِيبِ تَسَاقَطَتْ مِنْهُ الْجَوَانِبُ

وأما دير الزبيب^(١)، فهو في الشام، وهو من أعمال حلب، وكان لها ديراً حصيناً، أحجاره سوداء، وكان هائل منيع لا يكاد يقدر عليه أحد، وكان قد ملكته امرأة يقال لها: الزرقاء بنت اليمان^(٢)، وكانت فصيحة، بليغة، من أذكى نساء العرب وأفصحهم وأعلام نسباً، وكانت تكره الرجال، وكانت تنظر نظراً عميقاً عظيماً على مسيرة يومين وثلاثة على بُعد المسافة، وكانت تنازل الأبطال إذا أوقد الحرب نارها، وما كان أبوها يخالف أمرها، فإن رأيها سديد، وركنها شديد، وكانت تقول ألف راية في النسب، والحسب، والكرم. . فنزل بهم رجل من خزاعة^(٣)، وأحاط بحصنها، / فأنفذ إليه أبوها،

أ/٧١

(١) دير الزبيب - دير مشهور من أعمال حلب، انظر: كتاب الديارات للشابوشي، باب: دير الزبيب. . .

(٢) الزرقاء بنت اليمان: ذكر الجاحظ أنها كانت من بنات لُقْمَان. ابن عاد، وأن اسمها عَنُرٌ، وكانت الزَّبَاءُ زَرْقَاءُ، وكانت البَسُوسُ زَرْقَاءُ. . وقال محمد بن حبيب: هي امرأة من جدیس، يعني زرقاء، وكانت تسمى: الزرقاء اليمامة، وقيل: اسمها جذام. . وفيها يضرب المثل: أبصر من زرقاء اليمامة، لأنها ذات حدة بصر وصدق خير. . .

(٣) خزاعة: هم قبيلة من الأزد كبيرة، وإنما قيل لهم: خزاعة، لأنهم انقطعوا عن الأزد، وذلك لما تفرقت الأزد في اليمن أيام سيل العرم، فأقاموا في مكة المكرمة، وسار آخرون إلى المدينة وعمان والشام. . .

وأحسن مقامه وإكرامه، ثم قال: ما تريد...؟.. قال: جئتك خاطب ابنتك الزرقاء.. قال: أنت أعز وأكرم، وإنك والله كفواً لها، إلا أن عليّ مشورة لها، وما يمكن أن أقضي أمراً دونها.. فقال: مبارك.. فجاء إلى ابنته، وقال لها: هذا خصم ما يرتد، وما لنا به طاقة، ونخاف غائلة أمره، وأنه داهية العرب، شديد البأس، كثير الرجال، فيكون لنا سنداً، ونخشى من رده أن يكون سبباً لزوال ملكنا علينا، وقد ذكر كذا وكذا.. فقالت: أريد مهري رأس حاتم الطائي^(١)، وأريد ألف بعير، وأريد مائة وصيفة.. فانفذها أبوها إليه، فأخبره بما ذكرت ابنته الزرقاء.. فقال: هذا كله سهل عليّ، ومن حاتم عنده، ولأخذن رأسه بسيفي هذا...

* * *

(١) حاتم الطائي: ابن عبد الله بن سعد بن الحشرج، كان شجاعاً، شاعراً، مظفراً، إذا قاتل غلب، وإذا سُئل وهب، اشتهر بجوده وكرمه، وفيه يُضرب المثل...

ذكر أجواد الجاهلية الذي انتمى إليهم الجود

وأما أجواد الجاهلية فهم ثلاثة نفر: حاتم الطائي، وهرم بن سنان^(١)، وكعب بن مامة^(٢)، ولكن المضروب به المثل حاتم وحده^(٣)، . .

قال: ومّر حاتم في سفره على عنزة^(٤)، وفيهم أسير، فاستغاث بحاتم ولم يحضره، فاشتراه من العنزيين وأطلقه، وأقام مكانه في القيد حتى إذا أفداه، وهو القائل لغلامه بشار، وكان إذا اشتد البرد، وغلب الشتاء، أمر غلامه أن يوقد ناراً في بقاع الأرض لينظر إليها من أضلّ الطريق ليلاً، فيصعد نحوها، وقد قال في ذلك شعراً:

أوقد فإن الليل ليل قر والريح يا موقد ريح صر
عسى يدري نارك من يمر إن جلبت ضيفاً فأت حر

(١) هرم بن سنان: ابن أبي حارثة المري، وقد سار بذكره جوده وكرمه، ويضرب به المثل: «أجود من هرم»، انظر: مجمع الأمثال - للميداني - برقم /١٠٠٤/ . . .

(٢) كعب بن مامة: يضرب بجوده وكرمه المثل: «أجود من كعب بن مامة» انظر: مجمع الأمثال للميداني - برقم /٩٧٨/ . . .

(٣) ليس حاتم الطائي وحده الذي ضرب به المثل - أجود من حاتم طي - مجمع الأمثال - للميداني - برقم /٩٧٧/، وقد أثبتنا ذلك آنفاً . . .

(٤) عنزة: وهو . . عنزة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان، حي من ربيعة . . .

أما الزرقاء بنت اليمان، فكان مقصدها قتله، فنزل الرجل في حي حاتم، فلما دخل الخباء الذي لحاتم، فلم يحضره حتى قَدَّم بين يديه سبعين جفنة من الطعام، فرفع رأسه إلى حاتم، ولم يكن يعرفه من قبل، فقال: أين سيد الحي...؟.. فقال له حاتم: الساعة يقدم.. وخرج من عنده، فلبس ثوبه، وتقلد سيفه إلى جانبه، ثم عاد، فرآه لا يأكل له طعاماً لأن الغدر في عينيه.. فقال له حاتم: يا أخا العرب، ما لك لا تأكل من طعامنا...؟.. فقال له: بي مرض، وقد وصفوا لي / كلية فرس.. فقام حاتم إلى فرس له مشهورة من العرب عالية النسب، فذبحها وأخذ كليتها وشواها، وقدمها بين يديه، فأكل وقام يرحل من عنده، فلما خرج رأى رأس فرس مذبوحة، قال في نفسه: كيف أصنع بهذا الرجل...؟.. لقد أكلت طعامه، وقد ذبح فرسه لأجلي، وللفرس قيمة جيدة، وقد شق عليّ ذلك، ثم قال: يا حاتم، اركب معي، واخرج عن الحي حتى أذكرك أمراً أنا فاعله.. قال: السمع والطاعة، وحباً وكرامة.. فركب معه وخرج عن الحي حتى أبعد.. فقال له: يا حاتم، أتعرف من أنا...؟.. قال: لا.. قال: من أنت...؟.. قال: أنا عنان بن خزيمة النخعي.. قال: أكرمت والله، ما قمنا بموجب إكرامك..

ب/٧١

ثم قال: يا حاتم، إني طلبت الزرقاء بنت اليمان صاحبة دير الزبيب زوجة لي، فأبت إلا برأسك مهراً لها خارج عن ما طلبت من الوصائف والأنعام، وإني حائر في أمري وأمرك، لأنني قد أكلت طعامك، وقد فعلت في حقّي ما فعلت.. فقال له حاتم وقد أشهر سيفه وأمسك به، وقال: يا أخا العرب، بذمة العرب، خذ سيفي هذا، واضرب به عنقي، فإنه ماض كما تحب.. قال: لا وذمة العرب لا أفعل ذلك أبداً، فإن ذلك أعظم من الأولى.. فقال له حاتم: أنا شيخ كبير، وقد طعنت في السن، وإن عشت أجلي هذا العام، ما أعيش العام الآخر، وأنت شاب حدث، فاقض غرضك منها ولا تنسب العجز إليك، وقد قرب أجلي، فاقبل ما / أقول لك.. فقال: لا والله لا أفعل ذلك أبداً.. فقال حاتم: خذني إلى بين يديها أسيراً، وأوثق

أ/٧٢

أكتافي، واجعل عمامتي في عنقي، فإذا حضرت بين يديها، إن شئت أسرتني، وإن كان غرضها قتلي فتقتلني، وتكون أنت المحمود بذلك. . فقال عند ذلك: رضيت. . .

قال: فلما حضر بين يديها، وقد شد وثاقه بعمامته، وبأقيها في عنقه. . رفعت رأسها إليه، وقالت: يا حاتم. . قال لها: لبيك. . قالت: من فعل بك هذا الفعال، وقدمك بين يدي. . قال: سنان الطويل، وسيفه الماضي. . قالت: وذمة العرب، لقد ضيعت كرمك بكذبك، والله ما جاء بك إلا طيب لبنك، وطيب أصلك، وذمة العرب أنه ليس من رجالك. .

قال: ثم قالت: فكوا وثاقه، وأعطوه فرساً وجبة وعمامة، واتركوه يلحق بأهله. . فغضب عند ذلك النخعي، وجمع العرب، ونزل على دير الزبيب، فأنفذت الزرقاء إلى جزيرة ابن عمر، وكانت لها نسباً، ثم أنها أشرفت على سطح الدير، وقالت لأبيها وقومها ومن كان حولها: خيولنا الساعة وقد وضعت حوافرها في العراء، فنظرت من دير الزبيب إلى العراء مسيرة يومين، فوجدوا كما قالت، فلما وصل الجيش إليهم، لقوهم وكسروهم إلى مصار قنسرين^(١)، فقال شعراً:

خرجت من الجزيرة مصمراً / وإلى الجزيرة عدت غير ضوامر
لم يشف من عرق الخيول جلودها / حقي وطين بها جدار الحاضر

ثم إن أهل الجزيرة اشتغلوا في حرب وقعت بينهم وبين أهل الموصل، فعاد إليهم، وقد أضيف سائر العرب، فنزل عليها وأخذ حصنها، وأخذها قهراً، وهدم حجارته وبناءه، وقد بقي خراباً إلى الآن فلن يعمر أبداً. . والله سبحانه وتعالى أعلم. . .

(١) قنسرين: قرية في سورية، تُعرف باسمي حلب، كانت على طريق القوافل بين أنطاكية وحلب، فتحها أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه، ونقل سيف الدولة سكانها إلى حلب بعد أن هزمهم البيزنطيون. . .

قال: وذكرت طيء عند عدي بن حاتم، أن رجلاً يُعرف بأبي الخير أمر بقتل حاتم، فنزل به، وجعل ينادي: أبا عدي أَقْرِ أضيافك، كالمستهزىء به، فلما كان في السحر وثب أبو الخير يصيح: وراحلتاه.. فقال له أصحابه: ما شأنك...؟.. قال: خرج والله حاتم بالسيف حتى عقر ناقتي وأنا أنظر إليه.. فتأملوا راحلته، فإذا هي لا تعبت.. فقالوا: فدى الله أقراك، فنحروها وظلوا يأكلون لحمها، ثم اردفوا وانطلقوا، فبينما هم في مسيرهم، إذ طلع عليهم عدي بن حاتم ومعه حمل قد مرَّ به بغيره، فقال: إن حاتمًا قد جاءني في النوم. فذكر لي قولك، وإنه أقراك وأصحابك راحلتك، وقال لي: ردها عليه حتى حفظتها.. وهي هذه شعراً:

أنا خير وأنت امرءاً	حسود العشيرة لوامها
فما أردت إلى حمة	بداوية صحب هامها
تبغي غداها وأعشابها	وحولك نوق وأنعامها

وأمر بدفع بغير عوض راحلتك إليك، فخذ.. فأخذه..

* * *

قصة برصيص العابد

٥٠- وَبِهِنَّ بَرَصِيصٌ غَدَا بِعِبَادَةِ السَّتِينِ ذَاهِبٌ
قوله سبحانه وتعالى: ﴿كَمَثَلَ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ
قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾^(١)...

١/٧٣

قال المفسرون: أن عابداً/ كان في بني إسرائيل...

وذكر ابن عباس رضي الله عنه قصته، فقال: كان في بني إسرائيل عابد
عبد الله تعالى ستين سنة، وكان يرى المجانين على يده...

وأما قصته على ما ذكر أهل الأخبار والعلماء، ودخل حديث بعضهم في
بعض: أن برصيصاً كان عابداً في بني إسرائيل، وكان له فضل مثل شهر
رمضان، وكان كل أربعين يوماً لا يلقي جنبه إلى الأرض، ولا يأكل ولا
يشرب، ولم يزل فيها متضرعاً إلى الله سبحانه وتعالى يصل ذلك بقيامه،
فيخرج بعد الأربعين مثل الخلال، تكاد أن تسقط قوته، فلما قضى فصله
الذي يتعبد فيه، وخرج منه، قال: هذا شيء لا يقدر عليه غيري، ولا فعله
بشر قبلي، فدخل عليه العجب، فحينئذ جاءه إبليس لعنه الله، فطرق عليه

(١) سورة الحشر - الآية ١٦...

باب الصومعة في صورة شيخ كبير قد طعن في السن.. فأشرف عليه برصيصاً، وقال له: ماذا تريد...؟ وما حاجتك...؟ فقال: أخدمك.. فقال: أنت اليوم تحتاج إلى خدمة الفقراء.. فقال: وما يضرنني من ذلك فيه كسر نفسي، وأسعد بخدمة الفقراء.. ففتح له الباب، وأقام عنده يخدمه، فلما قرب الفصل الذي يتعبد فيه ويصومه، قال له: أشتهي أن تخرج عني، فهذا وقت أشتغل فيه مع الله سبحانه وتعالى، فما أحب أحداً أن يشغلني فيه عن ربي،.. فقال له إبليس لعنه الله: أنا ما أتعرض لك، تقف أنت في مكانك، وأقف أنا في مكاني، ولا تراني أبداً.. ودخل برصيص في فصله، فلما قضى برصيص الفصل، خرج منه كأنه ميت، وكادت قوته أن تسقط، لأن/ طبعه طبع البشر، أما إبليس لعنه الله، كلما ازداد يزداد جوهراً، ويحمر وجهه، ويقوى عصبه، فبقي بعد ذلك عشرة أيام، فدخل عليه برصيص العابد، وقال له: أنت آدمي...؟ قال: نعم.. [قال]^(١): فما أرى طبعك طبع البشرية، قل ما حالك، وأي شيء أنت...؟ قال: أتداوى بالخير.. فقال إبليس لعنه الله: لا حول ولا قوة إلا بالله تعالى العلي العظيم، تتقوى بالمعاصي على الطاعة.. قال: وما الذي يضر، فالسيئة بواحدة، والحسنة بعشرة أمثالها..

٧٣/ب

قال: فما زال يطغيه حتى أنعم له.. قال: من أين لنا ذلك...؟ قال: أنا أحضره لك.. فخرج من عنده، وراح إلى بنت الملك الذي لتلك البلدة، فصرعها.. وقال: نعم، وما يبرئها إلا برصيص العابد.. فحملت إليه سراً بالليل، وقد أحضر إبليس لعنه الله جميع ما يحتاج إليه من الخمر وغيره، فقام وأخذ المرأة وأنزلها عنده، فلما سقاه إبليس الخمر.. قال برصيص: أرى شيئاً يدب في رأسي، وقد ثقل علي.. قال له: اعلم إن الخمر إذا دخل في الجسد، انقسمت ثلاثة أقسام، منها ما هو الجوهر، وهو الذي يصعد إلى

(١) ساقطة في الأصل وإثباتها يقتضي السياق لإتمام المعنى...

الرأس يجري مجرى الدم، وقسم منها يخرج مع الخبيث، ولا ينفك هذا حتى تواقع هذه المرأة. . قال: والله ما أفلحت بصحبتك أسقيتني الخمر وتأمروني بالزنا. . قال: قد فعلت ما فعلت، وما يستقيم لك حال حتى تفعل ما قد قلت لك. . فطغاه، وقد سكن الخمر منه، فواقعها، فخلّاه يسيراً، وقال له: قد حملت، وما أخوفني عليك إذا ظهر الحمل عليها، من الملك ومن بني إسرائيل. . فقال له: وما أصنع إذا؟ . قال: تقتلها. .!! . قال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والله إنك لأبليس الصاحب، كنت عليّ حتى أسقيتني الخمر، وأمرتني بالزنا، وقد أمرتني بالقتل. . فقال: فإن لم تفعل لتهلكن، أنا ما أقول لأحد، وأنت ما تخبر عن نفسك، / فاقتلها وادفنها خارج الصومعة، فإن طلبوها منك، قل لهم: فتحت الباب وخرجت. . وأنت محل صدق في بني إسرائيل. . ففعل ذلك. . فراح إبليس لعنه الله إلى إخوتها، وكان لها ثلاثة إخوة، وقد تزيا لهم في المنام، وقال لهم: إن برصيصاً قتل أختكم، وقد دفنها خارج الصومعة. . فلما أصبح الصباح، دعا الأخ الأكبر إخوته، وقال: قد رأيت البارحة رؤيا هالتي، وإنها كذا وكذا. . فقال الأوسط: والله، وأنا رأيت هذا المنام. . وقال الصغير: والله، وأنا رأيت هذا المنام. . فركبوا وركب الملك معهم، وجميع من في المدينة، وإبليس لعنه الله يتقدمهم، حتى أوقفهم على قبرها، فنبشوه، ثم أنزله من صومعته واستخبروه عما فعل، فأقر لهم. . فأخذوه، وأخذوا خشبة ليصلبوه عليها. . فجاءه إبليس لعنه الله، وقال له: أنا الذي عملت بك هذا كله، اسجد لي من دون الله حتى أخلصك. . فقال: كيف أسجد وأنت كما ترى. . فقال له: انو بقلبك، وأوح برأسك، فإني مطلع عما في قلبك. . فنوى بقلبه، وأوحى برأسه، فلما رأى إبليس ذلك منه، قال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾، فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١﴾...

(١) سورة الحشر - الآيتان ١٦ و ١٧.

وقد روي عن رسول الله ﷺ، قال: «لا ينظر أحدكم إلى عمل عامل حتى ينظر بماذا يختم له»^(١)...

وقوله ﷺ: «الأعمال بخواتيمها»^(٢)...

فنسأل الله تعالى خاتمة الخير بمنه وكرمه...

* * *

(١) انظر المصدر السابق، وذلك أقرب وأسهل...

(٢) عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وأن الرجل ليعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة». رواه البخاري - ٦٦/٦، في الجهاد، باب: لا يقال لفلان شهيد، وفي المغازي، باب: غزوة خيبر، وفي الرقاق، باب: الأعمال بالخواتيم، وفي القدر ٤٣٦/١١، باب العمل بالخواتيم، وزاد: «وإنما الأعمال بالخواتيم». ورواه مسلم في الإيمان، باب: غلط قتل الإنسان نفسه، برقم ١١٢/، وأحمد في المسند - ٣٣٢/٥...

متفرقات في مكر النساء

٦٠ - كَادَتْ تَزُولُ بِمَكْرِهِنَّ جِبَالٌ لَا تُحْصَى لَكَاتِبِ

قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾^(١)...

ومعنى: وقد مكروا مكرهم.. قال المفسرون: هو نمروذ بن كنعان لما صعد بالنسورة إلى السماء، فرعب الجبال من هبتها، وكان أن تزول منه، / ٧٤ ب وظنت أن الساعة قد قامت، وخافت من غضب الله سبحانه وتعالى...

وقيل: يعني بالجبال، قريشاً، وذكر الجبال تعظيماً للأمر...

وقيل: معناه النفي، وتقدير الكلام، ما كان مكرهم لتزول منه الجبال، وهو محمد ﷺ^(٢)...

١ - ● وأما تفسير الأئمة، فقد نقلوا عن ذلك مسنداً، عن جعفر الصادق، قال: كان في بني إسرائيل رجلٌ عابد، وكان له مع الله تعالى

(١) سورة إبراهيم - الآية ٤٦...

(٢) انظر: تفسير النهر الماد من البحر المحيط - لأبي حيان الأندلسي ج ٢، ص ٢٠٧ و ٢٠٨...

معاملة حسنة، وكان له زوجة متيماً بها، وكانت أجمل أهل زمانها، وكانت مفردة في الحسن والجمال، وكان يقفل الباب عليها، فنظرت يوماً شاباً فهوته وهواها، فعملت له مفتاحاً على باب دارها، وكان يدخل ويخرج ليلاً ونهاراً متى شاء، وزوجها لم يشعر بذلك، فبقيت كذلك زماناً، فقال يوماً زوجها، وكان أعبد بني إسرائيل وأزهدهم: قد تغيرت عليّ، ولم أعلم بالسبب، وقد تشوش قلبي عليك، وكان قد أخذها بكذا، فاشتيتي منك أن تحلفي لي أنك لم تعرفي رجلاً غيري.. وكان لبني إسرائيل جبل يقسمون به، ولا يحلفون إلا به، ولا يتحاكمون إلا عنده، والجبل خارج عن المدينة، وكان عنده نهر يجري.. فقالت له: وتطيب نفسك ويطيب قلبك إذا حلفت لك.. قال: نعم.. قالت: متى شئت.. فلما خرج الشيخ لقضاء الحاجة، دخل عليها عشيقها، فأخبرته بما جرى لها مع زوجها، وأنها تريد أن تحلف له بالجبل، وقالت: ما يحلّني أن أحلف كاذبة، ولا أقول له ما أحلف.. فقال: ما تريدين.. فقالت له: غداً من باكر، البس ثوب مكارى، وخذ معك بهيمة، وأجلس على باب المدينة، وأنا أقول له أن يكتريها منك، فإذا اكترها منك، بادر إليّ واحملي وارفعني فوق البهيمة حتى أحلف له وأنا صادقة/ أنه ما مسني غيرك وغير هذا المكارى.. فلما جاء زوجها، فقال لها: تقومي معي إلى الجبل لتحلفي لي.. قالت: ما لي طاقة على المشي.. فقال: اخرجي، فإن رأيت مكارى اكتريته لك.. فقامت ولم تلبس لباسها، فلما خرجت وجدته ينتظرها، فقالت له: يا مكارى، تكري دابتك إلى الجبل بنصف درهم.. قال: نعم.. قالت: احملي عليها.. فرفعها المكارى على البهيمة.. وقالت لزوجها: أعطيه نصف درهم.. فلما وصلت إلى الجبل، قالت للمكارى: أنزلي حتى أصعد إلى الجبل، فلما تقدم منها، ألقت نفسها إلى الأرض، فانكشفت عورتها، فشتت المكارى. فقال: والله ما لي ذنب.. ثم إنها مدت يدها إلى الجبل وأمسكته، وحلفت به أنه لم يمسه ولا نظرنا إنسان بمثل نظرك بمكروه أحد من خلق الله تعالى، منذ عرفتكَ، غيركَ وغير هذا المكارى.. وكان قد أخذها بكرةً، فطاب قلب زوجها..

وقيل : إن الجبل اضطرب عند ذلك اضطراباً شديداً ، وأنكر ذلك بنو إسرائيل ، فأنزل الله سبحانه وتعالى : ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾...

٢ - ● وقيل : كان رجل له ابنة جميلة ، وكان له ابن أخ يهواها وتهواه ، فمكث كذلك دهماً طويلاً ، ثم إن الجارية خطبها بعض الأشراف ، فأرغب في المهر ، فأنعم أبو الجارية ، واجتمع القوم للخطبة ، فقالت الجارية لأُمها : يا أماء ، ما يمنع أبي أن يزوجني من ابن عمي ..؟ .. قالت : أمراً كان مقضياً .. قالت : والله ما أحسن ما رباه صغيراً ، ثم يدعه كبيراً .. ثم قالت : إني والله منه حامل فاكتمي إن شئت ، أو بوحي .. فأرسلت الأم إلى الأب فأخبرته الخبر .. فقال لها : اكتمي هذا الأمر .. ثم خرج إلى القوم ، فقال : / ٧٥ ب
إني قد أحببتكم ، وإنه حدث أمر رجوت منه الأجر ، فإني أشهد لكم أنني قد زوجت ابنتي فلانة من ابن أخي فلان .. فلما انقضى ذلك .. قال الشيخ : أدخلوها .. فقالوا : البنت هي بالرحمن كافرة ، لا يدخل عليه أحد ولا يدخل عليها أحد إلى سنة ليتبين حملها .. فما دخل بها إلا بعد حول .. فعلم أهلها أنها احتالت على أبيها .. والله أعلم ..

٣ - ● وذكر عن بعض بنات الأكابر ، أنها كلما أرادوا تزويجها ، كانت تجن وتصرع ، فلم يقدم عليها أحد ليتزوجها ، وبقيت هكذا زماناً طويلاً ، ثم إنهم زوجوها بـ رجل من أكابر البلدة ، ولم يبق غير الدخول ، فجنّت جنوناً زائداً عن كل مرة ، فأجمعوا أمرهم ورأيهم على أن يعرضوها على مُعزّم^(١) ، وما كانوا يريدون أن يشتهر عنها الجنون ، فجاءوا بالمعزّم ، وكان رجلاً حاذقاً في صناعته ، صاحب مروءة عظيمة ، وكان أذكى أهل زمانه ، فلما دخل عليها ، وكان صاحب تعصب ودين ، نظر إليها فلم يرَ بها جنوناً ، فالتفت إلى من كان عنده ، وقال : لا يبقى عندي أحد حتى أضرب لها مندلاً ، فلم يبق غيره

(١) المُعزّم : هو الراقي الذي يعمل رقية ، وهي كما يزعمون يستعان بها للحصول على أمر بقوى تفوق كل شيء ..

وغيرها.. فقال: أخبريني عن حالك..؟.. لعله أن يكون على يدي فرج إن شاء الله تعالى، فلما ألح عليها أن تخبره خبرها، قالت له، وكانت فصيحة وذكية: كنت أهوى شاباً، وكنت مغرمة به، وحكم عليّ من ذلك الهوى، فدعاني إلى ما أراد، فأجبت، فوطئني، وأنا اليوم ثيب، وأخاف أن يظهر عليّ هذا الأمر، فأقتل، وأفتضح في قومي وفي عشيرتي، وتشيع عني الفاحشة، فقال: لا بأس عليك.. ثم خرج إلى أهلها، وقال: قد عزمت عليها، وأنا أشفيها بإذن الله سبحانه وتعالى الآن، وقد ذكر لي أنها قد آذت شيطانها، وقال لي شيطانها أنه لا يخرج حتى يؤدي منها/ شيء أو يهلكها، فتواعدت معه، فقال لي: لا بد ما أهلك منها شيء كما آذنتني، أو لا بد من هلاكها.. فلما أن أقسمت عليه، قال: ما أخرج حتى أؤدي منها شيء، فخفت أن أخرجها من عينيها فأعميها، أو من أذنيها فأصمها، أو من فمها يخنقها، أو من أحد أعضائها عطبه، وقد أخرجها من فرجها، وأخاف عليها من ذهاب البكارة عنها.. فقالوا: رضينا بذلك إن تعافت من هذا المرض.. ورضي الزوج بذلك، وقال: الحمد لله الذي منّ عليها بالسلامة والعافية، وعاد إليها عقلها.. وقد أعطوا إلى المُعزّم عطاءً ما عليه من مزيد..

٤ - ● وقد حكى عن بعضهم أنه كانت له زوجة، وكانت قد قهرته حتى لا يكاد أن يتصرف في نفسه، ودون أن تعلم به، وكانت له جارية حسنة الصورة، وكانت قد وقعت في نفسه، وتعلق بحبها، وكان يجتهد على الاجتماع من زوجته وهي تنكد عيشه، واشتد وجده بها، فخلي بالجارية يوماً من الأيام، فقال: الليلة نامي في المكان الفلاني حتى أجيء لأنام عندك الليلة.. فقالت: السمع والطاعة.. ففاقت الزوجة عليهم، فلما كان الليل. قالت: يا جارية اذهبي ونامي في فراشي، وأنا أنام في هذا الموضع.. فقالت: مبارك يا ستي.. فلما جن الليل، راح إلى ذلك الموضع الذي عاهدها، فدخل معها الفراش، وهو يعتقد أنها الجارية، فواقعها، فوجد لذلك حلاوة ولذة بخلاف العادة، وذلك لأجل خوفه وقوة محبته، واجتهد على كثرة

المقام معها وكثر المجامعة، فلما همَّ بالانصراف عنها، أمسكت به، وقالت له: ما هذا الفعل...؟.. أما تستحي، وما هو الفرق بيني وبينها إن أنت تخلف عنها، والله ما بقيت تقيم عندي ساعة واحدة، فأنت لا أمانة لك أبداً... / فما زالت به حتى باع الجارية وفي قلبه منها حجر الغضا... .

٧٦/ب

* * *

قصة إسحاق عليه السلام

٥١ - وَبِهِنَّ أَصْبَحَ بَاكِياً إِسْحَاقُ مِنْ فَقْدِ الْحَبَائِبِ

وقد ذكر أن إسحاق عليه السلام من بني إسرائيل في زمن عيسى ابن مريم عليه السلام، وكان له ابنة عم، وكانت من أجمل بنات زمانها، وكان مغرمًا بها ويحبها حبًا شديدًا، فلما ماتت، لزم قبرها لا يفتر عن زيارتها، فمرَّ به عيسى ابن مريم عليه السلام، وهو يبكي على قبرها.. فقال له عيسى عليه السلام: ما يبكيك...؟.. قال: يا نبي الله، إنه كان لي ابنة عم، وهي زوجتي، وكنت أحبها يا نبي الله حبًا شديدًا، وإنها قد توفيت، وهذا قبرها، وإنني لا أستطيع الصبر عنها، وقد قتلني فراقها.. فقال عيسى عليه السلام: أتحب أن أحييها لك بإذن الله تعالى.. قال: نعم يا نبي الله.. فوقف عيسى عليه السلام على القبر، وقال: قم يا صاحب القبر بإذن الله تعالى.. فانشق القبر، وخرج عبد أسود، وهو يقول: نبي الله وكلمته.. ثم قال: يا نبي الله، ما هو هذا القبر الذي فيه ابنة عمي، وإنما هو هذا الآخر، وأومأ بيده إليه.. فقال عيسى: ارجع إلى ما كنت فيه.. فسقط ميتًا، فواراه في قبره، ثم وقف على القبر الذي أشير إليه، فقال: قم يا ساكن هذا القبر بإذن الله تعالى.. فقامت المرأة وهي تنفض التراب عن رأسها.. فقال عيسى عليه السلام: هذه صاحبتك...؟.. قال: نعم يا نبي الله.. قال: خذ بيدها.. فأخذها زوجها

ومضى . . ثم مرَّ عليها ابن الملك، فرأته، فعشقتَه، فقامت إليه، فلما نظرها وقعت في قلبه، فأَتَتْ إليه، وقالت: خذني . . فهواها، وراحت معه . . فقام زوجها يطلبها، فأنكرت عليه، وقالت: أنا جارية ابن الملك . . فقال: أنت زوجتي وابنة عمي . . قالت: ما أعرفك، وما أنا إلا جارية ابن الملك . . فقال لها: ارجعي إلى الله سبحانه وتعالى وانظريني عن قرب . . فقال ابن الملك: تريد أن تفسد جاريّتي . . قال: والله إنها زوجتي، وأن عيسى ابن مريم عليه السلام قد أحياها لي بإذن الله تعالى بعد أن كانت ميتة . . وكان عيسى عليه السلام عابر فرآهم . . فقال: يا نبي الله، ما هذه هي زوجتي التي أحيتها/ بإذن الله تعالى . . قال: نعم . . قالت: يا نبي الله، أنا جارية ابن الملك . . فقال ابن الملك: يا نبي الله، هذه جاريّتي، فقال لها عيسى عليه السلام: ألسِتي التي أنا أحيتها بإذن الله تعالى . . قالت: نعم، لا يا نبي الله . . قال: قومي فردي ما أعطيناك . . فقالت: كذلك . . فسقطت ميتة . .

أ/٧٧

فقال عيسى عليه السلام: «من أراد أن ينظر إلى رجل أماته الله تعالى كافراً، ثم أحياه فمات مسلماً، فليُنظر إلى ذلك العبد الأسود، ومن أراد أن ينظر إلى امرأة أماتها الله تعالى مسلمة، ثم أحياها فماتت كافرة، فليُنظر إلى هذه المرأة» . . .

* * *

قصص متفرقة

١ - ● وذكر أنه كان في الزمان الأول رجل يقال له عبود، وكان عاشقاً لابنة عمه، فلما حضرتها الوفاة، أزعجه ذلك وأقلقه، فلما توفيت، سار إلى المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، وسأله أن يحييها له، فقال: لن يتهياً ذلك إلا أن توهب لها من عمرك شيئاً. قال: قد وهبت لها نصف عمري. فسار المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام إلى تربتها، ووقف وسأل ربه تعالى أن يحييها، فأحياها الله سبحانه وتعالى. فأخذ الرجل بيدها، ومضى يريد بها أهله، فأدركه الفتور في بعض الطريق. فوضع رأسه في حجرها واستقل نوماً، فمرَّ بهما ملك الناحية، فرأى وجهها جميلاً، وخلقاً حسناً، فعرض عليها صحبتها، فأجابته ما أمرها، فوضعت رأسه في حجرها، وحملها في قبة كانت معه. فلما انتبه عبود، بقي متفكراً، وبينما هو كذلك إذ تلقى نفراً يتواصفون الجارية وبراعة خلقها، فسألهم عن الخبر، فأعلمهم أنهم رأوا مع الملك امرأة قد حملها في قبة، من حسنها وصفتها كذا وكذا. فمضى عبود، فلم يزل يقتفي الأثر حتى لحقها، فجعل يذكرها العهد الذي بينهما، وهي ساكنة، ويسألها الرجوع عما هي عليه، وهي مترددة عنه، إلى أن قال: ويحك قد كنت توفيت، فصرت في جملة الموتى، فسألت المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام أن يحييك بإذن الله تعالى، فأحياك بإذن الله تعالى على أن أعطيك نصف عمري، فإن كنت لا تسيرين معي إلى أهلي وأهلك/

ب/٧٧

فردى عليّ ما وهبته لك من عمري .. قالت: فإني قد رددته إليك، فلا حاجة لي فيه .. فما أتمت هذه الكلمة حتى وقعت ميتة، فانصرف عبود إلى أهله مغتبطاً، فضربت العرب يوم عبود مثلاً، ذكرها في كتابه، السراج ..

٢ - ● ويقال: إن رجلاً كان يقال له: عمرو بن مسلم، وكانت له امرأة يقال لها آمي، وكانت تبغضه، ولم يكن يعلم ذلك، وكان من أشد الناس حباً لها، فدخل عليها ذات يوم وهي تقرأ في المصحف، فقال: يا آمي، أسألك بما أنزل الله تعالى في هذا المصحف، أتحييني، أم تبغضيني .. فقالت: والله لا أخبرك إلا أنه سؤال أسأله لك .. فقال: وأي سؤال ..؟ .. قالت: أن تجعل أمري في يدي .. قال: نعم .. وقد ظن أنها مازحة .. فقالت: فلا والله، وما أنزل الله تعالى في كتابه الكريم ما أحببتك ساعة قط .. فلما حصل أمرها في يدها، اختارت نفسها .. وكاد الرجل يموت أسفاً عليها ..

ثم .. أنشد يقول شعراً .. :

دعاء امرئ عمت بلبله الصورا	فيا رب أدعوك للعشية مخلصاً
قبل الموت أحدث لك الشكرا	بأنك تجمع بآمي ليأتيني مع اليأس
فؤاد ولم يرزق على بينها صبرا	فتجمع بها الشمل أمر لم تدع له
يحفل مطلبها ووليتها الأمرا	إلى الله أشكو أن مما تزوجت
فيه غدرأ واجتازت بنا الغدرا	خطأ من الرأي الضعيف ولم تخف
هنيئاً لها قد حملت نفسها الاصرأ	وماتت لشد الحبل بيني وبينها
بها بدلاً في الناس شفعاً ولا ترا	وخانت خليلاً لم يخنها ولم يرد
الحشى كان قميصي مشتعل تحته جمرأ	عسى بالوحي بالردى عني وعلى
مؤجلة لا عشت خمساً ولا عشرا	فرحت بها لولا كتاب ومدة
فلا بل ثم استبدت جزعاً لدرا	تحسنت الدنيا بآمي لياليا
تحسبت من أغصانها جرعا خمرأ	مرارات صبت حتى قلت وعلقم

/ فانظر إلى هؤلاء النساء، وما فعلن بأزواجهن ..

وقوله ﷺ لما أتاه الأعرابي وقال: يا رسول الله، ائذن لي أن أسجد لك.. فقال ﷺ: «لا يسجد أحد لأحد من خلق الله، ولو كنت أمراً أحداً، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها»^(١)...

وقوله ﷺ: «أول ما تُسأل المرأة عنه يوم القيامة، عن صلاتها، ثم عن زوجها»^(٢)...

وقيل: إن المرأة إذا صلت ولم تدع لزوجها، رد عليها دعاؤها وصلاتها حتى تدعو لزوجها^(٣).

وعن النبي ﷺ قال: «لو أن الزوج سال من أحد منخريه دماً، والآخر صديداً، فلمسته امرأة، ما أدت حق زوجها»^(٤)...

* * *

(١) رواه ابن حبان في موارد الظمان برقم ١٢٩١ / عن عبد الله بن أبي أوفى، قال: لما قدم معاذ من الشام، سجد للنبي ﷺ.. فقال ﷺ: «ما هذا؟..؟». قال: أتيت الشام، فرأيتهم يسجدون لأساقفتهم وبطارقتهم، فوددت في نفسي أن أفعل ذلك.. فقال رسول الله ﷺ... وذكر الحديث.. ورواه الترمذي برقم ١١٥٩ /، والبيهقي في السنن الكبرى ٢٩١/٧، والحاكم في المستدرک ١٧١/٤ و١٧٢، وقال: صحيح الإسناد، وللحديث شواهد كثيرة... (٢) هو إشارة إلى حديثين: الأول: أول ما يحاسب العبد به الصلاة.. رواه النسائي عن أبي مسعود، والحديث الثاني: هو من حقوق الزوج على المرأة وفيه أبواب عدة...

(٣) انظر الحديث السابق وشرحه...

(٤) لم أجد له أصلاً...

قصة الموءودة

٦١- وَبِهِنَّ وَاحِدَةً عَصَتْ فَتَقَطَّعَتْ بِهَا الْمَنَاسِبُ
٦٢- مِنْ أَجْلِهَا سُفِكَ دَمٌ لَا يُعَدُّ بَعْدَ حَاسِبٍ

قوله سبحانه وتعالى : ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾^(١) . . وهي : الجارية المقتولة دفناً وهي حية . قيل : سُميت بذلك لما يُطرح عليها من التراب فيئودها ، أي : يقتلها حتى تموت . . .

قالوا : وكان الرجل من العرب إذا ولدت له بنت ، وأراد أن يستحييها ، ألبسها جبة من الصوف والشعر لترعى له الإبل والغنم في البادية ، وإذا أراد أن يقتلها تركها حتى إذا صارت سداسية^(٢) ، قال أبوها لأُمها : طيبيها وزينيها حتى أذهب بها إلى أحيائها ، وقد حفر لها بئراً في الصحراء ، فإذا بلغ البئر بها ، قال لها : انظري هذا البئر ، فيدفعها من خلفها في البئر ، ويهيل على رأسها التراب حتى يسوي به الأرض . . . فذلك قوله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم : ﴿أَيْمُسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾^(٣) . . .

(١) سورة التكويد - الآية ٨ . . وجاء في تفسير النهر الماء لأبي حيان الأندلسي ج ٣ ، ص ١٢٢٥ : سئلت : سؤال لتوبيخ الفاعلين للوآد ، لأن سؤالها يؤدي إلى سؤال الفاعلين ، وجاءت قُتلت بناء على أن الكلام إخبار عنها ، ولو حكى ما خوطبت به حين سئلت لقيلت . . .

(٢) أي بلغت البنت ست سنوات . . .

(٣) سورة النحل - الآية ٥٩ . . وجاء في تفسير النهر الماء لأبي حيان الأندلسي ج ٢ ، ص ٢٥٣ ،

وقال ابن عباس رضي الله عنه : كانت المرأة في الجاهلية / إذا حملت ، وكان أوان ولادتها ، حفرت حفرة ، فمخضت على رأس الحفرة ، فإن ولدت جارية ، رمت بها في الحفرة ، وإن ولدت غلاماً حبسته ، وكانت طوائف العرب تفعل ذلك . . .

وعن النعمان بن بشير ، قال : سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول في قوله سبحانه وتعالى : ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾ . . . قال : جاء قيس بن عاصم التميمي إلى رسول الله ﷺ ، فقال : إني وارىت ثمانى بنات في الجاهلية - قال ﷺ : «فاعتق عن كل واحدة منهن رقبة» . قال : يا رسول الله ، إني صاحب إبل . . . قال ﷺ : «فأهد عن كل واحدة منهن بدنة إن شئت»^(١) . . . قال : سُئِلْتُ : بأي ذنب قتلت . . .

* * *

= أي : على هوان ، وأيمسكه قبله حال محذوفة التقدير مفكراً أيمسكه أم يدسه معطوف . وكان بعض العرب لا يحتملون نسبتها إليهم . . .
(١) مجمع الزوائد - للهيتمي ١٣٤/٧ . . .

ذكر السبب الموجب لقتل البنات

ذكر في التاريخ، وانفرد به بعض المفسرين:

وذلك أن العرب تواقعت على بعضها بعضاً، فكسرت ألفة الموحدة، وكانت الحرب بينهما قائمة، وهي: مضر^(١)، وكنانة^(٢)، وتميم^(٣)، وخزاعة^(٤)، فلما كسرتها تبعتها مضر وكنانة إلى البيوت، وقالت لهم: إنما الحرب سجال، تارة لكم وتارة عليكم، وهذا شيء ما فعلته العرب قبلكم... وذلك أنهم دخلوا إلى البيوت وأخذوا الحريم وجميع ما في البيوت، فشق ذلك على العرب تهجمهم على البيوت وأخذهم الحريم... فقالوا: فلا تحدثون أمراً تلعنون به إلى يوم القيامة، وتحملون العرب العار، وإن أنتم أبيتم، ولا تسمعون منا، فنحن لا نصبر على الضيم بأن تكون حريم العرب في الأسر، فإن كنتم يطيب عليكم إذا كسرتم يؤخذ حريمكم، فنحن لا يطيب علينا أن تكون حريم العرب في الأسر، والرأي أنكم تردون علينا جميع الحريم، وما أخذتم من الأنعام والمواشي فهو لكم / لا نسألكم فيه، وإننا ما

أ/٧٩

(١) مضر: ابن نزار، وهو الجد الأعلى لفريق من القبائل العربية العدنانية، ومنها: قيس عيلان وغيرها...

(٢) كنانة: ابن خزيمة، قبيلة عربية من أحلاف قريش، ناصرت قريش في فتح مكة...

(٣) تميم: ابن مُرّ، قبيلة عربية، وهي بطن من الياس بن مضر...

(٤) خزاعة: قبيلة عربية، وهم رهط حارثة بن عمرو، من أزد كهلان اليمانية...

جئناكم إلا وقد حميت صدور جميع العرب عليكم، وما لكم طاقة لجميع العرب، فردوا الحرير، والحرب بينكم قائمة.. فأجابوهم، وردوا جميع الحرير، والخدم، والصغار، والكبار، والصبيان.. ولم يبق عندهم سوى امرأة واحدة، وكانت بكرًا، فافتضها مالکها الذي كانت عنده، فأبت العودة إلى أهلها خوفاً أن يقتلوها.. فقالوا لمالکها: ردها.. فقال: والله، وذمة العرب، لا أمنعها عنكم، ولا أغصبها على الزواج، وإنما انفذوا لها الكبار وعجائز الحي يتحدثون معها يوماً وشهراً، فإن أجابت، فخذوها، وإلا فلا.. وكان قد تعلق قلبها به..

فلما سألتها كبار العرب وعجائز الحي ونساء العرب، أبت أن ترجع معهم، فعظم ذلك على العرب بأجمعهم..

ومن ثم.. أقسموا بأديانهم، وباللات، والعزى، أنهم متى رزقوا بأنثى قتلوها.. وهي: تميم، ومضر، وكنانة، وخزاعة، فكانوا يفعلون خيفة من العار، وذلك لما فعلت تلك المرأة، وبقوا على ما هم عليه، إلى أن قدم الإسلام، فكانوا إذا جاءتهم البنت لم يلبثوا أن يقتلوها، ويقولون: إنما نقتلها خيفة العار..

فهذا كان السبب لقتل البنات على ما ذكرنا، إلى أن أنزل القرآن الكريم، فنهاهم عن ذلك..

* * *

قصة طالوت

- ٥٦- وَبِهِنَّ أَصْبَحَ نَادِماً طَالُوتُ لِلْعَبْرَاتِ صَائِب
٥٧- طَلَبَ السِّيَاحَةَ رَاجِلاً بَعْدَ الْمَوَاقِبِ وَالْجَنَائِبِ

قال أهل التواريخ: لما نزل جالوت الجبار بيت المقدس، وهو من ولد عاد بن آدم، فيمن كان بأرض الشام من أولاد الجبابة الذين كانوا/ بأرض مصر، فلما رأوا ما بهم من الذل، وما نزل بهم من البلاء، اجتمع عظمائهم وأكابرهم إلى نبي لهم يسمى أشعيا، فقالوا: قد علمت ما نزل بنا من البلاء والذل وكثرة من أحاط بنا من عدونا، فابعث لنا ملكاً يجمعنا ويحمينا من عدونا ويجاهد بنا.. فقال لهم أشعيا: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾^(١).. فأعلمهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً﴾^(٢).. وكان طالوت من ولد يوسف بن يعقوب.. وكان الملك قبل ذلك من سبط يهوذا، قالوا: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ﴾^(٣).. الآية.. وقالوا: إنما ابتلينا بهذا القحط والوباء منذ صار هذا

(١) سورة البقرة - الآية ٢٤٦...

(٢) سورة البقرة - الآية ٢٤٧...

(٣) سورة البقرة - تنمة الآية ٢٤٧.. وقالوا: أنى.. الجملة وهو كلام من تعنت في حكم الله تعالى، =

التابوت عندنا، فينبغي أن نحتال لإخراجه، فعمدوا إليه، فجعلوه في عجلة بثورين فسرحوهما، فسافت الملائكة ذلك الثورين حتى وافوا بهما أشعيا، فلما رأوا ذلك رضوا بملك طالوت عليهم، فاجتمعوا وملكوه عليهم، فسار بهم طالوت نحو جالوت الجبار وجنوده، فاصطفوا للقتال، وطالوت يدور على أصحابه، ويقول: يا قوم انصروا الله ينصركم، وناصحوا الله يُغْنِكُمْ. . وخاف أصحاب طالوت من جالوت وجنوده خوفاً شديداً، ونظروا إلى قوم جبارين، ذوي أجسام، وقوة أبدان، وكثرة جمع، فامتأوا رعباً. . .

وكان لداود عليه السلام ثلاثة أخوة مع طالوت، وكان داود عليه السلام أصغرهم، فأمر أشعيا بإحضاره، وأخرج والده في أثره. . فقال: ما بلغ من قوتك. . ؟. . قال: يا أبت، انظر إلى هذا الأسد، قَدِمَ عليّ فأخذ شاة، فأمسكته وقسمته نصفين وخلصت الشاة من فمه. . فقال: الحمد لله الذي أراني فيك ما يسرني، ثم أخذه بيده ليحضره طالوت، فمرَّ بحجر، / فقال: خذني، فأني أقتل جالوت. . فقال: بسم الله تعالى رب موسى وهارون، وأخذه ووضعته في مزودته. . ثم مرَّ بحجر آخر، فقال: خذني يا داود، فأنا أقتل جالوت. . فقال: بسم الله تعالى رب محمد، فأخذه ووضعته في مخلاته. . فلما حضر عند طالوت، وفي يده مقلاعه، وفي عنقه مخلاته، وفيها ثلاثة أحجار، فبرز داود عليه السلام من بين أخوته، فقال: أيها الملك، ما الذي تجعل لي إذا قلت جالوت. . ؟! . . قال: أزوجهك ابنتي، وأقاسمك شطر مالي. . قال داود عليه السلام: فأني قادر على قتله إن شاء الله تعالى. . فقال له طالوت: يا فتى، هل جربت نفسك قبل اليوم. . ؟. . قال داود عليه

أ/٨٠

= ولم يسلم لما فعله الله تعالى، وأبدوا عذرهم في إنكار تملكه عليهم وأنهم أحق بالملك منه إذ الملك في سبط يهود والنبوة في سبط لاوي وليس هو من هذا السبط ولا من هذا السبط، والملك لا يتم إلا بالفاضل لا المفضول والموسع عليه في الدنيا، إذ يحتاج إلى استخدام الرجال بالمال ومعونتهم به على القتال اعتبروا في ذلك الأصالة والغنى ولم يعتبروا السبب الأقوى وهو ما قضاه الله وقدره. انظر: تفسير النهر الماء لأبي حيان الأندلسي ج ١، ص ٢٤٦. . .

السلام: نعم، كنت أرعى غنماً لأبي، فأقبل أسد، وحمل شاة فأخذها، فأقبلت عليه وفتحت فمه حتى خلصت الشاة، وقسمته نصفين.. فقال طالوت لأخوته: هل صدق فيما قال: ..؟.. قالوا: نعم أيها الملك، قد كان ما ذكره، لكنه عمل بالجهل، وغره الشباب، وحيل الحداثة، فألقى نفسه في التهلكة لأجل شاة.. فقال له طالوت: هل سمعت ما يقول أخوتك: ..؟.. قال: أيها الملك، إنما الغنم لو كانت لي لما خاطرت بنفسي من أجل شاة، ولكنها كانت عندي وديعة لوالدي، وأمانة في عنقي، وإنها حق الوالد، فبذلت نفسي دونها.. فقال له طالوت: لقد عظم ألمي فيك إذ أخبرتني إنما أردت بذلك الوفاء لأمانتك، ولأنه حق الوالد، فأخرج إليه، فإن قتلته، وقتله الله سبحانه وتعالى على يديك وفيت لك ما ضمنته لك،... فجزع عليه أخوته جزعاً شديداً، وقالوا: كيف يقوى مثلك على قتل جالوت وطوله سبعة أذرع، وعليه من الحديد ألف وثمانمائة رطل، وما يبلغ من استطاعتك، فكفاك/ جهلاً.. فقال لهم طالوت: كفوا عن الفتى، فإنني والله لأرجو أن يقتل الله جالوت به، وعلى يديه، وإن الله سبحانه وتعالى إذا أراد أمراً يقول له كن فيكون...

ثم.. أمر لداود بقوس، وأعطاه سلاحاً شاكاً، فلما استلم داود عليه السلام السلاح وركب الفرس، أحس في نفسه بالعجب، فخاف لما يداخله من ذلك أن لا ينصر. فقال لطالوت: أيها الملك، مالي إلى هذا المركب، ولا إلى هذا السلاح، بل أخرج إليه ماشياً، ثم ترجل ورمى السلاح عنه، وجالوت ينظر إليه، ويتعجب من جرأة داود عليه السلام وقوة قلبه...

وأقبل داود عليه السلام نحو جالوت، ومعه مقلاعه ومخلاته وفيها ثلاثة أحجار.. فقال له: ابرز إليّ واعف عن الفريقين عن القتال.. فقال جالوت: وبما تقاتلني أيها الصبي الأخرق.. فقال له داود عليه السلام: أقاتلك بمقلاعي هذا وأحجار مخلاتي.. فقال له جالوت: لقد حقرتني بغاية الاحتقار، لأجرمك وأرميك للسباع...

ثم . . . برز إليه، ومدَّ يده إلى مخلاته ليتناول منها حجراً من تلك الأحجار، فإذا هي قد صارت حجراً واحداً، فأخذه بأمر الله سبحانه وتعالى، نجعله في مقلاعه، وأدار مقلاعه ثلاث مرات، ثم رمى جالوت، فصارت بإذن الله تعالى أحجاراً ثلاثة كما كانت، فوقع أحدهما في جبينه، والآخر في حلقه، والثالث في صدره، فسقط جالوت ميتاً . . .

فلما نظر أصحابه إلى جالوت قتيلاً، ألقى الله سبحانه وتعالى الرعب في قلوبهم، فانقلبوا هاربين، وسجع^(١) الله سبحانه وتعالى قلوب بني إسرائيل عليهم، فاتبعوهم يقتلوهم ويأسروهم، وقعد داود عليه السلام على صدر جالوت، فاحتز رأسه، وأخذ خاتمه، وسلب ملكه ولواءه^(٢) . . .

فلما وضعت الحرب أوزارها، أقبل داود عليه السلام إلى طالوت، فقال له: أيها الملك، أنجز لي ما وعدتني . . . ففعل طالوت ذلك، وزوجه ابنته، وقاسمه شطر مملكته، وشطر جنوده، ونصف بيوت ماله . . . ووفق بنو إسرائيل / متعجبين من قوة داود عليه السلام على ما حباه الله سبحانه وتعالى ووهبة قوة في قتل جالوت، وما أعطي من النصر والقوة والظفر، وما أراح الله به وعلى يديه من خوفهم من جالوت . . .

أ/٨١

فلما رأى طالوت ما يخوض فيه بنو إسرائيل من أمر داود عليه السلام، وتعجبهم ممَّا أعطي ذلك، حسده حسداً شديداً، وخافه على ملكه، وندم على ما كان من تزويجه ابنته، ومقاسمته إياه سلطانه وجنوده وماله . . . فقال لابنته: يا بنية، قد ندمت على ما كان من تزويجي إياك من داود عليه

(١) سجع: القصد في الكلام أو السير ونحوهما، فلا يميل عن المقصد . . .
(٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ، فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ . . . سورة البقرة - الآية ٢٥٠ و ٢٥١ . . . وانظر: تفسير النهر الماد من البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ج ١، ص ٢٥١ و ٢٥٢ . . .

لسلام، وذلك أنه ليس منا، ولا لنا بكفو، لأننا من سبط يوسف، وداود عليه السلام من سبط يهوذا، ويوسف خير من يهوذا، فلست آمن أن يعيرنا الناس به، فأريد أن أقتله أو أذبح نفسي منه، فتفقدني أمره، فإذا رأيت منه غفلة فأعلميني لأنطلق إليه بنفسي لأقتله، فإني إن أمرت أحداً يقتله، لم آمن أن ينكر بنو إسرائيل عليّ ذلك، فأريد أن أتولى قتله بنفسي، فإن ذلك أخفى للأمر. . . فقالت له ابنته: يا أبتاه، وهل يحل لك قتله، وهذا من يعذرك البلية، فإن البلية أسرع الأشياء إلى الغدر والنكث، ولست آمنة إن فعلت ذلك أن يسلب ملكك، ويزول سلطانك. . . فقال لها طالوت: أراك تؤثرين به عليّ، ولست أجد بداً من قتله، أو أقتلك لأنجو من العار، إذا كان ليس لي كفؤ ولا نظير. . .

فلما سمعت ذلك من أبيها، خافت على نفسها، فأفضت ذلك الأمر إلى داود عليه السلام، فقال لها داود عليه السلام: أنا متناوم لك، فانطلقني إليه، وقولي له: يا أبت إنني أوتر هواك وطاعتك على هوى وطاعة داود عليه السلام، وإن كان بعلي، وهذا هو مستثقلاً نوماً. . .

ثم إن داود عليه السلام تدرع بدرعة^(١)، ولبس فوقها ثيابه، ثم تناوم، وذلك أنه لم يصدق المرأة فيما قالت له من ذلك الخبر، وقد أحب أن يتيقن حقيقة ذلك، ولم يكن يوقن أن طالوت يستحل سفك دمه بلا ذنب عمله منه إليه. . .

فانطلقت المرأة إلى أبيها، فقالت: يا أبت، ما أحب أن يعيبك الناس بشيء، ولا يطعن عليك بمكان، فإن رأيت قتل داود عليه السلام، فهلم الساعة إليه، فقد خلفته مستثقلاً نوماً. . . فاستل طالوت سيفه، وأقبل حتى أتى منزل داود عليه السلام، فصادفه نائماً، فرفع سيفه وضرب به ضربة على صدره، فبنا السيف عن الدرع. . . فقام داود عليه السلام، وأخذ بتلابيبه،

(١) درعة: قميص من زرد الحديد، يلبس وقاية من سلاح العدو. . .

وقال: استحلت ديني بلا ذنب مني إليك، فمن يمنعك مني الآن.. فسقط على يده طالوت، وخاف أن يشيع ذلك في بني إسرائيل، فيسبونونه ويخلعونونه عن ملكه، وكان أشعيا النبي هو الذي أقام طالوت في الملك وقد توفي، فخرج هارباً من ذنبه، خجلاً ممّا بدا منه، فمات في سياحته، واجتمع رأي بني إسرائيل بتمليك داود عليه السلام عليهم بعد طالوت الملك، ولم يقع لي خبر ملكه على هيبة... والله أعلم...

ومما رواه أبو محمد حسين بن مسعود البغوي، عن الثقات في تفسيره، قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾^(١).. والملا من القوم: وجوههم وأشرفهم.. وأصل الملا: الجماعة من الناس لا واحد، ومن لفظه كالقوم، والرهط، والخيّل، والجيش، وجمعه.. ﴿مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾.. أي: من بعد موت موسى عليه السلام.. ﴿إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ﴾.. اختلفوا في ذلك النبي...

قال قتادة: هو يوشع بن نون...

وقال الكسائي: اسمه شمعون، وإنما سمي شمعون لأن أمه دعت إلى الله سبحانه وتعالى أن يرزقها غلاماً، فاستجاب الله سبحانه وتعالى دعائها، فولدت غلاماً، فسمته شمعون، أي: سمع الله دعائي.. والسين تصبح شيناً باللغة العبرانية، وهو: شمعون بن صفية، من ولد: لاوي بن يعقوب...

وقال سائر المفسرين: هو شمويل، وهو بالعبرانية: إسماعيل...

قال مقاتل: هو من نسل هارون...

(١) سورة البقرة - الآية ٢٤٦، وتمامها: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾...

وقال مجاهد: كان سبب مسألتهم إياه، وذلك أنه لما مات، خلف في بني إسرائيل يوشع بن نون / ليقم فيهم التوراة وأمر الله سبحانه وتعالى، حتى قبضه الله تعالى، ثم عظمت الأحداث في بني إسرائيل، ونسوا عهد الله سبحانه وتعالى، حتى عبدوا الأوثان، فبعث الله سبحانه وتعالى إليهم إلياس نبياً، فدعاهم إلى الله تعالى، وكانت الأنبياء في بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام يبعثون إليهم بتجديد ما نسوه من التوراة، ثم خلف من بعدهم إلياس بن اليسع، فكان فيهم ما شاء الله تعالى، ثم قبضه الله تعالى، وخلف فيهم الخلوف، وعظمت الخطايا، وظهر لهم عدو يقال له: البلشاتا، وهم قوم نجالوت، كانوا يسكنون ساحل بحر الروم بين مصر وفلسطين، وهم العمالقة، فظهروا على بني إسرائيل، وغلبوا على كثير من أرضهم، وسبوا كثيراً من ذراريهم، وأسروا من أبناء ملوكهم أربعمئة وأربعين غلاماً، فضربوا عليهم الجزية، وأخذوا توراتهم، ولقي منهم بنو إسرائيل بلاء وشدة، ولم يكن لهم نبي يدبر أمرهم، وكان سبط النبوة قد هلكوا، فلم يبق إلا امرأة حُبلى، فحبسوها في بيت رهبة أن تلد جارية، فتبدلها بغلام لما ترى في رغبة بني إسرائيل في ولدها، وجعلت المرأة تدعو أن يرزقها الله سبحانه وتعالى ولداً ذكراً، فولدت غلاماً، فسمته أشمويل، تقول: سمع الله تعالى دعائي.. فكبر الغلام، فأسلمته ليتعلم التوراة في بيت المقدس، فكفله كبير من علمائهم، فلما بلغ الغلام أتاه جبريل عليه السلام، وهو إلى جنب معلمه، وكان لا يأتمن عليه أحداً، فدعاه جبريل عليه السلام بلحن معلمه: أشمويل.. فقام الغلام فرعاً إلى معلمه، فقال: يا أبتاه دعوتني..؟.. فكره معلمه أن يقول له: لا، فيفزع الغلام، فقال: يا بني، ارجع فنام.. فرجع الغلام فنام.. / ٨٢ أ

ثم دعاه ثانية، فقال الغلام: دعوتني..؟.. فقال: ارجع فنام، فإن دعوتك الثالثة فلا تعجبني.. فرجع الغلام فنام، فلما كانت الثالثة ظهر له جبريل عليه السلام، فقال له: اذهب إلى قومك، فبلغهم رسالة ربك، فإن الله عز وجل قد بعثك فيهم نبياً.. فلما آتاهم، كذبوه وقالوا: استعجلت بالنبوة ولم

تَنَلَّكَ . . . ، ثم قالوا: إن كنت صادقاً: ﴿ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ . . . أي: آية من نبوتك . . . وإنما كان قوام بني إسرائيل بالاجتماع على الملوك، وطاعة الملوك لأنبيائهم، فكان الملوك هم الذين يسيروا بالجموع، والنبي يقيم للملك أمره، ويشير عليه برشده، وكان يأتيه بالخبر من ربه^(١) . . .

وقال وهب: بعث الله سبحانه وتعالى أشمويل نبياً، فلبثوا أربعين سنة بأحسن حال، ثم كان من أمر جالوت والعمالقة ما كان، ثم قالوا لشمويل: ﴿ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ . . . جزم على جواب الأمر . . . فلما قالوا له ذلك . . . قال: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ . . . استفهام شك، يقول: لعلكم . . . وقرأ نافع: ﴿عَسَيْتُمْ﴾، بكسر السين، وقرأ الباكون: بالفتح، وهي اللغة الفصحى، بدليل قوله سبحانه وتعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾ . . . أي: فرض عليكم القتال . . . ﴿أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ . . . مع ذلك الملك، أن لا توفوا بما تقولون ولا تقاتلوا معه، قالوا: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ . . . فإن قيل: فما وجه دخول: «إن» بدل «إلا» في هذا الموضع . . . والعرب تقول: مالك أن لا تفعل، وإنما يقال: مالك لا تفعل . . . قيل: / «إن» وجد فيها لغتان صحيحتان، فالإثبات قوله سبحانه وتعالى: ﴿مَالِكٌ﴾ . . . «أن» . . . ﴿لَا تَكُونُ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾^(٢) . . . والحذف قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾^(٣) . . .

٨٣/أ

وقال الكسائي: معناه، ﴿وَمَا لَنَا﴾ . . . «أن» . . . ﴿لَا نُقَاتِلَ﴾ . . . فحذف . . .

وقال الفراء: وما يمنعنا أن: ﴿نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ . . . أي: إخراج من غلب عليهم من ديارهم، قظاهر الكلام:

(١) وردت القصة في تفسير النهر الماد من البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ج ١، ص ٢٤٤ . . .

(٢) سورة الحجر - الآية ٣٢، وتمامها: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ . . .

(٣) سورة الحديد - الآية ٨ . . .

العموم . . وباطنه : الخصوص . . لأن الذين قالوا : ﴿أُبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ . . كانوا في ديارهم وأوطانهم ، وإنما أخرج من أسر منهم ، ومعنى الآية : إنما كنا نزهد في الجهاد ، إنّا كنا ممنوعين في بلادنا ، لا يظهر علينا عدونا ، فأما إذا بلغ ذلك منا ، فنطيع ربنا في الجهاد ، ونمنع نساءنا وأولادنا . . .

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ . . وهم الذين عبروا النهر مع طالوت ، واقتصروا على الغرفة ^(١) . . ما سيأتي إن شاء الله تعالى . . والله أعلم . . .

وقال : قوله سبحانه وتعالى : ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ ^(٢) . . وذلك أن أشمويل قد سأل الله سبحانه وتعالى أن يبعث لهم ملكاً ، فأتى بعصا وقرن ، فيه دهن القدس ، وقيل له : إن صاحبكم الذي يكون ملكاً يكون طوله طول العصا ، وانظروا إلى هذا القرن الذي فيه الدهن ، فإذا دخل عليكم رجل فنبش الدهن في القرن ، فهو ملك بني إسرائيل ، فأدهن به رأسه / وأملكه عليكم . . وكان طالوت ، واسمه بالعربية شاول بن قيس ، من أولاد بنيامين بن يعقوب ، سمي طالوت لطوله ، وكان أطول من كل أحد برأسه ومنكبيه ، وكان رجلاً دباغاً للأديم . . .

وقال وهب والسدي : كان يسقي على حمارته من النيل ، فضل حماره ، فخرج في طلبه . . .

(١) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بَنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ . . . سورة البقرة - الآية ٢٤٩ . . . وقيل : لعل الحكمة في ذلك أنه خشي أنه لو أباح لهم الهجوم على النهر بعد عطش شديد ، وقع أكثرهم في النهر وأفرطوا في الشرب فتخور قواهم ويجبنوا عن لقاء عدوهم . . .

(٢) سورة البقرة - الآية ٢٤٧ . . .

وقال وهب: بل صلت حمر، لا بطالوت، فأرسل غلاماً له في طلبها، فمراً ببیت أشمويل.. فقال الغلام لطالوت: لو دخلنا على هذا النبي، فسألنا عن أمر الحمر ليرشدنا ويدعو لنا.. فدخلنا عليه، فبينما هما عنده يذكران له شأن الحمر، إذ نشق من الدهن الذي في القرن.. فقام أشمويل فقاس طالوت بالعصا، فكان على طولها.. فقال لطالوت: قرب رأسك.. فقربه.. فدهنه بدهن القدس، ثم قال له: أنت ملك بني إسرائيل الذي أمر الله سبحانه وتعالى به، أن يملكك عليهم، فقال: أو ما علمت أني أدنى سبطي أسباط بني إسرائيل، وبيتي أدنى بيوت بني إسرائيل..؟.. فقال: بلى.. فقال: فبأي آية أتيت..؟.. قال: بآية أنك ترجع وقد وجد أبوك الحمر.. فكان كذلك.. ثم قال لبني إسرائيل: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ﴾.. وإنما قالوا ذلك، لأنه كان في بني إسرائيل سبطان: سبط نبوة، وسبط ملوك.. فكان سبط النبوة: سبط لاوي بن يعقوب، ومنه كان موسى وهارون.. وكان سبط الملوك: سبط يهوذا بن يعقوب، ومنه كان داود وسليمان.. ولم يكن طالوت من أحدهما، وإنما كان من سبط بنيامين بن يعقوب.. هكذا قيل..

وقال: وكانوا قد عملوا ذنباً عظيماً، كانوا ينكحون النساء على ظهر الطريق نهاراً، فغضب الله تعالى عليهم، فنزع النبوة منهم، فكانوا يسمون: سبط الإثم، / فلما قال لهم نبأهم ذلك.. أنكروا الأمر، لأنه لم يكن من سبط المملكة، ومع ذلك فهو فقير: ﴿وَلَمْ يَأْتِ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾.. اختاره عليكم.. ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً﴾.. في العلم والحرب، والجسم بالطول.. وقيل: في الجسم بالجمال، وكان طالوت أجمل بني إسرائيل وأعلمهم.. ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكُهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(١).. قيل: الواسع ذو السعة، وهو الذي يعطي عن غنى، والعليم العالم، وقيل:

أ/٨٤

(١) سورة البقرة - الآية ٢٤٧...

العالم بما كان، والعليم بما يكون.. فقالوا له: فما آية ملكه...؟.. ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾ (١).. وكانت قصة التابوت، أن الله سبحانه وتعالى أنزل على آدم عليه السلام، تابوتاً فيه صور الأنبياء، وكان من عود الشَّمَار (٢)، وهو نحو من ثلاثة أذرع في ذراعين، فكان عند آدم عليه السلام إلى أن بلغ مات، ثم بعد ذلك عند شيث، ثم توارثها أولاد آدم عليه السلام، إلى أن بلغ إبراهيم عليه السلام، ثم كان عند إسماعيل عليه السلام، لأنه كان أكبر أولاده، ثم عند يعقوب عليه السلام، ثم كان في بني إسرائيل، إلى أن وصل إلى موسى عليه السلام، فكان موسى عليه السلام، يضع فيه التوراة ومتاعاً من متاعه، وكان عنده إلى أن مات موسى عليه السلام، ثم تناولته بنو إسرائيل إلى وقت أشمويل، وكان فيه ما ذكر الله سبحانه وتعالى.. / فيه سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ، واختلفوا في السكينة ما هي...؟..

ب/٨٤

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: كان فيه رمح من عاج له رأسان ووجه كوجه الإنسان...

وعن مجاهد: شيء يشبه الهرة، له رأس كرأس الهرة، وذنب كذنب الهرة، وله جناحان...

وقيل: له عينان لهما شعاع، وجناحان من زمرد وزبرجد...

فكانوا إذا سمعوا صوته يستبشرون بالنصر، وكانوا إذا خرجوا وضعوا التابوت قدامهم، فإذا سار ساروا، وإذا وقف وقفوا...

(١) سورة البقرة - الآية ٢٤٨...

(٢) الشمار: جنس من فصيلة الخيميات، تفوح منه رائحة زكية، أوراقه ناعمة، وسيقانه عارية مستديرة، وجهه له فوائد طبية...

وعن ابن عباس رضي الله عنه، قال: هي طشت من ذهب من الجنة،
كان يُغسل فيه قلوب الأنبياء...

وقال وهب بن منبه: هي روح من الله تعالى، تتكلم إذا اختلفوا في
شيء، تخبرهم ببيان من يريدون...

وقال عطاء بن أبي رباح: هي ما تعرفون من الآيات فتسكنون إليها...

وقال قتادة والكلبي: السكينة، فعيلة من السكون، أي: اطمأنيتم من
ربكم... ففي أي مكان كان فيه التابوت، اطمأنوا إليه وسكنوا...

قال: قوله تعالى: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾... يعني:
موسى وهارون أنفسهما... وكان فيه لوحان من التوراة، ورصاص الألواح التي
تكسرت، وكان فيه عصا موسى عليه السلام ونعلاه، وعمامة هارون وعصاه،
وقفير من المَن^(١) الذي كان ينزل على بني إسرائيل، وكان التابوت عند بني
إسرائيل، وكانوا إذا اختلفوا في شيء تكلموا، فحكم بينهم، وإذا حضروا
القتال قدموه بين أيديهم، فيستفتحون به على عدوهم، فلما عصوا وفسدوا،
سلط الله سبحانه وتعالى عليهم العمالقة، فغلبوهم على التابوت، وكان
السبب في ذلك أنه كان ليعلي الذي ربا أشمويل ابنان شابان، وكان عيلي
حبرهم وصاحب قربانهم، فأحدث ابنه في القربان شيئاً لم يكن فيه، وذلك
أنه كان مشوط القربان/ الذي كان يشوطونه بين كلابين، فما أخرجوا كان
للكاهن الذي يشوطه، فجعل أبناؤه كلابين، وكانت النساء يصلين في بيت
المقدس، فأوحى الله سبحانه وتعالى إلى أشمويل: انطلق إلى عيلي فقل له:
ما منعك حب الولد من أن تزجر ابنيك أن تحدثا في قرباني وقديسي، وأن
يعصيانني، فلا يرعى منكم الكهانة، ومن ولديك وأهلك وأباها... فأخبر
أشمويل عيلي بذلك، ففزع فزعاً شديداً، فسار إليهم عدو مَن حولهم، فأمر

١/٨٥

(١) المَن: هو مادة مائية تنعقد على بعض الأشجار عسلاً وتجف جفاف الصمغ، وهو المذكور في
القرآن الكريم - سورة البقرة - الآية ٥٧، سورة الأعراف - الآية ١٦٠، سورة طه - الآية ٨٠...

ابنيه أن يخرجوا بالناس، فيقاتلا ذلك العدو، فخرجوا وأخرجوا معهما التابوت، فلما تهيأوا للقتال، جعل عيلي يتوقع الخبر، فجاءه رجل وهو قاعد على كرسيه، فأخبره أن الناس قد انهزموا، وأن ابنيك قد قُتلا. . قال: فما فعل التابوت. .؟. . قال: ذهب به العدو. . فشقق ووقع على قفاه من على كرسيه، ومات. . فتفرق أمر بني إسرائيل إلى أن بعث الله تعالى طالوت ملكاً، فسأله لبينيه. . فقال لهم نبيهم: إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت، وكانت قصة التابوت أن الذين سلبوا التابوت أتوا به قرية من قرى فلسطين يقال لها: أذدود، وجعلوه في بيت صنم لهم، ووضعوه تحت الصنم الأعظم، فأصبحوا من الغداة، فرأوا الصنم تحته، فأخذوه ووضعوه فوقه، وسمروا قدمي الصنم على التابوت، فأصبحوا وقد قطعت يد الصنم وقدماه، وأصبح ملقى تحت التابوت، وأصبحت أصنامهم منكسة، فأخرجوه من بيت الصنم، ووضعوه في ناحية من مدينتهم، فأخذ أهل تلك الناحية/ وجع في أعناقهم حتى هلك أكثرهم، فقال بعضهم لبعض: أليس قد علمتم أن آل بني إسرائيل لا يقوم له شيء، فأخرجوه إلى الصحراء، فدفنوه في صخرات لهم. . فكان كل من برز هناك يأخذه السباسور والقولنج، فتحيروا. .

ب/٨٥

فقالت لهم امرأة كانت عندهم من سبي بني إسرائيل من أولاد الأنبياء: لا تزالون تردون ما تكرهون، ما دام هذا التابوت فيكم، فأخرجوه عنكم. . فأتوا بعجلة بمشورة تلك المرأة، وحملوا عليها التابوت، ثم علقوها على ثورين وضربوا جنوبهما، فأقبل الثوران يسيران، ووكل الله تعالى بهما أربعة من الملائكة يسوقونهما، فأقبلا حتى وقفا على بني إسرائيل، فكسرا نيرهما، وقطعا حبالهما، ووضعوا التابوت في أرض لبني إسرائيل، ورجعا إلى أرضهما، فلما رأى بني إسرائيل التابوت، كبروا وحمدوا الله تعالى، فذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾. . أي: تسوقه. .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: جاءت الملائكة بالتابوت تحمله بين السماء والأرض، ينظرون إليه حتى وضعته عند طالوت. .

وقال الحسن: كان التابوت مع الملائكة في السماء، فلما ولي طالوت، حملته الملائكة ووضعتة بينهم...

وقال قتادة: بل كان التابوت في التيه، خلفه موسى عليه السلام عند يوشع بن نون، فبقي هناك، فحملته الملائكة حتى وضعتة في دار طالوت، فأقروا بملكه: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾^(١)...

قال/ ابن عباس رضي الله عنهما: إن التابوت، وعصا موسى، في بحيرة طبرية وأنها يخرجان قبل يوم القيامة...

فلما فصل طالوت، أي: خرج بهم، وأصل الفصل: القطع.. يعني: قطع سفره شاخصاً إلى غيره.. فخرج طالوت من بيت المقدس بالجنود، وهم يومئذ سبعون ألف مقاتل. وقيل: ثمانون ألفاً.. لم يخلف منهم إلا كبير لهرمه، أو مريضاً لمرضه، أو معذوراً لعذره، وذلك أنهم لما رأوا التابوت لم يشكوا في النصر، فتسارعوا إلى الجهاد.. فقال طالوت: لا حاجة لي في كل ما أرى، لا يخرج معي بناءً لم يفرغ منها، ولا صاحب تجارة مشغل بها، ولا رجل عليه دين، ولا رجل تزوج امرأة ولم يبين بها، ولا يروح معي إلا الشاب النشيط الفارغ، فاجتمع ثمانون ألفاً في شرطه، وكان في حر شديد، فشكوا قلة الماء بينهم وبين عدوهم، وقالوا: إن المياه لا تحملنا، فادع الله أن يجري لنا نهراً.. فقال طالوت: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ﴾

قال ابن عباس رضي الله عنهما، والسدي: هو نهر فلسطين...
وقال قتادة: هو نهر بين الأردن وفلسطين^(٢)...

(١) سورة البقرة - الآية ٢٤٨...

(٢) انظر: تفسير النهر الماء من البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ج ١، ص ٢٤٥...

قال: ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ .. أي: ليس من ديني وطاعتي،
﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ﴾ .. لم يشرب منه، ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ .. أي: من أهل ديني
وطاعتي، ﴿إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ .. قرأ أهل الحجاز، وأبو عمرو:
غرفة بفتح العين .. وقرأ آخرون: بالضم، وهما لغتان ...

قال الكسائي: الغرفة بضم الغين، الذي يحصل في الكف من الماء
إذا غرف، والغرفة: الاغتراف، فالضم اسم، والفتح مصدر، ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ﴾
إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ .. نصب على الاستثناء، واختلفوا في القليل الذين لم
يشربوا ...

فقال السدي: كانوا أربعة آلاف ...

وقال غيره: ثلاثمائة وبضعة عشر، وهو الصحيح ...

قال: وكانوا عدد أصحاب محمد ﷺ، وقد تحدثوا أن أصحاب بدر
على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا النهر، ولم يجاوز معه إلا مؤمن،
ثلاثمائة وثلاثة عشر، فلما وصلوا إلى النهر، وقد أُلقي عليهم العطش،
فشرب منه الكل إلا هذا العدد القليل، فمن اغترف غرفة كما أمره الله تعالى،
قوي قلبه، وصح إيمانه، وعبر النهر سالماً، وكفته تلك الغرفة الواحدة:
لشربه وحمله ودوابه .. والذين شربوا وخالفوا أمر الله تعالى، اسودت
شفاههم، وغلبهم العطش، فلم يرووا، وبقوا على شط النهر، وجبنوا عن
لقاء العدو، فلم يجاوزوا، ولم يشهدوا الفتح .. وقيل: كلهم جاوزوا، ولكن
لم يحضروا القتال إلا القليل الذين لم يشربوا، فلما جاوزوا النهر، يعني:
طالوت والذين آمنوا معه .. يعني: القليل .. قالوا: يعني، الذين شربوا
وخالفوا أمر الله تعالى، وكانوا أهل شك ونفاق: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ
وَجُنُودِهِ﴾ ...

قال ابن عباس رضي الله عنهما: والسدي: فانحرفوا ولم يجاوزوا، ﴿قَالَ
الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ﴾ .. وهم الذين ثبتوا مع طالوت: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ

قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ . . . جماعة، وهي: جمع واحد له من لفظه، وجمعه: فئات وفئوت، في الرفع، وفئتين في النصب والخفض . . . ﴿قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ . . . بقضائه وإرادته، ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(١) . . . بالصبر والمعونة . . . ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا﴾ . . . يعني: طالوت وجنوده المؤمنين . . . ﴿لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ . . . / جنوده المشركين، ومعنى برزوا، صاروا بالبراز في الأرض، وهو ما ظهر واستوى، ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ أَقْدَامَنَا وَانصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾^(٢) . . .

قال: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾^(٣) . . .

قال: وصفة قتله، قال أهل التفسير: عبر النهر مع طالوت، فمنهم عبر بالجيش أبو داود في ثلاثة عشر ابناً له . . . وكان داود عليه السلام أصغرهم، وكان يرمي بالقذافة^(٤) . . . فقال لأبيه يوماً: ما أرى بقذافتي شيئاً إلا صرعته . . . فقال: أبشري يا بني، فإن الله تعالى جعل رزقك في قذافتك . . . ثم أتاه مرة أخرى، وقال: يا أبتاه، لقد دخلت بين الجبال، فوجدت أسداً راکضاً فركبته، فأخذت بأذنيه فلم يهجنني . . . فقال: أبشري يا بني، فإن الله تعالى يريد خيراً لك . . . ثم أتاه يوماً آخر فقال: يا أبتاه، إني لأمشي بين الجبال فأسبح، فما يبقى جبل إلا ويسبح معي . . . فقال: أبشري يا بني، فإن الله تعالى قد أعطاك خيراً . . .

قال: فأرسل جالوت إلى طالوت أن أبرز إليّ، وأبرز إليّ من يقابلني، فإن قتلني فلکم ملكي . . . وإن قتلته فلي ملککم . . . فشق ذلك على طالوت، فنأدى في عسكره: من قتل طالوت زوجته ابنتي، وناصفته ملكي، فهاب الناس ولم يجبه أحد . . . فسأل طالوت نبيهم أن يدعوا الله، فدعا الله في

(١) سورة البقرة - الآية ٢٤٩ . . .

(٢) سورة البقرة - الآية ٢٥٠ . . .

(٣) سورة البقرة - الآية ٢٥١ . . .

(٤) القذافة: كل ما يرمى به، يرمي الشيء إلى البعيد . . .

ذلك، فأُتي بقرن فيه دهن القدس، وتنور من حديد.. ف قيل: إن صاحبكم الذي يقتل جالوت، هو الذي يوضع القرن على رأسه، فيغلي / الدهن على رأسه، لأهبنه الإكليل، فيدخل في هذا التنور فيملأه ولا يتملك فيه.. فدعا طالوت بني إسرائيل، فجربهم، فلم يوافق أحداً منهم، فأوحى الله تعالى إلى نبيهم: أن في ولد إيشا من يقتل جالوت، فدعا إيشا.. فقال: اعرضن عليّ بنيك.. فأخرج إليه اثني عشر رجلاً، أمثال السواري، فجعل يعرضهم على القرن، فلا يرى شيئاً.. فقال لإيشا: هل بقي لك ولد غيرهم..؟.. فقال: لا.. فقال النبي: يا رب، إنه يزعم أنه لا ولد له غيرهم.. فقال: كذب.. فقال النبي: إن ربي كذبك.. فقال: صدق الله تعالى يا نبي الله، إن لي ابناً صغيراً يقال له داود، وقد استحيت أن تراه الناس لقصر قامته، فحملته على الغنم يرعاهما، وهو في شُعب كذا.. وكان داود عليه السلام مصفراً أزرق العينين، فخرج طالوت إليه، فوجده في الوادي، وكان يحمل شاتين شاتين يعبر بهما النهر ولا يخوض بهما الماء.. فقال: هذا لا شك هو، هذا يرحم البهائم، فهو بالناس أرحم.. فدعاه، ووضع القرن على رأسه، ففاض.. فقال له طالوت: هل لك أن تقتل جالوت وأزوجك ابنتي، وأجري خاتمك في ملكي.. قال: نعم.. قال: وهل في نفسك شيءٌ تتقوى به على قتله..؟.. قال: نعم، أنا راعي، فيجيء الأسد، أو النمر، أو الذئب، فيأخذ شاة، فأقوم إليه، فافتح لحييه عنها..

قال: فمرّ داود عليه السلام بحجر، فناده: يا داود، احملني فإني حجر هارون الذي قتل بي ملك كذا وكذا، فحمله في مخلاته، ثم مرّ بحجر آخر، فقال: احملني فأنا حجرك الذي / تقتل به جالوت، فوضعه في مخلاته، فلما تصافوا للقتال، وبرز جالوت وسأل المبارزة، فانتدب إليه داود عليه السلام، فأعطاه طالوت فرساً ورمحاً وذراعاً وسلاحاً، فلبس السلاح، وركب الفرس، ثم انصرف إلى الملك، فقال من حوله: خاف الغلام، فجاء فوقف على الملك.. فقال: ما شأنك.. فقال: إذا الله لم ينصرن، فلم يغن عني هذا

السلاح شيئاً، فدعني أقاتل كما أريد.. فقال: نعم.. فأخذ داود عليه السلام مخلاته، فتقلدها، وأخذ المقلع، ومضى نحو جالوت، وكان جالوت من أشد الناس وأقواهم، كان يهزم الجيش وحده، وكان له بيضة فيها ثلاثمائة رطل حديد.. فلما نظر في داود عليه السلام، ألقى في قلبه الرعب.. فقال له: أنت تبرز إليّ؟.. قال: نعم.. وكان جالوت على فرس أبلق، عليه السلاح التام.. قال: فأتيتني بالمقلع والحجر كما يؤتى الكلب..؟!.. قال: نعم، أنت أشر من الكلب.. قال: لأجرمنك ولأقسمن لحملك بين السباع وطير السماء.. قال داود عليه السلام: ويقسم الله تعالى لحملك..

قال: ثم قال داود عليه السلام: بسم الله، إله إبراهيم، وأخرج حجراً وقال: بسم الله، رب إسحاق، ووضعه في مقلعه، ثم أخرج الثالث وقال: بسم الله إله يعقوب، ووضعه في مقلعه، فصارت كلها حجراً واحداً، ودور المقلع، فسخر الله سبحانه وتعالى الريح حتى أصاب الحجر أنفه البيضاء، فخلط دماغه، وخرج من قفاه، وقتل من ورائه ثلاثين رجلاً، وهزم الله تعالى الجيش، وخر جالوت قتيلاً، فخرج وجره حتى ألقاه بين يدي طالوت، ففرح المؤمنون فرحاً شديداً، وانصرفوا إلى المدينة سالمين غانمين، والناس يذكرون داود عليه السلام، فجاء/ داود عليه السلام إلى طالوت، وقال: انجز لي ما وعدتني.. فقال: أتريد ابنة الملك بغير صداق.. فقال داود عليه السلام: ما شرطت عليّ صداقاً، وليس لي شيء.. فقال: لا أكلفك إلا ما تطيق، أنت جريء، وفي جبالنا أعداؤنا، فإذا قتلت منهم مئتي رجل، وجئتني بهم زوجتك ابنتي.. فأتاهم فجعل كلما قتل واحداً منهم، نظم غلفته في خيط، حتى نظم غلفهم، فجاء بها إلى طالوت، فألقى إليه. وقال: ادفع لي امرأتي.. فزوجه ابنته وأجرى خاتمه في ملكه، فمال الناس إلى داود عليه السلام، فأحبوه وأكثروا ذكره، فحسده طالوت وأراد قتله.. فأخبر بذلك ابنة طالوت، رجل يقال له ذو العينين.. فقالت لداود عليه السلام: إنك لمقتول الليلة.. قال: ومن يقتلني؟.. قالت: أبي.. قال:

ب/٨٨

وهل جرمت جنماً؟.. قالت: حدثني من لا يكذب، وما عليك إلا أن تغيب الليلة حتى ننظر مصداق ذلك.. فقال: لأن كان الله سبحانه وتعالى قد أراد ذلك، فلا أستطيع خروجاً، ولكن.. آتني بزق.. فأتت به، فوضعه في مضجعه على السرير، وسجاء، ودخل تحت السرير.. فدخل طالوت في منتصف الليل، فقال لها: أين بعلك؟.. قالت: هو نائم على السرير، فضربه بالسيف ضربة فسال الخمر، فلما وجد ريح الشراب، قال: يرحم الله تعالى داود عليه السلام ما أكثر شربه الخمر، وخرج - فلما أصبح علم أنه لم يتمكن أن يفعل شيئاً..

ثم إن داود عليه السلام أتاه ليلة وقد هدأت العيون، فأعمى الله سبحانه وتعالى الحجة عنه، وفتح له الأبواب، / فدخل عليه وهو نائم على فراشه، فوضع سهماً عند رأسه، وسهماً عند قدميه، وسهماً عند شماله، وسهماً عند يمينه، ثم خرج.. فلما استيقظ طالوت، نظر إلى السهام فعرفها، فقال: يرحم الله تعالى داود عليه السلام، وهو خبر: ظفرت به فقصدت قتله، وظفر بي فكف عني، ولو شاء لوضع هذا السهم في حلقي، وما أنا بالذي آمنه..

فلما كانت الليلة القابلة، أتاه تائباً، وقد أعمى الله سبحانه وتعالى عنه الحجاب، فدخل عليه بالحجاب وهو نائم، فأخذ إبريق طالوت الذي يتوضأ به، وكوزه الذي يشرب منه، وقطع شعيرات من لحيته، وشيئاً من هذب ثيابه، ثم خرج وتوارى.. فلما أصبح طالوت ورأى ذلك، سلط على داود عليه السلام العيون، وطلبه أشد الطلب، فلم يقدر عليه..

ثم إن طالوت ركب يوماً، فوجد داود عليه السلام يمشي في البرية، فقال: اليوم اقتله، فركض على أثره، فاشتد داود عليه السلام، وكان إذا فزع لم يُدرك، فدخل غاراً، فأوحى الله سبحانه وتعالى إلى العنكبوت، فنسجت عليه بيتاً، فلما أتى طالوت إلى الغار، ونظر إلى بناء العنكبوت، فتركه ومضى، فانطلق داود عليه السلام إلى الجبل مع المتعبدين، فتعبد فيه، وطعن العلماء والعباد على طالوت في شأن داود عليه السلام، فجعل طالوت

لا ينهيه أحد عن قتل داود عليه السلام إلا قتله، وأغري بقتل العلماء، ولم يقدر على عالم من بني إسرائيل يطيق قتله إلا قتله، حتى أتى بامرأة تعلم الاسم الأعظم، فأمر خبازه بقتلها، فرحمها الخباز، وقال: لعلنا نحتاج إلى عالم، فتركها...

قال: فوقع في قلب طالوت التوبة، وندم على ما فعل، وأقبل على البكاء حتى رحمه الناس، وكان كل ليلة يخرج / إلى القبور، وينادي: أنشد الله عبداً يعلم أن لي توبة إلا أخبرني بها.. فلما كثر عليه، ناداه مناد من القبور: أما ترضى أن تقتلنا حتى تؤذينا أمواتاً.. فازدادوا في مناداته، وازداد بكاء وحزناً.. فرحمه الخباز، فقال: مالك أيها الملك..؟.. فقال: هل تعلم عالماً في الأرض أسأله هل لي من توبة..؟.. فقال له الخباز: إنما مثلك مثل ملك نزل قرية، فصاح الديك، فتطير منه^(١)، فقال: لا تتركوا في القرية ديكاً إلا ذبحتموه.. فلما أراد أن ينام، قال لأصحابه: إذا صاح الديك فأيقظوني.. فقالوا له: وهل تركت ديكاً نسمع صوته.. وهل تركت عالماً في الأرض.. فازداد حزناً وبكاءً.. فلما رأى الخباز ذلك منه، قال له: إن دلتك على عالم لعلك تقتله.. قال: لا.. فوثق منه الخباز، وأخبره أن المرأة العالمة عنده.. قال: فانطلق بي إليها فأسألها، وهي تقول لك هل لي من توبة.. فكانت تعلم الاسم الأعظم، ومن أهل بيت إذ فئت رجالهم وغلبت نسائهم.. فلما بلغ طالوت الباب.. قال الخباز: أيها الملك، إنها إذا رأتك فرعت.. فخلفه خلفه، ثم دخل عليها، فقال لها: ألسنت أعظم الناس منة عليك، أنجيتك من القتل.. قالت: بلى.. قال: فإن لي إليك حاجة، هذا طالوت يسأل: هل له من توبة..؟.. فغشي عليها من الخوف.. فقال لها: إنه لا يريد قتلك، ولكن يسأل هل له من توبة..؟.. قالت: لا والله لا أعلم لطالوت من توبة، ولكن.. هل تعلمون قبر نبي.. فانطلق به إلى قبر أشمويل، فصلت ودعت، ثم نادى: يا صاحب القبر.. فخرج أشمويل من

ب/٨٩

(١) تَطَيَّرَ: تشاءم...

القبر، ونفض التراب من على رأسه، / فلما نظر إليهم، نكثهم.. قال: قامت القيامة.. قالت: لا، ولكن طالوت يسأل هل له من نوبة..؟.. قال: يا طالوت، ما فعلت بعدي..؟.. قال: لم أدع شيئاً من الشر إلا فعلته، وجئت أطلب التوبة.. قال: كم لك من الولد..؟.. قال: عشرة رجال.. قال: ما أعلم لك من التوبة إلا أن تتخلى عن ملكك، وتخرج أنت وأولادك في سبيل الله تعالى، ثم تقدم أولادك حتى يقتلوا بين يديك، ثم تقاتل أنت حتى تقتل آخرهم.. ثم رجع أشمويل إلى القبر وسقط ميتاً.. ورجع طالوت أحزن ما كان رهبة، وقد بكى حتى اهترأت أشفار عينيه، ونحل جسمه، فدخل عليه أولاده، فقال لهم: رأيتم لو دفعتم إلى وجهكم، ودُفعت أنا إلى النار، أكنتم تنقذونني..؟.. قالوا: نعم ننقذك بما قدرنا عليه.. قال: فإنها النار إن لم تفعلوا ما أقول لكم.. قالوا: فأعرض علينا.. فذكر لهم القصة.. فقالوا: وإنك لمقتول..؟.. قال: نعم.. فقالوا: فلا خير لنا في الحياة بعدك، وقد طابت أنفسنا بالذي سألت، فتجهز عياله وأولاده، وكانوا عشرة، فقاتلوا بين يديه حتى قتلوا، ثم شدَّ هو بعدهم حتى قُتل، فجاء قاتلوه إلى داود عليه السلام يبشروه.. فقال: قتلت عدوك.. فقال: ما أنت بالذي تحيا بعده.. فضرب عنقه.. فكان ملك طالوت إلى أن قُتل، أربعين سنة، وإلى بني إسرائيل بداود عليه السلام، أعطوه خزائن طالوت وملكوه على أنفسهم..

قال الكلبي والضحاك: ملك داود عليه السلام بعد قتل طالوت سبعين سنة، ولم يجتمع بنو إسرائيل على ملك واحد إلا على داود عليه السلام، فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ﴾^(١).. يعني: النبوة، وجمع الله تعالى لداود عليه السلام بين الملك والنبوة، ولم يكن من قبل، كان الملك في سبط، والنبوة في سبط، وقيل: الملك والحكمة هو العلم مع العمل...

* * *

(١) سورة البقرة - الآية ٢٥١...

قصة حمالة الحطب

٦٣ - حَمَالَةُ الحَظْبِ الَّتِي أُودَّتْ أَبِي لَهَبٍ بِلَاهِبِ

أما قصة أبي لهب / فإن الله سبحانه وتعالى لما أنزل على رسول الله ﷺ قوله تعالى : ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(١) . . .

٩٠/ب

عن ابن عباس رضي الله عنه، قال : صعد رسول الله ﷺ ذات يوم على الصفا، ثم قال : يا صباحاه.. فاجتمعت إليه قريش، وقالوا له : ما لك..؟.. قال : لو أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم ما كنتم تصدقوني..؟.. قالوا : بلى.. قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد.. فقال أبو لهب : تباً لك، ألهذا دعوتنا جميعاً.. فأنزل الله سبحانه وتعالى : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾^(٢) . . .

وعن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس رضي الله عنه، قال : لما أنزل الله سبحانه وتعالى : ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾.. أتى رسول الله ﷺ الصفا، فصعد عليه، ثم نادى : يا صباحاه.. فاجتمع إليه الناس من بين رجل يجيء،

(١) سورة الشعراء - الآية ٢١٤ . . .

(٢) سورة المسد - الآية ١، وتمام السورة الكريمة ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ، مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ، سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ، وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ، فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾.. وانظر : أسباب النزول - للواحي ص ٣٧٨ و ٣٧٩ . . .

ورجل يبعث رسوله . . فقال: يا بني عبد المطلب، يا بني فهر، يا بني لؤي، لو رأيتم أني أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم، صدقتموني . . قالوا: نعم . . قال: فإنني نذير لكم بين يدي عذاب شديد . . فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم، أذعوتنا لهذا . . فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ . . .

وبالإسناد عن رسول الله ﷺ، أنه صعد على الصفا، وقال: هلم يا عبد مناف، هلم يا قريش . . ثم قال: يا صفية بنت عبد المطلب، / يا فاطمة بنت محمد، ويا عمي، إني لا أغني عنكم من الله شيئاً . . ثم قال: يا بني هاشم، يا بني عبد المطلب، يا بني فهر، رأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد الإغارة عليكم . . وقال آخرون: العدو مصبحكم أو ممسيكم، أكنتم تصدقوني . . قالوا: نعم . . قال: فإنني نذير لكم بين يدي عذاب شديد . . فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم، ما دعوتنا إلا لهذا . . فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ . . .

قال: وكانت تطرح الشوك في طريق رسول الله ﷺ، وتمشي بالنميمة بين الناس، وتوقع بينهم العداوة، وكانت تحتطب، فلما نزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ . . . جاءت امرأته وهي تفتش عن النبي ﷺ، وفي يدها حجر عظيم، تقول: لئن لقيت محمداً لأشجن وجهه بهذا الحجر، بين الصفا والمروة، وإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر الصديق رضي الله عنه . . فقالت: يا أبا بكر، أين صاحبك . . ؟ . . قال: ما شأنك . . ؟ . . قالت: بلغني أنه هجاني، والله، لئن لقيته لأشجن وجهه بهذا الحجر . . فقال: والله ما هجاك، ولا والله ما يحسن بعمل الشعر، وليس هو والله بشاعر . . فألقت الحجر وراحت . . فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله، هل رأيته . . ؟ . . نعم، ألا إن الله أنزل ملكاً فحال بيني وبينها . . .

قال: وإن أبا لهب بعد غزوة بدر بسبعة أيام، طلع فيه عدسة فقتله، لا رحمة الله عليه . . .

قصة أبو طالب

٦٤- مِنْ خَوْفِهِ مِنْهُنَّ مَاتَ بِكُفْرِهِ وَالشِّرْكَ طَالِبُ
قوله سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾^(١) . . قال : لما
حضرت أبا طالب الوفاة ، جاءه رسول الله ﷺ ، فوجد عنده أبا جهل ،
وعبد الله بن أبي أمية . . فقال رسول الله ﷺ : يا عمي ، قل : لا إله إلا الله ،
كلمة أحاج لك بها عند الله سبحانه وتعالى . . فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي
أمية : أترغب عن ملة عبد المطلب . . ؟ . . فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها
عليه ، ويعاودانه بتلك المقالة ، / حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم به : أنا
على ملة عبد المطلب . . وأبى أن يقول : لا إله إلا الله . . فقال رسول
الله ﷺ : والله لأستغفرن لك ما لم أنه عن ذلك . . فأنزل الله سبحانه وتعالى :
﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي
قُرْبَىٰ﴾^(٢) . . وأنزل الله سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ
اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ . . .

ب/٩١

قال : حدثنا أبو حازم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أنه قال : قال
رسول الله ﷺ لعمه : قل : لا إله إلا الله ، أشهد لك بها يوم القيامة . . قال :

(١) سورة القصص - الآية ٥٦ . . .

(٢) سورة التوبة - الآية ١١٣ . . .

لولا أن تعيرني نساء قريش، يقلن أنه حملة على ذلك الجزع، لأقررت بها عينيك.. فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾... الآية^(١)...

وأجمع المفسرون أن هذه الآية نزلت في أبي طالب، وكان رسول الله ﷺ يُطلب منه من طعام الجنة، لعله أن يبرأ أبو طالب من مرضه، فجاءه رسول الله ﷺ، فقال: عمك يناشدك من طعام الجنة التي تذكرها له لعله يهدي.. وكان عند رسول الله ﷺ، أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فقال أبو بكر: إن الله حرمها على الكافرين.. فقال: ارجع إليه.. فرجع إليه، فقال رسول الله ﷺ: إن الله حرمها على الكافرين.. فلما ثقل في مرضه الذي مات فيه، طمع رسول الله ﷺ في إسلامه، فقام ليعوده ويدعوه إلى الإسلام، فلما دخل عليه، قال: يا عم، قل معي كلمة أحاج بها لك عند الله.. قال: أخاف من نساء قريش يعيرونني، ويقلن إنه حملة على ذلك الجزع، / لأقر بها عينك.. فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾...

١/٩٢

قال: ذكر خوفه من النساء، ولم يذكر خوفه من الرجال.. ثم عاوده مرة ثانية عليه الصلاة والسلام.. فقال أبو جهل، وعبد الله بن أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب.. فلم يزالا يكلمانه، حتى قال آخر شيء كلمهم: أنا على ملة عبد المطلب، وفارق الدنيا.. فقام من عنده ﷺ، وقال: والله لأستغفرن لك إلا أن ينهاني الله عن ذلك.. فلما رآه المسلمون يستغفر لعمه، وإبراهيم لأبيه، فقالوا: نحن نستغفر لأبائنا الذين ماتوا على الكفر.. فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا

(١) انظر: البخاري في التفسير/ القصص، باب: إنك لا تهدي من أحببت برقم / ٤٤٩٤، ومسلم في الإسلام، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت، برقم / ٢٤ و ٢٥...

لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ،
وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ
عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١﴾ . . فأمسك رسول الله ﷺ عن
ذلك ، وانتهى المسلمون عن استغفارهم لأبائهم ﴿٢﴾ . . .

* * *

(١) سورة القصص - الآية ١١٣ و ١١٤ . . .

(٢) انظر: أسباب النزول - للواحدي . . سورة القصص ص ٢٨١ و ٢٨٢ ، وسورة التوبة - ٢٢١
و ٢٢٢ و ٢٢٣ . . .

قصة إنا زوجناك

٦٥ - وَكَذَا النَّبِيُّ الْمُصْطَفَى خَيْرُ الْأَعَاجِمِ وَالْأَعَارِبِ
٦٦ - فِيهِمْ عَاتِبُهُ الَّذِي خَلَقَ الْمَشَارِقَ وَالْمَغَارِبَ

قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا﴾^(١)... الآية.. نزلت في عبد الله بن جحش، وأخته زينب، وكان ابن عم النبي ﷺ، وخطب النبي ﷺ زينب لزيد بن حارثة، مولاه، وهي تظن أنه يخطبها النبي ﷺ لنفسه، ولما علمت أنه ﷺ / يخطبها لزيد، كرهت ذلك، وكذلك أخوها، فلما نزلت الآية، رضىا وسلما، فزوجها رسول الله ﷺ من زيد، فمكثت عنده حيناً، ثم إن النبي ﷺ أتى زيدا، فأبصرها قائمة، وكانت بيضاء جميلة سمينة، من أتم نساء قريش، فوقع في قلبه، فقال: «سبحان الله مقلب القلوب». وفطن زيد، فقال: يا رسول الله، ائذن لي في طلاقها، فإن فيها كبراً وتؤذي بلسانها.. فقال: «أمسك عليك زوجتك وإتق الله»...

قال: وكان قد أتاه النبي ﷺ، فأبصرها قائمة، فقال: «سبحان الله مقلب القلوب». وانصرف.. فلما جاء زيد، ذكرت له، فظن زيد وكهرت

(١) سورة الأحزاب - الآية ٣٦، وتمامها: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾...

إليه في الوقت، فأراد فراقها، فأتى رسول الله ﷺ، فقال: إني أريد أن أفارق صاحبتى.. فقال ﷺ: «ما لي أرى بك منها شيء». قال: والله يا رسول الله، ما رأيت منها إلا خيراً، ولكن.. تتعظم عليّ بشرفها وتؤذيني بلسانها...

قال: وتخفي في نفسك ما الله مبديه إن لو فارقها تزوجها، فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾^(١).. إن أعتقته من الرق، وكان زيد من سبي الجاهلية، وأعتقه وتبناه.. ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾.. في أمرها، فلا تطلقها.. ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ﴾.. تسر وتضمّر في قلبك من إرادة تزويجها.. ﴿وَاللَّهُ مُبْدِيهِ﴾.. والله مظهره لأصحابك...

قال: والمعنى: أن رسول الله ﷺ أحبها، وأراد تزويجها، وأمر زيد بإمساكها، وفي قلبه خلاف ذلك، فأظهر الله تعالى عليه ما أخفاه، بأن طلقها وزوجها منه، فأنزل الله عز وجل ذلك في القرآن...

/ولهذا قال ابن مسعود عن عائشة رضي الله عنها: ما نزل على النبي ﷺ أشد من هذه الآية...

أ/٩٣

وبالإسناد عن مسروق، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: لو كنتم رسول الله ﷺ شيئاً من الوحي، لكنتم هذه الآية...

قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ﴾.. تخاف لائمهم أن يقولوا: أمر رجلاً بطلاق امرأته، ثم نكحها، وذلك أنه كان يريد أن يطلقها من حيث ميل القلب، ولكن خاف مقالة الناس...

وقال ابن عباس رضي الله عنه: خشي أن يقولوا عن اليهود: أنه تزوج امرأة ابنه. ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾.. أي: هو أولى بأن يخشى في كل الأحوال وجميع الأمور...

(١) سورة الأحزاب - الآية ٣٧...

وروي عن علي بن الحسين أنه قال: كان الله عز وجل قد أعلم نبيه ﷺ أن زينب رضي الله عنها ستكون زوجته، وأن زيدا سيطلقها.. وعلى هذا يجوز أن يكون النبي ﷺ معاتباً على قوله: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾.. مع علمه بأنها ستكون زوجته، وكتمانه ما أخبرنا الله سبحانه وتعالى به، وإنما كتم النبي ﷺ ذلك لأنه استحيا أن يقول لزيد: زوجتك ستكون امرأتي.. ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا﴾.. معنى: قضى الوطري في اللعنة: بلوغ ما انتهى ما في النفس من الشيء.. يقال: قضى وطراً إذا بلغ ما أراد من حاجته، ومنه قول عمرو بن أبي ربيعة:

أيها الرابع المجد ابتكارا قد قضى من تهامة الأوطارا

أي: فرغ من أعمال الحج، وبلغ ما أراد منه، ثم صار عبارة عن الطلاق...

وروي ثابت عن أنس رضي الله عنه، قال: لما انقضت عدة زينب رضي الله عنها، قال النبي ﷺ لزيد: اذهب فاذكرها لي.. فانطلقت، فقلت: يا زينب، أبشري، أرسلني نبي الله ﷺ يذكرك... ونزل القرآن، وجاء رسول الله ﷺ حتى دخل عليها بغير إذن، لقوله تعالى: / ﴿زَوَّجْنَاهَا﴾.. وهذا يدل ٩٣/ب على أن كل امرأة أراد رسول الله ﷺ نكاحها، فهو مستغن عن الولي والشهود، وكانت زينب رضي الله عنها تفاخر نساء النبي ﷺ، فتقول: زوجكن أهاليكن، وزوجني الله عز وجل.. وأولم عليها ﷺ بخبز ولحم.. وكانت تقول: زوجني الله من السماء، قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١).. قال المفسرون: إن رسول الله ﷺ قسم الأيام بين نسائه، فلما كان يوم حفصة رضي الله عنها، قالت: يا رسول الله، إن لي حاجة عند أبي، فأذن لي أن أزوره وآتي بها.. فأذن لها، فلما خرجت أرسل رسول الله ﷺ إلى جاريتها

(١) سورة التحريم - الآية ١...

مارية القبطية، فأدخلها بيت حفصة، فوقع عليها، فأنت حفصة رضي الله عنها، فوجدت الباب مغلقاً، فجلست عند الباب، فخرج النبي ﷺ ووجهه يقطر عرقاً، وحفصة رضي الله عنها تبكي.. فقال: ما يبكيك..؟.. قالت: إنما أذنت لي من أجل هذا، أدخلت أمتك بيتي، ووقعت عليها في يومي وعلى فراشي، أما رأيت لي حرمة وحقاً، ما كنت تصنع بامرأة منهن.. فقال النبي ﷺ: هي جاريتي قد أحلها الله لي.. اسكتي، فهي حرام علي، التمس فيها رضاك، فلا تخبري بذلك امرأة منهن، هو عندك أمانة، فلما رجع رسول الله ﷺ، فرقت حفصة رضي الله عنها إلى الجدار الذي بينها وبين عائشة رضي الله عنها، فقالت: ألا أبشرك أن رسول الله ﷺ قد حرم عليه أمته مارية القبطية، وقد أراحنا الله تعالى منها، وأخبرت عائشة رضي الله عنها بما رأت، وكانتا متصافيتين متظاهرتين على سائر أزواج النبي ﷺ، فغضبت عائشة رضي الله عنها، فلم تزل بنبي الله ﷺ حتى حلف النبي ﷺ أنه لا يقربها، فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ (١)...

أ/٩٤

وقال عكرمة: نزلت في المرأة التي وهبت / نفسها إلى النبي ﷺ، ويقال لها: أم شريك، فأبى النبي ﷺ، أن يقبلها لأجل أزواجه.. ﴿تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.. وأسر إليها أن لا تعلمي عائشة، فإن أباك وأبا عائشة، يكون خليفتين على أمتي بعدي.. فلما غضب عليها، قال: لأجازينك عليه.. قالوا: جازاها رسول الله ﷺ بأن طلقها، فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه، فقال: لو كان في آل الخطاب خير لما طلقها رسول الله ﷺ، فجاءه جبريل عليه السلام وأمره بمراجعتها...

(١) انظر: أسباب النزول - للواحي ص ٣٥٧ و ٣٥٨...

وقال مقاتل: لم يطلق النبي ﷺ حفصة رضي الله عنها، وإنما قد همّ بطلاقها، فأتاه جبريل عليه السلام، فقال: لا تطلقها، فإنها صوامة، قوامة، وإنها في نسائك في الجنة، فلم يطلقها^(١)...

* * *

(١) رواه أبو داود برقم /٢٢٨٣/، وابن ماجه برقم /٢٠١٦/، والنسائي برقم /٦- ٢١١/، وقال: إسناده صحيح، وانظر: طبقات ابن سعد ٨/٨٤، ومجمع الزوائد ٩/٢٤٤، وقال: رواه الطبراني في الأوسط، وانظر: تاريخ ابن عساكر - السيرة النبوية ص ١٦٩، عن أنس بن مالك رضي الله عنه...

ذكر أزواجه ﷺ

روي عنه ﷺ أنه تزوج بستة عشر امرأة، ستاً منهن من قريش:

- - خديجة بنت خويلد . . .
- - عائشة بنت أبي بكر الصديق . . .
- - حفصة بنت عمر بن الخطاب . . .
- - أم سلمة بنت أبي أمية . . .
- - أم حبيبة بنت أبي سفيان . . .
- - سودة بنت زمعة . . .

وثلاث من بني عامر بن صعصعة، وامرأة من بني هلال، وميمونة بنت الحارث، وهي التي وهبت نفسها للنبي ﷺ، وزينب أم المساكين، وامرأة من بني كلاب، والقرطبا وهي التي اختارت الدنيا، وامرأة من بني الجون من كندة، وهي التي استعادت منه، وزينب بنت حجر الأسدية، وصفية بنت حيي بن أخطب، وجويرية بنت الحارث بن عمرو بن المصطلق الخزاعية . . .

وقال: أخبرت عن [قتادة بن دعامة]^(١) أن رسول الله ﷺ تزوج خمس عشرة امرأة، ودخل بثلاث عشرة، وجمع/بين إحدى عشرة، وتوفي عن

ب/٩٤

(١) ساقطة في الأصل وإثباتها يقتضي السياق لإتمام المعنى . . .

تسع . . قال : وتزوج في الجاهلية وهو ابن بضع وعشرين سنة ، من خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى ، وأمها فاطمة بنت زائدة بن الأصم بن رواحة بن حजर بن معيص بن عامر بن لؤي . . وهي أول من تزوج ، فولد لرسول الله ﷺ سبعة : القاسم ، والطيب ، والطاهر ، وزينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة . . وأما إبراهيم فإنه من مارية القبطية . . فأما الذكور فماتوا صغاراً ، وأما النساء فبلغن ، ونكحن ، وولدن ، وأن خديجة توفيت قبل مخرج رسول الله ﷺ من مكة بثلاث سنين ، وتزوج بعائشة وهي بنت ست سنين ، ثم إن رسول الله ﷺ سافر بعائشة بعدما قدم المدينة وهي يومئذ بنت تسع سنين ، ومات عنها ولها ثماني عشرة سنة ، ولم يتزوج النبي ﷺ بكرةً غيرها ، وكانت في أرغد عيش عند رسول الله ﷺ من نسائه . .

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجَكُمْ إِن كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً ، وَإِن كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً ﴾ (١) . . .

قال المفسرون : كان النبي ﷺ قد سألته شيئاً من عرض الدنيا ، وفي زيادة النفقة ، فهجرهن رسول الله ﷺ ، على أن لا يقربهن شهراً ، ولم يخرج إلى أصحابه ﷺ . . فقالوا : ما شأنه . . ؟ . . فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إن شئتم لأعلمن لكم ما شأنه . . فأتى النبي ﷺ ، فجعل يتكلم ويرفع صوته ، حتى أذن له . . قال : فجعلت أقول في نفسي ، أي شيء أكلم به رسول الله ﷺ لعله ينبسط ، فقلت له : يا رسول الله ، لو رأيت فلانة - يعني زوجته - وسألتنى النفقة ، فصكتها / صكة . قال : فأتى حفصة ابنته ، فقال : لا تسألي رسول الله ﷺ شيئاً ، فما كان لك من حاجة فيالي . . ثم تتبع نساء النبي ﷺ ، فجعل يكلمهن ، فقال لعائشة رضي الله عنها ، يقول : إنك امرأة حسناء ، وأن زوجك محب لك ، لتنتهين أو ينزل فيك القرآن . . فقالت أم سلمة رضي الله عنها : يا ابن الخطاب ، أو ما بقي لك إلا ما تدخل بين رسول

١/٩٥

(١) سورة الأحزاب - الآية ٢٨ و ٢٩ . . .

الله ﷺ وبين نسائه، ما تسأل المرأة إلا زوجها. . . فأنزل الله سبحانه وتعالى هذه الآية. . .

قال: فلما نزلت آية التخيير، بدأ رسول الله ﷺ بعائشة، وكانت أحبهن إليه، فخيرها، وقرأ عليها القرآن الكريم. . . فقالت: اخترت الله، ورسوله، والدار الآخرة. . . فربى الفرح في وجهه. . . وتابعها على ذلك سائر نساء النبي ﷺ. . .

قال قتادة: فلما اختارت رسول الله ﷺ، شكرهن الله سبحانه وتعالى على ذلك، ونصره عليهن، قال: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾^(١). . . الآية. . .

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت له: مضى تسعة وعشرون يوماً، فدخل رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، إنك أقسمت لا تدخل علينا شهراً، وأنت دخلت عليّ من تسع وعشرين. . . فقال: إن الشهر تسع وعشرون يوماً. . . ثم قال: يا عائشة، إني ذاكرك أمراً، فلا عليك أن لا تعجلي فيه حتى تعاودي أبويك. . . قالت: نعم. . . ثم قرأ الآية حتى بلغ: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾^(٢). . . قالت عائشة رضي الله عنها: قد علم والله أن أبوي لم يكونا يأمران بفراقك. . . قالت: أفي هذا أستاذن أبي، فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة. . .

قال معمر: فحدثني أيوب، عن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: لا تخبر أزواجك أني اخترتك. . . فقال النبي ﷺ: «إنما بعثني الله مبلغاً، ولم يبعثني متعنناً» . . .

(١) سورة الأحزاب - الآية ٥٢، وتمامها: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾. . . وأخرج ابن سعد عن عكرمة قال: خير رسول الله ﷺ أزواجه فاخترن الله ورسوله. . .

(٢) سورة الأحزاب - الآية ٢٨ و٢٩: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا =

واختلف العلماء في ذكر التخيير، فقال عمرو بن مسعود: إذا خير الرجل / امرأته، فاختارت زوجها، فلا شيء عليها، وإن اختارت نفسها ب/٩٥ فواحدة، وهو أحق بها. . وإليه ذهب أبو حنيفة وأصحابه. . .

وقال زيد بن ثابت: إن اختارت زوجها فواحدة، وإن اختارت نفسها فثلاثاً، وإلى هذا ذهب مالك. . .

وقال الشافعي: إن نوى الطلاق في التخيير كان طلاقاً، وإلا فلا. . .
وأما تزويجه ﷺ بصفية بنت حيي، لما فتح رسول الله ﷺ القمص حصن ابن أبي الحقيق، أتى رسول الله ﷺ بصفية ابنة حيي بن أخطب، وبأخرى معها، فلما رأتهم التي مع صفية، صاحت وصكت وجهها، وحشت التراب على رأسها، فلما رآها رسول الله ﷺ، قال: أغربوا عني هذه الشيطانة. . وأمر بصفية، فسيرت خلفه، وألقى عليها رداءه، فعرف المسلمون أن رسول الله ﷺ أرادها لنفسه، وكانت صفية رضي الله عنها قد رأت في المنام وهي عروس بكنانة بن الربيع، أن قمراً وقع في حجرها، فعرضت رؤياها على زوجها. . فقال لها: ما هذا إلا أنك تتمنين ملك الحجاز محمداً. . فلطم وجهها لكمة أحمرت عينها منه. . فأتى رسول الله ﷺ بها، وفيها أثر منها، فسألها: ما هو. .؟. . فأخبرته بهذا الخبر. . وكانت خيراً للمسلمين، / وكانت فذك خاصة لرسول الله ﷺ، لم يجلسوا عليها بخيل ولا ركاب، فلما اطمأن رسول الله ﷺ، أهدت له زينب بنت الحارث امرأة سلام ابن مشكم، شاة مصلية، وقد سألت: أي عضو من الشاة أحب إلى رسول الله ﷺ، فأكثر بين يدي النبي ﷺ، فتناول الذراع، فأخذها، فلاك منها مضغة، فلم يسعها، ومعه بشر بن البراء بن معرور، وقد أخذ منها كما أخذ النبي ﷺ، فلما مضغها بشر، مات منها، وأما رسول الله ﷺ فلفظها، ثم

أ/٩٦

= فَعَالَيْنِ أُمْتَكَنَّ وَأَسْرَحُنَّ سَرَّاحًا جَمِيلًا، وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا. . .

قال: إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم، ثم إنه دعاها، فاعترفت وقالت: نعم.. فقال: ما حملك على ذلك..؟.. فقالت: بلغت من قومي ما لا يخفى عليك، فقلت: إن كان نبياً لم يضره، وإن كان ملكاً استرحنا منه..
قال: فتجاوز عنها رسول الله ﷺ، ومات بشر بن البراء من أكلته التي أكل..

قال: وكان رسول الله ﷺ قد قال في مرضه الذي توفي فيه، وقد دخلت عليه أم بشر بن البراء تَعُوْده.. فقال: يا أم بشر، إن هذا الأوان، وجدت انقطاع المري من الأكلة التي أكلت مع ابنك بخير..
قال: فكان المسلمون يرون أن النبي ﷺ مات شهيداً مع ما أكرمه الله عز وجل من النبوة..



قصة علي بن أبي طالب رضي الله عنه

- ٦٧ - وَكَذَا الْإِمَامُ الْأَزْجِي أَخُو الْمَقَاحِرِ وَالْمَنَاقِبِ
٦٨ - النَّاسُكَ السَّهْمُ اللَّامِي الْمُجْتَبَى مِنَ الْمَغَالِبِ
٦٩ - وَطَلَبْنِ مَهْرًا رَأْسَهُ بِنْسِ الْمَقَاصِدِ وَالْمَطَالِبِ
٧٠ - فَسَعَى إِلَيْهِ بِضَرْبَةٍ شَلَّتْ يَدًا بِالسَّيْفِ ضَارِبِ

واختلف في وقت قتله:

قيل: قُتِلَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فِي التَّاسِعِ عَشَرَ مِنْ رَمَضَانَ سَنَةِ

أَرْبَعِينَ . . .

وقيل: لثَلَاثَةِ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ . . .

وقيل: فِي شَهْرِ رَبِيعِ الْآخِرِ، سَنَةِ أَرْبَعِينَ . . .

وقيل: / مِنْ حَدِيثِ أَبِي بَكْرٍ التَّمِيمِيِّ: اخْتَلَفُوا، فَتَذَاكُرُوا أَمْرَ النَّاسِ، ٩٦/ب

وعابوا عمل ولائهم، ثم ذكروا أهل النهر، فترحموا عليهم، وقالوا: والله ما صنعوا بالبقاء بعدهم بشيء، إخواننا الذين كانوا دعاة الناس بعبادة ربهم، الذين كانوا لا يخافون في الله لومة لائم، فلو اشترينا أنفسنا، فأتينا أئمة الضلالة، فالتمسنا قتلهم، وأرحنا منهم البلاد، وثأرنا بهم إخواننا . . .

فقال ابن ملجم قبحه الله: أنا أكفيكم علي بن أبي طالب، وكان من

أهل مصر . . .

وقال البرك بن عبد الله : أنا أكفيكم معاوية بن أبي سفيان . . .
وقال عمرو بن بكر التميمي : أنا أكفيكم عمرو بن العاص . . .
فتعاهدوا ، وأوثقوا بالله لا ينكثن رجل منهم عن صاحبه الذي وجّه إليه
بقتله ، أو يموت دونه ، فأخذوا أسياфهم فسمموها ، وأعدوا لسبعة عشر من
رمضان أن يشب كل واحد منهم على صاحبه الذي توجّه إليه . . .

وأقبل كل واحد إلى البلد الذي فيه صاحبه . . .
فأما ابن ملجم لعنه الله ، فكان عداده من كندة ، فخرج ، فلقي أصحابه
بالكوفة ، فكتّمهم أمره ، كراهة أن يظهروا شيئاً من أمره ، وأنه رأى ذات
أصحابه من تيم الرباب ، وكان قد قُتل منهم يوم النهر عدة ، فذكروا قتلاهم ،
ولقي ذلك اليوم امرأة من تيم الرباب ، يقال لها : قطام بنت السخية ، وقد قتل
علي رضي الله عنه أباهما يوم النهر ، وكانت فائقة الجمال ، فلما رآها ابن
ملجم التبت بقوله ، ونسي حاجته التي جاء إليها ، فخطبها . . . فقالت : لا
أتزوجك حتى تشفي لي غليلي . . . ؟ . . . قال : فما تسألين . . . ؟ . . . قالت : /
ثلاثة الآن ، عبد وقينة وقتل علي بن أبي طالب . . . ؟ . . . فقال : أهو مهر
لك . . . ؟ . . . قالت : إن قتله شفيت نفسي ونفسيك ، وتقعّد تعيش معي ، وإن
قُلت فما عند الله سبحانه وتعالى خير . . .

أ/٩٧

قال : ثم قالت : إني أطلب لك من يسند لك ظهرك ، ويساعدك على
أمرك . . . فبعثت إلى رجل من قومها من تيم الرباب يقال له : وردان ، فكلّمته ،
فما لبث أن أجابها . . .

قال : وأتى ابن ملجم رجل من أشجع ، يقال له : شبيب بن يحسرة ،
فقال له : هل لك في شرف الدنيا والآخرة . . . ؟ . . . قال : وما ذاك . . . ؟ . . . قال :
قتل علي بن أبي طالب . . . !!! . . . قال : ثكلتك أمك ، لقد جئت شيئاً إداً . . .
قال : وكيف تقدر على علي . . . ؟ . . . قال : أكمّن له في المسجد الأعظم ، فإذا
خرج إلى صلاة الغداة ، شددنا عليه ، فقتلناه ، فإن نجينا ، شفينا أنفسنا وأدركنا
ثأرنا ، وإن قُتلنا ، فما عند الله تعالى خير وأبقى . . . قال : ويحك ، لو كان غير

علي، كان أهون علينا.. قال: قد عرفت بلاءه في الإسلام، وقد عرفت أنه قتل أهل النهر الصالحين الزهاد.. قال: بلى.. قال: فلنقتله عن قتل أصحابنا.. فأجابه...

قال: فجاؤوا بالظلام، وهي معتكفة في المسجد الأعظم، فقالوا لها: قد اجتمع رأينا على قتل علي.. فقالت: فإذا أردتم ذلك، فأتوني.. ثم عادوا ليلة الجمعة التي قُتل فيها علي رضي الله عنه في صباحيتها، سنة أربعين.. فقال: هذه الليلة التي واعدت فيها أصحابي أن يقتل كل واحد منّا صاحبه.. فدعت بالحرير فعصبتهم، وأخذوا أسياфهم، وجلسوا مقابل / السدة الذي يخرج منها علي، فلما خرج ضربه شبيب بالسيف فوق سيفه بعضادة الباب، وضربه ابن ملجم فأقره بالسيف، وهرب وردان حتى دخل منزله.. فدخل عليه رجل من بني أمية، وصاح بالناس، فلحقه رجل من حضرموت، يقال له: عويض، وفي يد شبيب السيف، فأخذه وجثم عليه الحضرمي، وهو ينزع الحرير عن صدره، فقال: ما هذا الحرير والسيف.. فأخبره بما كان، فانصرف، فجاء بسيفه، وعلا به وردان حتى قتله، وخرج شبيب نحو أبواب كندة في الغلس، وصاح الناس، فلحقه رجل من حضرموت، وجثم عليه الحضرمي، فلما رأى الناس قد أقبلوا في طلبه، وسيف شبيب في يده، خشي على نفسه، فتركه ونجا بنفسه، ونجا شبيب في غمار الناس، فشدوا على ابن ملجم فأخذوه، إلا أن رجلاً من همدان يكنى أبا همدان، أخذه فضرب رجله فصرعه، وتأخر علي، ودفع في ظهر جعدة بن هبيرة بن أبي وهب، فصلى بالناس.. ثم قال علي: أين بالرجل..؟.. فأدخل عليه عدو الله.. قال: ألم أحسن إليك..؟.. قال: بلى.. قال: فما حملك على هذا..؟.. قال: استخرته أربعين صباحاً، فسألت الله عز وجل أن أقتل به أشر خلقه.. فقال علي: ما أراك إلا مقتولاً به، ولا أراك إلا شر خلق الله..

وذكر أن الناس دخلوا على الحسن فزعين لما حدث من أمر علي رضي الله عنه، فبينما هم عنده أتى بابن ملجم مكتوفاً، إذ نادى أم كلثوم بنت

الإمام علي رضي الله عنها، وهي تبكي: أي عدو الله / لا بأس على أبي، والله مخزيك.. فقال: فعلى من تبكين، لقد اشتريته بألف وسميته بألف، ولو كانت هذه الضربة لجميع أهل مصر ما بقي منهم أحد...

وذكر أن جندب بن عبد الله دخل على علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال: يا أمير المؤمنين، إن فقدناك ولا نفقدك، فبايع الحسن.. فقال علي رضي الله عنه: ما أمركم ولا أنهاكم، أنتم أبصر.. قال: فرد عليه مثلها.. فدعا فأوصى إليهم...

قال: وغسله الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر رضي الله عنهم، وكفنوه في ثلاثة أثواب، وكبر عليه الحسن تسع تكبيرات، وولي الحسن رضي الله عنه عمله ستة أشهر...

قال: ولما حضر ابن ملجم بين يدي علي، قال الحسن: أريد أن أقتل عدو الله.. فقال علي رضي الله عنه: لا، إن سلمت، فإما أن أقتص، وإما أن أعفو.. ثم قال: انظر يا حسن، إن أنا مت من ضربته هذه، فاضربه بضربة، ولا تمثل بالرجل، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور»^(١)...

قال: ولما قبض علي رضي الله عنه، بعث إليّ ابن ملجم، فقال للحسن: بي خصلة، ما عاهدت الله عز وجل إلا وفيت به، وإني كنت قد أعطيت لله تعالى عهداً عند الحطيم، أنني أقتل علياً ومعاوية، أو أموت دونهما، فإن شئت خليت بيني وبينه، ولك على الله تعالى إن لم أقتله، أو قتلته بسبب، أن آتيك حتى أضع يدي في يدك.. فقال الحسن: أما حي يعاين النار فلا، ثم قدمه، فقتله...

(١) حديث صحيح متفق عليه، ولقد نهى رسول الله ﷺ عن التمثيل والتعذيب في كافة مخلوقاته والتمثيل، هو: قطع وشق وبتير للحي يقوم به الطرف الأول.

قال: وكان قد قال: يا ابن بنت رسول الله ﷺ، ائذن لي حتى أُسرَّ لك سرًّا في أذنك...؟.. قال: تريد أن تعضها.. فقال: والله لو مكنتني منها لقلعتها من صماخها...

قال: وتقدمت إليه امرأة، وقالت: يا ابن بنت رسول الله ﷺ، هبني إياه.. فقال الحسن رضي الله عنه: خذيه.. فأخذته المرأة، وذبحته من باريه، وألقته في النار فأحرقتة...

وفي الحديث: أن رسول الله ﷺ أيقظ عليًّا وهو نائم، فقال: «قم يا أبا تراب، هل صليت الوسطى...؟..».. فقال: لا يا رسول الله.. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم امسك الشمس حتى يصلي عليًّا»^(١).. قال: فرأينا الشمس في طاقات المدينة.. ثم قال ﷺ: «أتدري من أشقى الناس يوم القيامة...؟..».. قال: الله ورسوله أعلم. فقال ﷺ: «أشقى الناس يوم القيامة رجلان، عاقر ناقة صالح، وضاربك هاهنا - وأومأ بيده إلى نافوخه -»^(٢)...

وعن عمار بن ياسر، قال: كنت أنا وعلي رفيقين في غزوة ذي العشيرة، فلما نزلها رسول الله ﷺ، وأنا ما رأيت ناساً من بني المدلج يعملون في عين لهم في نخل.. فقال لي علي: يا أبا اليقظان، هل لك أن تأتي هؤلاء، فتنظر كيف يعملون - فجئناهم، فنظرنا إلى عملهم ساعة، ثم غشنا بنوم، فانطلقت أنا وعلي، فاضطجعنا في صور من النخل في دفعاً من

(١) انظر: كشف الخفاء ومزيل الإلباس - للعجلوني ج ١، ص ٤٢٨، حديث رقم /١٣٧٩/، وقال: قال الإمام أحمد: لا أصل له، وتبعه ابن الجوزي فأورده في الموضوعات.. ولكن، صححه الطحاوي وصاحب الشفاء، وانظر أيضاً الحديث رقم /٦٧٠/ نفس المصدر، ج ١، ص ٢٢٠...

(٢) انظر: كشف الخفاء ومزيل الإلباس - للعجلوني ج ١، ص ١٣١، حديث رقم /٣٧٣/، دون لفظ - وضاربك هاهنا -، وقال: رواه الطبراني والحاكم عن ابن عمر بزيادة: ما سفك على الأرض من دم إلا لحقه منه لأنه أول من سن القتل...

التراب، فمنا، ووالله ما أنبهنا إلا رسول الله ﷺ يحركنا، وقد تقربنا من تلك
الدفعة، فيومئذ قال رسول الله ﷺ لعلي: «يا أبا تراب - لما يرى عليه من
التراب - ألا حدثكما بأشقى الناس يوم القيامة».. قلن: بلى يا رسول الله..
قال ﷺ: «احيمر ثمود الذي عقر ناقة صالح، والذي يضربك يا علي على
هذه - يعني: على قرنه - حتى تبلى منه»^(١). هذه/، يعني: لحيته...
أ/٩٩

واختلف في سنة يوم قتله، وهو ابن سبع وخمسين...
قال: وفي حديث مصعب بن عبد الله، قال: كان الحسن يقول: قُتل
أبي [عن]^(٢) ثمانية وخمسين سنة...

وقال بعضهم: قُتل وهو ابن خمسة وستين...
وقال جعفر بن محمد: قُتل علي وهو ابن ثلاثة وستين سنة... وذلك
أصح ما قيل فيه...

وقال هشام: ولي علي رضي الله عنه وهو ابن ثمانين وخمسين سنة،
واستشهد، فكانت ولايته خمس سنين إلا ثلاثة أشهر، ثم قتله ابن ملجم،
وتزوج علي رضي الله عنه ثمانين نسوة، وولد له واحد وثلاثون ولداً، منهم
سبعة عشر ذكراً، والباقي إناث...

وأما عمرو بن بكر التميمي، فجلس لعمر بن العاص في تلك الليلة،
وقد اشتكى عمرو من بطنه، فأمر خارجة بن حبيبة، وكان صاحب شرطة،
وكان من بني عامر بن لؤي، فخرج ليصلي.. فشد عليه وهو يرى أنه
عمرو بن العاص، فضربه فقتله، فأخذه الناس، فانطلقوا به إلى عمرو بن
العاص رضي الله عنه، يسلمون عليه بالأمر... قال: من هذا...؟.. قالوا:
عمرو بن بكر... قال: من قتلت...؟.. قال: خارجة، ووالله ما ظننته
غيرك... قال عمرو بن العاص: وأردتني...؟.. وأن الله أراد خارجة... ثم

(١) راجع الحديثين السابقين وشروحهما...

(٢) ساقطة في الأصل وإثباتها يقتضي السياق لإتمام المعنى...

قدمه عمرو بن العاص رضي الله عنه، قتله. . فبلغ ذلك معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه. . .

وأما البرك بن عبد الله في تلك الليلة التي ضُرب فيها علي رضي الله عنه، فقد قعد لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، فلما خرج ليصلي الغداة، سدَّ عليه بسيفه، فوقع السيف في آليته. / فأخذ. . فقال: إن عندي خبراً أسرك به، فإن أخبرتك به تتعاف عند ذلك. . قال: نعم. . قال: إن أخاك علياً قُتل في هذه الليلة. فقال: كيف. .؟! . . قال: بلى، إن علياً يخرج وليس معه أحد يحرسه. . فأمر به معاوية رضي الله عنه، فقتل. . .

قال: وبعث معاوية رضي الله عنه إلى الساعدي، وكان طبيباً، فلما نظر إليه، قال له: اختر إحدى خصلتين، إما أن أحمي حديدة فأضعها موضع السيف، وإما أن أسقيك شربة تقطع الولد منك، وتبرأ منها، فإن ضربتك مسمومة. . فقال معاوية رضي الله عنه: أما النار فلا صبر لي عليها، وأما انقطاع الولد ففي يزيد وعبد الله ما يقر عيني. . فسقاه تلك الشربة، فبرئ معاوية رضي الله عنه ولم يولد له بعد ذلك، وأمر بعد ذلك بالمقصورات، وحرس الليل، وقيام الشرطة على رأسه إذا سجد. . .

وعن الشعبي، وطلحة، وأبي عثمان، قال: قُتل عثمان بن عفان رضي الله عنه يوم الجمعة، لثمان عشرة ليلة مضت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين على رأس إحدى عشرة سنة، وأحد عشر شهراً، واثنين وعشرين يوماً من مقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقُتل وهو ابن اثنتين وثمانين سنة، وقيل: ابن تسعين سنة، أو ثمانية وثمانين، وكانت خلافته اثني عشرة سنة غير اثني عشر يوماً. . .

قال: وفي سنة ست وثلاثين، حث معاوية رضي الله عنه الناس على قتال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان كل يوم يصعد المنبر، ويظهر قميص عثمان بن عفان رضي الله عنه الملطخ بالدم، ويظهر أصابع زوجة

عثمان نائلة رضي الله عنهما، فإذا رأوا الناس ذلك، يكون.. فبقي كذلك سنة، حتى أنهم آلوا على أنفسهم أنهم/ لا يغتسلون من الجنابة، ولا يقربون نساءهم على فراشهم حتى يستوفوا دم عثمان رضي الله عنه، أو يُقتلوا...

قال: وفي سنة سبع وثلاثين، التقوا على صفين، وكان عدد أصحاب علي بن أبي طالب رضي الله عنه ثمانية وستين ألفاً ومئتي رجل، وكانت العرب سبعة وخمسين ألفاً من أهل الكوفة، وممّا يليهم ومواليهم ثمانية آلاف، فكان جميع أهل الكوفة خمسة وستين ألفاً وثلاثمائة رجل، وثلاثمائة ألف رجل ومائة من أهل البصرة، وكان عدد أصحاب معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه مائة ألف وخمسة وعشرون ألفاً من أهل العراق، وخمسة وسبعون ألفاً من أهل الشام.. وقامت الحرب بينهم ثلاثة وأربعين يوماً من ذي الحجة كله، وثلاثة عشر يوماً من صفر..

قال: وأتى معاوية يوم صفين بأسير من أهل العراق.. فقال: الحمد لله الذي أمكنني منك.. قال: لا تقل ذلك يا معاوية، فإنها مصيبة.. فقال: وأي نعمة من أن أمكنني الله تعالى من رجل قتل جماعة من أصحابي في ساعة واحدة.. يا غلام اضرب عنقه.. فقال الأسير: اللهم أشهد أن معاوية لم يقتلني فيك، ولا أنك ترضى بقتلي، وإنما يقتلني في الغلبة على حطام هذه الدنيا، فإن فعل فافعل به ما هو أهله، وإن لم يفعل فافعل به ما أنت أهله.. فقال معاوية رضي الله عنه: ويحك، سألت فأبلغت، ودعوت فأحسن.. يا غلام خلّ عنه...

قال: ثم أحضر/ بين يديه أسير آخر من صفين، فأمر بضرب عنقه.. فقال الأسير: بالرحم الذي بيني وبينك أعف عني.. قال: لا رحم بيني وبينك ولا قرابة.. قال: بلى يا أمير المؤمنين. قال: من أين..؟.. قال: أنت..؟.. قال: أنت خالي.. قال: وكيف ذلك..؟.. قال: لأن أختك زوجة النبي ﷺ، وهي أم المؤمنين رضي الله عنها، وأنا ابنها، وأنت خالي.. فقال معاوية رضي الله عنه: أطلقوا سبيله...

قال: كتب قيصر إلى معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه: أخبرني
عمن لا قبلة له، وعمن لا عشيرة له، وعمن لا أب له، وعمن سار به قبره..
وعن ثلاثة أشياء لم يخلقوا في رحم، وعن شيء، ونصف شيء، ولا شيء،
وابعث الجواب عن كل ذلك في قارورة.. فبعث معاوية بن أبي سفيان رضي
الله عنه بالكتاب إلى ابن عباس رضي الله عنهما، فقال: أما من لا قبلة له
فالكعبة، وأما من لا أب له فالمسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، وأما من لا
عشيرة له فآدم عليه السلام، وأما من سار به قبره فيونس عليه السلام، وأما
الثلاثة التي لم تخلق في رحم، فكبش إسماعيل عليه السلام، وناقصة صالح
عليه السلام، وعصا موسى عليه السلام، وأما الشيء فالرجل له عقل يعمل
بعقله، وأما نصف الشيء فالذي ليس له عقل ويعمل برأي ذوي العقول، وأما لا
شيء فالذي ليس له عقل يعمل به ولا يستعين بعقل غيره من ذوي العقول..
ثم ملأ القارورة، وقال: هذا جواب كل شيء.. / فبعث معاوية بن أبي
سفيان رضي الله عنه الجواب.. فلما وصل إلى قيصر الجواب في القارورة،
قال: ما خرج هذا إلا من أهل بيت النبوة...

قال: وبإيع الحسن بن علي رضي الله عنه، معاوية بن أبي سفيان
رضي الله عنه، في جمادى الأولى سنة إحدى وأربعين، ودخل معاوية
رضي الله عنه الكوفة في عشر من جمادى الأولى من هذه السنة.

وقيل: في ربيع الآخر، وهذا قول الواقدي..

قال: وفي هذه السنة دخل الحسن والحسين رضي الله عنهما منصرفين
إلى المدينة..

وقال محمد بن عمرو: في سنة خمسين أمر بمنبر رسول الله ﷺ أن
يُحمل إلى الشام، فحرك، فكسفت الشمس حتى بانَّت النجوم، فأعظم الناس
في ذلك.. فقال: لم أرد حملة، وإنما خفت أن يكون قد ارتض، فنظرت
إليه.. ثم كساه يومئذ..

وحدثني ابن سعيد بن دينار عن أبيه، قال: قال معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه: إني رأيت منبر رسول الله ﷺ وعصاه لا يُتركان بالمدينة...

قال: فلما قدم أمير المؤمنين، وطلب العصا، وهي عند سعد القرط، فجاء أبو هريرة رضي الله عنه وجابر بن عبد الله رضي الله عنه... فقال: يا أمير المؤمنين، نذكرك أن لا تفعل هذا، فإن هذا لا يصلح...

قال: فخرج بمنبر رسول الله ﷺ في موضع وصف، وأخرج عصاه إلى الشام، وزاد فيه ست درجات، وهو اليوم ثمان درجات، واعتذر إلى الناس فيما صنع... وقال له قبيصة: أذكرك الله أن لا تفعل، فلما حركه كسفت الشمس...

قال: وقد قال رسول الله ﷺ: «من حلف على منبري، فليتأ مقعده من النار»^(١)...

/ وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: لما ثقل معاوية رضي الله عنه، وحدث الناس آية الموت، قال معاوية رضي الله عنه لأهله: احشوا عيني إثمداً، وأوسقوا رأسي دهناً... ففعلوا، فبرقوا وجهه بالدهن، ثم مهدوا له، فجلس رضي الله عنه وقال: أسندوني... ثم قال: ائذنوا للناس... فسلموا قياماً، ولم يجلس أحد...

ب/١٠١

قال: فلما خرج الناس من عنده، أنشد قائلاً:
وتجلدي للشامتين^(أريهم) أني لوشك البين لا أتضعضع
وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحلف عبد عند هذا المنبر على يمين آثمة، ولو على سواك رطب إلا وحيث له النار». رواه ابن ماجه في كتاب الأحكام، باب: اليمين عند مقاطع الحقوق / ٢ - ٧٧٩ / برقم / ٢٣٢٦ /، وأحمد في المسند ٣٢٩/٢ و ٥١٥... والحاكم في المستدرک ٢٩٧/٤، وقال الذهبي في التلخيص: حديث صحيح، وفي الباب عن جابر رضي الله عنه، رواه ابن حبان، وأبي داود، وابن ماجه، ومالك، والشافعي، والبيهقي...

ثم إنه رضي الله عنه أوصى أن يأخذوا أظفار رسول الله ﷺ، وأن تُجعل في منافذ وجهه، وأن يكفن بثوب رسول الله ﷺ . . .

قال: ومات معاوية رضي الله عنه في سنة ستين، وكانت مدة خلافته تسع عشرة سنة ونصفاً وثلاثة أشهر. . .

واختلف في مدة عمره، قيل: خمسة وسبعين، وقيل: ثمانية وثمانين، وقيل: تسعين. . .

قصة الحسن بن علي رضي الله عنه

٧١- وَكَذَلِكَ الْحَسَنُ ابْنُهُ لَيْثُ الْكَتِيبَةِ وَالْعَصَائِبِ
٧٢- جَرَّعْنَهُ كَأْساً بِهِ أَوْرَدْنَهُ سُبُلَ الْمَعَاظِبِ

وأما الأخبار التي وردت بسبب وفاة الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وذلك من كتاب الإرشاد للشيخ المفيد أبي عبد الله بن النعمان، وكذا رواه من ما نقلته من تاريخ المسعودي على الوجه المذكور، وذكر السم الذي تجرع به الحسن رضي الله عنه، جماعة، وما جرى من الخوض فيه عند دفنه...

وذلك ما رواه عيسى بن مهران، قال: أرسل معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه / إلى جعدة بنت الأشعب، قال: إنني مزوجك ابني يزيد على أن تسمي الحسن، وبعث إليها بمئة ألف درهم، ففعلت وسمت الحسن، فوهبها المال ولم يزوجها يزيد، فخلف رجل عليها من آل طلحة، فأولدها، وكان إذا وقع بينهم وبين بطون قريش كلام، عيروهم، فقالوا: يا ابن مسممة الأرواح...

وروي عن عيسى بن مهران، قال: كنت مع الحسن والحسين رضي الله عنهما في دار، فدخل الحسن رضي الله عنه المخرج، ثم خرج فقال:

لقد سُقيت السم مراراً، وما سُقيته هذه المرة لفظت قطعة من كبدي، فجعلت أقلها تعود معي.. فقال له الحسين رضي الله عنه: ومن سقاك^(١)...؟.. فقال: وما تريد منه، هل تريد أن تقتله...؟.. إن يكن هو، فالله سبحانه وتعالى أشد نعمة منك، وإن لم تكن، فما أحب أن يؤخذ بي ربي...

وروي، قال: لما حضرت الحسن رضي الله عنه الوفاة، استدعى الحسين رضي الله عنه، فقال: يا أخي، إنني مفارقك، ولاحقٌ بربي عز وجل، وقد سُقيت السم، ثم رميت كبدي في الطشت، وإنني لأعرف من سقاني السم، ومن أين ذهبت، وإنني أخاصمك الله عز وجل، فبحقي عليك أن لا تكلمني في شيء من ذلك، وانتظر ما يحدثُ الله عز وجل، فإذا قُضي عليّ، فغمضني وغسلني وكفني واحملني على سريرٍ إلى قبر جدي رسول الله ﷺ، لأجدد به عهداً، ثم تدني إلى قبر جدتي / خديجة بنت خويلد بن ١٠٢/ب أسد بن هاشم بن عبد مناف رضي الله عنها، فادفني هناك، وستعلم يا ابن أُمي، أن القوم يظنون أنكم تريدون دفني عند جدي رسول الله ﷺ، فيجلبون في منعكم من ذلك، وبالله أقسم عليك أن لا تهرق في أمري محجمة دم، ثم أوصى إليه بأهله وبأولاده وتركاته، وما كان أوصى به أمير المؤمنين حين استخلفه، وأهله لمقامه، وكانت شيعته على استخلافه ورضيه لمقامه لهم علماً من بعده...

قال: فلما قبض رضي الله عنه، غسله الحسين، وكفنه، وحمله على سريرته، ولم يشك أحد من بني أمية أنهم سيدفنونه عند رسول الله ﷺ، فتجمعوا لذلك ولبسوا السلاح.. فلما توجه به الحسين رضي الله عنه إلى قبر جده رسول الله ﷺ، فتجمعوا لذلك ولبسوا الحديد والسلاح، وقد توجه به الحسين رضي الله عنه ليجدد به عهداً عهد به، فجعل مروان يقول: يا رب،

(١) أن الروايات تتضافر دائماً لتجعل كل شخصية لها وزن خطير في الأمة تقضي نجها بالسم عن طريق معاوية، وكأنما الأمر غداً من المسلمات التي لا نقاش فيها، وجميعها روايات موضوعة لا سند لها أصلاً - وانظر: البداية والنهاية - لابن كثير ٤٢/٨...

هيجاً حي خير مردعة، وأقبلوا إليه في جمعهم، ولحقهم عائشة رضي الله عنها على بغلة وهي تقول: ما لي ولكم تريدون أن تدخلوا بيتي... .

قال: فقال مروان: أيدفن عثمان بن عفان رضي الله عنه في أقصى المدينة، ويدفن الحسن رضي الله عنه مع رسول الله ﷺ، والله لا يكون ذلك أبداً... وأنا أجعل السيف حكم... .

قال: وكادت الفتنة أن تقع بين بني هاشم وبين أمية، فبادر ابن عباس رضي الله عنهما إلى مروان وقال: يا مروان، ارجع من حيث أتيت، فإننا ما ندفن صاحبنا عند رسول الله ﷺ، ولكن نريد أن نجد له عهداً بزيارته، ثم نرده جدته خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، / فندفنه عندها بوصيته كذلك، ولو أوصى بدفنه مع جده ﷺ، كنت أقصر باعاً من أن تردنا عن ذلك، ولكنه أقسم بالله عز وجل وبرسوله ﷺ، وحرمة قبره، من أن يهدم ويترك عليه، كما طرق ذلك غيره ودخل بيته بغير إذنه... .

أ/١٠٣

قال: ثم أقبل على عائشة رضي الله عنها، فقال: وانسوتاه، يوماً على بغل، ويوماً على جمل، تريدان أن تطفئي نور الله تعالى، وتقاتلين أولياء الله تعالى، ارجعي، فقد لقيت الذي تخافين، وبلغت ما تحبين الله تعالى منتصراً لأهل هذا البيت ولو بعد حين... .

قال: وقال الحسين رضي الله عنه: والله لولا عهد الحسن بحقن الدماء، وأني لا أهرق محجم دم، لعلمتم كيف يأخذ سيوف الله تعالى بأخذها منكم، وقد نقضتم العهد بيننا وبينكم، وأبطلتم ما اشترطنا عليكم لأنفسنا... .

قال: ومضوا بالحسن رضي الله عنه، فدفنوه بالبقيع عند جدته خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد مناف رضي الله عنهم أجمعين... .

* * *

قصة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه

٧٣ - وَكَذَلِكَ سَعْدٌ قَدْ رُمِيَ مِنْهُمْ بِالشُّهْبِ الثَّوَاقِبِ

قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾^(١)...

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾^(٢)..

الآية..

قال المفسرون: نزلت في سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وذلك أنه لما أسلم، قالت له أمه حمّة: يا سعد، بلغني أنك صبت^(٣)، فوالله لا يظلني سقف بيت من الريح، ولا أشرب، ولا أكل، حتى تكفر بمحمد، وترجع إلى ما كنت عليه.. وكان رضي الله عنه أحب ولدها إليها.. فأبى سعد رضي الله عنه، وصبرت أم سعد ثلاثة أيام، لم تأكل، ولم تشرب، ولم تستظل، / حتى ١٠٣/ب خشي عليها.. فأقى سعد رضي الله عنه إلى النبي ﷺ، وشكا ذلك إليه.. فأنزل الله تعالى هذه الآية^(٤)، والتي في لقمان^(٥)...

(١) سورة الأحقاف - الآية ١٥...

(٢) سورة العنكبوت - الآية ٨...

(٣) صبت: تركت دين آبائك...

(٤) انظر: أسباب النزول - للواحدي - تفسير الآية ٨، من سورة العنكبوت ص ٢٨٤...

(٥) انظر: أسباب النزول - للواحدي - تفسير الآية ١٥، من سورة العنكبوت ص ٢٨٧.. قوله

تعالى: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ...﴾

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: هذه الآية نزلت في^(١). قال^(٢): حلفت أم سعد لا تكلمه أبداً حتى يكفر بدينه، ولا تأكل، ولا تشرب، ومكثت ثلاثة أيام لا تأكل ولا تشرب، حتى غشي عليها من الجهد، فأنزل الله سبحانه وتعالى هذه الآية: **وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا**... رواه مسلم عن أبي خيثمة^(٣)... قوله سبحانه وتعالى: **﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي﴾**...

قال سعد بن مالك، نزلت هذه الآية في: **﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾**^(٤)... قال: كنت رجلاً باراً بأمي، فلما أسلمت، قالت: يا سعد، ما هذا الدين الذي قد أحدثت...؟... لتدعن دينك هذا، أو لا أكل وأشرب حتى أموت، فتعير بي، ويقال: يا قاتل أمه... قلت: لا تفعل بي يا أمه، فإني لا أدع ديني هذا لشيء... قال: فمكثت يوماً لا تأكل، فأصبحت وقد اشتد جهدها... قال: فلما رأيت ذلك، قلت: تعلمني والله يا أمه، لو كانت لك مائة نفس، فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني هذا لشيء، إن شئت لا تأكلي، وإن شئت فكلي... فلما رأيت ذلك، أكلت، فأنزل الله سبحانه وتعالى هذه الآية^(٥)...

وقال مسروق بن الأجدع: إن زوجته [قالت له]^(٦): أضرت بدينك...؟... فقال لها: كرامة أريد...

/وقالت له امرأته فيروز لما رأته لا يفتر عن صلاة ولا صيام: ويحك يا مسروق، أما يعبد الله تعالى غيرك، أما خلقت النار إلا لأجلك...؟... فقال

أ/١٠٤

(١) القائل: هو مصعب بن سعد بن أبي وقاص، والحديث عن أبيه...

(٢) رواه مسلم في فضائل الصحابة، باب: فضل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، برقم.../٤٣/

(٣) سورة العنكبوت - الآية ٨، وتامها: **﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾**...

(٤) انظر: أسباب النزول - للواحدي - تفسير الآية ٨، من سورة العنكبوت ص ٢٨٥...

(٥) ساقطة في الأصل وإثباتها يقتضي السياق لإتمام المعنى...

لها: ويحك، إن طالب الجنة لا ينام، والهارب [من النار]^(١) لا ينام...
وشكت أم الدرداء، فقال لها زوجها: تصبري يا أم الدرداء، فإن أماننا
عقبة كؤود، لا يتجاوزها إلا أخف الناس...
وقالت امرأة لزوجها، وكان قد كبر للصلاة بالليل: يا رجل، صلاتك
مع زوجتك في فراشك، أفضل من صلاتك منفرداً...
وقالت امرأة سعيد بن المسيب لما ضرب وأقيم للناس: يا شيخ، لقد
أقمت مقام جزية من مقام الجزية، ففررت...

(١) ساقطة في الأصل وإثباتها يقتضي السياق لإتمام المعنى...

قصص في نكت اليهود

٧٤- وَبِهِنَّ أَنْصَارِي كَانَ مُحَافِظاً لِأَخِيهِ تَائِب

٧٥- نَكَّتْ الْعُهْدَ وَلَمْ يَنْلُ إِرْباً مِنَ الْبَيْضِ الْكَوَاعِبِ

وسئل سفيان عن قوله سبحانه وتعالى : ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾^(١) بمن نزلت . . ؟ . . فقال : لقد سألتني عن مسألة ما سألني بها أحد قبلك . . قال : لما كان رسول الله ﷺ ، نادى الناس ، فاجتمعوا ، فأخذ بيد علي رضي الله عنه ، وقال : «من كنت مولاه فعلي مولاه»^(٢) . . فشاع ذلك في البلاد ، فبلغ ذلك النضر بن الحارث ، فأتى رسول الله ﷺ على ناقه له ، حتى أتى الأبطح ، فنزل عن ناقته ، وأناخها فعقلها ، ثم أتى النبي ﷺ وهو في جمع من الناس ، فقال : يا محمد ، أمرتنا / أن نشهد بأن لا إله إلا الله ، وأنت رسول الله . . ففعلنا ، وأمرتنا أن نصلي خمساً . . ففعلنا ، وأمرتنا بالزكاة ، فقبلنا ، وأمرتنا بالحج . . فقبلنا ، وأمرتنا أن نصوم شهر رمضان . . فقبلنا ، ثم لم

١٠٤/ب

(١) سورة المعارج - الآية ١ . . .

(٢) قال في كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس ٢/٢٧٤ ، الحديث : «من كنت مولاه فعلي مولاه» . رواه الطبراني ، وأحمد ، والضياء في المختارة ، عن زيد بن أرقم ، بلفظ : «اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه» . فالحديث متواتر أو مشهور . .

ترض حتى رفعت بعضد ابن عمك ففضلته علينا، وقلت: «من كنت مولاه فعلي مولاه»، فهذا شيء منك، أم من الله عز وجل.. فقال ﷺ: «والذي لا إله إلا هو، إن هذا من أمر الله جل جلاله»^(١)...

قال: فولى النضر بن الحارث يريد راحلته، وهو يقول: اللهم إن كان ما يقوله محمد حقاً فأمطر علينا حجارة من السماء، أو آتنا بعذاب أليم...

قال: فما وصل إليها حتى رماه الله سبحانه وتعالى بحجر سقط على هامته، فخرج من دبره، فقتله.. وأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ، لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾^(٢)...

١ - ● - روى ابن عباس رضي الله عنه، قال: آخى رسول الله ﷺ بين أنصاري وثقفي، فخرج رسول الله ﷺ، وخرج معه الثقفي، وبقي الأنصاري خليفته على بيته، وليقض حاجة أهله.. فجاء الأنصاري يوماً، فوجد امرأة [الثقفي]^(٣) تغتسل، وقد تجللت بشعرها، فلما نظر إليها، لم يملك نفسه، حتى دخل عليها بغير إذن، فسترت وجهها بكفها، فتقدم إليها فقبل كفها..
قال: ثم أنشد شعراً:

سترت بمعصمها محاسن وجهها هتكت بما سترت به ستري

قال: ثم ندم واستحيا.. فقالت له: خنت أمانتك، وعصيت ربك، ولم تصب حاجتك، فخرج من عندها نادماً على ما بدا منه، فساح في الأودية/ والجبال.. إلى أن قدم رسول الله ، وأتى الثقفي زوجته، فسألها عن ١٠٥/أ

(١) قال ابن الجوزي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: فضائله الصحيحة كثيرة، غير أن البعض لم يقنع بذلك، فوضع له ما يضع ولا يرفع ممّا يسوغ في العقل ولا يسوغ...

(٢) سورة المعارج - الآية ١ و٢، وذكر القصة الواحدي في أسباب النزول - ص ٣٦٢، والآية: أي ما نزل في الآية من سورة الأنفال - قوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾... الآية - ٣٢... ولم يذكر علي بن أبي طالب رضي الله عنه...

(٣) ساقطة في الأصل وإثباتها يقتضي السياق لإتمام المعنى...

الأنصاري، فأخبرته بخبره، فطلبه، فلم يجده، حتى أخبر أنه قد ساح، فاستدل عليه، فوجده ساجداً وهو يبكي ويقول: رب قد خنت أخي، رب ذنبي.. فتقدم إليه، فرفع رأسه وقال له: قم معي إلى رسول الله ﷺ لعل يكون عنده فرج.. قال: فأتيت به إلى رسول الله ﷺ، فأخبرته، فنزل جبريل عليه السلام، وقرأ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ اللَّهُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (١)...

٢ - ● - وقال الحسن رضي الله عنه: لقد اهتز العرش مرتين، مرة لوفاة سعد بن معاذ (٢)، ومرة أخرى كان رجلاً وأخاً لرجل، وكانت له امرأة جميلة، ف وقعت في قلبه، ولم يفسدها عن زوجها ويعيبها حتى طلقها.. قال: فتزوجها.. واحتاج المطلق ذات يوم، فاستأجره زوج المرأة، قال: فدخل يوماً وهو يحمل على عنقه، فنظر إليها وهي إلى جانبه، فبكى ونظر إلى السماء.. فاهتز العرش...

٣ - ● - كذلك حدثنا عثمان بن شبيب، قال: كان بالبصرة أخوان، فغزا أحدهما، وخلف امرأته على أخيه.. فراودته عن نفسه، فامتنع عنها.. فقالت: إن لم تفعل لأخبرن أخاك إذا قدم أنك دعوتني إلى ذلك.. فدام على امتناعه.. فلما قدم أخوه، أخبرته / بذلك، فهجر أخاه زماناً، حتى مات الأخ، وندمت

١٠٥/ب

(١) سورة آل عمران - الآية ١٣٥، وانظر أسباب النزول للواحدي ص ١٠٥، من رواية الكلبي. وفيه: إلى قوله تعالى: ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾.. فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله. أخاص هذا لهذا الرجل أم للناس عامة..؟.. قال: «بل للناس عامة». وفي الباب أيضاً: قال ابن عباس في رواية عطاء: نزلت الآية في نيهان التمار، قال: أخته امرأة حسناء، باع منها تمراً. فضمها إلى نفسه وقبلها، ثم ندم على ذلك، فأتى النبي ﷺ، وذكر له ذلك.. فنزلت هذه الآية...

(٢) ورد الحديث: «اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ». قاله العجلوني في كشف الخفاء ومزيل الإلباس ص ٢٦١، ج ١، وقال: رواه الشيخان عن جابر، وفي ذلك يقول حسان: وما اهتز عرش الله من أجل هالك سمعنا به إلا لسعد أبي عمر

المرأة، فأخبرت زوجها بالخبر الصحيح على حقيقة الأمر، فبقي الأخ يأتي قبر أخيه في كل يوم يبكي ويقول شعراً:

هجرتك في طول الحياة وابتغي وصالك لما صرت رماً وعظماً
أخذك أكد ليلاً ولا ترى عليك لأهل الزم أن تتكلما
ولدثار لو حللت مكانه فمرا بوادي الدوم حباً وسلماً^(١)

٤ - ● - وحكي، أنه عرض الحجاج بن يوسف الثقفي سجنه يوماً، فأتى برجل، فقال له: ما كان جرمك...؟.. [قال]^(٢): أصلح الله الأمير، وأنا مخبرك بخبري، فإن كان الكذب منجي، فإن الصدق أولى بالنجاة... فقال: وما قصتك...؟.. قال: كنت أحياناً لفلان، فضرب عليه الأمير البعث إلى خراسان، وكانت امرأته تهواني وأنا لا أشعر، فبعثت إلي ذات يوم رسلاً يقول: إنه قد جاءنا كتاب صاحبك، فهلّم لتقرأه، فمضيت إليها، فجعلت تشغلني بالحديث، حتى صلينا المغرب، ثم أظهرت لي ما في نفسها مني، ودعتني إلى الشر، فأبيت ذلك... فقالت: والله لئن لم تفعل لأصيحن ولأقولن أنك لص، فخفتها والله أيها الأمير على نفسي... فقلت لها: امهليني إلى الليل، فلما صليت العشاء، فنظرت وخفت من حرس الأمير، فخرجت من عندها هارباً، وكان القتل أيسر عليّ من خيانة أخي، فلقيني عسس الأمير^(٣)، فأخذوني... وقد قلت في ذلك شعراً... فقال الحجاج: وما هو...؟.. قال:

رب بيضاء نضة ذات دلال قد دعتني لوصالها
فأبيت إن يكن شأني العفاف ولكن كنت ندمان زوجها فاستحيا
فقال الحجاج: خلو سبيله...

(١) وردت القصة في عيون الأخبار ٤/١٢١، بإيجاز هنا في العرض، واختلاف في الشعر...

(٢) ساقطة في الأصل وإثباتها يقتضي السياق لإتمام المعنى...

(٣) العسس: الجند العاملين...

٥ - / - ● - قال: حدثنا عبد الملك بن عمير، قال: كان أخوان من ثقيف من بني كنده، بينهما من التحابب والإيثار شيء لا يعلمه إلا الله تعالى، كل واحد منهما أخوه عنده يعدل نفسه، فأما الأكبر فقد خرج إلى سفر له، وكان له امرأة، فأوصى أخاه بحاجة أهله، فبينما هو مقيم في داره، إذ مرت امرأة أخيه، وكانت من أجمل البشر، في درع تجوز من بيتها إلى بيت، فرآها، فرأى شيئاً حيّره، فلما رآته ولّت ووضعت يدها على رأسها ودخلت بيتها، وقد وقع حبها في قلبه، فتغير لونه، ونحل جسمه.. فلما قدم أخوه، قال: يا أخي، ما لي أراك متغيراً...؟.. وما هو وجعك...؟.. فقال: ما بي من وجع.. فدعا له الأطباء، فلم يقع أحد على دائه غير الحارث بن كنده، وكان طبيباً، فقال: أرى عينين صحيحتين، وما أرى هذا الوجع، وما أظن إلا أنه عاشقٌ...!!.. فقال: يا سبحان الله، أسألك عن وجع أخي، وأنت تستهزئ بي.. فقال: ما فعلت، وسأسقيه شراباً من عندي، فإن كان عاشقاً فيتبين لكم.. فأتاه بشراب، وجعل يسقيه قليلاً قليلاً، فلما أخذ منه الشراب، تهيج وتكلم.. فقال ما في نفسه، وعلم أخوه بالأمر، فطلق امرأته كي يتزوجها أخوه الضعيف.. فقال الأخ المريض: كذا وكذا إن تزوجتها.. فمات ولم يتزوجها..

٦ - ● - وقيل: كان عمرو بن قميئة البكري من أعجب الناس بأبي مرثد، وكان أبو مرثد يجمع بينه وبين امرأته على طعام، وكانت إصبع عمرو الوسطى والتي تليها ملتصقتين، فخرج أبو مرثد ذات يوم يضرب بالقдах^(١)، / فأرسلت امرأة أبي مرثد إلى عمرو أن عمك يدعوك، فجاءت به من وراء البيوت، فلما دخل عليها، لم يجد عمه، وأنكر شأنها، فراودته عن نفسه.. فقال: لقد جئت بشيء عظيم.. فقالت: إما لتفعلن، أو لأسوأئك..

ب/١٠٦

(١) القдах: من عمل أهل الجاهلية يستقسمون بها، وهي كالأزلام، وكانوا يكتبون عليها الأمر والنهي، ويضعونها في وعاء، فإذا أراد أحدهم أمراً أدخل يده فيه وأخرج سهماً، فإذا خرج ما فيه الأمر مضى لقصده، وإن خرج ما فيه النهي كف عما يريد...

فقال: بئسما ما دعوتيني.. ثم قام وخرج.. فأمرت بجفنة فكفيت على أثر قدميه.. فلما رجع أبو مرثد وجدها متغضبة، فقال: ما شأنك..؟.. فقالت: رجل قريب للقرابة منك، جاءني يسومني نفسي..!!.. فقال: من هو..؟.. فقالت: أما أنا فلا أسميه، وهذا أثر قدميه.. فعرف أبو مرثد أنه عمرو، فأعرض عنه.. وعرف عمرو الأمر، فقال شعراً:

لعمرك ما نفسي تحده رشيدة	تؤامرني شراً لا صوم أبي مرثدا
عظيم وماذا الغدر لا متعبس	ولا آيس منها إذا هو أخمدا
فقد أظهرت مني برانق جمعة	وأفرغ من لومي مراراً وأصعدا
على غير ذنب أن أكون جنيته	سوى قول باغ جاهل متعمدا

قال: وذكرها السراج في كتابه مصارع العشاق...

* * *

قصة عبد الله بن رواحة

٧٦ - خَوْفُهُ ابْنُ رَوَاحَةَ مِنْهُنَّ أَصْبَحَ وَهُوَ كَاذِبٌ

ويحكى عن الشعبي : أن عبد الله بن رواحة رضي الله عنه أصاب من جاريته، فبادرت إليه امرأته، وقد أخذت بيدها شفرة، ثم أتت إليه، فوافقته وقد قام عنها، ثم قالت : أفعلتها يا ابن رواحة ..؟! .. فقال : ما فعلت منه شيء .. فقالت : إذا .. اقرأ القرآن الآن، أو لأعجلنك بها .. قال : ففكرت في قراءة القرآن، وإني لجنب، وهي امرأة غبراء، وفي يدها / شفرة، ولا آمنها على نفسي .. فقلت : وفينا رسول الله ﷺ يتلو كتابه كما انشق مشهور، من الصبح غال، يبيت يجافي جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالكافرين المضاجع، وإن الهدى بعد العمى، فقلوبنا به موقنات، إن ما قال واقع ... فقالت : آمنت بالله تعالى وكذبت بصري ...

قال رضي الله عنه : فأتيت رسول الله ﷺ، فأخبرته بذلك .. فضحك وأعجبه ما صنعت ...

* * *

قصص في شكاوى النساء

١ - ● - حكي أن رجلاً أتى النبي ﷺ، فاستأذن عليه، فأذن له.. فلم يدخل، ورجع من حيث أتى.. فأخبر رسول الله ﷺ بما صنع.. فأحضره وقال له: فما حملك على ما صنعت، أذنا لك بالدخول فأعرضت..؟.. فقال: يا رسول الله، إن لي زوجة تؤذيني بلسانها، فأتيت أشكوها إليك، فلما أذنت لي بالدخول، تذكرت أن لك تسعاً، فاستحييت من ذلك ووليت..

٢ - ● - وحكي أن رجلاً أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليشكو إليه زوجته، وما يلقي منها.. فقال له عمر رضي الله عنه: وأنا والله الساعة خرجت من عند زوجتي، وقد أدبتني، وقالت: إنما أنت رابح إليّ كذا وكذا..

٣ - ● - قال: وهكذا ابن عباس رضي الله عنهما، فقال ابن عباس رضي الله عنه: وهكذا إبراهيم عليه السلام اشتكى من زوجته سارة وما يلقي منها إلى الله سبحانه وتعالى، فأوحى الله سبحانه وتعالى: أن ألبسها ثوب التقى.. فقال: أصبت بالحكمة..

ب/١٠٧

وأما أخبار الخلفاء / ولطفهم:

٤ - ● - قال: مرّ أبو بكر الصديق رضي الله عنه بطريق من طرف المدينة، فإذا امرأة تطحن برجلها وهي تقول:

وهويته من قبل قطع تمايمي متيامناً مثل القضيب الناعم
وكأن نور البدر يشبه وجهه يرمي ويصعد في نؤابة هاشم

فدّق عليها الباب.. فخرجت إليه، فقال: ويلك، أحرّة أنت أم
مملوكة...؟.. فقالت: مملوكة يا خليفة الله.. فقال: ومن هويت...؟..
فبكت ثم قالت: يا خليفة رسول الله، بحق الله تعالى إلا انصرفت عني..
قال: وحقه لا أدنو من مكاني أو تعلميني الأمر.. فقالت:

وأنا الذي لعب الغرام بقلبها فبكت لحب محمد بن القاسم

فقال لها: ويلك، إياه أردت...؟.. قالت: وما صرت هاشمية.. قال:
صدقت.. ثم سار إلى المسجد، وبعث إلى مولاه فاشتراها منه، وبعث إلى
محمد بن القاسم بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنهم، وقال: هي لك،
وهؤلاء والله هنّ فتنة الرجال، والله قد مات بهن كل كريم، وعطب عليهن كل
سليم...

٥ - ● - وعن جبير مولى ابن عباس رضي الله عنهما، وكان قد أدرك
الصحابة رضي الله عنهم، قال: ما زلت أسمع حديث عمر بن الخطاب رضي
الله عنه: أنه خرج ذات ليلة يطوف بالمدينة، وكان يفعل ذلك كثيراً، إذ مرّ
بامرأة من العرب مُغلقة عليها بابها، وهي تقول:

تطاول هذا الليل تسري كواعبه وأرقي أن لا ضجيع ألاعبه
ألاعبه طوراً وطوراً كأنما بدا قمر في ظلمة الليل حاجبه
/يسر به من كان يلهو بقربه لطيف الحشا لا يجتره أقربه
ولكني أخشى رقيباً مؤكلاً بأنفسنا لا يفتّر الدهر كاتبه

أ/١٠٨

٦ - ● - وقد نقل عنه رضي الله عنه: أنه أتت امرأة إلى أمير المؤمنين
رضي الله عنه تشكو زوجها إليه.. فقالت: يا أمير المؤمنين، إن زوجي لم
يزل يصوم النهار ويقوم الليل.. فقال عمر رضي الله عنه: جزاك الله خيراً،
كما أثنت عليه خيراً.. قالت: يا أمير المؤمنين، منذ عرفني لم يلق جنبه إلى

الأرض إلا قائماً يصلي ، وصائماً نهاره . . فقال لها عمر رضي الله عنه : جزاك الله خيراً ، كما أثبتت عليه بالخير . . فقال له بعض الصحابة : يا أمير المؤمنين ، إنها تشكو زوجها أنه ما يقربها . . فأرسل إليه ، فلما حضر عنده ، قال له الإمام عمر رضي الله عنه : اعلم يا فلان ، إن لربك حقاً عليك ، ولعينيك حقاً عليك ، ولزوجتك حقاً عليك ، فأعطي كل ذي حق حقه . . فقال : يا أمير المؤمنين ، أليس قد أجاز لي الشرع أن أتزوج بأربع . . قال : بلى . . قال : فلها ليلة ، ولهن ثلاث . . فقالت : رضيت . . فجعل لها ليلة ، ويتعبد ثلاثاً . .

٧ - ● - وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، قال : كنت أطوف البيت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وكفي في كفه ، فإذا بأعرابي يحمل امرأة كأنها مهاة يطوف وهو يقول شعراً :

صرت لهذا جملاً ذلولاً موطأ أبغني المهولاً
أخذ لها بالكف أن تميلاً احذر أن تسقط أو تميلاً
أرجو بذلك نائلاً جزيلاً

/ فقال له عمر رضي الله عنه : من هذه . . ؟ . . قال : يا أمير المؤمنين ، ١٠٨/ب هذه امرأتي . . فقال : برب هذا البيت لقد جازيتها . . فقال : أما أنها مع ذلك لحمقاء مرغامة ، أكل قحامة ، مشومة الهامة ، ما تبقي لها هامة . . قال : فما تصنع بها يا أعرابي . . ؟ . . قال : حسناً فلا تغرك ، وأما لعيالك فلا تترك . . فقال : شأنك بها . . ذكرها الخرائطي . .

٨ - ● - وسمع عمر رضي الله عنه امرأة في الطواف تقول : فمنهن من يُسقى مبرداً فاح ، ومنهن من يسلك فرات خضراء من أجاج ، ولولا خشية الله تعالى لفررت . . ففهم عمر رضي الله عنه شكواها ، فبعث إلى زوجها ، فوجده مغبر الفم ، قبيح المنظر ، فخيرته بين خمسمائة درهم ، أو جارية من الفيء ، على أن يطلقها . . فاختر خمسمائة درهم وطلقها . .

٩ - ● - وعنه أيضاً رضي الله عنه، قال: خرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الليالي، فسمع امرأة تدق بالدق وهي تقول:

تطاول هذا الليل تسري كواكبه وليس إلى جنبي حبيب ألاعبه
فوالله لولا الله لا شيء غيره لزعزعت من هذا السرير جوانبه
مخافة ربي والحياء يصونني وأكرم علي أن تنال مراكبه

قال: فلما أصبح عمر رضي الله عنه، مضى إليها.. فقال لها: ما الذي سمعته منك البارحة...؟.. فقالت: زوجي بعثت به إلى الموضع الفلاني، وأردت بذلك ترمل النساء...؟..

قال: فدخل عمر منزله، وأحضر حفصة رضي الله عنهما، وقال لها: كم تقدر المرأة الصبر عن زوجها.. فقالت: ستة أشهر.. فسأل عمر رضي الله عنه عن زوج تلك المرأة.. / فقالوا: إن لزوجها منذ سنتين في الجهاد.. فجعل البذل منذ ذلك اليوم ستة أشهر..

أ/١٠٩

١٠ - ● - وعن أبي مخيف قال: رفع إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه غلام من العرب أخل في قوم بالليل.. فقال له: ما قصتك...؟.. قال: يا أمير المؤمنين، لست بكافر ولا سارق، ولكن أصدقك.. قال: هات.. فقال:

تعلقت في دار الرباحي جودة يتدلى من حسنها القمر البدر
لها في بنات الروم حسن ومنصب إذا افتخرت بالحسن جانبها الفخر
فلما طرقت الدار من حر مهجتي أتيت وفيها من توقده الجمر
تبادر أهل الدار بي ثم أصبحوا هو اللص محتوماً له القتل والأسر

قال: فلما سمع علي رضي الله عنه شعره، رَقَّ له، وقال لرباح، وهو المهلب بن رباح اليربوعي: اسمح لي بها ونعوضك بها.. فقال: يا أمير المؤمنين، لمن...؟.. فقال: للغلام.. فقال الرباح: خذ بيدها هي لك...

١١ - ● - وقيل : إن عبد الملك بن مروان بعث بعثاً إلى اليمن ، فأقاموا

سنتين حتي إذا كان ذات ليلة وهو بدمشق ، قال : والله لا عن مدينة دمشق ، ولا سمعت الناس ما يقولون في الذي أغريت رجال البعث ، وأغرمت فيه أموالهم ، فبينما هو في بعض أزقتها ، إذ هو بصوت امرأة قائمة تصلي ، فتسمع عليها ، فلما انصرفت إلى مضجعها ، قالت : اللهم يا غليظ الحجب ، ويا منزل الكتب ، / ويا معطي الرعب ، ويا مولي الغرب ، ويا مسير النجب ، ١٠٩/ب أسألك أن ترد عليّ زوجي ، فتكشف به همي ، وتصفني بها لذتي ، وتقرب به عيني ، وأسألك أن تحكم بيني وبين عبد الملك بن مروان ، وأنه الذي فعل بنا هذا ، فقد صير الرجل نازحاً ، والمرأة متقلقلة في فراشها ، ثم أنشدت تقول شعراً :

تطاول هذا الليل والعين تدمع	وأرقني حزن بقلبي موجع
فبت أقاسي الليل أرعى نجومه	وبات فؤادي خائفاً يتفزع
إذا غاب منها كوكب في مغيه	لمحته بعيني آخر الليل يطلع
إذا ما تذكرت الذي كان بيننا	وجدت فؤادي للهوى يتقطع
وكل حبيب ذاكرةً لحبيبه	يرجى لقاء كل يوم ويطمع
فيا ذا العرش فرج ما ترى من صبابتي	فأنت ترعى أموري وتسمع
دعوتك في السراء والضراء دعوة	عليّ علته بين السرى سيف يلدع

فقال عبد الملك لحاجبه : أتعرف هذا المنزل . . ؟ . . قال : نعم ، هذا منزل يزيد بن سنان . . قال : فما المرأة منه . . ؟ . . قال : زوجته . . فلما أصبح قال : كم تصبر المرأة عن زوجها . . ؟ . . قالوا : ستة أشهر . . فأمر العسكر أن لا يمكث أحد أكثر من ستة أشهر . .

١٢ - ● - وعن أبي مصعب الزهري ، قال : هوي رجل من ولد

سعيد بن عياض جارية مغنية بالمدينة ، فهام بها دهرأ ، وهو لا يعلمها ذلك . . ثم إنه ضجر بالمكاتبة ، فتعرض لها عشية ، فلما خرجت قال : بأبي أنت وأمي ، / أن تتغنين بهذا الشعر . . ! ؟ . . قالت : وما هو . . ؟ . . قال :

أحبكم حباً بكل جوارحي فهل لكم بما لكم عندي
أتجزون بالود المضاعف مثله فإن كريماً من جازا الود بالود

فقلت: نعم، وأغني أيضاً، فأنشدت:

للذي ودنا المودة بالضعف وقتيل البادي به لا يجازي
لو بدا ما يناله لملاً الأرض وأقطارها معاً والحجاز

قال: فبلغ ذلك عمر بن عبد العزيز، وكان أميراً على المدينة، فابتاعها بمال كثير، وأهداها إليه، فمكثت عنده سنة، ثم ماتت.. فبقي بعدها شهوراً ثم مات أسفاً.. فقال أبو السائب المخزومي: هذا سيد شهداء الهوى، فامضوا بنا ننحر على قبره سبعين بدنة كما كبر رسول الله ﷺ على حمزة رضي الله عنه سيد الشهداء سبعين تكبيرة...

١٣ - ● - وحدثنا أبو الحسن بن زيد البصري، قال: بلغني أن بشر بن مروان كان إذا ضرب البعث على رجل من كندة، ثم وجده، فدخل بمركزه، أقامه على كرسيه، ثم سمر يديه في الحائط، ثم ينزع الكرسي من تحت قدميه، فلم يزل يتشطح حتى يموت.. قال: وضرب ذات مرة البعث على رجل حديث عهد بعرس ابنة عمه، فلما صار في مركزه، كتب إلى ابنة عمه كتاباً، ثم كتب في أسفله:

لولا مخافة بشر في عقوبته وأن يرى حاسد كفي بمسما
إذ لعطلت ثغر ثم زرتكم إن المحب إذا ما اشتاق زوار

/ قال: فورد الكتاب إلى ابنة عمه، فأجابته على كتابه، ثم كتبت في أسفله شعراً:

ليس المحب الذي يخشى العقاب ولو كانت العقوبة في نحره النار
على المحب الذي لا شيء يفزعه أن يستقيم ومن يهواه في الدار

قال: فلما قرأ كتابها، قال: لا خير في الحياة من بعدها.. وأقبل حتى دخل المدينة، فأتى إلى بشر بن مروان في وقت غدائه، فدخل عليه.. فقال

١١٠/ب

له : ما الذي دعاك إليّ، أما سمعت نداءنا وأبعادنا . . قال : فإما أن عفوت، وإما عاقبت . . فقال : ويلك، وهل لمثلك من عذر . . قال : فقص عليه قصة ابنة عمه . . فقال بشر : يا غلام، ضع اسمه من البعث، وأعطه عشرة آلاف درهم، . . ثم قال له : ألحق بابنة عمك الشيباني . . .

١٤ - ● - وعن قحطب بن حمد، قال : إني لواقف على رأس المأمون يوماً، وقد جلس للمظالم، فكان آخر من تقدم - وقد همّ بالقيام - امرأة عليها هيئة السفر، وعليها ثياب رثة، فوقفت بين يديه، وقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . . فنظر المأمون إلى يحيى بن الأكثم، فقال لها يحيى : وعليك السلام يا أمة الله، تكلمي بحاجتك . . فقالت :

يا خير منتصف يهدي له الرشد ويا إماماً به قد أشرق البلد
تشكو إليك عميد القوم أرملة عدي عليها فلم يترك لها سبد
وابتزمني ضياعي بعد منعها ظلماً وفرق مني الأهل والولد
فأطرق المأمون حيناً، ثم رفع رأسه فأجابها شعراً :

في دون ما قلت زال الصبر والجلد عني وقرح مني القلب والكبد
/ هذا آذان صلاة العصر فانصرفي وأحضري الخصم في اليوم الذي أعد
فالمجلس السبت إن يقضي الجلوس لنا ننصفك منه وإلا المجلس الأحد
أ/١١١

فلما كان يوم الأحد، جلس، فكان أول من تقدم إليه المرأة، فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . . فقال لها : وعليك السلام، أين الخصم . . ؟ . . قالت : الواقف على رأسك يا أمير المؤمنين، وأومأت إلى العباس ابنه . . فقال : يا أحمد، يا ابن أبي خالد، خذ بيده فأجلسه معها مجلس الخصوم . . فصار كلامها يعلو على كلام العباس . . فقال لها أحمد بن أبي خالد : يا أمة الله، إنك بين يدي أمير المؤمنين، وإنك تكلمين الأمير، فاخفضي من صوتك . . فقال المأمون : دعها يا أحمد، فإن

الحق أنطقها، والباطل أخرسه.. ثم قضى لها بردّ ضياعها، وبحسن معاونتها، وأمر لها بنفقة...

١٥ - ● - وحكي أن جارية زفت إلى بيت رجل، فوثبت عليها ضررتها، وضبطتها بنات عم لها، إلا أنها كانت قد افتضتها بإصبعها.. فاستفتى الرجل إلى الحسن رضي الله عنه.. فقال له: إنها إحدى دواهيكم يا أهل الكوفة، ولها عليّ الحكم لها اليوم، فما ترون..؟.. قالوا: أنت أعلم.. قال: فإنني أرى أن التي افتضتها زانية، عليها صداقها، وتجلد مائة جلدة، وأرى اللواتي ضبطنها مفتريات، وعليهن ثمانين جلدة لكل منهن...

١٦ - ● - قال: أتت أم ابن جامع إلى معن بن زائدة، وابن جامع معها، وهو صغير يتبعها، ويطأ ذيلها، وكانت من قریش، وكان معن بن زائدة على اليمن، فقالت: أصلح الله الأمير، إن عمي زوجني / زوجاً ليس بكفو، ففرق بيني وبينه.. قال: ومن هو..؟.. قالت: ابن ذي متاجب.. قال: عليّ به.. فدخل أقبح من خلق الله تعالى، وأشوهه خلقاً.. فقال: من هذه منك..؟.. قال: امرأتي.. فقال: خلّ سبيلها.. ففعل.. فأطرق معن ساعة، ثم رفع رأسه إليه، وأنشد يقول شعراً:

ب/١١١

لعمري لقد أصبحت غير محبب	ولا حسن في عينيها ذا متاجب
فما لمثلها لما بكت وجهه	وعيناً لها خوصاً من تحت حاجب
وأنف كأنف البكر تقطر دائماً	على لحيه عطلاً شائب وشارب
أنت بها مثل المهمات أسومها	فيا حسن مجلوب ويا فتح جالب

قال: فأمر لها بمئتي دينار، وقال لها: تجهزي إلى بلادك...

١٧ - ● - وحكي أن الحجاج بن يوسف الثقفي، أتى بحرورية، فقال لأصحابه: ما تقولون في هذه..؟.. قالوا: اقتلها، أصلح الله الأمير، ونكل بها غيرها.. فتبسمت الحرورية.. فقال لها: لم تبسمت..؟.. فقالت: لقد كان وزراء أخيك فرعون خير من وزرائك، استشارهم في قتل موسى عليه

السلام، فقالوا: أرجه وآخيه، وهؤلاء يأمرؤنك بتعجيل قتلي.. فضحك الحجاج، ثم أمر بتعجيل طلاقها...

١٨ - ● - وخرج الحجاج ذات ليلة من الليالي يتجسس الناس، وإذا امرأة في غرفة مشرفة، قد أخرجت رأسها، والقمر في ليلته الرابعة عشر، فقالت: اللهم يا نور النور، ويا مدبر الأمور، أسألك بهذا النور الذي نورت به السموات والأرض، أن تحفظ / الحجاج بن يوسف الثقفي...
أ/١١٢

قال: فتعجب الحجاج من قولها، فوقف تحت شرفتها، ورفع رأسه إليها، وقال: أما تخافين الله تعالى، تدعي لرجل يقال عنه أنه قد حارب الله ورسوله، وسفك الدماء، أما تراقبين الله تعالى.. فقالت: ما أدعو لصحبة معه، وإنما أدعو الله تعالى خوفاً أن يبدلنا بأبخس منه وأظلم...

١٩ - ● - قال: كانت فاطمة بنت الحسين بن علي، عند الحسن بن علي رضي الله عنهم أجمعين، فلما احتضر، قال لبعض أهله: إن عبد الله بن عمر بن عثمان، إذا سمع بوفاتي، يجيء متهيئاً في إزار، ورداء قد أسبله، فيقول: حيث أشهد ابن عمي، وليس يريد إلا النظر إلى فاطمة، فإذا جاء فلا يدخل...

قال: فوالله، ما هو إلا أن أغمضوه، حتى جاء عبد الله في تلك الصفة التي وصفه بها، فمنعوه ساعة.. فقال بعض القوم: لا يدخل.. وقال البعض الآخر: افتحوا له فإن مثله لا يرد.. ففتحوا له، فدخل، فلما ساروا به إلى القبر قامت عليه فاطمة وهي تبكي، ثم تطلعت في القبر فجعلت تصك وجهها بيديها خاسرة عند ذراعيها، فدعا عبد الله بن عمرو وصيفاً له، وقال: انطلق إلى هذه، وقل لها: يقرئك ابن عمك السلام، ويقول لك: كفي عن إخفاء وجهك، فإن لنا بك حاجة، فلما بلغت الرسالة أدخلت يدها في / كمها ١١٢/ب حتى انصرفت...

قال: فتزوجها عبد الله بعد ذلك، فولدت محمد بن عبد الله، وكان يُسمى المذهب، وذلك لجماله، وكانت ولدت حسن بن حسين بن عبد الله بن الحسن الذي حارب أبو جعفر، ولديه إبراهيم ومحمد بن عبد الله بن الحسن، حتى قتلهما...

٢٠ - ● - قال: شكّا جرير بن عبد الله البجلي، إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ما يلقي من النساء.. فقال: لا عليك، فإن التي عندي، ربما خرجت من عندها فتقول: إنما تريد أن تتصنع لفتيات بني عبد المطلب.. وسمع كلامهما عبد الله بن مسعود، فقال: لا عليكما، فإن إبراهيم الخليل عليه السلام شكّا إلى ربه ذرعاً من خلق سارة، فأوحى الله سبحانه وتعالى إليه، أن ألبسها لباسها، لم ترَ في دينها ضناً.. فقال عمر رضي الله عنه: إن بين جوانحك علماً..

٢١ - ● - قال: تنافرت امرأة وزوجها إلى أسلم بن قتيبة، فقالت: أبغضه والله لخصال فيه.. فقال: وما هي..؟.. فقالت: هو قليل الغيرة، سريع الطيرة، شديد العتاب، كثير الحساب، قد أفل نخره، وأدبر دفره، وهجمت عيناه، واضطربت رجلاه، يفيق سريعاً، وينطق وجيعاً، يصبح خلياً، ويمسي رحيماً، إن جاع جزع، وإن شبع جشع..

٢٢ - ● - قال: ونظر خالد بن صفوان إلى جماعته في مسجد البصرة.. فقال: ما هذه الجماعة..؟.. قالوا: إن امرأة تدل على النساء.. فأتاها، فقال لها: أبغي امرأة.. فقالت: صفها لي.. فقال: أريدها بكرةً كفيت، أو ثيباً، حلوة من قريب، تحفة من بعيد، كانت في نعمة، وأصابتها حاجة، فيها أدب النعمة، وذل الحاجة، إذا اجتمعنا كنا أهل دنيا، وإذا افترقنا كنا أهل آخرة.. / قالت: قد أصبتها لك.. فقال: وأين هي..؟.. فقالت: في الرفيق الأعلى، في الجنة، فاصعد إليها..

٢٣ - ● - قال: أخبرنا خالد عن الشعبي، قال: جاءت امرأة إلى شريح، فجعلت تبكي.. فقال رجل: ألا ترى هذه المرأة المسكينة وهي تبكي.. فقال شريح: قد جاء إخوة يوسف عليه السلام في العشاء ييكون، ثم أنشد شعراً:

أغرك من شيخ بطاء ومملقة أم اللحية البيضاء للنتف مطلقه
فإن بني يعقوب جاؤوا أباهم عشاء وهم ييكون زوراً ومخرقه

* * *

قصص المحافظين والعابدين والزهاد

٧٩- كَمْ زَاهِدًا وَمُحَافِظًا وَمُجَاوِرًا لِلدَّيْرِ ذَاهِب
٨٠- مِنْ جُورِهِنَّ وَمَا لَقُوا مِنْهُنَّ أَضْحُوا فِي الْمَعَائِبِ

ذكر من افتتن من الرهبان، والعباد، والصالحين، والمشايخ، وما حدث عليهم من أجل النساء، وما لقوا منهن، وما يتعلق بأسبابهن مع الحكام الجارية عليهن . . .

عن وهب بن منبه، قال: إنه رأى بعض أصحابه ينظر إلى امرأة، فقال له: احبس نظرك عن النظر إلى ما ليس لك بحق، فكل عابد، وراهب، افتتن، وما كان سبب فتنته إلا النظر، وجعل يحدثهم:

١ - ● - قال: كان في بني إسرائيل راهب يتعبد في قلب جبل، فمكث ستين سنة في أشد العبادة. . . قال: فمرت به يوماً امرأة من بني إسرائيل، فدعته نفسه إليها، فنظر إليها، ثم رجع إلى نفسه فقال لها: بعد عبادة ستين سنة تركني إلى الدنيا، لا ذقت طعم الدنيا بعد اليوم أبداً، ومد يده إلى عينيها / فاقتلعهما. . . قال: وكان يتلمس الأرض إذا أراد حاجة، ويقول لنفسه في معاينتها: كيف رأيت العقوبة. . .؟ . . .

ب/١١٣

وفي هذا لنا شعر:

يا عين ويحك من دعاك إلى ملاحظة القمر

ذوقي بزعمك ما جنيت على جفونك بالنظر
قد كنت أحذر قبل ذا ويلى فما نفع الحذر

٢ - ● - وحكي أن عابدين توافقا في السياحة زماناً طويلاً، فبدا لأحدهما الرجوع إلى وطنه، فكتب الآخر معه كتاباً إلى أهله، فلما أوصل الكتاب إلى زوجة صاحبه، نظر إليها فافتتن بها، وكانت جميلة صالحة، وكلمها بسرّه - فقالت له: إذا كان الليل سر إليّ بعد العشاء.. ثم خرجت إلى ابن عم لها قاعد في دكان يعرض عليها المال، وكانت تتمنع.. فقالت له: أحتاج إلى مئة دينار.. فأعطاها ذلك.. فدخلت حجرة النحاسين، واستعرضت جارية على صفتها، واشترت لها الثياب الفاخرة، وقالت لها: إني اشتريت لك لأخ لي، ثم صنعت ألواناً من الطعام، فلما أمست، جاء الرجل فدخل عليها، فرأى الجارية مزينة، فظن أنها هي صاحبتة، فأكل وغسل يديه، فقامت الجارية فطرحت الفراش ونصبت الشمعة، وقام العابد يصلي، والجارية نائمة، والمرأة الصالحة تتطلع عليهم من شقوق الباب، فصلى الرجل ما شاء الله تعالى أن يصلي، ثم جاء إلى الشمعة فأحرق إصبعه بالنار، ثم عاد إلى الصلاة، ثم لم يزل كذلك حتى أحرق أصابعه كلها..

/ قال: فلما قرب الصباح، سجد سجدة، وقال: يا إلهي، إني لا أطيق نفسي، فاقبضني إليك.. فقبض في سجدته تلك، فلما سكنت نفسه، خرجت المرأة الصالحة، وأيقظت الجارية حتى توقظه، فحركته فإذا هو ميت، فشاع الخبر في الليلة، وكثر المصلون والباكون عليه... والله أعلم...

٣ - ● - وحكي أيضاً: أن عابداً كان في بني إسرائيل، عبد الله تعالى ستين سنة، ثم نزل من صومعته، فرأى امرأة فافتتن بها ولم يطق الصبر عنها، ثم دعت نفسه إليها، فخاف الغلبة على نفسه، فساح في الجبال والأودية، ولم يزل كذلك حتى قبض الله تعالى روحه...

٤ - ● - وحكى الأصمعي: أن فتى جميلاً خرج في سبيل الله تعالى، فوقع في فلاة من الأرض، فصاحبته امرأة، فوقع في نفسها، فقالت له: أيها الفتى، هل تحسن شيئاً من القرآن: قال: نعم... .

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم... . بسم الله الرحمن الرحيم... .
﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةً جَلْدَةً﴾^(١).. .

فقالت: دعنا من هذا.. . أتحسن شيئاً من حديث رسول الله ﷺ.. .
قال: نعم.. . حدثنا فلان، عن فلان، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الزنا يورث الفقر»^(٢).. . وفي المعنى: لو وضع ذراع الزاني على رأس جبل لانهد إلى الأرض السابعة.. . فقالت: دعنا من هذا الحديث، هل تحسن شيئاً من الشعر.. . قال: نعم.. . ثم أنشد:

/ ولست من النساء ولست مني / ولا أبغي الفجور إلى الممات

ب/١١٤

٥ - ● - وعن محمد بن السماك، أنه قال: كان عندنا بالكوفة فتى من الزهاد، وكان يخرج من المسجد إلى منزله وفي طريقه جارية من العرب، فنظرت إليه ذات يوم فهويته، وكان من أجمل الناس وجهاً، وكانت هي فائقة الجمال، وكان لها قدرة ويسار، وكانت تقعد له على الطريق، تنتظر أمره لتتبعه إلى منزله، فمكثت على ذلك حيناً، فلما طال عليها الأمر، وعيل صبرها، قعدت له يوماً كما كانت تقعد، وكانت ذا عقل وبيان وأدب، فلما مرَّ بها، قالت له: يا هذا، قف حتى أكلمك.. . فوقف وقال لها: ما حاجتك.. . وهو مطرق رأسه... .

(١) سورة النور - الآية ٢... .

(٢) رواه البيهقي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وانظر كشف الخفاء - ج ١، ص ٤٤١،

حديث رقم ١٤٢٧ و ١٤٣٢... .

ولنا في هذا معنى :

يا ذا الذي عن حاجتي مستخبر رفقاً أمثلك عن غرامي يُسئل
لا حاجة لي في سواك وإنما يسعى لأجل هوى النفوس الأرجل

فقلت: اسمع مني ما أقول لك، وأنزله على أحسن منزل، فوالله ما حملني على كلامك إلا مخافة مفارقة الدنيا بغير حجة لنفسي إذ كنت سبباً . . قال: فراعته ذلك وهاله، وقال لها: لا تكثري الحديث، فإن هذا موقف تهمة، وأنا أكره أن تكون للتهمة في موضعاً . . قالت: ما حملني على كلامك تجربة مني لهذا الفعل مع غيرك، وإن هذا المقام لا يشبه به أهل المروات، وإن الأقدار تسوق أهلها إلى منتهاها، / واعلم أيها الرجل، أن قلبي قد أصبح فارغاً من جميع الهموم إلا من ذكرك، فالله في أمري، واستدل بقلبك على كثير مما عندي . . قال: فتغير وجهه ولونه وحرار على جوابها ولم يتكلم . . فلما رأت ذلك منه، ولّت عنه وهي تقول: أسأل الله سبحانه وتعالى الذي بيده مفاتيح قلبك أن يسهل لي ما عسر من أمرك، ثم أنشدته:

بنفسي وأهلي أنت متنسك إذا ما رأتك العين جازت فما تمشي
وطار فؤادي واعترتني وساوسي وهجن بنات القلب بعضاً على بعض
وجلّت على عيني حجاباً مستراً وتمضي أوطاراً وهاتيك لا تمضي

ثم أنشدت هذه الأبيات :

لا أنسى ما أنسى منه يوم موقفه إذ جئت أشكو إليه بعض بلوائي
فطرفه خاشع من خوف سيده يا حسنه حائف من حرق نيراني
لألبس لهذا اليوم مدرعة وأهجر اللهو فيه خوف عقباني
ولا أبوح بما قد كنت تكرهه ولا ادعيت ولو حققت دعواني

قال: وانصرفت إلى منزلها، ولم تزل راکعة وساجدة وصائمة وقائمة، وكان إذا غلب عليها الأمر، تدعو بكتابه فتضعه على يمينها . . فيقال لها: وما يغني عنك . . ؟ . . فتقول: وهذا ذو غيره . . وكانت إذا حان الليل نادت: يا

وارث / الأرض هي لي منك مغفرة، قد كنت أفعل فعل الفاجر الداني، فانظر إلى قلق يا مشتكي حزني بنظرة منك تجلو بعض أحزاني.. فلم ترل كذلك حتى فارقت الدنيا إلى رحمة الله تعالى...

٦ - ● - وعن أبي بن كعب عن الحسن رضي الله عنه، قال: كانت امرأة بغية، لها ثلث الحسن، لا تمكن من نفسها إلا بمائة دينار، وأنه أبصرها عابد فأعجبته، فذهب فعمل بيديه وعالج حتى جمع مائة دينار، ثم جاء إليها، فقال: إنك أعجبتي، فانطلقت فعملت بيدي، وعالجت حتى جمعت مائة دينار.. فقالت له: ادخل.. فدخل.. وكان لها سرير من ذهب، فجلست على سريرها، ثم قالت: هلم.. فلما جلس منها مجلس الرجل للمرأة، أخذته رعدة، فقال لها: اتركني أخرج ولك المائة دينار.. قالت: ما بدا لك وقد زعمت أنك رأيتني فأعجبتك، فذهبت فعالجت وكددت حتى جمعت مائة دينار، فلما قدرت علي فعلت الذي فعلت.. فقال: فرقاً - خوفاً - من الله تعالى ومن مقامي بين يديه، وقد بغضت إلي، فأنت أبغض الناس إلي.. فقالت: إن كنت صادقاً فما لي من زوج غيرك.. فقال: دعيني أخرج.. فقالت: لا، إلا أن تجعل لي أنك تتزوج بي.. قال: لا حتى أخرج.. فقالت: فلي عليك إن أنا أتيتك أن تتزوجني.. قال: لعل يكون ذلك.. ثم تقنع بثوبه وخرج إلى بلده...

قالت: لعل الله يجمعني به يوماً.. ثم إنها ارتحلت تائبة نادمة على ما كان منها حتى قدمت بلده، فسألت عن اسمه ومنزله، فدلّت عليه، وكان يصلي، فنظرت إليه، فلقيت منه ما لقيت...

قال ابن عباس رضي الله عنه: فليل له إن الملكة قد جاءتك.. فلما رآها شهق شهقة فمات وسقط في يدها رحمة الله تعالى عليه.. / فقالت: أما هذا فقد فاتني، فهل له من قريب..؟.. قالوا: أخوه رجل فقير.. قالت:

فإني أتزوجه حباً لأخيه.. فتزوجته، فنشر الله سبحانه وتعالى منها سبعة أنبياء...

٧ - ● قال: حدثنا محمد بن الحسن، عن إسناد لا أحفظه: أنه علق فتى من الحي بابنة عم له، فخطبها من أبيها، فرغب بها عنه، فبلغ ذلك الجارية، فأرسلت إليه تقول: قد بلغني حبك إياي، وقد أحبيتك لذلك لا إلى غيره، فإن شئت خرجت بغير علم أهلي، وإن شئت سهلت لك المجيء... فأرسل إليها: كل ذلك لا حاجة لي فيه، إني أخاف أن يلقيني حبك في نار لا تطفأ، وعذاب لا يقطع أبداً... فلما جاءها الكتاب بكت، ثم قالت: لا زال راهباً، والله لا أجد بأولى بهذا الأمر من أحد من الخلق في الوعد والوعيد مشتركين...

قال: ثم قامت الفتاة فتدرعت وأقبلت... فكبر ذلك على أهلها وعلى أبيها، فلم تزل تعبد الله سبحانه وتعالى حتى ماتت... فكان الفتى يأتي قبرها كل ليلة، ويدعو لها ويستغفر... ثم ينصرف...

قال: فأخبرنا أنه رآها في النوم... فقال لها: يا فلانة... فقالت نعم... ثم قالت:

نعم المحبة يا سؤالي بمحبتكم حب بحر لي خير وإحسان
إلى نعيم وعيش لا زوال له في جنة الخلد خلد ليس بالفاني

قال: فقلت لها: أفتذكريني وأنت هناك...؟... فقالت: والله لا أتمنى على الله تعالى مولاي ومولاك إلا ذلك، فأعن نفسك عليها بالطاعة، فلعله يجمع بيني وبينك في دار كرامته، ثم ولت... فقلت لها: متى أراك... قالت: تراني قريباً إن شاء الله تعالى...

قال: فما لبث الفتى / بعد هذه الرؤيا إلا قليلاً حتى مات، فدفن إلى ١١٦/ب جانب قبرها...

٨ - ● - ويحكى أن راهباً كان في صومعة له يتعبد فيها، فمرت به امرأة، فافتتن بها، فنزل إليها.. فقالت: ما تريد...؟.. قال: تمكيني من نفسك...!!.. فقالت: هيهات، ما كنت أفعل ذلك أبداً.. فقال لها: ولم ذلك...؟.. فقالت له: إني أكره أن تكون فضيحتك في يوم القيامة على يدي.. قال: فصرخ وسقط مغشياً عليه، ثم أفاق وأنشد شعراً.. قال:

أنا المسيء المذنب الخاطي المفرط البين إفاطى
فإن تعاقب كنت أهلاً وكلاً وأنت أهل للعفو عن الخاطي

ثم قال: إلهي وسيدي، جُد عليّ بفضلك ورحمتك.. قال: فنودي.. عُد إلى صومعتك.. فعاد إلى صومعته، وأخذ في البكاء حتى ذهب بصره، وانحنى من شدة الحزن، إلى أن مات رحمه الله...

٩ - ● - حدثنا أبو الفضل الربعي، قال: كنت في المزدلفة بين النائم واليقظان، إذ سمعت صوتاً شجياً وبكاء حرقاً، فاتبعت الصوت، فإذا بجارية كأنها القمر معها عجوز، فلطيت ألاحظها من حيث لا تراني، وأمتع عيني بحسنها، وكانت الجارية تنشد فتقول:

دعوتك يا مولاي سراً وجهراً دعاء ضعيف القلب من محمل القلب
ابتليت بقاسي القلب لا يعرف الهوى وأقبل خلق الله الهائم الصب
فإن كان لا يقضي المودة بيننا فلا يخلو من حب له أبداً قلبي
رضيت بهذا إن حييت وإن أمت / فحسبي ثواباً في المعاد به حسبي

أ/١١٧

قال: وجعلت تردد ذلك وتبكي، والناس مشغولون بجمع الحصى.. فقامت إليها، فقلت لها: بنفسي أنت مع هذا الوجه الحسن يمتنع عليك من تريدين.. فقالت: نعم، ويفعل ذلك تصبراً، وفي قلبه مني أكثر ممّا في قلبي منه.. فقلت: فإلى كم هذا البكاء...؟.. قالت: أبداً، أو يصير الدمع دماً، ويطفئ نفساً غماً.. فقلت: إن هذه الليلة من ليالي الحج، فلو سألت الله سبحانه وتعالى التوبة ممّا أنت فيه، والمغفرة لما سلف، رجوت أن يذهب

حبه من قلبك . . فقالت : يا هذا عليك بنفسك في طلب رغبتك ، فإني قدمت
رغبتني إلى من ليس يجهل بغيتي . . وحولت وجهها وأقبلت على بكائها
وشعرها ، فكانت تقول منشدة :

ومستخبر عن سر ليلي وددته بعمياء في ليلي بغير يقيني
يقولون خبرنا فأنت أمينها وما أنا قد خيرتكم بأمين

١٠ - ● - وحكي أيضاً عن عبد الله بن عبد الرحمن ، قال : مرّ بسلامة
المغنية ، وهي تغني فوقف يسمع غناءها . . فأدخله مولاها إليها ، فوقع في
قلبه ووقع بقلبها ، فقالت له يوماً وقد خلا المجلس :

دعني أبكي ما أجيش وأكتم فعساك بالشكوى ترق وترحم
لو أن قلبك صخرة وتثنية / وجدي تألم مثلها ما تألم ١١٧/ب
إني لا أتعدى على حمل الهوى وعذابه علمني أن أتعلم

ثم قالت : أنا والله أحبك . . فقال : وأنا والله أحبك ، وأشتهي أن أضع
فمي على فمك ، وألصق صدري على صدرك ، وأضمك إلي ، وتضميني
إليك . . قالت : والله وأنا أشتهي ذلك . . قال : فما يمنعك من ذلك وأن
المجلس خالٍ ، وما يقربنا أحد . . فأنشدت شعراً وقالت :

الصبر ينقص والبلاء يزيد والدار دانية وأنت بعيد
أشكوك أم أشكو إليه فإنه لا يستطيع سواهما المجهود

فقال لها : ويحك ، أما سمعت قول الله عز وجل : ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ
بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾^(١) . . وأنا أكره أن تكون خلتي لك منقطعة
في الآخرة . . ثم عاد إلى طريقه وانصرف ، ولم يعد إليها أبداً . . ذكره
الخرائطي . . قال ولبعضهم شعر :

(١) سورة الزخرف - الآية ٦٧ . . .

كم قد ظفرت بهن أهوى فيمنعني منه الحياء وخوف الله والحذر
وكم خلوت بمن أهوى فيقننني منه الفكاهة والتحرير والنظر
أهوى الملاح وأهوى من أجالسهم وليس لي في حرام منهم وطر
كذلك الحب لا إتيان فاحشة لا خير في لذة من بعدها سقر
ثم قال:

والله ما أبغي الوصال لريبة أو لا فلا اتصلت بكفي ساعد
لكن لطيب تواصل وتعازل وتألف وتحدث وتناشد
/ وكذلك كان هو الظراف وإنما فسد الهوى في هذا الزمان الفاسد

أ/١١٨

١١ - ● - وحكي أيضاً عن ابن عبد الله الهيثم، قال: سمعت بعض
أهل الشام تحدث وقال: إن راهباً من الرهبان تعبد في صومعة له ستين سنة،
فأشرف يوماً، فرأى امرأة تتمختر في مشيتها، فأصغت نفسه إليها، وجعل ينظر
ويتلذذ، ثم ندم ورجع إلى نفسه، فقال: آه.. ما أصنع بك، وبما أعاقبك
به.. ثم هوى إلى عينيه فاقتلعهما، فرأى في منامه من يقول له: إنك قد
جاوزت عقوبة نفسك، فاسأل حاجتك.. فقال: حاجتي أن لا أوافق على
تلك النظرة.. ففيل له: قد كفيت موة الحساب والمسألة غداً، ثم إنه أقام
في اجتهاده أعظم ما كان، وكان إذا أراد حاجة يضع نفسه على الأرض
ويطلبها..

١٢ - ● - وحكي أيضاً أنه كان في بني إسرائيل رجل من العباد، وكان
شديد الاجتهاد، فرأى يوماً امرأة من بني إسرائيل، فوقعت في نفسه بأول
نظرة، فقال: ما احتال بهذه، وليس يمكنني ما يمكن غيري من الحركة في
أمرها، فقام مسرعاً حتى لحقها، فقال لها: رويدك.. فوقفت والتفتت إليه
فعرفته، فقالت له: ما حاجتك يا هذا..؟.. قال: ذات زوج أنت..؟..
قالت: نعم، فما تريد..؟.. فقال: لو كان غير هذا، كان لنا نظر في هذا..
قالت: وما لنظرك..؟.. قال: عرض علي / قلبي من أمرك عارض..
فقالت: ومن يمنعك من إنفاذه..؟.. قال: وتتابعيني على ذلك.. قالت:

ب/١١٨

نعم . . قال : فخلت به في موضع ، فلما رأته مجدأً في الذي سأله ، قالت له :
رويدك يا مسكين ، لا تسقط جاهدك عنده . . قال : فانتبه لها ، وسكن عن قلبه
ما كان يجده من فتنها ، لا حرمك الله تعالى ثواب فعلك . . ثم تنحى ناحية ،
وقال لنفسه : اختاري ، إما عمى العين ، أو قطع الإحليل ، وأما السياحة في
مسالك الوحوش والسباع . . فاختارت نفسه السياحة ، فقال : ليس عندي ثياب
السياحة . . ثم قصد طالباً مسالك الوحوش في البراري والقفار ، وهو يبكي
على تلك النظرة ، حتى مات رحمه الله تعالى . . .

١٣ - ● - وحكي أنه كان في بني إسرائيل راهب يتعبد في صومعة له ،
وكان له صديق يتولى قوته ، وكان إذا كان له شغل أرسل ابنته بقوته . . قال :
فنظر إليها الراهب فافتتن بها ، فشغلت عليه قلبه ، فقال لنفسه ذات مرة : ما
هذه الفتنة التي أتيت والليلة التي أنت عليها ، وبقي مثل الحيران ، قال : فرأى
في ليلته في المنام من يقول له : إما أن تجعل حظك هذه الجارية ، أو تحب
ما عندنا . . فقال : ما عند الله تعالى خير وأبقى ، ثم أخلص لله عز وجل ،
فذهب عن قلبه ما كان من نجواه . . .

١٤ - ● - وحكي أيضاً ، قال : عشق رجل من النساك جارية من أهل
البصرة ، فبعث إليها من يخطبها ، فأبت عليه ، وقالت : إن / أردت غير هذا
فعلت . . فأرسل إليها ، يقول : يا سبحان الله أيتها المرأة ، أدعوك إلى الأمر
الصحيح الذي لا عيب فيه ولا وهن ، وتدعيني إلى الأمر الذي لا يصلح لا
إلي ولا لك . . فأرسلت إليه تقول : قد أخبرتك بالذي عندي ، فإن أردت
فتقدم ، وإن أردت فتأخر . . فقال لها :

أسألكم الحلال وتدع قلبي إلى ما تشتهي من الحرام

فلما علمت أنه قد أشنع عليها من الفاحشة ، أرسلت إليه أنا بين يديك
على ما تحب . . فكتب إليها : هيهات لا حاجة لي فيمن دعوتها إلى الطاعة ،
وتدعوني إلى المعصية . . .

وقال الشاعر:

ما إن دعاني الهوى لفاحشة إلا عصاه الحياء والكرم
ولا إلى محرم مددت يدي ولا لمست لي بذلة قدم

١٥ - ● - عن زيد بن أسلم، قال: خرج عطاء وسلمان أولاد يسار حاجين من المدينة ومعهما أصحاب لهما، فأتوا منزلاً، فانطلق سلمان وأصحابه لحاجتهم، وبقي عطاء يصلي في منزله، فدخلت عليه امرأة من الأعراب جميلة، فأوجز في صلاته، ثم قال لها: ألك حاجة...؟.. فقالت: نعم... قال: وما هي...؟.. قالت: قم فأصب مني، فإني قد أردت ولا بعل لي... فقال لها: إليك عني ولا تحرقيني ونفسك في النار... والمرأة تراوده عن نفسه... فجعل يبكي ويقول: إليك عني... ثم اشتد بكاءه... / فلما نظرت المرأة إليه ملّت بكاءه، فبينما هما في ذلك، إذ أقبل سلمان، فجعل يبكي في ناحية من الدار لبكائهما وما أبكاهما، وكان أصحابه يأتون رجلاً رجلاً، ويبكون ولا يسألون عن أمرهم، حتى كثر البكاء، فلما رأت الأعرابية ذلك قامت فخرجت، وقام القوم ففرقوا، فلبث سلمان بعد ذلك دهرًا طويلاً لا يسأل أخاه عن قصته وقصة المرأة، وذلك إجلالاً له، وكان أسن منه، ثم إنهما قدما إلى مصر لبعض حاجتهما، فلبث ما شاء الله تعالى، فبينما عطاء ذات ليلة نائم استيقظ وهو يبكي، فقال سلمان: يا أخي ما يبكيك...؟.. قال: رؤيا رأيته... قال: وما هي...؟.. قال: لا تخبر بها أحداً ما دمت حياً... قال: نعم... قال: رأيت يوسف الصديق عليه السلام، فجئت أنظر إليه، فلما رأيت حسنه، بكيت، فنظر إليّ وقال: ما يبكيك أيها الرجل...؟.. قلت: بأبي وأمي ذكرك وامرأة العزيز، وما ابتليت به من أمرها، وما لبثت في السجن، وفرقة الشيخ يعقوب، فبكيت في ذلك، وجعلت أتعجب منه... فقال لي عليه الصلاة والسلام: ألا تتعجب من صاحب المرأة البدوية، فعرفت القصة، فبكيت على ذلك، واستيقظت باكراً... فقال سلمان: يا أخي، وما كان حال تلك المرأة... فقص عليه

ب/١١٩

القصة . . فما أخبر سلمان بها أحداً حتى مات عطاء، فحدث به امرأة من أهله، فما شاع الحديث إلا موت عطاء رحمه الله تعالى . .

أ/١٢٠

/ قال:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا	تقل خلوة ولكن قل عليّ قريب
لهونا لعمر الله حتى تتابعت	ذنوب على آثارهن ذنوب
فلا تحسبن الله يغفل ساعة	ولا إنما يخفى عليه الذي يغيب
ألم تر أن اليوم يسرع ذاهباً	وإن غدا للناظرين قريب

* * *

قصص متفرقة

- ٨١- وَكَذَا أَبُو الرَّجُلِ الَّذِي قَدْ كَانَ لِلْخَيْرَاتِ نَاهِبٌ
٨٢- مِنْ مَكْرَهٍ رُمِيَ بِسَهْمٍ كَانَ بِآلَافَاتٍ صَائِبِ

١ - ● - وأما أبو الرجل المشهور بالعبادة والزهد، وقد ذكره الله عز وجل في بعض كتبه المتقدمة، وضرب به مثلاً، ووصفه، وأثنى عليه ثناءً صالحاً، لما كان له مع الله سبحانه وتعالى من المعاملة، وكان أعلم بني إسرائيل، وأقواهم اجتهاداً، وكان مشغول بالله عز وجل في صومعته، لا يألف على أحد منذ سبعين سنة، فأشرف من صومعته، فرأى امرأة تتبختر في مشيتها، فأعجبته، وشغلت قلبه عليه، ونسي ما كان فيه من المعاملة والاجتهاد، فألقى نفسه بالكلية إليها، فنادها، فوقفت، فأطمعته نفسه فيها، فهويها وكلمها، ودعته نفسه إليها، فدعاها إلى نفسه، فأجابته، فنزل من صومعته مصراً على وصالها، وأخرج إحدى رجله من باب الصومعة، ثم إن الله سبحانه وتعالى تداركه برحمته ولطفه، وذكر الرجل ما بينه وبين الله سبحانه وتعالى من المعاملة، / فرجع إلى نفسه، فأخذ شفرة، وقطع بها رجله التي كانت قد خرجت من باب الصومعة. . ثم قال: والله لا تصحبني بعد هذا اليوم قدم تسابقني إلى المعصية. . .

ب/١٢٠

ولنا في هذا المعنى شعر:

رجل سعت في معاصي الله لا سلمت من الردى ولا نالت أمانها
لأرمين بها عني وأقطعها ولا يكون تلفي في تلافيتها

قال: وكان الرجل المشهور إذا أراد أن يقوم، أمسك بالحائط ومشى إلى حيث أراد، ولم يزل نادماً على ما سلف منه وما فعل، إلى أن مات رحمه الله تعالى...

٢ - ● - قال: وعن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، قال: لقد سمعت من رسول الله ﷺ، ولو لم أسمعته إلا مرة أو مرتين، حتى عدّ سبع مرات، ما حدثت به، ولكن سمعته أكثر من ذلك، قال: كان الكفل من بني إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله، فأتته امرأة، فأعطاهما ستين ديناراً على أن يطأها، فلما قعد منها مقعد الرجل من المرأة، ارتعدت وبكت، فقال لها: ما يبكيك، أأكرهتك...؟.. قالت: لا، ولكن هذا عمل لم أعمله قط... فقال: وما حملك على هذا...؟.. قالت: حملني عليه الحاجة... قال: فتركها... ثم قال لها: اذهبي فالدنانير لك... ثم قال: والله لا يعصى الله تعالى الكفل أبداً... فمات في ليلته تلك، فأصبح مكتوباً على بابه: غفر الله تعالى للكفل...

٣ - ● - قال: وحكي أيضاً أنه كان في بني إسرائيل امرأة ذات جمال، وكانت/ عند رجل يعمل بالمسحاة، وكان إذا جاء بالليل، قدمت له طعامه، وفرشت له فراشه، فهويها ملك ذلك العصر، فبعث إليها عجوز من بني إسرائيل، فقالت لها: ما تصنعين بهذا الذي يعمل بالمسحاة، لو كنت عند الملك، لكساك بالحرير، وفرش لك الديباج...

قال: فوقع الكلام في مسامعها، فلما جاء زوجها بالليل، لم تقدم له طعامه، ولم تفرش له فراشه... فقال لها: ما هذا الخلق يا امرأة...؟.. فقالت: هو ما ترى... فقال لها: أطلقك... فقالت: نعم... فطلقها... فتزوجها ذلك الملك، فلما زفت إليه، نظر إليها فعمي، ومدَّ إليها يده فيست...

قال: فرفع نبي ذلك الزمان خبرهما إلى الله عز وجل، فأوحى الله عز وجل إليه: أعلمهما أنني غير غافر لهما، أما علما أنه لا يغيبي ما عملا بصاحب المسحاة... .

٤ - ● - قال: وذكر السراج في مصارع العشاق، وقد ورد في الصحيح أن بني إسرائيل نزل بهم قحط وجذب وبلاء، فجمع موسى عليه السلام بني إسرائيل، وخرج بهم ليستسقوا نحو من ثمانين ألفاً، فلم يسقوا... . فقال موسى عليه السلام: من أصاب من نفسه ذنباً فليخرج عني... . فاندفع عنه بنو إسرائيل جميعهم إلا رجلاً واحداً أعور، فالتفت موسى عليه السلام إليه فوجده خلفه... . فقال موسى عليه السلام له: أما سمعت كلامي... ؟... قال: بلى... . فقال موسى عليه السلام: فلم لم تذهب معهم... ؟... فقال: يا نبي الله، والذي اصطفاك نبياً، إني لم أعرف أن لي ذنباً سوى ذنب واحد، وذلك أنني نظرت إلى امرأة يوماً، فأعجبني، فأطلت النظر إليها، فرجعت إلى نفسي، فمددت يدي إلى عيني هذه فاقتلعتها... . فرفع موسى عليه السلام / يديه، وجعل يدعوه حتى سقوا... .

ب/١٢١

ولنا في المعنى، يقول الشاعر:

يا جابر العظم الكسير	وكاسي الشيب الهرم
ارحم بلطفك مذنباً	زلت به فيك القدم
نكث المعهود بنظرة	وجرى بشقوته القلم
فسلبت ناظري الضياء	وكسوته ثوب الظلم
ذوقي العذاب كما نظرت	فآفة النظر الندم
هذا بذلك فاصبري	فالصبر من شيم الكرم
قسماً بمن أسرى به	دون الأنام من الحرم
لولا انقيادي للهوى	من ألم العين للمم
كلا ولا ألف الضنا	جسمي ولا عرف السقم

* * *

قصص المرتدين

٨٣- كَمْ مُسْلِمٍ عَبْدَ الصَّلِيبِ لِأَجْلِهُنَّ وَكَانَ تَائِبٌ
٨٤- مِنْهُنَّ أَصْبَحَ خَاسِراً مِنْ مَا قَدْ كَانَ كَاسِبَ

١- ● - قال: أخبرت عن رجل من أهل البصرة، نسيت اسمه، قال: نزلنا في ظل حصن من حصون الروم، فسمعت صوتاً، فإذا أنا بقائل يقول من فوق الحصن شعر:

فكم بين آلاف كي نلتقي في إلى خمس إلى ميقات زعيم
أتى الدواء من ثغر تقي عوارض ومن حمل رخيم
ومن عين مكحلة المآقي بلا كحل ومن كشح هظيم

قال: وكان ينشد بلسان فصيح ويبيكي.. فناديتبه: أيها المنشد.. فأشرف فتى كأحسن الناس خلقاً.. فقلت: من الرجل..؟.. وما هي قصتك..؟.. فقال: أنا رجل من الغزاة من العرب، نزلت مكانك هذا، فأشرفت على جارية جميلة، فعشقتها وكلمتها.. فقالت: إن دخلت في ديني لم أخالفك.. فغلب عليّ الشيطان، فدخلت في دينها، فها أنا كما تراني.. فقلت: فهل كنت تقرأ القرآن..؟.. قال: والله لقد حفظته.. / فقلت: فما تحفظ منه اليوم..؟.. فقال: لا شيء إلا قوله سبحانه وتعالى: ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ

الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿١﴾ .. فقلت: فهل لك أن تعظم فداك ..
ففكر ساعة، ثم قال: انطلق يرحمك الله تعالى ...

قال: وتلك هي قصته .. والله أعلم ...

٢ - ● - قال العتبي: كان الوليد بن يزيد قد نظر إلى جارية نصرانية من أجمل النساء، يقال لها: سفري .. فجنَّ بها، فجعل يرأسلها، وهي تأبى عليه، حتى بلغه أن عيد النصارى قد قرب، وأنها ستخرج فيه، وكان في موضع العيد بستان حسن، وكانت النساء يدخلنه، فاتفق الوليد مع صاحب البستان أن يدخله، وكان قد غير حليته، ودخلت المرأة سفري إلى البستان، فنظر الوليد إليها، فجعلت تمشي حتى انتهت إليه، فقالت لصاحب البستان: من هذا ..؟ .. فقال: رجل مصاب .. فجعلت تمازحه وتضاحكه حتى استشفى من النظر إليها .. فقبل لها: ويلك، أتدريين من ذلك الرجل ..؟ .. قالت: لا .. فقبل لها: إنه الوليد بن يزيد، تخفى حتى ينظر إليك، وقد جئنا بك لذلك، وكان من أحرص الناس عليك .. فقالت فيه شعراً:

أضحى فؤادك يا وليد عيدا	صباً قديماً للحسان صيودا
من حب واضحة العوارض طفلة	برزت لنا نحو الكنيسة عيدا
ما زلت أرمقها بعيني رامق	حتى بصرت بها فقبل عودا
عود الصليب فويح نفسي من رأني	مثلك صليباً مثله معبودا
فسألت ربي أن أكون مكانه	وأكون في لهب الجحيم وقودا

قال: ذكرها السراج في مصارع العشاق ...

٣ - ● - قال: وحكي أيضاً أن رجلين ترافقا في السياحة / واصطحبنا اثنتي عشرة سنة، فكانا سنة يخرجان إلى الغزو، وسنة إلى الحج، فكل ما يكسبونه في الغزو ينفقونه في الحج، فبقوا على ذلك اثنتي عشرة سنة، وكان أكثر

١٢٢/ب

(١) سورة الحجر - الآية ٢ ...

قصدهم بلاد الروم ست سنين، ثم قصدوا مكة حرسها الله تعالى الستة الأخرى في الجهاد، فلما كانت السنة التي يغزونه فيها، دخلا بلاد الروم، فرأى أحدهما امرأة، فافتتن بها، ووقعت في قلبه لساعته. . فالتفت إلى صاحبه وقال له: ارجع وانج بنفسك، فقد أخذت وسُلب ديني. . فقال له صاحبه: يا أخي، فبحق الله عليك لا تفعل. . قال: لا تقل لي شيء، فما بقي يفيد الكلام معي، لأن القضاء قد تحكم في. . قال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. . قال: يا أخي، فادعها إلى دينك لعل تصبو إليك. . فقال: الطلب لي. . فقال: يا أخي، اذكر القرآن الذي كنت تتلوه. . فقال: والله ما بقي في خاطري سوى آية واحدة، وهي قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾^(١). فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. .

قال: وكنا صاحباً اجتهد ومعاملة مع الله سبحانه وتعالى، فبقي صاحبه متحيراً في أمره، فأخذ يسأل الله عز وجل السلامة، وهو خائف على نفسه. . ثم التفت إليه وقال: يا أخي، لي حاجة إليك، أشتهي أن تقضيها. . قال: وما هي. .؟. . قال: تدخل السوق، وتشتري لي زناراً، ويكون هذا آخر العهد مني، حتى تعلم أنني قد دخلت في دينها وتيأس من صحبتي. .

قال: ولنا في قضاء الحاجة شعر:

أ/أيا أبا الأصحاب ارحم عاشق	تملكه رق الهوى فأذله	أ/١٢٣
له حاجة أضحت إليك فإنه	ليخشى بأن تقضي وما قضيت له	
فعجل عليها واحتسبها ضيعة	فإنك قد أصبحت للفضل أهله	

قال: فغاب عنه ساعة، وجاء معه زنارين. . فقالت له: يا مسلم، أنت أيضاً. .؟! . هل لك معي قلب، ولك في إرادة. . قال: لا والله الذي رفع

(١) سورة المائدة - الآية ٥ .

السماء، وأجرى الماء، وأنار الظلام.. . قالت: أراك قد أتيت ومعك
زنارين.. . فقال لها: والله لا أختار نفسي عليه أبداً.. .

قال: ولنا في المعنى شعر:

لا تعجبني مني إذا وافقته	في الشرك بعد عقيدة الإسلام
فله عليّ العهد منذ صاحبه	فأريد أن أفي له بزمامي
إني لا أكرم بعد دين محمد	دين الصليب وصحبة الأصنام
ما في المروءة أن يفارق دينه	أبداً ولو جرعت كأس حجام

قال: فقالت له: وكأنك تبيع آخرتك برضا قلبك وقلب صاحبك.. .
فقال لها: والله إن كان في جهنم كنت معه، وإن كان في الجنة كنت معه،
ولا أختار نفسي عليه أبداً.. .

قال: ولنا في المعنى شعر:

ومن صاحبه في الله أنني	سأحفظ وده حتى المعاد
ولا أختار نفسي قط يوماً	عليه وفي إرادته مرادي
وإن يكب في الجحيم كنت معه	ويدل في مودته اجتهادي

قال: فقالت له: يا مسلم، أنتم تقولون أن دينكم الحق، وديننا الباطل،
فتركوا دين الحق وتدخلوا في دين الباطل.. . قال: نعم، أنا صاحبه في الله
وما لي خروج عنه ولا أكون.. .

قال: وأنشد بعضهم شعراً:

/وكنّا كغصن أنه ليس واحد	نزول به الرايتين عن رأي واحد
تملك في خل فخاللت غيره	وخليفة لما أراد تباعدي
ولو أن كفي لم تردني قطعها	ولم يصطحبها بعد ذلك ساعدي
ألا قبح الرحمن كل مصاحب	يكون أخاف في الحفظ لا في الشدائد

ب/١٢٣

قال: ثم رفع رأسه إلى السماء وقال: اللهم منّ علينا برحمتك
وفضلك،.. . ثم إن الله سبحانه وتعالى تغمدهما برحمته ولطفه ونظر إليهما،

وذلك لما سبق لهما في المعاملة، .. فقالت لهم المرأة: والله ما هذا إلا دين الحق .. حتى وافق أحدهما لصاحبه حتى في القدوم على جهنم .. ثم قالت: والله لا أفرق بينكما، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، وأن كل دين سوى الإسلام باطل ...

قال: فلما أسلمت أخذوها معهم، وتزوجها صاحبه، وأقاما بالشام، إلى أن توفيا رحمهما الله تعالى ...

* * *

قصص القضاة

- ٧٧ - وَبِهِنَّ قَاضٍ بِالْعِرَاقِ لَهُ تَصَانِيفٌ غَرَائِبُ
٧٨ - أَوْقَعْنَهُ بِخَدَائِعِهِنَّ فِي النَّدَامَةِ وَالنَّكَائِبِ

١ - قال: وقد ذكر أن قاضياً بالعراق يقال له: تاج الدين القزويني، مقامه ببغداد، وحكم فيها، وصنف كتاباً في الأصول، وقد ذكروا أنه في خزائن أبي حنيفة، وكان عمره لما توفي نيف عن سبعين سنة، وكان قد ربي عنده عبداً، وكان قليل الحركة، فلما اشتد وبلغ مبلغ الرجال، طالبتة نفسه بالباه، فأتى إلى القاضي وقال: يا سيدي، إن نفسي / تطالمني بالزواج.. وكان بليد الخاطر.. فقال له: وما معك من أحوال الدنيا..؟.. قال: ولا قيراط واحد.. قال: فتبيعني يدك بمائة دينار..؟.. قال: لا.. ولا أحد رجلك بمائتي دينار..؟.. قال: لا.. قال: ولا رأسك بألف دينار..؟.. قال: لا.. فقال: فيستحق الألف دينار، لأن قيمة المسلم عند الله تعالى ألف دينار، أو مائة ناقة، خمس وعشرون بنت لبون، وخمس وعشرون بنت مخاض، وخمس وعشرون حقة، وعشرون خليفات، وهي التي في جوفها ولدها.. فأرسل القاضي خلف رجل من أهل بغداد، وكان من أكابر أهلها، وكان له مال جزيل، ونعمة صالحة، وكان له مضاربين في البلاد، وما كان له ولد سوى بنت، وكانت من أجمل بنات زمانها، وأكملهم حسناً وعقلاً

أ/١٢٤

وذكاء، فأرسل القاضي خلف أبيها، فأحضره إلى عنده، وقال له القاضي :
أريد ابتك . . فقال : لمن . . ؟ . . قال : لعبدي هذا، وله عندي ألف دينار
على ما أنفق بيني وبينه، والمهر من عندي خارج عن الدين الذي ذكرت
لك . . فقال : السمع والطاعة . . فأمر القاضي من الموجبات التي لا تخالف،
فزوجهها به، فلما دخل عليها، رأت صورة لم يكن أقبح منها، فشق عليها
ذلك، والمرأة تريد من الرجال الشباب والجمال، كما يريد الرجل الجمال من
المرأة، فأقام عندها مدة لا يخرج من البيت ولا يتصرف في نفسه، والنفقة
من عند أبيها كل يوم بيومه، فلما طال عليها ذلك، ونفذ صبرها، واشتد
بلاؤها، التفتت وقالت للعبد : أنت جئت عالة علينا، قم وتصرف / بنفسك، ١٢٤/ب
واعمل كما يعمل الرجال . . فقال : والله ما لي حرفة ألتجأ إليها، ولا والله ما
أعلم أن أحداً أفقر مني . . فازدادت المرأة في بغضه، فقالت : ومن زوجك
بي . . ؟ . . قال : أبوك والقاضي . . فقامت المرأة إلى عند أبيها، وقالت : يا
سبحان الله، قد ثقلت عليك وكرهتني، وما لك غيري، وتركتني لا أرفع رأسي
بين نساء العالمين حياءً منهن، يقولون : هذه امرأة العبد، وأيضاً جئت لما
تفعله، والله ما قلت في نفسي أنك سترميني هكذا لعظم محبتك لي، وأنا
حديثه السن ابنة ستة عشر سنة، والله ما فعل والد بولده بمثل ما فعلت بي ولو
كان يأكل التراب . . فقال : يا بنية، إني استحييت من القاضي أن أردّه، وقد
ذكر لي أن للعبد عنده ألف دينار . . فقالت : سأسأله . . فقامت ودخلت على
العبد، وقالت : قد سمعت أن لك عند القاضي ألف دينار . . فقال العبد :
والله ما لي عند القاضي فلس واحد إلا أن يقطع يدي أو رجلي أو رأسي حتى
أستحق عليه الألف دينار بعد أن يقتلني، والموت ما يشتهيّه أحد . . فرجعت
المرأة إلى أبيها وأخبرته الخبر، وقالت له : عملت معي ما يسألك الله تعالى
عنه، أتأذن لي أن أخرج وأحتال في نفسي . . فقال لها : اخرجي . .

قال : وكان للوزير القائم ابنة فيها علة السل، يقوم عليها طبيان
جرائحي وطبائعي، وكان لها سنة على فراش الضنا . . قالت : فلبست أفخر

ثيابها وحليها، وخرجت إلى عند القاضي بعد أن قام من مجلس الحكم، فطرقت عليه الباب، فخرج إليها الخادم.. فقالت: أنا مظلومة.. فدخل الخادم، ثم خرج فقال لها: احضري غداً إذا جلس القاضي في مجلس الحكم.. فناولته ديناراً/ وقالت: إني من ذوات البيوت، وما أقدر كل ساعة أن أخرج، ولا يمكنني ذلك.. فأذن لها في الدخول.. فلما دخلت رفعت إزارها وكشفت عن وجهها.. والقاضي يقول لها: استري صانك الله يا بنية.. فقالت: يا سيدي القاضي، ما بقي صيانة للمرأة إلا الزوج أو القبر، وأنا ابنة الوزير، وإن كل من جاء يطلبني يقول له الوزير: ما لي ابنة تصلح للزواج، إن ابنتي مريضة.. وها أنا أمامك يا سيدي القاضي كما ترى، هذا خصري، وهذا صدري، وهذا شعري، ثم أسبلت ضفيري إلى ساقها، وهذا ساق، وكشفت عنه، وهذا وجهي قد رأيته، والقاضي يقول: يا بنيتي لا تفعلي ما لا يحل لك هذا من الله تعالى.. فقالت: قد نظرت جمالي كما ترى، فأشتهي منك مساعدتي عليه، وأن تقول له: إنه لا يحل له منعي من الزواج، فإن نفسي تشتهي، وإني أشتهي ما يشتهي الناس، وإلا.. فسيكون غير ذلك، ويكون قد أحوجني إلى ما لا أطيق ولا يليق بي..

قال: فقال لها القاضي: والله يا بنيتي أنا أكفيك في هذا الأمر.. فخرجت المرأة من عنده.. وقد بقي في قلب القاضي شيء منها لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، فلما أصبح القاضي، أرسل من يخطب ابنة الوزير على أنها تلك المرأة التي رآها.. فقال له الوزير: ونعمة الخليفة ما عندي ابنة تصلح للزواج إلا ابنة مريضة، وعليها طبائعي وجرائحي يعالجونها، فأرسل من يشاهدها.. فقال القاضي: لا أحتاج ذلك، قد بلغني الأمر، وأنا راضٍ به.. وقال للشهود: اشهدوا عليه بأنه قدم عليّ جميع ما ذكرت له من هذه/ الجارية. قال: نعم، وهو أقل ما يكون.. قال القاضي: اشهدوا عليّ يا بني، أني قد رضيت بجميع ما ذكره من أمرها.. فكتب الكتاب واستعجل في الأمر، وذلك لما حصل في قلبه من محبة تلك المرأة، فلما دخل عليها

وجدتها كما ذكر له أبوها، ملقاة على فراش الضنا، ما كاد يتبين لها أثر في فراشها، وهي قد خفيت عن النظر إليها، وهي كما قائل القائل بشعر:

لم يبق إلا نفس خافت	ومقلة إنسان باهت
ومغرم تشتعل أحشاؤه	بالنار إلا أنه ساكت
ذاب فما في الجسم من	مفصل إلا وفيه سقم ثابت
عدوه يبكي له رحمة	يا ويح من يبكي له الشامت

فبقي القاضي متحيراً من أمره، وكيف تمت عليه الحيلة، ومن كانت تلك المرأة التي رآها وسلبت عقله، وبقي لا يقر له قرار، ولا له على البلوى اضطبار، وبقي على تلك الحالة ثلاثة أشهر، يخرج من الصبح، ولا يعود إلى بيته إلا في المساء، والصبيبة مثل الخلال لا تشعر من سقمها بمن غاب عنها أو حضر.. وما بقي القاضي يتكلم.. ثم إن زوجة القاضي ازدادت سقماً وألماً، وهي تعاني ما تعانيه.. أما زوجة العبد فقد عادت إلى القاضي، ودخلت عليه وهي كالبدور عند تمامه.. فلما نظر إليها، بادرت بالكلام فأنشدته شعراً:

يا أيها القاضي الذي	ألبسني ثوب الضنا
أوقعني فسعيت فيك	وقد بلغت فيك المني
خذ مثلها مني وأشر	واعلم بشأنك من أنا
واشرب كما أشربتني	هذا لك بذاك ولك الهنا

وقالت له: كيف رأيت ما فعلت بك، أوقعني فأوقعتك، فخلصني حتى أخلصك.. قال: فأحضر عبده وطلقها منه.. وقال لها: أنا أحق بك منه من جميع الناس، وأنفذ إليها القاضي، وقال لها: أما أنا فقد قابلت الأسى بالإحسان، وأستغفر الله تعالى مما جرى، وقد قمت بكلامي، فأقيمي بكلامك.. فأنفذت إليه وقالت: أما أنا فعاجزة عنك، وما يحل لي أن أفرق بين المرأة وزوجها، فإن الله عز وجل يكره الطلاق.. فبقي القاضي في قلبه

حسرة منها إلى يوم القيامة، قال: وهذا من جملة المكر والخديعة، فما لإحداهن طاقة، ولم يبق غير التسليم إلى الله سبحانه وتعالى . . .

٢ - ● - قال: عن محمد بن جعفر، أن أم جعفر كان الأحوص يكسر الكلام فيها في الشعر، وهي امرأة من الأنصار من بني حطمة، وهي أم جعفر بنت عبد الله، وللأحوص فيها أشعار كثيرة، فلما كثر القول فيها، جاءت منقبة، فوقفت عليه في مجلس قومه وهو لا يعرفها، وكانت امرأة عفيفة، فقالت له: أقبضني ثمن الغنم التي ابتعتها مني . . فقال: ما ابتعت منك شيئاً . . فأظهرت كتاباً قد صنعت عليه، وبكت وشكت حاجة وضراً وفاقة، وقالت: يا قوم، كلموه . . فكلّمه قومه، وقالوا له: اقض حق المرأة . . فجعل يحلف مجتهداً أنه ما رآها قط، وأنه لا يعرفها . . حتى استفاض قولها وقوله، واجتمع الناس وكثروا وسمعوا ما دار بينهم، وكثر لغطهم . . ثم قامت وقالت: يا عدو الله، صدقت والله، وما لي عليك حق، وأنت لا تعرفني، وقد حلفت بذلك وأنت صادق . . وأنا أم جعفر، وأنت تقول: قلت لأم جعفر، وذلك في شعرك . . فخجل الأحوص وانكسر/ على ذلك، وبرئت عندهم . . .

ب/١٢٦

٣ - ● - قال: وذكر عن إياس، وهو: إياس بن معاوية بن قرة، أبو وائلة المربي، قاضي البصرة، تولى قضاءها وهو ابن ثماني عشرة سنة، وتوفي في سنة عشرين ومائة من الهجرة النبوية، وكان ممن يضرب به الأمثال في الذكاء والعلم، يقال: أركن من إياس، والركن: العلم بالأخبار الكثيرة المشهورة، وقد صنف أبو الحسن علي بن محمد بن أبي يوسف المدائني كتاباً يرأسه في أخباره وقضاياه لأبي تمام، فيه: إقدام عمرو، وسماحة حاتم، وحلم الأحنف، وذكاء إياس، وكانت له زوجة وهي ابنة عمه، وكانت تستطيل عليه وتؤذيه بلسانها، وتأخذ من عرضه، وما تفتّر عنه في أذاها، وكان سبب ذلك أنه كان متزوج عليها، وكانت تحملها الغيرة على ذلك، وكانت من الأصل سفينة اللسان، وكان لها مال، فكانت تقول: أنت تأخذ مالي وتنفقه على زوجاتك . . وكانت خالية من الجمال، فتزوج يوماً امرأة فقيرة، وكانت

من أحسن الناس في نساء البصرة، وأجملهم، وفائقة بالحسن.. فلما سمعت به ابنة عمه، ابتلته بأشد بلاء، وتسافهت عليه، وجعلت تأخذ من عرضه، فلما كثر منها ذلك، قال لزوجته: اذهبي إلى بيت فلان، واستعيري من زوجته أفخر ثيابها وحليها على لساني، والبسي ذلك، ثم اذهبي إلى بيت ابنة عمي وقولي لها: إن زوجي تزوج عليّ وترك حسني وجمالي، ويأخذ مالي وينفقه عليها، وأشتهي منك أن تحضري معي إلى عند القاضي حتى أشكو إليه حالي، حتى إذ حضر بين يدي القاضي، يكون القاضي قد علم بقصتي.. ففعلت ما قال لها، وذهبت إلى بيت ابنة عمه، / وطرقت عليها الباب، وقالت: أشتهي أن تحضريني إلى عند القاضي، وأخبرتها خبرها، فقالت لها: والله أنت مثلي، وأحضرتها عند القاضي، وقالت له: اسمع قصة هذه المرأة.. فقصتها القصة.. فقال لها: ما لك..؟.. قالت: زوجي قد تزوج عليّ، وهذا حسني وجمالي قد رآته ابنة عمك، وهو يأخذ مالي وينفقه على زوجته، وأشتهي إذا أحضرته بين يديك أن تساعدني عليه.. فقال لها: أيتها المرأة الصالحة، هل أبصرت بعينك زوجك قد تزوج..؟.. قالت: لا، ولا أراني زوجته.. قال: فكلما يقول الناس ما هو صحيح.. وهكذا ابنة عمي هذه كل ساعة تخاصمني وتأخذ من عرضي وتتهمني بالزواج، وأنا كل امرأة لي في عقد نكاحي خارجة عن هذه العتبة فهي طالق مني ثلاثاً، فلما سمعت ابنة عمه هذا منه، تقدمت إليه وقبلت رأسه، وقالت: والله يا ابن عمي ما عدت أقول لك شيئاً أبداً..

٤ - ● - وعنه أيضاً أن رجلاً أعرابياً قصد الحج إلى بيت الله الحرام، فلما قدم إلى البصرة، وكان رب نعمة صالحة، فأخذ ألف دينار، وأودعها عند بعض عدول البصرة، فلما قضى ما عليه، وعاد، طلب ماله من العدل، فأنكره ذلك ولم يعترف به، فشكا ذلك الأمر إلى القاضي، وكان القاضي إياس بن معاوية، فقال له: لا تحضره عندي، وإنما عد إليّ بعد ثلاثة أيام..

قال: ثم إن العَدِلَ فإنه لما حضر إلى عند القاضي، أظهر له القاضي أن عنده شغل قلب يؤرقه.. فقال له العَدِلُ: خير أرى عند الصاحب فكرة - فقال: وكيف لا يكون ذلك، وأنا لا أنام الليل لتفكري في مال الأيتام، وقد ضاق عليَّ الوقت وبات حرجاً، وأنا خائف على مال الأيتام، وما أدري إلى أين / أنقله، وما أدري أين أضعه، فإن كنت تعرف بمكان فعرفني به.. فقال العَدِلُ: بيتي كما تحب، وجيرانني فلان وفلان، وإني أضعه بالخشب من داخل البيت.. فقال له القاضي: تكون قد أسعدتنا بهذا الثواب.. فقام العَدِلُ وعمل جميع ما ذكره القاضي.. وأما الأعرابي فإنه عاد إلى القاضي.. فقال له القاضي: ارجع إلى خصمك واطلب مالك، فإن أبي فأحضره إلى مجلس الحكم، وأي شيء تم لك عرفني به.. فانطلق الأعرابي إلى العَدِلِ وطالبه بالمال، وقال له: لا أدعك حتى تحضر معي دار القاضي.. فلما سمع العَدِلُ بهذا الكلام، دفع إليه ماله.. فرجع الأعرابي إلى القاضي وأخبره بالخبر.. فقال له: خذ مالك وامض لشأنك..

قال: وأما العَدِلُ فبقي مدة والقاضي لا يقول له شيء.. فذهب إليه وقال: لقد امتثلنا لأوامر صاحبية، وما أشرت إليه من المصالح، فما يرسم مولانا القاضي.. فقال القاضي: أرسم أن لا تحضر مجلس الحكم، ولا تخط قدميك في محضري أبداً..

٥ - ● - قال: وحكي أن امرأة قدمت زوجها إلى بعض القضاة، وطلبت من القاضي أن يطلقها من زوجها، فرفع القاضي رأسه إليها، فوجدها شابة حسنة الصورة جميلة، ووجد زوجها شاباً حسناً فائق الجمال.. فقال لها القاضي: ما تشكين منه..؟.. قالت: أريد طلاقه.. قال: هل قصر في نفقتك..؟.. قالت: لا.. قال: هل قصر في كسوتك..؟.. قالت: لا.. قال: أفيهجر مضجعك..؟.. قالت: لا، إنه ليوفي هذا كله.. قال: فاكشفي لنا ما تكرهين منه.. قالت: أريد طلاقه.. قال: يا امرأة، ارضي زوجك، وصوني عرضك، واصبري لقضاء ربك.. ثم نظر إليها القاضي

وقال: قد روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «تزوجوا/ ولا تطلقوا، فإن الطلاق يهتز منه العرش»^(١).. فقالت المرأة: أريد طلاقه.. فقال القاضي: وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «أيما امرأة سألت زوجها الطلاق في غير بأس، فحرام عليها لا تشم رائحة الجنة»^(٢).. فقالت: أريد طلاقه.. فقال: العدل هو المصالحة، أن تسمعي كلام صاحب، فإن الله سبحانه وتعالى يبغض الطلاق.. قالت: أريد طلاقه.. فقال القاضي: لقد جاء في الحديث الشريف عن أبي موسى الأشعري، عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تطلقوا النساء إلا من ذنب، فإن الله تعالى لا يحب الذواقين ولا الذواقات»^(٣)، قالت: أريد طلاقه..

قال: ثم إن القاضي انشغل بقضية أخرى، فالتفت إلى المرأة عجوز مسنة، وقالت: يا بنية، ما تشتكين منه..؟.. فقالت لها: قد حرمني لذة النوم، وجعل فراشي مرتعاً له، وصدري فراشاً له، لا ينزل عنه ساعة واحدة، والله كأن ذكره قد خلق من حديد لا يثني ولا يلين.. فقالت لها العجوز: واحسرتاه، إني أبكي على ليلة واحدة منه، والله لو درت عليه لأستمتع ما نفعتني أحد مثله.. لا تكوني يا بنية مجنونة، واشكري نعمة الله تعالى عليك، ولا تخبري أحد بخبرك، فإنهم يحسدونك عليه، وربما أحد يسمع بذلك فيأخذه منك، وأنا والله لك من الناصحين..

(١) ورد في الكشف الخفاء ومزيل الإلباس - للعجلوني ج ١، ص ٣٠٤، حديث رقم /٩٧٣/ قال: قال الصغاني: موضوع، ولكن عزاه في الجامع الصغير لابن عدي بسند ضعيف عن علي، وبلفظ: «تزوجوا ولا تطلقوا فإن الطلاق يهتز منه العرش»، وقال ابن الجوزي: موضوع. ورواه الطبراني عن أبي موسى الأشعري بلفظ: «تزوجوا ولا تطلقوا فإن الله لا يحب الذواقين ولا الذواقات». اهـ..

(٢) رواه ابن ماجه في سننه برقم ٦٦٢/١، وحسنه الترمذي..

(٣) ورد في كشف الخفاء ومزيل الإلباس - للعجلوني ج ٢، ص ٣٤٦، حديث برقم /٢٩٧٩/: بلفظ: «لا أحب الذواقين من الرجال ولا الذواقات من النساء»، وقال: رواه الطبراني عن أبي موسى الأشعري رفعه، وللدليمي عن أبي هريرة بلفظ: «تزوجوا ولا تطلقوا فإن الله لا يحب الذواقين ولا الذواقات»، وللدارقطني في الأفراد عن أبي هريرة مثله.. اهـ..

قال: فأيقظتها من رقدتها، فالتفت عندئذ المرأة إلى القاضي وقالت:
لقد تصالحت مع زوجي.. فقال لها: خذيه واذهبي.. ثم قال للعجوز: قولي
لي ما قلت لها، فقد سألتها وذكرت لها أحاديث رسول الله ﷺ فأبت أن تسمع
منا، وأنت في ساعة سمعت منك.. فما الخبر.. فقالت العجوز: قلت لها
كذا وكذا، وعرفتها كذا وكذا.. / فأدرك القاضي الأمر، ثم قال للعجوز:
اجلسي في هذا الصف، أنت تقضين بين النساء، وأنا أقضي بين الرجال..

قال: ولنا في المعنى شعراً:

لله درَّ عجوز من لي بتقبيل فاهها فصيحة ذات عقل تفقعت لي مباها
وليتها الحكم لما علمت صدق وفاهها ولم أجد مسعداً لي في الحكم غيري سواها

٦ - ● قال: وحكى بعض قضاة الروم، وكان هذا القاضي، سلب
المحيا، سلس القيادة، بشوش الوجه، ضحوك السن، لطيف العشرة، وكان
من أزهد أهل زمانه، وأعلمهم وأذكاهم..

قال: فحضر عنده يوم من الأيام، رجل وامرأة، وكان الرجل يدعي على
المرأة بثلاثة دنانير، وكان قد عاملها فيها، وكان الأصل ديناراً واحداً، وكان
بالمهلة يزداد على وجه الربا، حتى صاروا ثلاثة دنانير، فادعى عليها أمام
القاضي، وكان على رأس القاضي طرطور طويل، وكانت لحيته تصل إلى
تحت سرتة.. قال: فقال الخصم: استحق من هذه المرأة ثلاثة دنانير..
فقال لها القاضي: ما تقولين..؟.. قالت: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي
العظيم.. فقال القاضي: كلما قلت لك أجيبني خصمك، تقولين: لا حول
ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.. فقالت: رأيت على رأسك طرطوراً طويلاً،
ولحيتك طويلة تصل إلى مشعرك.. فأخذ القاضي طرطوره ووضعها على
الأرض، ثم أخذ لحيته ووضعها تحت ثيابه، وقال لها: قولي فما بقي لك من
حجة.. فأنشدته شعراً:

ما يستحق عليّ ممّا ادعى عندي / وهناك عن ذاك اليمين يميني

إن حظي مثل الذي حظيتني يا أيها القاضي وفيت ديوني
إن كنت أعطيته الذي ادعى فيكون عقلي معتري بجنوني

قال: فرفع القاضي رأسه إليه وقال له: اترك لها دينارين، وخذ رأس مالك، واعمل كما عملت، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾^(١)... فقال الرجل: رضيت بذلك، تعطيني رأس مالي، ولا أحرم ثواب صبري عليها.. قال: لك ذلك...

٧ - ● - قال: وعن ابن سهل، قال: كنت عند آدم بن الليث وهو يومئذ قاض بمصر، وإذ بجارية تغني شعر:

تري في الحكومة يا سيدي على من تعشق أن تُقتل
قال: وكان في يده قلم، فرمى به، ثم قال: لا... لا...

٨ - ● - قال: ودخل رجل على الشعبي في مجلس القضاء، ومعه امرأة من أجمل النساء، فاختصم إليه، فأدلت المرأة بحجتها، وقرأت بينها.. فقال الشعبي للزوج: هل لك يا هذا من يدافع عنك.. وكان الشعبي قد افتتن بالمرأة لما رُفع الطرف إليها، فقد فتنته بنظرات عينيها، وتخطي حاجبيها، ومشت رويداً رويداً بدلال وهزت منكبيها... ف قضى عندئذ على الخصم جوراً، ولم يقضِ عليها...

قال: فقال الشعبي: فدخلت على عبد الملك بن مروان، فلما رأني تبسم، وقال لي: فُتن الشعبي لما رُفع الطرف إليه.. فقال لي فيما بعد: يا شعبي، ما فعلت بقائل هذه الأبيات...؟.. قلت: أوجعته ضرباً يا أمير المؤمنين بما انتهك من حرمتي في مجلس القضاء، وبما افتري علي.. فقال: أحسنت والله...

(١) سورة البقرة - الآية ٢٧٥.

٩ - ● - قال: وحكي أيضاً أنه كان / بواسط رجل صياد، وكان قد وقف عليه المعاش، وكان لديه فضل، فجاء إلى امرأة واستلف منها دينارين إلى الموسم، فأقرضته، وكانت من أجمل نساء أهل واسط حسناً وجمالاً، وكانت خالية من الزوج، فلما انقضت المهلة التي جرت بينهم، طالبت بدينها، وأحضرتة إلى قاضي واسط، وادعت عليه بدينارين، فاعترف الخصم. . فقال القاضي: قد اعترف لك. . فقالت: أريد مالي. . فالتفت القاضي إلى الصياد وقال: ترد عليها مالها. . فقال للقاضي: أسألك بالوجه الذي تسأل به يوم القيامة، أن تسألها الصبر عليّ شهراً. . فقال لها القاضي: قد ثبت مالك، والصبر على المعسر صدقة، وقد سألتك أن تصبري عليه شهراً. . فقالت: قد قبلت الأوامر الصاحبة. . .

قال: فخرج الصياد وجعل يصطاد وهو فقير وله عائلة، فما كان يفضل عنه شيء، فنظر ذات يوم فرأى الهلال قد أدبر، فقال: هذه للقاضي ورمي الشبكة، فلما أخرجها، طلع فيها حوت كبير من أجود ما يكون، فحملة إلى القاضي، وقال له: يا سيدي، أنا الذي سألت المرأة لأجلي الصبر عليّ، وأنا أخاف من الحبس، ولي عائلة، وما لي والله مقدرة على شيء، والمقصد من الصدقة المهلة عليّ، لعل الله سبحانه وتعالى يسهل عليّ شيئاً، وأقبل مني هذا الحوت لغلمانك، ولا تعمل معي غير ما يوجب الشرع، إلا المهلة، لعل الله سبحانه وتعالى بنيتك يفتح عليّ. . فقال القاضي: مبارك. . .

قال: فلما فرغ الشهر، أحضرته إلى القاضي، وادعت عليه. . فلما رأى ما وقع في قلب القاضي منها. . قال: أراض بخصمك. . ؟. . فأمر بحبسه. . فعاد إليه وقال: يا سيدي، أنا صاحب الحوت. . فقال القاضي: / ردوها. . فلما حضرت المرأة، قال لها: تعلمين أنا أمرنا بحبسه، وما لديه أو يوفيك مالك وهو في الحبس،. . قالت: نعم. . قال: إذا تقسطني عليه المال. . قالت: رضيت. . فقال له القاضي: بكم تتعيش كل يوم. . ؟. . قال: بنصف درهم. . فقال القاضي: لك ربع ولها ربع. . قال: رضيت. .

فقال القاضي : فأين نجدك يا امرأة إذا أتاك بقسطك . . ؟ . . قالت : في بيتي . . قال : فإن لم يراك فيه فإنه يصرفه . ولكن . . تقعدي أنت في الحبس معززة مكرمة حتى يأتيك بقسطه كل يوم . . فأسفرت عن وجه كالبدر في كماله ، فلما رآها القاضي ، اشتعل قلبه ، وسلبت عقله . . فقالت : يؤخذ مالي وأقعد في الحبس . . فقال لها : إن الحبس على قدر حال المحبوس ، وأنت حقك قد تم ، فدعيه ولا ترهبيه ، إنما حبسك عندي . . فقال لغلامه : أنزلها عند الجوار ، وسلمها لهن ، وضمن عليّ الصياد . . ثم قال له : وأنت تحمل القسط كل يوم وتأتي به إلى الدار . . فلما بلغ الصياد ذلك ، أنشد يقول شعراً :

أنا صياد ولكن للسّمك	فتح الله انجبار لي ولك
كانت المهلة أنهي غرضي	وأنت بالسجن ستبلغ غرضك
ليت شعري هل ترى من أحد	للقضاء إن مت يوماً يخلدك

١٠ - ● - قال : وحكي أن امرأتان كانتا تمشيان على شط بغداد ، وإذا بشيخ راكب أتانة ، وهو ينظر إلى الشط ، فمرّ عليهن . . فقالت إحداهن للأخرى : تعالي نخرج مع الشيخ . . ؟ . . ! فحث الشيخ أتانته وضربه ، فضرطت البهيمة . . فقالت إحداهن : ضرطت حمارة الشيخ . . فقال لهما : أنا الذي ما حملتني اثني إلا ضرطت . . فتبسمت إحداهن / وقالت : بشر أمك ١٣٠/ب
لقد لقيت منك جهداً شديداً . . ولنا في المعنى شعر :

فيا ويل أمك في تسعها	لقد وجدت منك جهداً جهيداً
فلفوا لها بك في حملها	لقد لقيت منك ضراً شديداً

١١ - ● - قال : لقي عمرو بن أبي ربيعة ، ليلي بنت الحارث بن عمرو البكري ، وكانت تسير على بغلة لها ، وكان قد شبب بها . . فقالت : نظر إليّ وقال : جعلني الله فداك ، عرجي هاهنا كي أسمعك بعض ما قلته فيك . . فقلت : أو قد فعلت . . ؟ . . قال : نعم . . .

فأنشدها قائلاً :

ألا يا ليلي إن شفاء نفسي نوالك إن تجليت فتؤنسينا
وقد حضر الرحيل وحن منّا فراقك فانظري ما تؤمرينا

فقالت : آمرك بتقوى الله سبحانه وتعالى ، وإيثار طاعته ، وترك ما أنت عليه ، ثم صاحت بالبغلة ، ومضت . . .

١٢ - ● - وحضر عمرو بن معديكرب عند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال له أمير المؤمنين : قل لي من أشجع رجل رأيت ، وأمكر رجل رأيت ، وأجبن رجل رأيت . . ؟ . . فقال : يا أمير المؤمنين ، خرجت يوماً أحترم ، فرأيت إنساناً جالساً لقضاء حاجة وقد نزل عن فرسه ، فقلت له : خذ حذرك يا أخا العرب . . فقال : من أنت . . ؟ . . قلت : عمرو بن معديكرب ، فوالله يا أمير المؤمنين ، ما أتممت كلامي إلا وقد جلس على عجزه وسقط ميتاً ، فنزلت وأخذت سلبه وفرسه وسلاحه ، فما رأيت يا أمير المؤمنين رجلاً أجبن منه . . .

قال : وخرجت يوماً أحترم ، فرأيت إنساناً قد نزل عن فرسه ، وأركز رمحه ، وأنزل سيفه عن عاتقه ، وقد استظل بظل شجرة ، فقلت / له : خذ حذرك يا أخا العرب . . فقال : ومن أنت . . ؟ . . فقلت : عمرو بن معديكرب . . فرفع رأسه وقال : تقول خذ حذرك وأنت راكب على فرسك ، معتقلاً برمحك ، متقلداً سيفك ، أمهلني حتى أركب فرسي ، وأتقلد سيفي ، وأعتقل رمحي . . قلت : لك ذلك . . قال : لا آمنك على نفسي دون أن تعطيني موثقاً إلى أن أركب . . فقال : وذمة العرب لك ذلك . . فقال : وذمة العرب لا أركب أبداً . . قال : فما رأيت يا أمير المؤمنين أمكر منه . . .

أ/١٣١

قال : وخرجت يوماً أحترم ، فرأيت في صدر البرية فارساً ، فقلت له : خذ حذرك يا أخا العرب . . فقال : ومن أنت . . ؟ . . فقلت : عمرو بن معديكرب . . فقال : أحسن العرب وأجبنهم ، والله لولا العرب تعيرني بدم

مثلك لعلوت عنقك هذا بسيفي . . فقلت : خذ حذرک . . فقال : لا بد . .
فقلت : نعم . . فقال : تحمل عليّ وأحمل عليك . . فساق أمامي ، فوالله يا
أمير المؤمنين لقد وصفت سنان رمحي في ظهره حتى قلت إنه خارج من
بطنه ، فطلبت على رأس فرسه فلم أجده ، وطلعت الطعنة باطلة . . وحمل
عليّ وأخذ سنان رمحه تحت إبطه وضربني بعقبه في قبة رأسي ، وقال : هذا
عفو عنك يا عمرو . . وحمل عليّ ثانية ، ووالله يا أمير المؤمنين لقد جئته
عرضاً حتى ظننت أن رمحي قد طلع من جنبه ، فلم أجده على فرسه ،
فطلعت الطعنة باطلة ، وأخذ سنان رمحه فوضعه تحت إبطه وضربني بعقبه في
قبة رأسي وقال : هذا عفو عنك يا عمرو . . وأما الثالثة / وذمة العرب ، فعلمت
أن لا قدرة لي عليه ، وأنه صادق . . فقلت له : يا أبا العرب ، انتسب . .
فقال : من عتيبة بن شهاب . . فقلت : حياك الله ، وإني أسألك الصحبة . .
فقال : أبا بالله ، بسم الله ، أنا لي حبيبة في هذا الحي وأريد أن آخذها . .

قال : فسقت معه إلى أن وصلنا الحي ، قال : مكانك حتى آخذها . .
فما كان ساعة إلا وهي خلفه على بعير ، وإذ بالخيول في أثرنا تلحقنا . . فقال :
تسوق على حمية وألقاهم أنا ، وأسوق أنا على حمية وتلقاهم أنت . . فقلت :
أنا أسوق وتلقاهم أنت . . فساق إليهم . .

قال : فتقدم إليه شيخ وشاب وحدث ، فتقدم إليه الشاب ، فضربه على
عاتقه فأخرج السيف من تحت إبطه ، فتقدم إليه الحدث ، فرمى برأسه ،
واختلف بينه وبين الشيخ ضربتان ، ف وقعت ضربة الشيخ في فؤاد الفتى
فمات ، و وقعت ضربة الرجل في رأس الشيخ فشقه ، فماتا جميعاً ، فرجعت
إليه وأخذت أسلابهم وسلاحهم وخيلهم ، ورجعت إلى المرأة ، فقلت لها :
امشي . . قالت : وذمة العرب لا أتبعك حتى تدفع لي فرساً ورمحاً وسيفاً ،
وألقتني أنا وأنت ، فإن قهرتني جئت معك قهراً ، فقد قُتل أبي وأخي وزوجي ،
وتنجو أنت ، لا والله لا حياة لي بعدهم . .

قال : والله يا أمير المؤمنين، فقد خفت على نفسي منها، فضربت عنقها، وأخذت أسلابها، وسقت الجميع، ثم جئت، وقد قُتل أربع رجال بسببها، عليها غضب الله تعالى، وقتلت نفسها لمخالفتها، / فوالله يا أمير المؤمنين، ما رأيت أجبن من ذلك الرجل، ولا أَمكر من ذلك الرجل الثاني، ولا والله ما رأيت أشجع من ذلك الرجل، ولا أقوى جناناً من تلك المرأة... .

أ/١٣٢

* * *

طرائف وحكم في النساء

● - صحب شيخ من أهل المدينة شاباً في سفينة، وكانت معه جارية تغني، فقالوا له: إن معنا جارية تغني، ونحن نجلك، فإن أذنت لنا، فقلنا.. فقال: اعزلوا وافعلوا ما شئتم.. فتنحى حتى غنت الجارية:

حتى إذ أصبح دنا نوره وغابت الجوزاء والمغرم
أقبلت والوطأ أخفى كما ثياب في ممكنة الأرقم

قال: فرمى الشيخ بنفسه في الفرات بشيابه وجعل يتخبط بيديه ويقول: أنا الأرقم.. أنا الأرقم.. فأخرجوه وعدلوه، وقالوا: ما صنعت في نفسك؟.. فقال: والله إنني أعلم ما لا تعلمون..

● - وقال عبد الله بن جعفر، لابن عتيق: لو غنتك جارتني صوتاً، ما أدركت دكانك.. فقال ابن عتيق: قل لها تفعل وليس عليك إن مت،.. فأخذ بيده عبد الله بن جعفر وأدخله منزله، ثم أمر الجارية، وقال لها: هات ما عندك.. فغنت:

بهواك صيرني السعدو نكالاً ووجد السبيل إلى المقال مقال
ونهيته نومي عن جفوني فانتهيته وأمرت ليلي أن يطول فطال

قال: فرمى ابن عتيق بنفسه على الأرض، فقال: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾^(١)...

● - عن عبد الله بن جعفر قال: حضر قاضي مكة مائدة لرجل من الأشراف، فلما انقضى الطعام اندفعت جارية تغني:

إلى خالد حباً بحياء خالد فنعم الفتى يرجى ونعم المؤمل

فلم يدر القاضي ما يصنع من الطرب، حتى أخذ نعله فعلقهما في أذنيه، ثم حبا على ركبتيه، ثم قال: اهدوني فياني بلبه جدت لمسلم بن عبد الله ومسلم بن جندب...

● - قال: خرجت أنا وزياد السواق إلى العقيق، ولم جمّال فشاورة، وفيهن جارية خضابية العينين، فلما رآها زياد قال لي: يا ابن الكرام، دم أبيك في نقابها لا يُطلب، أترى بعدها عين، فأنشدني قول أبي مسلم بن جندب، فقال شعراً:

ألا يا عباد الله هذا أخوكم قتيل فهل فيكم به اليوم نائر
خذوا بدمي إن مت كل جارية مريضة طوق العينين والجفن ساحر

قال: فقالت لي الجارية: أنت ابن جندب...؟.. فقلت: نعم... فقالت: فاغتنم نفسك واحتسب أبارك، فإن قتيلنا لا يؤذي، وأسیرنا لا يفنى...

ومن طرائف كلام النساء، قالت:

● - قالت سلمى بنت أيمن التميمية، وكانت من أحسن الناس وجهاً، وكان زوجها من أقبح الناس وجهاً، فقالت له يوماً: أنا وأنت في الجنة... فقال: ولم... قالت: رزقت مثلك فصبرت، ورزقت مثلي فشكرت، وإن الصبور والشكور في الجنة...

(١) سورة الحج - الآية ٣٦.

قال: فقيل لها: كيف تصبرين على قبحه وأنت من الجميلات
الحسان...؟.. / فقالت: أما أنه قدم عند الله تعالى حسنة، أثبت عنده أنا
فصبرت ثوابه، وصبر عقابي... .

● - قال: اشترى رجل جارية بديعة في الحسن، وكان في غاية القبح،
فلما صارت في داره، نظر إليها فضحك، ونظرت إليه فبكت.. فقال لها
كالمغضب: أنظر إليك فأضحك، وتنظرين إليّ فتبكين.. فقالت: نظرت
أنت إلى ما يسرك فضحكت، ونظرت أنا إلى ما يسوءني فبكيت... .

● - قال: وكانت جارية أحمد بن سليمان قد قدمت المائدة إليه ونسيت
الملح.. فقال لها: أين الملح...؟.. فقالت: في وجهي... .

● - قال: وكانت حسنة جارية المهدي، قد قال لها المهدي يوماً: نعم
الفراش بطنك.. فقالت: يا سيدي، لِمَ لا تفرشه كل ليلة... .

● - قال: وتكلم السماك يوماً، وجارية له تسمع كلامه، فلما دخل،
قال: كيف سمعت كلامي...؟.. قالت: ما أحسنه لولا أنك تردده.. فقال:
أردده ليفهمه من لم يفهمه.. فقالت: إلى أن يفهمه من لم يفهمه، فكفى،
فله من فهمه... .

● - قال: كانت نمره بنت زهر قد مرت بقوم من بني نمير، فتأملوها
جداً، فقالت: يا بني نمير، لا قول الله أطعتم، ولا قول الشاعر سمعتم..
قال الله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾^(١).. وقول جرير:

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

● - وقال رجل لمعشوقته: / أعطني خاتمك أذكرك به.. فقالت: ١٣٣/ب
خاتمي من ذهب وأخاف أن يذهب، ولكن خذ هذا العود لعلك تعود... .

(١) سورة النور - الآية ٣٠.

● - قال : واستعرض رجل جارية سوداء مليحة ، فقال لها : ما اسمك .. ؟ .. فقالت : مكة .. فقال : الله أكبر ، لقد قرب الطريق ، أفتأذنين لي أن أقبل الحجر الأسود .. فقالت : هيهات ولم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ...

● - وكانت لمحمود الوراق جارية موصوفة بالجمال ، فطلبت منه للمعتصم بالله عشرة آلاف دينار .. فأبى أن يبيعها .. فلما مات محمود الوراق ، اشترت من ورثته بألف دينار ، فلما دخلت على المعتصم ، قال لها : طلبناك بعشرة آلاف دينار ، فاشتريناك بألف دينار ، فقالت : إذا كان مثل أمير المؤمنين ، وخليفة الله تعالى في أرضه ينتظر بشهوته المواريث ، فيكثر لمثلي مائة دينار .. فاستظرفها وتعجب من جوابها وحظيت عنده ...

● - اقترح رجل على قينة هذا الصوت ، وقال لها : هو سري وسرك ، لا يعلم به إلا الله سبحانه وتعالى ، وأنت وأنا .. فقالت : يا سيدي ، والقوادة لا تنساها إذ لا بد منها ...

● - قال : وحكى مطيع بن إلياس ، قال : طلعت على جاريتين يتساحقان ، فرميت بنفسي على الفوقانية ، وأخذت في شأني .. فقالت السفلانية : ما هذا .. ؟ .. فقالت الفوقانية : جاء الحق وزهق الباطل ...

● - قال جعفر البرمكي : قدمت لي الجارية مجمرة ، وألقت عليها مثلثة من مسك وعود وعنبر ، ووضعته تحتي .. فوافق خروج ريح مني ، فأردت مغالطتها .. فقلت : ليست هذه المثلثة على / طبيعتها .. فقالت : لا نكد بيعتها ...

أ/١٣٤

● - وقال محمد بن أحمد بن عبد ربه : إن البلاء كله موكل بالقرينة السوء التي لا تسكن نفس الكريم عشتها ، ولا تقر العين برؤيتها ...

● - وقالت عائشة رضي الله عنها : النكاح رق ، فلينظر أحدكم عند من يستر كريمته ...

● - وقال العباس بن خالد السهمي : خطب عمرو بن زكريا بن حجر إلى عوف بن محكم الشيباني ، ابنة أم إياس . . فقال : نعم أزوجه ، على أن أسمى بنيتها ، وأزوج بناتها . . فقال عمرو بن حجر : أما بنوها فنسميهم بأسمائنا وأسماء آبائنا وأعمامنا ، وأما بناتها فتتكهن ألفاً هن من الملوك ، ولكني أصدقها حاجة من كندة ، وأمنحها حاجات قومها ، لا ترد لأحد منهم حاجة . . فقبل ذلك منه أبوها وأنكحها إياها ، فلما حان الوقت أن يبني بها ، خلعت بها أمها ، وقالت لها : أي بنية ، إنك قد فارقت حقك الذي منه خرجت ، وعمك الذي منه درجت ، إلى رجل لم تعرفه ، وقريناً لم تألفه ، فكوني له أمة ، يكون لك عبد ، واحفظي له خصالاً عشراً يكن لك ذكراً وذخراً :

- أما الأولى والثانية : فالخشوع له بالقناعة ، وحسن السمع والطاعة . . .

- وأما الثالثة والرابعة : فالتغزل في موضع عينه ، فلا يقع عينه منك على قبيح ، ولا يشم أنفه منك إلا أطيب الريح . . .

- وأما الخامسة والسادسة : فالتفقد لوقت طعامه ومنامه ، فإن تواتر الجوع ملهية ، وتنغيص النوم مغضبة . . .

- / وأما السابعة والثامنة : فالحرص على ماله ، والدعاية لحشمه وعياله ، ١٣٤/ ب فملكك الأمر في المال حسن التفقد ، وترد في العيال حسن التدبر . . .

- وأما التاسعة والعاشرة : فلا تعصين له أمر ، ولا تفشين له سر ، فإنك إن خالفت أمره أو غرت صدره ، وإن أفشيت سره لم تأمني غدره ، وإياك ثم إياك الفرح بين يديه إذا كان مغتماً ، أو الكآبة بين يديه إذا كان فرحاً . . .

● - قال رجل لحياة بنت شريح : أريد أن أتزوج ، فما ترين . . ؟ . . . فقالت : كم المهر . . ؟ . . قال : مئة دينار . . قالت : لا تفعل ، لك أن تتزوج بعشرة دنانير ، فإن وافقتك ربحت تسعين ديناراً ، وإن لم توافقك تزوج أخرى ، فلا بد في عشرة نسوة أن توافقك امرأة واحدة . . .

● - قال : حدث أبو جعفر، فقال : بينما محمد بن زبيدة يطوف في قصر له، إذ مرَّ بجارية له سكرانة، وكان عليها كساء خز تسحب أذياله، فراودها عن نفسها.. فقالت : يا أمير المؤمنين، أنا على ما تريد، ولكن إذا كان من غد إن شاء الله أكون لك.. فلما كان الغد، مضى إليها، وقال لها : الموعد.. فقالت : يا أمير المؤمنين، أما علمت أن كلام الليل يمحوه النهار.. فخرج وهو يضحك حتى قدم إلى مجلسه، وقال : من في الباب من شعراء الكوفة..؟.. ف قيل له : مصعب، والرقاشي، وأبو نواس.. قال : فأمر بهم، فدخلوا، فلما جلسوا بين يديه، قال : ليقل كل واحد منكم شعراً يكون في آخره : كلام الليل يمحوه النهار..

قال : فأنشد الرقاشي، فقال :

أ/ متى تصحو وقلبك مستطار وقد منع القرار فلا قرار
وقد تركت مريضاً مستهماً فتاة لا تزور ولا تزار
إذ استحريت الوعد منها قالت كلام الليل يمحوه النهار

أ/ ١٣٥

قال : لا بأس...

قال : ثم تقدم مصعب فأنشد، فقال :

أتعذلني وقلبك مستطار كئيب لا يقرب به قرار
أحب مليحة صادت فؤادي بألحاظ يخالطه احورار
ولما أن مددت يداً إليها لتلمسها بدا منها نفار
فقلت لها (عديني منك وعداً) فقالت في غد منك المزار
فلما جئت مقتضباً أجابت كلام الليل يمحوه النهار

قال : لا بأس...

قال : فتقدم أبو نواس، فأنشد فقال :

وليلة أقبلت في القصر سكرى ولكن زين السكر الوقار
وهز المشي أردافاً ثقالاً وغصن فيه رمان صغار

وقد سقط الرداء عن منكبيها من التكرية وانحل الإزار
فقلت الوعد سيدتي فقالت كلام الليل يمحوه النهار

فقال: أخزأك الله، أكنت معنا، أم مطلعاً علينا.. فقال: يا أمير المؤمنين، عرفت ما في نفسك، فأعربت عما في ضميرك.. فأمر له بأربعة آلاف درهم، ولصاحبيه مثلها...

● - قال: جلس الرشيد يوماً عند زبيدة، وكان عندها جواريتها، فنظر إلى جارية واقفة على رأسها، فأشارت إليه أن تقبله، واعتلت بشفتيها.. فدعا بدواة وقرطاس، فوقع فيه قبلته من بعيد بشفتيه، ثم ناولها القرطاس، فرفعت فيها، فما برح من مكانه حتى وثبت عليه.. فلما قرأ ما كتبت، / استوهبها من ١٣٥/ب زبيدة، فوهبتها له، فمضى بها وأقام معها أسبوعاً لا تدري زبيدة مكانهما.. قال: فكتبت إليه زبيدة:

وعاشق صب لمعشوقته كأنما قلباهما قلب
روحاهما يرق ونفساهما نفس

كذا فليكن الحب

● - قال: ذكر في كتاب صاحب، في ذكر الحنظلية الشاعرة، قال: كانت يهملان شاعرة طريفة، تُعرف بالشاعرة الحنظلية، خطبها أبو علي كاتب بكر، فلما ألح عليها، كتبت له:

أيرك أير ما له عند حر هذا فرج
فاصرفه عن باب حري وأدخله من حيث خرج

قال صاحب الكتاب: هذه والله في هذين البيتين أشعر من كبشة أخت غيلان ذي الرمة، وأشعر من الخنساء أخت صخر، وأشعر من جنوب الهذلية، ومن ليلي الأخيلية...

● - وحكي عن بعض الفضلاء أنه كان ممتعاً عن الزواج ويكرهه، فساقه القدر أنه أذن له أن يزوجه. . فقال: فتزوج بامرأة، فلما دخل عليها، جاء الأصحاب والأصدقاء يهنئونه، فقال: بالله ألا صبرتم عليّ حتى أنشدكم ما قد تضمنت فيها من صفات، وبعد هذا هنتوني. . فأنشد لهم شعراً:

لها جسم برغوت وساق بعوضة	ووجه كوجه القرد بل هي أقبح
وتبرق عينها إذا ما رأيته	وتعبس في وجه الضليع وتكلح
إذا عاين الشيطان صورة وجهها	تعود من حيث يسي ويصبح
وما ضحكت في الناس إلا حسبتها	أمامهم كلباً ينهر وينبح
وقد أعجبتها نفسها فتملحت	بأية حال ليت شعري تملح

أ/١٣٦

● - / وعن بعض النحاة، قال: تزوج، فلما دخل بامرأته وخلا بها، رأى منها ما لا يرضيه، وكانت بأقبح صورة، فأخذ يصرخ: والله ما عشوت، والله ما عشوت. . وجعل يكررها، حتى قيل له: ما بك هل جنت. .؟. . وهو ما زال ينادي بأعلى صوته: والله ما عشوت، والله ما عشوت. . فحملوه إلى القاضي، فقال له القاضي: ما لك، وما الذي حدث عليك. .؟. . فقال: يا مولانا، سمعت الله عز وجل يقول في كتابه العزيز: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضُ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾^(١). وأنا والله ما عشوت. . ففرق الحاكم بينهما. .

● - قال: دخل زيد بن علي، على ابن هشام بن عبد الملك، فقال له: بلغني أنك تحدث نفسك بالخلافة، ولا تصلح لك ولا تصلح لها، لأنك ابن أمة. . فقال: فأما قولك، فإني أحدث نفسي بالخلافة، فلا يعلم الغيب إلا الله سبحانه وتعالى، وأما قولك، إني ابن أمة، فهذا إسماعيل عليه السلام ابن أمة، وقد أخرج الله سبحانه وتعالى من صلبه خير البشر محمد رسول الله ﷺ، وهذا إسحاق ابن حرة، وقد أخرج الله سبحانه وتعالى من صلبه القردة والخنازير، ولقد تزوج إبراهيم الخليل عليه السلام هاجر، فولدت له إسماعيل، وتزوج محمد ﷺ

(١) سورة الزخرف - الآية ٣٦.

مارية القبطية فولدت إليه إبراهيم، ولما صارت إليه صفية بنت حيي، كان أزواجه رضي الله عنهن يعيرونه باليهودية، فشكت ذلك إلى النبي ﷺ، فقال لها: «ألا قلت، وكيف تكونان خيراً مني، وزوجي محمد، وأبي هارون، وعمي موسى»^(١). . . فصدقت وصدقت. . .

● / - وحدثني محمد بن زكريا بالبصرة، قال: حدثني إبراهيم بن ١٣٦/ب عمر، قال: كان هارون الرشيد قد استعرض عنان جارية النطافي ليشترها، فقال لها: والله أنا أحبك. . ثم أمسك عن شرائها، فجلس ليلة مع سارة، فغناه بعض من المغنين بأبيات جرير، حيث يقول:

إن الذين غدوا بلبك غادروا وشلا بعينك ما يزال معيناً

فطرب لها هارون طرباً شديداً، وأعجب بالأبيات، فقال لجلسائه: هل فيكم أحد يجيز هذه الأبيات ثلاثة بمثلهن، وله بدرة من الدنانير. . .

قال: فلم يصنعوا شيئاً. . فقال خادم على رأسه: أنا لك بها يا أمير المؤمنين. . فقال: شأنك، فاحمل البدرة. . فخرج الخادم وأتى الناطفي، فقال: استأذن لي على عنان. . فدخل، وقال لها: ويحك ما هذه الأبيات. . فأنشدها إياها. . فقالت له: اكتب شعراً:

هيجت بالقول الذي قد قلن لي	داء بقلبي لا يزال كميناً
قد أينعت ثمراتها من طيبها	وسقمنا من الهوى فروينا
كذب الذين تقولوا يا سيدي	إن القلوب إذا هويت هويناً

فقالت له: دونك الأبيات، وإذا كان في غد تجد هناك الكبار. . قال: فدفع لها البدرة، ورجع إلى هارون، فقال له: ويحك من قال هذا. . ؟. . قال: عنان جارية الناطفي. . فقال: خلعت الخلافة من عنقي إن باتت إلا

(١) رواه الترمذي في المناقب برقم ٣٨٩٢/، والحاكم في المستدرک برقم ٢٩/٤. . .

عندي .. فبعث إلى مولاها، فاشتراها بثلاثين ألفاً، وباتت تلك الليلة عنده ...

أ/١٣٧

● - قال: عن عبد الرحمن، / عن أبي جابر، قال: حدثنا فقال: كنا في مجلس فيه قينات، ومعنا أبو نواس، فخمش واحدة منهن، وقرص خدها، فرفعت إليه بصرها، وقالت له: أحسبك تحب الحرام .. فقال لها: ومن حرمك عليّ .. ثم أنشد يقول:

قالت حرام تبتغي وصالنا من حرم الناس على الناس
نحن جميع من بني آدم هل حرم الورد على الآس
قلت فمن حل هذا لكم قلت علي وابن عباس

● - قال: عن ابن محمد الفارسي، قال: سمعت المبرد يقول: كان عبد الله بن المفترى في عنوان شبابه يهوى جارية لعمته عائشة بنت جعفر المتوكل، فقصد يوماً، وبعث إليه الموفق هدايا، وبعثت عائشة بهدايا مع الجارية، فلما رجعت الجارية، كتب ابن المعتز لها رقعة:

على يد هذه الجارية نسألك قبلة فظننت وليس ذا فعل من يعشق
وقد تملقتها زماناً فما بها ينفع التملق فخاصمتها وعابتها بالله يا عمة الموفق
فأجابته عائشة:

فهمت شكواك حين تشكو وليس في ذلك بالمصدق
قد خبرتني فإن فاهما بفيك طوال الزمان ملصق
فاحفظ لهما ما رزقت منها فليس كل العباد يرزق

● - قال: حدثنا محمد بن سلام، قال الحارث بن عوف بن أبي جارية، لخارجة بن سنان بن أبي خارجة، قال: أنزلني أخطب إليّ واحدة، / فيزوجني .. قال: نعم .. قال: ومن ذاك ..؟ .. قال: أوس بن الحارثة بن حاتم الطائي .. فقال الحارث لغلामه: ارحل بنا .. ففعل .. فركبنا حتى انتهينا إلى أوس بن حارثة، فوجداه في منزله، فلما رأى الحارث بن عوف،

ب/١٣٧

قال: مرحباً بك يا حارث.. قال: وبك.. قال: ما جاء بك..؟.. قال: جئتك خاطباً.. قال: لست هناك..؟.. فانصرف ولم يكلمه.. ودخل أوس على امرأته مغضباً، وكانت من عبس، فقالت: من الرجل الذي وقف عليك، فلم تطل ولم تكلمه.. قال: ذاك سيد العرب الحارث بن عوف بن أبي حارثة المري.. قالت: فلم لم تستنزل.. قال: إنه استحق.. قالت: وكيف ذلك..؟.. قال: جاءني خاطباً..!!.. قالت: أفتريد أن تزوج بناتك..؟.. قال: نعم.. قالت: فإن لم تزوج سيد العرب، فبمن [تزوجهن].. قال: قد كان ذلك.. قالت: إذا فتدارك ما كان منك.. قال: وماذا [أقول]..؟.. قالت: تقول: إنك لقيتني وأنا مغضب بأمر لم يقدم فيه قولاً، فلم يكن عندي من الجواب إلا ما سمعت، فانصرف ولك عندي ما أحببت.. فاستعجل.. فركب في أثرهما..

قال خارجة بن سنان: فوالله إننا لنسير إذ حالت منا التفاتة، فرأيت، فأقبلت على الحارث وما يكلمني غمماً.. فقلت له: هذا أوس بن حارثة في أثرنا.. قال: وما نصنع به، امض.. فلما رأنا لا نقف عليه، صاح: يا حارثة ارجع علي.. فوقفنا له، فكلمنا بذلك الكلام، فرجع مسروراً..

قال: فبلغني أن أوساً لما دخل منزله، قال لزوجته: أدع فلانة، لأكبر بناته، فأتته، فقال: يا بنية، هذا الحارث بن عوف قد جاءني خاطباً راغباً، وقد أردت أن أزوجه منه، فما تقولين..؟.. / قالت: لا تفعل.. قال: ولم..؟.. قالت: إني امرأة في وجهي ردة، وفي خلقي بعض العهدة، ولست بابنة عمه فيرعى حسبي، وليس بجارك فيستحي منك، ولا آمن أن يرى مني فيطلقني، فيكون ذلك ما فيه.. قال: قومي بارك الله فيك، أدع لي فلانة، ابنته الوسطى، فدعتها.. فقال لها: مثل قوله الأول، فأجابته بمثل جواب أختها الكبرى. وقالت: إني حمقاء، خرقاء، ولست أهل صنعة بيدي، ولا آمن أن يرى مني ما يكره، فيطلقني، فيكون علي من ذلك مما تعلم، فليس بابن عمي فيرعى حقي، وليس بجارك في بلدك فيستحي.. فقال:

قومي بارك الله فيك، أدع نهيشة الصغرى، فأنت .. فقال لها كما قال لأختيها .. فقالت: أنت وذلك .. فقال: إني قد عرضت ذلك على أختيك، فأبتاه، ولم يذكر لها مقالتهما .. فقالت: أنا الجميلة وجهاً، الصانعة يداً، الرقيقة خلقاً، الحسبية أباً، فإن طلقني فلا أخلف الله تعالى عليه بخير - قال: بارك الله فيك، ثم خرج إلينا، فقال: قد زوجتك يا حارث نهيشة بنت أوس . قال: قد قبلت .. فأمر أمها أن تهيئها، وأن تصلح من شأنها، ثم أمر ببيت، فضرب به وأنزله إياه، ثم خرج إليه فقال له: أفرغت من شأنك ..؟ .. قال: لا والله .. قال: وكيف ..؟ .. قال: لما مددت إليها يدي .. قالت: مه، عند أهلي وأخوتي، هذا والله لا يكون .. قال: فأمر بالراحلة .. فارتحلنا ورحلنا بها معنا .. فسرنا ما شاء الله سبحانه وتعالى .. ثم قال لي: تقدم .. فتقدمت، وعزل بها عن الطريق، فما لبث أن لحقني .. فقلت: أفرغت ..؟ .. قال: لا والله .. قلت: فلم ..؟ .. قال: [لما مددت يدي إليها]^(١) .. قالت: أو كما يفعل بالأمة الجليلة السبية الأخيذة، لا والله حتى ننحر الجزور، ونذبح الغنم، وندعو العرب، وتعمل ما يعمل لمثلي .. قلت: والله إني لأرى / لك همة وعقلاً، والله لأرجو أن تكون المرأة نجيسة إن شاء الله تعالى .. فرحلنا حتى جئنا بلادنا، فأحضر الإبل والغنم، ثم دخل إلي .. فقلت: أفرغت ..؟ .. قال: لا والله .. قلت: وكيف ..؟ .. قال: [لما مددت يدي إليها]^(٢)، قلت: لقد أحضرنا من المال ما تريدين .. فقالت: والله لقد ذكرت من الشرف بما لا أراه فيك .. قلت: وكيف ..؟ .. قالت: أتتفرغ لنكاح النساء، والعرب تقتل بعضها بعضاً، وذلك في حرب عبس وذبيان، قلت: فتقولين ماذا .. قالت: اخرج إلى هؤلاء القوم، وأصلح بينهم، ثم ارجع إلى أهلك، فلن يفوتوك .. فقلت: والله إني لأرى لك همة وعقلاً، ولقد قلت قولاً .. فاخرج بنا، فخرجنا حتى أتينا القوم، فمشينا بينهم

ب/١٣٨

(١) ساقطة في الأصل وإثباتها يقتضي السياق لإتمام المعنى ..

(٢) ساقطة في الأصل وإثباتها يقتضي السياق لإتمام المعنى ..

بالصلح، فاصطلحوا على أن يحسبوا القتلى، ثم يؤخذ الفضلاء منهم هو عليه، فحملنا عنهم الديات، فكانت ثلاثة آلاف بعير في ثلاث سنين، فانصرفنا بأجل الذكر، ورجع فدخل بها، فولدت له بنين وبنات...

● - وذكر ابن الكلبي أنه هوى امرأة، فاستهام بها، حتى لم يعد يُعرف له خبر، فزعمت بني مرة أن الجن استطاره، فأدخلته بلادها، واستخلفته لكرمه...

● - قال: وذكر أبو عبيدة أنه كان قد هرم حتى بلغ مائة وستين سنة، فهام على وجهه خرفاً، ففقد...

● - قال: وزعم لي شيخ من علماء بني مرة، أنه لما خرج لحاجته في الليل، ابتعد، فلما رجع ضلّ، فهام طوال ليلته حتى سقط فمات... وتبع قوم أثره، فوجدوا/ أثره، ووجدوه ميتاً... فرثاه زهير بقوله:

أ/١٣٩

إن الرزية لا رزية مثلها	ما تبتغي غطفان يوم أضلت
إن الركاب لتبتغي ذا مرة	بجنوب محل إذا الشهور أجلت
بتعيين خير الناس عند شديده	عظمت مصيبة هناك وجلت
ومدافع ذاق الهوان فلعن	وأحبت عقده حيله فانحلت

● - قال: وقفت امرأة على قيس بن سعد بن عبادة، فقالت: أشكو إليك قلة الجرذان... فقال: ما أحسن هذه الكناية، املاؤا لها بيتاً خبزاً ولحماً وسمناً...

* * *

وصايا وأمثال

٧٩ - لا تركزنَّ إلى النساءِ وعُدَّهنَّ من الأجانب

● - قال: أوصى بعض الحكماء ابنه، فقال: يا بني لا تستكثر من النساء، فإنهن أصل العيوب، والجالبات للركوب، واعلم أن صبرك عنهن أخير من صبرك عليهن...

● - وقيل: إن صحبة النساء، والإفراط في الجماع، يفسد: الرأي، والعقل، والبدن، والفكر...

● - وقال آخر: الإفراط في محبة النساء، ومخالطتهن، تلهي عن الدين، وتمنع عن النسك...

● - وقال آخر: الإفراط في مخالطة النساء، وحب الجماع، يضعف البصر، وتخلو بالبدن، وتسرع بالهرم، وتضر بالدماغ والعصب، وتسقط القوة، وتطفئ الحرارة الغريزية، ويقل نشاط البدن، وتسيء الهضم في المعدة، وتضر الكبد، وتفسد الدم، وتبیس الأعضاء الأصلية، وتذهب بنضارة الوجه، ويورم الصدر والرئة، ويقصر العمر، وتنهك الجسم، وتضعف الحواس، وتفسد العقل... هذا إذا استعمل على موجب الشريعة ومقتضى السنة، فإذا استعمل على خلاف ذلك، اقتضى مضاره المقدم ذكرها... /

ب/١٣٩

العار، والفضيحة، وسقوط الجاه، وضياع المال في الدنيا، والعقاب في الآخرة...

● - وقال بعض الحكماء: إن كثرة الجماع تبعث على محبة النساء، وإن محبة النساء تلهي وتطغي وتجعل الحر عبداً...

● - وقيل: لا مصيبة أعظم من الجهل، ولا شر أشد من النساء...

● - وقيل: العجز يُعرف في ثلاثة خصال: قلة اكتراث في المصلحة، وقلة المخالفة في الشهوة، والقبول من المرأة فيما لا يعلم...

● - وقيل: من أراد أن يؤتى على طلب الحكمة، فليكن على دفع تمليك النساء قادراً...

● - وقال بعض العلماء: ما رأيت أغلب للرجاء ذوي العقول من النساء...

● - وقيل: ست خصال لا تحسن في ست خصال: الظلم في الأمراء، والحرص في الفقراء، والسفه في الأشراف، والبخل في الأغنياء، وقلة الصبر على الضعفاء، وقلة الحياء في النساء...

● - وقيل: لا تصحب سلطاناً ولو أطاعك في جميع الأمور، ولا تخلو بامرأة ولو كانت من أزهد النساء، ولا تتكلم بكلام اليوم تندم عليه غداً...

● - وأوصى رجل ولده، فقال: يا بني، اعص هواك والنساء واصنع ما شئت...

● - قال الأصمعي: قال أبو موسى: جاءت امرأة إلى رجل تدلّه على امرأة يتزوجها، فقال لها: لما أتيتني تكلميني في امرأة موصوفة بالجمال فقد أصبت لها، ولكن... والله لزواجها ما اشتيت، إلا أن احتملت مني ثلاث خصال، فأنشد:

فمنهن عجز لا ينادي وليدة ورقة إسلام وقلة مال

● - وقال آخر لامرأته: يعجبني منك عند الجماع، حياء الكلام وموت النظر... .

● - وقال: سُئل أعرابي: ما عندك للنساء...؟.. فأشار إلى ذكره... .

● - وقال آخر في زوجته:

لقد كنت محتاجاً إلى موت زوجتي ولكن قريب السوء بات معمر
فيا ليتها جاءت إلى القبر عاجلاً وعذبها فيه منكر ونكير

● - وقال / يزيد بن عميرة في أمة له:

أعاتبها حتى إذا قلت أقبلت إلى الله لا رجعة لها فتعود
فإن طمست قادت وإن طهرت زنت فتلك التي يزنى بها وتقود

● - وقال الحطيئة يهجو أمة له:

تنحي فاقعدي مني بعيداً أراح الله منك العالمينا
أغربالاً إذا استودعت سراً وكانونا على المتحدثينا
حياتك على ما علمت فسق وموتك قد يسوء الصالحينا

● - وقال بعضهم: إذا قال لك أحدهم أنني تزوجت نصفاً، فاعلم أن شر النصفين بقي في يده... وأنشد:

وإن أتوك فقالوا إنها نصف فإن أطيّب نصفها الذي ذهب
● - وفي حكمة داود عليه السلام: وجدت في الرجال واحداً في ألف،
ولم أجد واحدة في جميع النساء... .

● - وقالت الحكماء: لا تنهى المرأة عن شيء إلا فعلته... .

● - وقال في ذلك طفيل الغنوي:

إن النساء متى ينهين عن خلق فإنه واقع لا بد مفعول

● - قال: وطلق رجل امرأته، فقالت له: أبعد خمسين سنة...؟!..

فقال لها: والله ما لك ذنب عندي أعظم من هذا... .

● - وكان الهيثم بن علي، يحب العريانة بنت الأسود، وهي ابنة عم له، فطلقها، فتبعتها نفسه، فكتب إليها يعرض لها بالرجوع، فكتبت إليه:

إذا كنت ذي حاجة فاطلب بها بدلاً إن الغزال الذي ضيعت مشغول

● - وعن الهيثم بن علي، عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: كان يجلس يخاطبهن، وكانت امرأة من بني سلول تُخطب، وكان عبد الله بن عاصم السلولي يخطبها، وكان إذا دخل عليها الشاب، وأقبل عبد الله بن هند، قالت/ للشاب: تم لك النهار، وأقبلت على عبد الله تحدثه بحديثها. . ١٤٠/ب
ثم إن الفتى تزوجها، فلما بلغ ذلك عبد الله بن هند، أنشد يقول:

أودي بحب سليمي فإنك طعن بحبه منطوٍ ما بين أحجاري
إذا رأيتني تقد بيني وتجعله في النار يا ليتني المجعول في النار

● - وحكى الأصمعي فقال: قال أعرابي لرجل: لا تتزوج أربعة نسوة، فإن كل واحدة تأخذك بحماها، وأنت وحدك كحالك معي، ولا تتزوج بثلاثة نسوة، فإنهن كالإماء تصير بينهن فيلومونك، ولا تتزوج باثنتين ضرتين فتكون بينهما بين شرين، ولا واحدة فإنك تحيض إذا حاضت، وتلد إذا ولدت، وتمرض إذا مرضت. . فقال: قد نهيت عن كل ما أمر الله سبحانه وتعالى به، فسقط في يده. . ثم فكر الأصمعي وقال: قرصان، وكوزان، وطهران، وعبادة الرحمن. . .

● - وعن الأصمعي أيضاً، قال: سمعت بعض الهلاليين يقول لبيه: يا بني، لا تشتروا الغنم فإنها مال الرمة، ولا تشتروا البقر فإنها مال الذلة، ولا تشتروا الإبل فإنها رقوم الدم، وصدقات الحرائر، وسفن البر، وفيهن قضاء الحقوق، ولا تتزوجوا المميتات فإنهن يضربن على رؤوسكم بمن كان قبلكم، وتزوجوا المطلقات فإنهن أضعف النساء، وإنكم لتضربوهن على رؤوسهن بمن كان قبلكن. . .

● - قال: وعن مجدوع النميري أنه قال:

فلا بارك الرحمن في عرس أهلها / عما غرني الإخضاب بكفها
عشية زفوها ولا قبل من بكر / أتوني بها قبل المحاق بليلة
وكحل بعينها وأثوابها الصفر / يا ليتهم زفوا إلي مكانها
فكان محاقاً كله ذلك الشهر /
شديداً قصيراً ذا غرام من النمر

● - وقال آخر:

خزاك الله شراً من عجوز / لقد ملكت أمر بنيك حتى
ولقاك العقوق من البنين / فإن تخلو وأمرك لا تصولي
تركتهم أدق من الطحين / لسانك مبرد لا خير فيه
بمشئتد قواه ولا متين /
ودرك در جارية دهين

● - وقال آخر:

يادواء السحق في الغرب والشرق / أفقن فإن النيك أسخى من السحق
أفقن فإن الخبز بلا إدام يشتهي / وليس يسوغ الخبز بالخبز في الحلق
إذا كن ترفعن الخروق بمثلها / وإني بما يسترع الخرق بالخرق
وهل يصلح المهراس إلا بعوده / إذا احتاج منه يوم إلى الدق

* * *

•

قصص متفرقة في الحيل

١ - ● - قال: وأخبرنا أبو خليفة، قال: كان عند الشماخ امرأة من بني هزام بن السماك، فنازعتة وادعت طلاقاً، وحضر معها قومها فأعونها أمرهم، فأعانوها، واختصموا إلى كثير بن الصلت، وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه قد أقعده للنظر بين الناس، وكان رجل من كندة، وعداده من جمح، ثم تحولوا إلى العباس وهم فيهم اليوم، فرأى كثير أن عليها يميناً، فألقوا في الشماخ اليمين، يحضرهم عليها، فأمر عثمان بن عفان رضي الله عنه كثير بن الصلت أن يستحلفه على منبر رسول الله ﷺ، فانطلق كثير إلى المسجد، ثم التجأ إليه رجل / اسمه تيم بن سليم بن منصور، فقال: ويلك يا شماخ، إنك لتحلف على منبر رسول الله ﷺ، ومن حلف به آثماً فليتبوأ مقعده في النار^(١). . قال: فكيف أفعل. .؟. . قال: فذاك أبي وأمي. . قال: إني سأحلف ما هجرتم. . وردني وناجيني بذلك، فأني سأدفع عنك. . فلما وقع،

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحلف عبد عند هذا المنبر على يمين آثمة، ولو على سواك رطب إلا وجبت له النار». رواه ابن ماجه في كتاب الأحكام، باب: اليمين عند مقاطع الحقوق ٧٧٩/٢، برقم ٢٣٢٦/، وأحمد في المسند ٣٢٩/٢ و٥١٥، والحاكم في المستدرک ٢٩٧/٤، وقال الذهبي في التلخيص: حديث صحيح، وفي الباب عن جابر رضي الله عنه، رواه ابن حبان، وأبي داود، وابن ماجه، ومالك، والشافعي، والبيهقي. . .

حلف كما قال له، وأقبل على كثير، فقال: ما أخرجتكم.. فقال له: ما عنت غيركم، فأعد اليمين لنا عليه.. فقال: ما لي أنا وما له، وهل استحلته إلا لكم، وما اليمين إلا واحد، انصرف يا شماخ، فانصرف وهو يقول:

أتنتي سليم قضها وقضيضها	تمسح حلمي بالبقيع سيالها
يقولون لي احلف ولست بحالف	أخادعهم عنها لكيما أنالها
فلولا كثير نعم الله ما لهم	لكننا فعلنا حجتك فعالها
ففرجت هم الموت عني بحلفه	كما شقت الشقراء يوماً جدالها

٢ - ● - قال: حدثنا، كنا عند أمير المؤمنين المأمون، فدخل إبراهيم بن المهدي، فقال: يا عم، هل عشقت قط..؟.. قال: أي والله إنني اليوم لعاشق.. فقال:

ما لي لا أراك كالذي تقول	وجه الذي يعشق معروف
لأنه أصغر منحوف كالذي تلقى	وجته كأنه المذبح معلوف

فقال: هو كما أقول يا أمير المؤمنين:

وقائل لست بالمحب ولو	كنت حبال في بيت منذ زمن
أحب قلبي وما درى بدني	/ ولو درى ما أقام في السمن

أ/١٤٢

قال: فاجعل بيني وبينك حاكماً، جاريتك تتريف^(١)، فوجه إليها بخادم يقول: تعالي فاحكمي بيني وبين عمي.. فقالت: فبماذا..؟.. فأخبرها الخادم.. فكتبت إليه: رب ما أقبح هذا، عاشقاً مستهماً، ما ينفقا سمناً.. قلت: زوريني.. فقالت: عندها أنا والله إذا قاسى منا، إذا يصلي وعليه ربهم، أنت تهواني وآتيك أنا.. قال: حكمت لي يا عم، ولها علي.. قال: جهلت معرفة الهوى، ولو علمت لحكمت لي عليك.. وكتب لها:

(١) تتريف: من مولدات البصرة، بارعة الحسن والجمال، بديعة الظرف، موصوفة بالكمال، وكانت تقول الشعر، وصفوها للمأمون، فاشتراها، فلما رآها وقعت في قلبه، فأنزلها في منزلة غريب ومؤنة، وقدمها على سائر حظاياها. انظر: أعلام النساء ١/١٧٢...

أن تكوني جهلت مافي من الوجد وعافاك خالقي وابتلاني
فارحميني لا تبتي بدائي إن بي من هواك ما قد برأني

٣ - ● - قال: كان من حديث عبد الله بن علقمة، حدثني عامر بن عبد مناف بن كنانة: أنه خرج مع أمه وهو إذ ذاك غلام يافع دون المحتلم، وذلك لتزور جارة لها، وكانت لها ابنة يقال لها: حبشة بنت حبش. فلما زارتها ورأت عبد الله بن علقمة، أعجبته، ووقعت في نفسه، فانصرف وترك أمه عند جارتها، فلبث عندها يومين، ثم أتاها عبد الله ليرجعها إلى منزله، فوجد حبشة قد تزينت لأمر كان في الحي، فازداد بها إعجاباً، وانصرف بأمه في غداة تمطر، فمشى معها، وأنشد يقول:

فما أدري بي أنه لا درى أصوب القطر أحسن أم حبش
حبشة والذي / خلق البرايا وما أنا عندها للصب عيش

ب/١٤٢

قال: فسمعت ذلك حبشة، فتغافلت عنه، وكرهت قوله، ثم غشي عليها، فإذا هو بطيء على ربوة من الأرض. فقال: بالمني أخبريني غير كاذبة، وما يريد سؤال الحق بالكذب، أتلك أحسن أم قلب ابن أبيه، فأسأل حبشة في عيني تفي إربي. قال: فزجرته أمه. فقالت: ما أنت، وها أنا مزوجتك ابنة عمك، فهي أجمل من تلك. قال: وأنت امرأة عمه، فأخبرتها خبره، وقالت: زيني ابنتك له. ففعلت، وأدخلتها عليه، فلما رآها أطرق. فقالت له أمه: أيهما الآن أحسن؟ فقال: إذا غيبت عني حبشة من الدهر مرة، لم أملك عراة ولا صبر، كأن بالحشا حر يحشه وقود بالفضاء والقلب ملتهب.

قال: وجعل يرسل الجارية وتراسله، حتى علقتة كما علقها، وأكثر قول الشعر فيها، فمن ذلك قوله:

حبشة هل وجدي ووجدك جامع شملكم شملي وأهلكم أهلي
وها أنا ملتف بثوبك مرة بصحراء بين الألتين إلى النخل
ومرتشف من ثغر ريقك مرة كراح ومسك خالطاً عسل النحل

فلما بلغ أهلها خبره، حجبوها عنه مدة، وهو يزداد غراماً به وبها، ويكثر من قوله الشعر فيها.. فأتوا، فقالوا لها: إذا أتاك فقولي له: أنشدك الله إن أحببتني، فإني والله ما على الأرض شيء أبغض إليّ منك، ونحن بالقرب منك نسمع ما تقولين.. فواعدته، وجلسوا قريباً يسمعون، وأقبل علقمة، فلما دنا منها، دمعت عيناها، والتفتت/ حيث أهلها جلوس، فعرف أنهم بالقرب، فرجع، ثم بلغه بما أمرت، وهابه أن تقول ذاك الكلام الذي علموها إياه، فعاد وأنشد يقول:

ولو قلت ما قالوا أردت جوا جوي على أنه لم يبق ستر ولا صبر
ولم يك في حبي نوال بدا له فيسلمني عند التجلد والهجر
وما أنسى من أشياء لم أنس دمعها ونظرتها حتى يغيني القبر

٤ - ● - قال: وضرب البعث على رجل من الكوفة، فخرج إلى أذربيجان، فأفاد جارية وفرساً، وكان مليكاً يأتيه عم له، فكتب إليها ليغير بها:

ألا بلغوا أم البنين بأننا غنينا وأغنينا الغطارفة المجد
بعيد مناط المنكبين إذا جرى وبيضاء كالتمثال زينها العقد
فهذه لأيام العدو وهذه لحاجة نفسي حين ينصرف الجند

فلما ورد كتابه، وقرأته، قالت: يا غلام، هات الدرة.. ثم كتبت جوابه:

ألا فاقرأ مني السلام وقل له غنينا وأغنينا الغطارفة المرد
بحمد أمير المؤمنين أقرهم نفساً بأوغر هي خوالفه الجند
إذا شئت أغناني غلام مرجل ونازعته في ماء معتصر الورد
وإن شاء منهم ناشيء ما أكفه إلى كبد ملساء أو كفل نهد
فما كنتم تقضون حاجة أهلكم شهود فتقضونها على النائي والبعد
فعجل علينا بالسراح فإنه منانا ولا ندعو لك الله بالود
فلا فقد الجند الذي أنت فيهم وزادهم الله بعداً على بعد

فلما ورده كتابها، لم يزد على أنه ركب الفرس، وأردف الجارية، ١٤٣/ب
ولحق بها، وكان أول شيء بدأها بعد السلام، أن قال لها: بالله هل كنت
فاعلة...؟.. فقالت: إن الله في قلبي أعظم وأجل، وأنت في عيني أذل
وأحق من أن أعصي الله فيك.. فكيف ذقت طعم الغيرة.. قال: فوهب لها
الجارية، وانصرف إلى بعثه...

٥ - ● - قال: وذكر ابن العربي في كتابه المعروف - الفتوحات المكية
- قال: إن امرأة ماتت، فلما قاموا في أمرها، أحضروا لها الغاسلة، فلما
جردتها من ثيابها، ووضعها على المغتسل، ورفعت الغاسلة يدها، وضربت
بها على فرج المرأة، وقالت: قبحك الله من فرج ما أزنأك...

قال: فالتحمت يدها بالفرج، واجتهد الناس بأسرهم أن يخلصوها من
فرج المرأة الميتة، فلم يقدرُوا على تخليصها، واجتمع الفقهاء، واختلفوا في
هذه الواقعة...

فمنهم من قال: تقطع يد الغاسلة...
ومنهم من قال: فرج الميتة أولى...
قال: فقالوا: كما يؤذى الحي، يؤذى الميت أيضاً، وبقوا على ذلك
زماناً، وهم لا يدرون ما يصنعون.. قال: وكان الإمام مالك ابن ثمانين عشرة
سنة، وهو يلعب مع الفتيان، فلما سمع بذلك أتى إليهم والناس مجتمعين،
فأخبروه الخبر، فقال لهم: اجلدوا الغاسلة ثمانين جلدة، فإن يدها تخلص..
فجلدوها ثمانين جلدة، فخلصت يدها، لأنها كانت قاذفة، وحد القذف
ثمانون جلدة.. لقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ
يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾^(١).. فمن ذلك اليوم سُمي
فقيهاً، وهي أول فتوى أفتى بها...

* * *

(١) سورة النور - الآية ٤...

قصص متفرقة في المكر والدهاء

٨٠ - فَلَهُنَّ فِي الْمَكْرِ الْخَفِي مَنَاقِبًا بَيْنَ الْمَنَاقِبِ

١/ - ● - قال: كان عمرو بن أبي ربيعة جالساً يغني في فناء مضربه وغلمانة حوله، إذ أقبلت امرأة مبرزة عليها أثر النعمة، فوقفت وسلمت.. فرد عليها السلام، فقالت له: أنت عمرو بن أبي ربيعة..؟.. فقال لها: أنا هو، فما حاجتك..؟.. قالت له: حياك الله وقربك، هل لك في محادثة أحسن الناس وجهاً، وأتمهم أدباً، وأشرفهم حسباً، وأتمهم خلقاً.. فقال: ما أحب إليّ إلا ذلك.. فقالت: على شرط.. فقال: ما هو..؟.. قالت: تمكنني من عينيك حتى أعصبهما وأقودك، حتى إذا توسطت الموضع الذي أريد، عندئذ أحلل الشد، ثم أفعل بك ذلك عند إخراجك حتى أنتهي بك إلى مضربك.. فقال: شأنك.. ففعلت به ذلك..

أ/١٤٤

قال عمرو: فلما انتهت بي إلى المضرب الذي أرادت، كشفت عن وجهي، فإذا أنا بامرأة على كرسي لم أر مثلها قط جمالاً وكمالاً.. فسلمت وجلست.. فقالت: أنت عمرو بن أبي ربيعة..؟.. قلت: أنا عمرو.. قالت: أنت الفاضح للحرائر..؟.. قلت: وما ذاك جعلني الله فداك..؟.. قالت: ألسن القائل:

قالت وعيش أخي ونعمة والدي لأنبهن الحي إن لم تخرج

فخرجت خوف يمينها فتبسمت فعلمت أن يمينها لم تخرج
فتناولت رأسي لتعرف مسه بمخضب الأطراف غير مشنج
فلثمت فاهها وأخذت بقرونها شرب النزيف ببرد ماء الحشرج

ثم قالت: قم فاخرج عني.. ثم قامت من مجلسها، وجاءت المرأة
فشدت عيني، ثم أخرجتني حتى انتهت بي إلى مضربي، وانصرفت
وتركتني، فحللت عيني وقد دخلني من الكآبة والحزن/ الله تعالى أعلم به،
وبت ليلتي، فلما أصبحت إذ أنا بها.. فقالت: هل لك من العود..؟..
قلت: شأنك.. ففعلت بي مثل فعلها بالأمس، حتى انتهت بي إلى موضع،
فلما دخلت إذ بتلك الفتاة على كرسي، فقالت: إيه يا فضاح الحرائر..
قلت: بماذا جعلني الله فداك..؟.. قالت: بقولك:

وناهدة الشدين قلت لها إنك على الرمل من جبانة لم توسد
فقلت على اسم الله أمرك طاعة وإن كنت قد كلفت ما لم أعود
فلما دنا المصباح قالت فضحتني فقم غير مطرود وإن شئت فازدد

ثم قالت: قم فاخرج عني.. فقممت وخرجت، ثم رددت.. فقالت
لي: أوشك الرحيل، وأخاف الفوت، وإني محبة لمناجاتك والاستكثار من
محادثتك، لأقضيته، هات الآن كلمني، وحدثني، وأنشدني.. قال:
فكلمت من أعلم الناس بكل شيء، ثم نهضت هي وأبطأت العجوز، وخلا
لي البيت، فأخذت أنظر فإذا أنا بشيء فيه خلوف، فأدخلت يدي فيه، ثم
خبأتها، وجاءت تلك العجوز فشدت عيني، ونهضت بي تقودني، حتى إذا
صرت على باب المضرب، أخرجت يدي وضربت بها على المضرب، ثم
صرت إلى مضربي، فدعوت غلماني، فقلت: أيكم يقضيني على باب
مضرب عليه أثر خلوف كأنه أثر كف، فهو حر وله خمسمائة درهم، فلم ألبث
أن جاء بعضهم فقال: قم.. فنهضت معه، فإذا أنا بالكف طرية، وإذا
المضرب مضرب فاطمة بنت عبد الملك بن مروان، فأخذت في أهبة

الرحيل، فلما نفرت، / نفرت معها، فبصرت في طريقها بقباب ومضرب
وهيئة جميلة، فسألت عن ذلك، ف قيل لها: هذا عمرو بن أبي ربيعة، فسأها
الأمر، وقالت للعجوز التي كانت ترسلها إليه: قولي له أنشدك الله والرحم أن
لا تفضحني.. فقالت العجوز: ويحك، ما شأنك وما الذي تريد..؟..
انصرف ولا تفضحنا، واضبط دمك.. فقال: لست بمنصرف أو توجّه إليّ
قميصها الذي يلي جسدها.. ففعلت، ووجهت إليه بقميص من ثيابها، فزاده
ذلك شغفاً، ولم يزل يتبعهم ولا يخالطهم حتى إذا صاروا على أميال من
دمشق، فانصرف، وقال في ذلك:

ضاق الغداة بحاجة صدري	ويئست بعد تقارب الأمر
وذكرت فاطمة التي علقتها	عرضاً فيا لحوادث الدهر
ممكورة ردع العبير بها	جم العظام لطيفة الخصر ^(١)
وكأن فاما عند رقدتها	تجري عليه سلافة الخمر

٢ - ● - ومما نقله ابن الجوزي: أن زبيدة أخذت يتيمة فربتها، وكانت
من بعض بنات جوارها، وكانت فائقة في الحسن والجمال والأدب والعقل..
فعلمتها القرآن الكريم، والخط.. فلما بلغت مبلغ النساء سلمتها زبيدة
مفاتيح خزائنها، وأحسنّت إليها غاية الإحسان، وبلغ من أمرها أنها حكمت
وتملكّت، وما كانت تخالف أمرها، فأحضرتها زبيدة يوماً من الأيام بين
يديها، وقالت لها: قد أحسنت لك غاية الإحسان، وأريد أن أتمها عليك، وأن
أزوجك بمن تختارين / أنت بنفسك ويعجبك حتى لا يبقى عليّ ملامة، فإن
النساء يردن من الرجال الجمال والشباب والحسن، كما يردن الرجال من
النساء، وإن الصورة الجميلة تشرح صدر من يصحبها، وقد أذنت لك أن
تنزلي في شوارع بغداد كل يوم في محل أنت والقهرمانة وخادم صغير..
فسكتت الصبية.. فقالت: لا بد من هذا.. ثم إن القهرمانة أخذتها ونزلت

(١) ممكورة هي المرأة الحسناء المرتوية الساقين والمدمجة الخلف، والعبير: أثر الخلف...

تدور في أسواق بغداد، فبقيت ثلاثة أيام تلازم النزول، فلما كان في اليوم الرابع وقع نظرها على صبي، أول ما بدا العذار بخده، وهو كما قال فيه الشاعر:

دب العذار على ميدان وجتته حتى إذا هم أن يسعى بها وقفا
كان كاتبه عز المداد به أراد أن يكتب لاما فابتدا فاهما

قال: ولم يكن في عصره أحسن من صورته وجماله، فلما نظرت إليه الصبية، قالت للقهرمانة: يا خالتي أريد هذا الصبي.. فقالت لها: حباً وكرامة...

قال: وجلست على دكانة، واستعرضت فيه مما شاء، ونظر الصبي إلى الصبية فسلبت عقله، وكان القماش يساوي مائتي دينار، وكان الشاب بما غلب على قلبه حب الجارية لم يسألهم من أنتم، وأخذت القهرمانة القماش ورفعته إلى دار الخلافة، وأعلمت زبيدة بذلك.. فقالت لهم زبيدة: إن أول نظرة لا يؤخذ بها، ولكن النظرة الثانية لك.. فأخذت القهرمانة الذهب ونزلت الجارية معها، ودفعت الدراهم إليه، وأخذت قماشاً غيره يساوي ثلاثمائة دينار، ولم يقل لهم شيء، وكان أكثر القماش الذي دفعه لهم لجيرانه...

قال: فغابت عنه أسبوعاً كاملاً، والصبي قد اشتغل قلبه بالصبية، فلا يعرف النوم، وجيرانه يطالبونه بثمن / القماش...

أ/١٤٦

قال: ومن كثرة ما زادوا في وصف الغلام، قالت زبيدة: لا بد أن أحضره، وأنظره، وأشاهد الذي يصفونه بكمال الحسن من قبل أزوجها حتى أشاركها في النظر...

قال: فنزلت القهرمانة وحدها، وأخذت الذهب معها، وقالت له: لا نكون قد أبطأنا عليك بالذهب، فقد عرض علينا شغل عاقنا عنك، ودفعت إليه الذهب، وقالت: لا يكون قد اشتغل قلبك بذلك.. فقال لها: أنا مملوكك، فبحق الله عليك يا ستي من بيت من أنتم، وهذه التي كانت معك،

جارية أم بنت ناس هي . . ؟ . . قالت : أتحب أن أزوجك إياها . . ؟ . . قال : نعم إن أردت . . فقالت : هي جارية الخليفة . . فلحق الصبي الرعب وندم على ما تكلم به وخاف . . فقالت العجوز : لا بأس عليك ، قم واسبقني إلى سوق الصناديقية ، واجلس في المسجد الذي هناك . . فسبقها إلى المسجد ، فلما وصلت إليه وقد أحضرت صندوق ، قالت للفتى : اجلس فيه . . فجلس الصبي فيه . . فأقفلت عليه بقفل ، واستدعت حمال ، وقالت : ارفع هذا الصندوق إلى دار الخلافة . . فلما وصلت به إلى الدهليز الأول ، قال البواب : ما في هذا الصندوق . . ؟ . . قالت : إلى دار زبيدة . . قال : لا بد من الوقوف عليه . . قالت : لا تفعل فإنني مستعجلة . . قال : لا يحمل هذا الصندوق ولا يدخل حتى أنظر ما فيه . . فزعقت في الحمال أن يضعه بين يديه ، وألقت إليه المفتاح ، فبال الصبي لما سمع ، فلما رأت البول / قد خرج من الصندوق ، أمسكت ثوبها وجذبتة وشقته ولطمت على وجهها ، وقالت : قد أهلكت شيئاً بألف دينار ، ولا زالت تلطم وجهها حتى جرى الدم من منخريها ، فلما رأى البواب ذلك خشي على نفسه ، فألقى إليها المفتاح ، فقالت : والله لا بد للسيدة أن تضرب رقبتى ورقبتك . فقال : خذيه وانصرفي ما بقيت افتحه . . فلما وصلت إلى دار الخليفة ، كان الخليفة خارجاً من دار النساء ، والسيف بيده ، فقال : ما في هذا الصندوق . . ؟ . . فقالت : يا أمير المؤمنين ، قماش للجواري . . فقال : لا يفتح حتى أبصر القماش الذي هو فيه . . قال : وتركها أمير المؤمنين ومضى ، فحملت الصندوق إلى بين يدي زبيدة ، فأخرجوا الصبي من الصندوق ، وأخفوه . . وملأوا الصندوق قماشاً ، وأقفل عليه . . فلما دخل الخليفة ، فتحوا الصندوق أمامه ، فأبصر القماش الذي هو فيه ، وثنَّ عليه ، ودفع إليهم ثمنه ، فأخذوا الذهب ودفعوه للصبي وقالوا له : اخطب الجارية من صاحب المخزن ، فخطبها وزوجوه بها ، وجهزها الخليفة بأبهى ما يكون من حلي وجواهر وأواني ذهب وفضة وزفوها إليه . . .

٣ - ● - وقد حكى عن بعض الملوك أنه كان قد أبغض إليه البنات ، وكان من تقدير الله سبحانه وتعالى أن ولدت له بنتاً ، فسمها تحفة ، وأخفاها

عن الناس ، وكنتم أمرها، وأنزلها في سرداب تحت الأرض ، وأنزل معها الداية والمرضعة وجارية تصلح حالهم ، ولم يروا فيها ضوءاً ولا منفذ هواء ، وكان كل يوم يبعث إليهم ما يحتاجون إليه من مأكّل وملبس وغير ذلك . . .

قال : ثم رزق الملك ولداً ذكراً ، فسماه طرفة ، وسلمه إلى الخدم ، وكان إذا حضر إلى عند أخته لم يفرق بينهما/ في الحسن والمنظر والشكل ، ١٤٧/أ وأما الصبي فإنه نشأ أعجل ما يكون ، فتعلم وكتب وحفظ القرآن وتعلم الصلاة ، وكان من أشد الناس حرصاً على ما فرضه الله سبحانه وتعالى ، فلما أدرك ولحق بالرجال ، طلب من أبيه دستوراً إلى مكة حرسها الله تعالى ، فأذن له في السفر ، ولم يخالفه لقوة محبته له ، وقدم له جميع ما يحتاجه من أموال وخدم ومحمل ، فلما عزم على الرواح دخلت عليه أخته تودعه ، فبكت وقالت : يا أخي بحق الله تعالى عليك خذني معك ، وكان يحبها حباً شديداً ، فطلب من أبيه دستوراً لها . . فقال له : خذها . . فنزل إليها وأخرجها ، وأخذها معه ، وأخرج لها جوار لصحبته وخدمتها ، ثم سافر حتى قدموا على مدينة ، فدخل ابن الملك يدور فيها ، فأذهل أهل تلك البلدة بحسنه وجماله ، فرفعوا قصته إلى الملك ، فأرسل بإحضاره ، فلما مثل بين يديه ، سأله عن حاله . . فقال له : من أين أقبلت . . ؟ . . وإلى أين تريد . . ؟ . . فقال له : أنا ابن الملك الفلاني ، وأن أختي معي ، وأنا طالب بيت الله الحرام . . فقال الوزير للملك : يكذب هذا العلق ، إنما هو ابن مغنية ، والبارحة كانت أخته عندنا تشرب معنا ونشرب عليها . .

قال : وكان الوزير قد جهز غلامه على الصبي فسرق منديله ، فبعثه إلى أخت الصبي ، وطلب منها فردة السوار ، فلما رأت المنديل عرفته ، فأخرجت فردة السوار ودفعته إليه ، فأخذها الغلام ودفعها للوزير . . .

قال : فأحضرها الوزير أمام الملك ، وقال للصبي : يا علق ، هذه فردة سوار أختك أخذناها رهناً على الصحبة ، فماذا تقول . . ؟! . .

قال: فأطرق الصبي رأسه، وقال: بلى.. فضربوا/ في رجله القيد، وأودعوه السجن...

قال: فبلغ أخته ذلك، فلبست ثياب أخيها، ودخلت إلى المدينة تدور فيها، فرأت للملك فصيلاً^(١)، وكان الملك مغرمًا به، وقد ألبسوه الأطلس والنسيج المعمول بالذهب، وفي عنقه حجارة الياقوت واللؤلؤ والأطواق والذهب في رأسه، وعليه عشرين من الحرس ليلاً ونهاراً، فتعجبت من ذلك، ثم إنها دخلت السوق، فرأت طباحاً أعجمياً، فنظر إليها فسلمت عقله، وهو يعتقد أنها غلام، فأجلسها على الدكان وقدم إليها طعاماً.. فأكلت.. فقال لها: تجيء معي إلى البيت الآن..؟.. فقالت: بحلمك، فأنا غريب، ومالي أحد إلا الله سبحانه وتعالى، ثم أنت، فإن كنت تحسن إليّ، فما أموت إلا تحت قدميك...

قال: ثم قالت: إن سمعت مني، سمعت مني وسمعت منك.. فقال: قل لي.. قالت: وتتفضل.. قال: نعم.. قالت: قم معي إلى فيصل الملك، وقد شرب الحراس الخمر، فننحره، ونأخذه إلى دكانك...

قال: فتسمر الصبي، وشد وسطه بفضة، وقد قدم عليه جميع أهل البلدة يشترون منه، وكان قصد الجميع الفرجة عليه، وأي مبلغ يطلبه منهم يأخذه...

قال: وأما الفيصل، فقد أخبروا الملك خبره، فأخذ الحرس فصيلهم.. ثم إنه أخبر بأن الطباخ عنده غلام له، وأنهما يبيعان لحم الفيصل...

قال: فأحضر الملك الطباخ والصبي، وكانت روح الملك معلقة بالفيصل، وما كان يصبر عنه ساعة واحدة، فقال الملك للطباخ: أنت عقرت

(١) الفصيل: ولد الناقة...

الفصل . . ؟ . . قال : لا والله . . فقال الصبي : أنا عقرتة . . فقال الملك :
ولم فعلت ذلك . . ؟ . . فقال : وقفت أتفرج عليه ، وأنا صبي غريب ، فضربني
الحرس ، فاشتھيت الانتقام منهم ، وذلك لما فعلوا في حقي ، وما كان لي بهم
من قوة غير الذي صنعت . . فقال الملك : / أكنت وحدك . . ؟ . . قال : لا
والله ، كنت أنا والوزير . . فقال الوزير : والله يكذب ، والله ما رأيت هذه
الصورة إلا هذه الساعة . . فقال الملك : وكيف اجتمعت بالوزير . . ؟ . .
فقال : رأني غلام في السوق ، فوصفني له ، فأنفذ الوزير خلفي ، فشكوت له
ما لقيت من الحرس ، فقال لي : تبيت الليلة عندي ، وأنا أعقر الفصل . .
فبت عنده ، ونال مني ما أراد ، وهجم الليل ، فقام وأخذني معه ، وعقر
الفصل . . .

قال : وكان للوزير مملوك يعز عليه ، وكان قد رآه حامل سيف الوزير ،
وقد خرج في حاجة ، فلقى الصبي . . فقال : أعطني السيف هذا وأنا غداً
عندك . . فأعطاه السيف . .

قال : أيها الملك ، فليس سوى أن طاوعني على عقر الفصل ، وهذا
السيف الذي له . . .

قال : فلما رأى الوزير سيفه ، شق عليه ذلك ، وتغير لونه ، وخاف على
نفسه من الملك ، فقال الوزير : والله لا إلّاه إلا هو ، إن هذا الشخص الذي
يقف أمامك ما رأيته سوى ساعتي هذه ، ولا وقعت عليه عيني غير هذه الساعة
فقط . . فقال الملك : أليس هذا هو سيفك . . فقال : والله لا أعرف له
قضية . . .

قالت : فقالت الفتاة : يا ملك الزمان ، لقد أنكرني الوزير ، وهو يحلف
بالطلاق ، وبالمصحف الشريف وبأجل الأيمان ، أنه ما رأني سوى ساعته
هذه ، فإذا حلف أقيم عليه البينة بحضور الملك إن شاء الله تعالى . . .

قال: فحلف الوزير بالطلاق، والعتاق، والمصحف الشريف، ورأس الملك، أنه ما رأى هذا الشخص إلا هذه الساعة فقط...

قال: فرفعت الفتاة رأسها إليه، وقالت: أيها الملك، ألم يقل الوزير أنه شرب عليّ، وأنا بنت باكر، فأوقف عليّ النساء فينظرونني...

قال: فلما سمع الملك كلامها، أمسك الوزير، ثم صلبه...

ب/١٤٨

..... /
(١) /

أ/١٤٩

٤ - ● - / قال: [وقع خلاف بين رجلين]^(٢) في جارية كانت بينهما، فاختصما، وادعى كل واحد منها أن الجارية هي جاريته، وكان قد هجم عليهم الليل، وطلب كل واحد منهم أن تبيت الجارية عنده، وكل واحد منهم يمنع الآخر ذلك الأمر، فسمعوا مؤذناً يؤذن ويذكر الله سبحانه وتعالى في المنارة، فاتفقا على أنهما يودعاها عنده إلى الصباح، ويأخذاها من عنده ويتحاكما عليها، ومن يُحكم له في مجلس الحكم تكون له...

ب/١٤٩

قال: فجاء إلى المؤذن وطرقا عليه باب المنارة، فنزل إليهما، فقالا له: إن هذه الجارية بكراً، وقد اختلفت أنا وصاحبي عليها، وامتنع كل واحد منا أن تبيت الجارية عند الآخر، وقد رأينا أن نحتكم غداً في مجلس الحكم، فلما رأيناك تذكر الله سبحانه وتعالى في هذا الليل، علمنا أنك من أهل الخير، فأتينا إليك نودع هذه الجارية إلى الغد، ولا تسلمها لأحد منا إن لم يكن صاحبه معه، لا إليّ ولا له إن لم نأتك نحن الاثنين... فقال المؤذن: مبارك لكما...

(١) بياض في الأصل بمقدار: [ب/١٤٨] و[أ/١٤٩].

(٢) ساقطة في الأصل وإثباتها يقتضي السياق لإتمام المعنى...

قال: ثم أخذ المؤذن الجارية، ودخل بها المنارة، وراودها عن نفسها، ثم افتضاها، ثم أخرج رأسه من المنارة، وصاح وهو يقول: أيها الناس ما بقي في أحد خير قط.. فرفع الناس رؤوسهم، وقالوا: ما شأنك أيها المؤذن..؟.. فقال: قدم عليّ رجلان، وتقولاً عليّ واختصما عندي ومعهما جارية، وقد ذكروا أنها بكر، وأودعاني إياها، ووالله لقد وطئتها بنفسي، واختبرتها فوجدتها ثيباً، أيها الناس، ما بقي عند أحد أمانة ولا صدق، أي شيء يكون أعظم من هذا.. أيها الناس: اشهدوا غداً بذلك إذا حضرا لأخذها.. فقالوا: مبارك.. ولنا في هذا المعنى شعر:

يا سادتي دونكم ما قد دهيت به ففضى هذه من أعجب العجب
ضاعت أمانات قوم لا خلاق لهم /من بينهم عن طريق اللهو واللعب
وقد حفظت الوفاء والعهد بينهم واستوطنوا الغدر والتلفيق والكذب

أ/١٥٠

٥ - ● - قال: كان يَسَارُ الكواعب عبداً أسود يرعى لأهله إبلاً، وكان معه عبد يراعيه، وكان [لمولى] ^(١) يَسَار بنت، فمرت يوماً بإبله وهي ترتع في روض معشب، فجاء يَسَار بعلبة لبن فسقاها، وكان أفحج الرجلين، فنظرت إلى فحجه فتسمت ثم شربت، وجزته خيراً، فانطلق فرحاً حتى أتى العبد الراعي وقص عليه القصة، وذكر له فرحها وتبسمها، فقال له صاحبه: يا يَسَار، كُلْ لحم الحوار، واشرب من لبن العشار، وإياك وبنات الأحرار.. فقال: دَحِكْتُ لي دحكة لا أخيبها، يقول: ضحكت لي ضحكة...

قال: ثم قام يَسَار إلى علبة فملأها وأتى بها ابنة مولاه، فنبهها، فشربت، ثم قامت واضطجعت، وجلس يَسَار حذاءها.. فقالت: ما جاء بك..؟.. فقال: ما يخفى عليك ما جاء بي.. فقالت: وأي شيء هو..؟.. قال: دحكك الذي دحكت إليّ.. فقالت: حياك الله...

(١) ساقطة في الأصل وإثباتها يقتضي السياق لإتمام المعنى..

ثم قامت إلى سبط لها، فأخرجت منه بخوراً ودهناً، وتعمدت إلى موسى، ودعت بمجمرة، وقالت له: إن ريحك ريح الإبل.. وهذا دهن طيب، فوضعت البخور تحته، وطأطأت كأنها تصلح البخور، وأدخلت يدها وقبضت على ذكره، وكان يرى أن ذلك شيء لذيد، فإذا بها تمسك الموس وتقطع مذاكيره.. ثم قالت: صبراً على مجامر الكرام.. فذهب مثلاً...

٦ - ● - قال: عتب المأمون على جارية من جواريه، وكان بها كلف، فأعرض عنها، وأعرضت عنه، وأسلمه العراء، وأقلقه الشوق، حتى أرسل إليها يطلب مراجعتها، فأبطأ عليه الرسول، فلما رجع، أنشد يقول:

بعثناك مرتداً ففزت بنظرة	وأغفلتني حتى أسأنا بك الظن
وناجيت من أهوى فكنت معذباً	فيا ليت شعري عن ذنوبك ما انثنا
ونزهنا طرفاً من محاسن وجهها	ومتعت باستظراف نعمتها أذنا
أرى أثراً منها بعينيك لم يكن	لقد شرفت عيناك من وجهها حسناً
فيا ليتني كنت الرسول وليتني كنت	الذي أقضي وكنت الذي أدنا

قال: ثم إن المأمون أقبل مسترضياً لها، فسلم عليها، فلم ترد السلام، وكلمها فلم تجبه، فأنشد يقول شعراً:

تكلم ليس يوجعك الكلام	ولا يؤذي محاسنك السلام
أنا المأمون والملك الهمام	ولكني بحبك مستهام
/بحق عليك أن لا تقتليني	فيبقى الناس ليس لهم إمام

١٥٠/ب

٧ - ● - قال: وقال رجل: أردت أمراً، فقلت: لاستبشرت بأول من يطلع عليّ، ثم أعمل برأيه.. فكان أول من طلع عليه رجل قيسي راكباً قصبة.. فقال له: إني أردت النكاح، فما تشير به عليّ؟.. فقال: البكر لك، والثيب عليك، وذات الولد لا تقرب، وخذ من الجود لا برمحك...

٨ - ● - قال: عن الفضل بن محمد، قال: خطبت امرأة من بني أسد في زمان زياد، وكانت النساء يجلسن لخطابهم.. قال: فجئت لأنظر إليها،

وبيني وبينها رواق، فدعت بجفنة من ثريد مظلمة باللحم، فأتت على آخرها، وألقت العظام نقية، ثم دعت بالشن مملوء لبناً، فشربته حتى أكفأته على جبهتها، وقالت: يا جارية. ارفعي السحق، فإذا هي جالسة على جلد أسد، وإذا هي امرأة شابة جميلة. . . فقالت: يا عبد الله، أنا كالأسد، ومن بني أسد، وعلى جلد أسد، وهذا طعامي، وهذا شرابي، فإن أحببت أن تتقدم فتقدم، وإن شئت أن تتأخر، فتأخر. . . فقلت: أستخير الله سبحانه وتعالى وانظر في أمري، فخرجت من عندها ولم أعد. . .

٩ - ● - قال: قال لي عبد الله بن جعفر: قال لي بعض بني هاشم: إنه رأى جارية لبعض ابن عمه، كأنها فلقة القمر تحت عبد أسود كالليل الدامس، وهي تقول له: يا سيدي، رأيت يومك ولا سمعت بفقدك. . .

قال: فقلت لها: فلانة. . . قالت: نعم يا فلان، ولكن حال سروري / ١٥١ أ
بمن ترى عن التفكير في ضرب المولى، وغدر أهل الدنيا، فما التفت إلى شيء من الحياء. . . وبكت. . . فقلت: يا زانية، تتباكين وتخضعين، أما تخافين الله. . .؟ . . . قالت: لا، لأنه جعلني أناك وجعله ينيك، وأوهب لي فأحسن، ووافق ما منحني من هذه الشهوة. . . فعجبت من حسن احتجاجها، وجودة معانيها، فما تزيد وهي على تلك الحال. . .

* * *

وكان الفراغ من نسخ هذا الكتاب في ختام شهر
شوال سنة (١٠١٧ هـ) ألف وسبعة عشر على
يد الفقير إلى رحمة الله، محمد بن أحمد
الصالحى، غفر الله له ولوالديه وللمن قرأه
وترحم عليه، وصلى الله على محمد وعلى
آل سيدنا محمد وسلم ورضي الله عن
أصحاب رسول الله أجمعين

الفهرس

٧	مقدمة المحقق
---	--------------------

كتاب

اقتلاء الأختيار بالنساء الأشرار

١٧	مقدمة المؤلف
١٩	قصيدة
٢٤	وصايا
٥٠	قصة آدم عليه السلام
٥٤	ذكر البكائين
٥٥	ذكر من خلق مختوناً
٥٦	ذكر تاريخ الأنبياء عليهم السلام
٥٧	قصة قابيل وهابيل
٦٣	قصة هاروت وماروت
٦٨	قصة نوح عليه السلام
٧٣	قصة إبراهيم الخليل عليه السلام

٨٤	قصة صالح عليه السلام
٩١	ذكر الموجب لقتل حمزة رضي الله عنه
١٠١	قصة ذو القرنين
١٠٥	قصة لوط عليه السلام
١١١	قصة جذيمة والزباء
١١٥	قصة يوسف عليه السلام
١٢٧	قصة يونس عليه السلام
١٣٥	قصة قارون
١٤١	قصة بعلم بن باعور
١٤٦	قصة الزاهد والبسوس
١٤٨	قصص متفرقة
١٥٠	قصة داود عليه السلام
١٥٨	قصص متفرقة
١٦٦	قصة سليمان عليه السلام
١٧١	قصة يحيى عليه السلام
١٧٦	قصة خراب بيت المقدس
١٨٤	قصة شمشمون
١٨٦	قصة جريج الراهب
١٨٨	ذكر من تكلم في المهد صبياً
١٩١	قصة الزباء ودير الزبيب
١٩٣	ذكر أجواد الجاهلية الذي انتمى إليهم الجود
١٩٧	قصة برصيص العابد
٢٠١	متفرقات في مكر النساء
٢٠٦	قصة إسحاق عليه السلام
٢٠٨	قصص متفرقة
٢١١	قصة الموءودة

٢١٣	ذكر السبب الموجب لقتل البنات
٢١٥	قصة طالوت
٢٣٦	قصة حمالة الخطب
٢٣٨	قصة أبو طالب
٢٤١	قصة إنا زوجناك
٢٤٦	ذكر أزواجه ﷺ
٢٥١	قصة علي بن أبي طالب رضي الله عنه
٢٦٢	قصة الحسن بن علي رضي الله عنه
٢٦٥	قصة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه
٢٦٨	قصص في نكث العهود
٢٧٤	قصة عبد الله بن رواحة رضي الله عنه
٢٧٥	قصص في شكوى النساء
٢٨٦	قصص المحافظين والعابدين والزهاد
٢٩٨	قصص متفرقة
٣٠١	قصص المرتدين
٣٠٦	قصص القضاة
٣٢١	طرائف وحكم في النساء
٣٣٤	وصايا وأمثال
٣٣٩	قصص متفرقة في الحيل
٣٤٤	قصص متفرقة في المكر والدهاء
٣٥٦	خاتمة الكتاب
٣٥٧	الفهرس